فصول من العقائد الإسلامية

تنوير التأسيس

شرح أركان الإيمان العظام

[الملائكة - الكتب - الأنبياء - اليوم الآخر]

للإمام عبد الحميد بن باديس [ت ١٣٥٩هـ]

رحمه الله ونفع بعلومه الأنام

لفضيلة الشيخ

أبي عبد المعز محمد علي فركوس

أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر (١)

دار الموقع

دار العواصم للنشر و التوزيع

تَنْوِيرُ التَّأْسِيسِ

شَرْحُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ الْعِظَامِ

[الملائكة - الكتب - الأنبياء - اليوم الآخر]

لِلْإِمَامِ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ بَادِيسَ [ت ١٣٥٩هـ]

رحمه الله ونفع بعلومه الأنام

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إنَّ الحمد لله نحمده ونَسْتعينه ونَسْتغفِرُه، ونعوذ بالله مِنْ شرورِ أَنْفُسِنا، ومِنْ سيِّئات أعمالِنا، مَنْ يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ له، وأشهدُ أَنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

وبعد:

فإنَّ أَصْدَقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثاتُها، وكُلَّ مُحْدَثةٍ بدعةٌ، وكُلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكُلَّ ضلالةٍ في النار.

فمِنْ خلالِ أبوابِ العقيدة الإسلامية وفصولها التي تَناوَلها الشيخ عبد الحميد ابنُ باديس رحمه الله بالبيان والإيجاز اتَّضح فيها المنهجُ التوقيفيُّ في تقريرِ مسائل الاعتقاد بالتسليم المطلق للنصوص الشرعية مِنَ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، فلم يردَّ منها شيئًا، ولم يعارضها بشيءٍ، ولا تَجاوَزها إلى إعمالِ رأيٍ أو

قياسٍ أو ذوقٍ، كما هو سبيلُ أهلِ السنَّة والجماعة الذين الْتزموا قولَه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١﴾ [الحُجُرات]، وقد عَمِل على بيان درجات الدين: مِنَ الإسلام ثمَّ الإيمان ثمَّ الإحسان، مبنيًّا على أسئلةِ جبريلَ عليه السلام للنبيِّ ﷺ عن هذه المراتبِ والدرجات في حديثٍ اشتمل على جميعِ وظائف العبادات الظاهرة والباطنة مِنْ عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفُّظ مِنْ آفات الأعمال.

ثمَّ عرَّج الشيخ رحمه الله على أصول الإيمان، فابتدأ بأصل الأصول، وهو الإيمان بالله ومعرفةُ أسمائه الحسنى وصِفَاتِه العليا، الذي يُعَدُّ أساسَ بناءِ الحياة الروحية، ومحورَ الحياة الطيِّبة، ومركز عُلُوِّ الهمَّةِ في طلبِ معالي الأمور وأشرافها، وتركِ محقَّرات الأعمال وسفسافها.

ثمَّ تَناوَل المصنِّفُ رحمه الله التوحيدَ الخالص الذي هو أصلُ دِينِ الإسلام وحقيقتُه؛ إذ إنَّ أصله أَنْ لا يُعْبَدَ إلَّا اللهُ، وأَنْ لا يُعْبَدَ إلَّا بما شَرَعَ؛ فهو أساسُ شهادةِ التوحيد ومَبْنَى شهادةِ الحقِّ المُتمثِّلةِ في: «شهادةِ أَنْ لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمَّدًا رسولُ الله» علمًا وقولًا وعملًا؛ فهي أوَّلُ واجبٍ للدخول في الإسلام وآخِرُه، وبها تُعْصَمُ الدماءُ والأموال، وبها النجاةُ مِنَ النار، وبجَحْدِها يكون العبدُ مِنَ المُشْرِكين الضالِّين الهالكين.

فاللهُ سبحانه خَلَقَ الإنسانَ وجَعَلَهُ مُؤهَّلًا لقَبولِ الحقِّ ومحبَّته، وهيَّأهُ لاتِّباعِ التوحيد بما أَوْدَعَ فيه مِنْ فطرةٍ سليمةٍ وعَقْلٍ صحيحٍ؛ فصانَ فِطْرَتَه وقوَّاها بإرسالِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ، وجَعَلَ الحجَّةَ قائمةً على الخَلْق بهم؛ فأَكْمَلوا لهم فِطْرَتَهم ونمَّوْها، وأزالوا الشوائبَ عنها والشُّبُهاتِ، وفصَّلوا ما أُجْمِلَ فيها كما أَخْبَرَ اللهُ

تعالى عن ذلك بقوله: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥]؛ لذلك كان أساسُ التوحيدِ وعمودُه وجِماعُه هو معرفةَ شهادةِ الحقِّ المتضمِّنةِ للعبودية لله تعالى ونَفْيِها عمَّا سِواهُ.

وضِمْنَ هذا المعنى بيَّن الشيخُ عبد الحميد بنُ باديس رحمه الله ـ في فصولٍ سابقةٍ ـ التوحيدَ بِقِسْمَيْه: العلميِّ والعمليِّ على غِرارِ ما بيَّنه أهلُ السنَّة، وهُمْ ـ وإنْ تَنوَّعَتْ عباراتُهم في ذِكْرِ أنواعِ التوحيد ـ إلَّا أنَّ قسمة الشيخ ابنِ باديس رحمه الله لا تخرج عنها في مَعْناها ومُحْتواها.

فقَدْ تَعرَّضَ الشيخ عبد الحميد بنُ باديس رحمه الله إلى التوحيد العلميِّ المتمثِّلِ في توحيد الربوبية، وهو الإقرارُ بأنَّ الله تعالى وَحْدَهُ لا شريكَ له، الخالقُ لكُلِّ المخلوقات العلوية والسفلية والمرئيَّة والخفيَّة وغيرِها، والاعترافُ بأنه سبحانه وَحْدَه المتصرِّفُ في هذا الكون، لا يخرج شيءٌ عن ربوبيَّته، ولا يَسْتقِلُّ شيءٌ سِواهُ بإحداثِ أمرٍ مِنَ الأمور، بل ما شاءَ اللهُ كان وما لم يَشَأْ لم يكن، علمًا أنَّ المُصنِّفَ رحمه الله قد سَبَقَ وأَنْ تَعرَّضَ إلى أَجَلِّ أبواب التوحيد وأَعْظَمِها قَدْرًا وهو توحيدُ الأسماءِ والصفات؛ لارتباطِه بالله عزَّ وجلَّ في ذاته وأسمائه وصِفاته، وهو أَحَدُ قِسْمَيِ التوحيد العلميِّ؛ حيث بيَّن فيه عقيدةَ أهلِ السنَّة القائمةَ على أصلين راسخَيْن وهُمَا: إثباتٌ بلا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ أوَّلًا، وتنزيهٌ بلا تحريفٍ ولا تعطيلٍ ثانيًا.

ثمَّ تَناوَلَ الشيخ ابنُ باديس رحمه الله رُكنَ الإيمان بالقَـدَر بأدقِّ عبارةٍ وأوجزِها، فقدَّم رتبتَه على بقيَّةِ الأركان الأخرى، وجَعَلَه ممَّا يلي مرتبةَ الإيمان بالله ـ تعالى ـ مُراعاةً لتَعَلُّقِه به ـ سبحانه ـ؛ إذ القَدَرُ سرٌّ استأثر اللهُ به، وعِلْمٌ حَجَبَه عمَّنْ سِواهُ مِنْ خَلْقه؛ ولِمَا في موضوع القَدَرِ مِنْ صِلَةٍ وثيقةٍ بالتوحيد بقسمَيْهِ العلميِّ

والعمليِّ، وما يَتفرَّعُ عنه مِنْ صُوَرٍ مُتعدِّدةٍ لوحدانية الله في ربوبيته وألوهيته؛ فقَدْ رُوِي عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قولُه: «القَدَرُ نِظَامُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ كَانَ كُفْرُهُ بِالْقَضَاءِ نَقْضًا لِلتَّوْحِيدِ، وَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَآمَنَ بِالقَدَرِ كَانَ العُرْوَةَ الوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا» [أخرجه اللَّالكائيُّ في «شرح اعتقاد أهل السنَّة» (٤/ ٦٨٩، ٧٤٢)، وابنُ بطَّة في «الإبانة» (٢/ ٢٣٤)، والآجُرِّيُّ في «الشريعة» (٢١٠)]؛ ولأنَّ في الإيمانِ بالقَدَرِ تحقيقًا للعبودية لله واستشعارًا لعظمته وقدرتِه ـ سبحانه وتعالى ـ.

هذا، وقد بيَّن المصنِّفُ رحمه الله عقيدةَ أهل السنَّة والجماعة في وجوب الإيمان بالقَدَر، وأنَّ الأمور كُلَّها: خَيْرَها وشَرَّها، نَفْعَها وضَرَّها، حُلْوَها ومُرَّها، تجري بقضاءِ اللهِ وقَدَرِه، وأنَّ ما شاءَ اللهُ كان وما لم يَشَأْ لم يكن، وأنَّ الله خالِقُ كُلِّ صانعٍ وصَنْعتِه، وأنه ـ سبحانه ـ عَلِمَ ـ أَزَلًا ـ ما الخَلْقُ عاملون، وأنه كَتَبَ مَقاديرَ الخلائقِ قبل خَلْقِ السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنةٍ، فخَلَقَ مَنْ شاءَ للسعادة واستعمله لها فضلًا، وخَلَقَ مَنْ شاءَ للشقاوة واستعمله لها عدلًا، وأنه لا مانِعَ لِمَا أعطى، ولا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعَ.

ثمَّ أَفْصَحَ رحمه الله عمَّا عليه أهلُ السنَّةِ مِنْ أنَّ الإيمان بالقَدَرِ لا يتمُّ إلَّا بتحقيقِ مَراتِبِه، ويأتي في طليعتها: مرتبةُ **العلمِ السابق**، وهي الإيمانُ بأنَّ اللهَ قد عَلِمَ الأشياءَ كُلَّها قبل كونها، والإيمانُ بما كَتَبَه اللهُ مِنْ مَقاديرِ الأشياءِ كُلِّها في اللوح المحفوظ قبل وجودها وحدوثها، مع التنبيهِ على أنَّ القَدَرَ السابقَ لا يمنع العملَ ولا يُوجِبُ الاتِّكالَ، هذا مِنْ جهةٍ، وأنه ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ لا يجوز الاحتجاجُ به على تركِ العملِ ولا على مُخالَفةِ الشرع، مُؤكِّدًا بأنَّ الأخذ بالأسبابِ لا يُنافي الإيمانَ بسَبْقِ قَدَرِ اللهِ وأنه لا يكون إلَّا ما قدَّره منها، ثمَّ خَتَمَ المصنِّفُ رحمه الله عقيدةَ القَدَرِ ـ عند أهل

السنَّة ـ بإثباتِ حكمة اللهِ في خَلْقِه وأَمْرِه على ما دلَّ عليه الكتابُ والسنَّةُ في مَواضِعَ عديدةٍ لا تكادُ تُحصى.

وخَتَم رسالتَه العقدية ببقيَّة الأركان عقائدِ الإيمان الأخرى، وهي:

ـ الإيمان بالملائكة عليهم السلام، حيث بيَّن حقيقتَهم وصِفاتِهم وأعمالَهُم، ووجوبَ الإيمان بهم، بالإقرار بوجودهم على وجه الحقيقة، وإنزالِهم منازلَهُم التي أنزلهم اللهُ، وأنهم ـ كسائر خَلْقه ـ مأمورون ومكلَّفون، والإقرار ـ أيضًا ـ بما ثَبَت في حقِّهم في الكتاب والسنَّة.

ـ الإيمان بكُتُب اللهِ تعالى المنزلة على أنبيائه ورُسُلِه، وأنها كلامُ اللهِ الذي أوحاه إلى رُسُله ليبلغوا عنه شَرْعَه ودِينَه إلى عباده بالحقِّ المبين، وأنَّ الله حَفِظ القرآنَ مِنَ الزيادةِ والنقص والتحريف والتبديل دون غيرِه مِنَ الكُتُب؛ فكان القرآنُ الكريمُ هو الهدايةَ العامَّة للبشر، المُبيِّنَ لكُلِّ ما تتوقَّف عليه سعادتُهم الدنيويةُ والأخروية، مقرِّرًا ـ في ذلك ـ أنَّ الإيمان بالسنَّة إيمانٌ بالقرآن، وأنَّ علاقتها بالقرآن تكامليةٌ في التشريع والبيان.

ـ الإيمان بالرُّسُل عليهم السلام، والحكمة مِنْ بعثِهم، وصِفة اختيارهم، وأنَّ الرسالة منحةٌ إلهيةٌ وهِبَةٌ خاصَّةٌ لا تُنالُ بالتشهِّي والرغبة، وإنما يختصُّ بها اللهُ تعالى ويَهَبُها مَنْ أهَّله سبحانه مِنْ عباده المؤمنين، وهي ضرورةٌ مِنْ ضروراتِ حياة العبد؛ فلا غِنَى عنها بحالٍ، وأنَّ الرُّسُلَ هم حجَّةُ اللهِ وشهودُه، خصَّهم بمزايا وفضائلَ ليتمكَّنوا مِنَ القيام بأعباء الرسالة ويقوَوْا على ما تحويه مَهمَّتُهم الربَّانية في التبليغ والدعوة، وأيَّدهم بالبيِّنات والمعجزات الدالَّة على صِدْقِهم حتَّى لا يبقى عذرٌ لأحَدٍ في تكذيبهم والخروجِ عن طاعتهم، وهم عليهم السلام ـ على عُلُوِّ مرتبتهم ـ

لا يمتازون عن الخَلْق في تمامِ عبوديتهم بافتقارهم إلى الله وجريانِ قَدَرِه عليهم، وعدمِ مِلْكِهم شيئًا معه مِنَ التصرُّف في مُلْكه، وعدمِ علمِهم الغيبَ إلَّا ما علَّمهم اللهُ، مع وجوب التأدُّب معهم فيما عُوتِبُوا عليه واستغفروا منه، وقد خَتَم اللهُ الرسالةَ بمحمَّدٍ ﷺ واختصَّه عن غيره مِنَ الرُّسُل والأنبياء بخصائصَ جمَّةٍ ومراتبَ عاليةٍ ومكارِمَ عدَّةٍ نال بها التفضيلَ المطلق على العالَمِين، وجَعَل اللهُ له آيةً علميةً وحجَّةً عقليةً ومعجزةً خالدةً يخضع لها كُلُّ مَنْ سَمِعها ويهتدي بها كُلُّ مَنْ فَهِمها، ولا يستطيع معارضتَها مَنْ يُعارِضها لا في لفظها ولا في أسلوبها وبيانها، وهي كتابُه، وقد تَعهَّد اللهُ بحفظه إلى أَنْ يرفعه إليه، روحًا محفوظًا تحيا به القلوبُ، وتسمو به النفوسُ والأرواح، وتنتظم به مصالحُ الدنيا والدين.

ـ الإيمان باليوم الآخر، وأراد به المصنِّف رحمه الله :

أوَّلًا: الإيمانَ بانتهاء الوجود الدنيويِّ وفَناءِ الحياة كُلِّيَّةً بجميع عوالمها.

ثانيًا: والإيمانَ بحدوث الوجود الأخرويِّ المتمثِّل في الإقبال على الآخرة وابتدائها، وهو المعاد الجسمانيُّ الذي يبعث اللهُ فيه عِبادَه يومَ القيامة إلى الموقف الأعظم، حيث يجري القضاءُ الإلهي، وتُعْطى الكُتُبُ التي يدور الحسابُ على محتوياتها، وتحصر الأعمال جميعها وتخضع لموازين العدل ذاتِ الدقَّةِ المتناهية، ويتبعه المرورُ على الصراط المضروب على ظهرِ جهنَّمَ، فينجو فيه أهلُ الجنَّة وينتهون إليها، ويسقط منه في النارِ أهلُ النار.

والإيمان بأنَّ الله خَلَق النارَ دارَ عذابٍ وخلودٍ لِمَنْ كَفَر، ودارَ عذابٍ إلى أجلٍ لِمَنْ رجحَتْ سيِّئاتُهم على حسناتهم مِنْ أهل التوحيد فاستحقُّوا العذابَ.

والإيمان بأنَّ الله خَلَق الجنَّةَ دارَ نعيمٍ وخلودٍ للمؤمنين جزاءً على إيمانهم وعملِهم الصالح، وحرَّمها على الكافرين، وخَتَم المصنِّفُ رحمه الله جميعَ فصولِ رسالته بدار النعيم والحمدلة؛ تفاؤلًا بحُسْنِ الخاتمة والرجاءِ في عفو الله ورِضاهُ عنه والفوزِ بالنعيم المُقيم في الجنَّة، وما أعدَّه اللهُ فيها للأبرار مِنْ خيراتٍ حِسانٍ أعظمُها رؤيةُ الله تعالى التي هي أسمى غايات المسلم وأقصى أمانيِّه.

وهكذا جاءَتْ فصولُ رسالةِ ابنِ باديس رحمه الله العقدية مدعَّمةً بالنصوص الشرعية مِنَ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ومُشتمِلةً على ما يجب على المكلَّفِ اعتقادُه والإيمانُ به، وما ينبغي أَنْ يكون شعارُه، مشيرًا إلى أطراف أدلَّتِه على وجه الاختصار والإيجاز.

وقد استقى الشيخُ عبدُ الحميد بنُ باديس رحمه الله مَنابعَ استدلاله في كتابه: «العقائد الإسلامية» مِنَ المصدرِ القرآنيِّ والحديثيِّ، واتَّخذ وسيلتَها للكشف عن حقيقة المعرفة بالله تعالى، والتي يرجع مَسْلَكُها إلى جهتين:

الأولى: مُخاطَبةُ العقلِ وإيقاظُه، وتوظيفُه في التأمُّل والنظر والتفكير؛ لِيُدْرِكَ به سُنَنَ الكونِ وحقائقَ الأشياءِ وعِلَلَ الوجود؛ ليتعرَّفَ ـ مِنْ خلالِ عَقْلِه المُتأمِّلِ وتفكيرِه المُعمَّقِ ـ مَظاهِرَ وحدانية الله تعالى وعَظَمتِه، وأَدِلَّةَ ربوبيته وقدسيته، واستحقاقَه الإخلاصَ المُطْلَقَ في دِينِه وعبوديته.

والثانية: وسيلة الأسماءِ والصفات التي تَعرَّفَ اللهُ بها إلى خَلْقه، والتي تُحرِّكُ فيهم الوجدانَ وتَفْتَحُ أمامَهم مجالًا واسعًا للتعرُّف على صفات الجمال والجلال، وعلى شمولِ عِلْمِه، ونفوذِ قدرته، وتَفَرُّدِه بالخَلْقِ والإبداع، واستحقاقِه الألوهيةَ المُطْلَقةَ والعبوديةَ الخالصة.

ويتجلَّى ـ مِنْ خلالِ نَفَسِ الشيخ ابنِ باديس رحمه الله ـ عنايتُه بهذه الجوانبِ العَقَدية؛ لتعريفِ أُمَّته بعقيدتهم الإسلاميةِ الصحيحة الثابتةِ بالكتاب والسُّنَّة، والتي كان عليها أهلُ بلادِه سَلَفًا قبل عدولِ بعضِ الخلف عن نَهْجِ الفطرةِ إلى مَدارِسَ عَقَدِيةٍ مُخْتلِفةٍ، انتشرَتْ على إثرِ الخلافات والصراعات السياسية والحروبِ عبر تاريخ الجزائر، والتي مزَّقَتِ الشملَ والتلاحم، ووسَّعَتِ الهوَّةَ بين الأُمَّةِ الواحدة، كما ظَهَرَ نَفَسُ الشيخِ ابنِ باديس رحمه الله ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ في إعدادِ العُدَّةِ الإيمانية لمُواجَهةِ التيَّارات الإلحادية التي كانَتْ في عصرِه ولا تَزالُ، سواءٌ مِنَ الفِرَق والأحزاب والشخصيات، أو ممَّنْ تأثَّروا بشُبَهِهم الضالَّةِ المُتوارِدةِ على وحدانية الله ووجوهِ كمالِه.

وقد رأيتُ مِنَ الواجب إتمامَ الأركان المتبقِّيةِ مِنَ الإيمان بالملائكة والكُتُبِ والرُّسُل واليوم الآخِرِ عند الشيخ عبد الحميد بنِ باديس رحمه الله بفصولها وما تَفَرَّعَ مِنْ مَسَائِلَ مُتعلِّقةٍ بها مِنْ خلالِ كتابه: «العقائد الإسلامية مِنَ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»؛ فأَتَعرَّضُ لهذا الجانبِ العَقَديِّ بالشرح والمزيد مِنَ التعليق على بعضِ مَسَائِلِ الموضوعات التي تدعو الحاجةُ فيها إلى البيان، كما أنِّي استبقَيْتُ على العناوينِ الفرعيةِ المُثْبَتةِ على «العقائد الإسلامية» لكُلٍّ مِنَ الأستاذ: محمَّد صالح رمضان، والأستاذ: محمَّد الحسن فضلاء، وأضفتُ إليها عناوينَ فرعيةً أخرى إذا اقتضى الأمرُ واحتاج المَقامُ إلى ذلك، ووضَعْتُ العناوينَ الفرعية بين معكوفتين ترتيبًا للمعلومات وتفصيلًا للمَسائِلِ كما وضعتُ جدولَ رموز النُّسَخ المُعتمَدة التي قابلتُ بينها في الصفحة المواليةِ لهذه المقدِّمة؛ إتمامًا للفائدة العلمية وتعميمًا للخير، وقد سمَّيْتُ شرحي بـ:

«تنوير التأسيس

شرح أركان الإيمان العِظام

[الملائكة - الكُتُب - الأنبياء - اليوم الآخِر]

للإمام عبد الحميد بنِ باديس رَحِمَهُ اللَّهُ».

فأَنَتْ جملةُ عقيدةِ الإيمانِ بالأصول الأربعة للإمام ابنِ باديس رَحِمَهُ اللَّهُ مُنْتَظِمةً في أبوابٍ وفصولٍ على النَّسَقِ التالي:

* باب الإيمان بالملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ

[فصل: بيانُ حقيقةِ الملائكة وصِفَاتِهم وأعمالهم]

* باب الإيمان بكُتُبِ الله تعالى

[فصل: معنى الإيمان بالكُتُب المنزلة ومقتضَياتُه]

[فصل: حفظُ اللهِ القرآنَ دون غيره]

[فصل: القرآن هو الهداية العامَّة للبشر]

[فصل: الإيمان بالسُّنَّة إيمانٌ بالقرآن]

* باب عقائد الإيمان بالرُّسُل عليهم الصلاةُ والسلام

[فصل: الحكمة مِنْ بعثِ الرُّسُل وصفةُ اختيارهم]

[فصل: الرُّسُل حجَّةُ الله]

[فصل: تأييدُ اللهِ لهم بالبيِّناتِ والآيات]

[فصل: تمامُ عبوديَّتِهم مع عُلُوِّ مَرْتبتِهم]

[فصل: وجوبُ تأدُّبِنا معهم فيما عُوتِبوا عليه واستغفَروا منه]

[فصل: ختمُ اللهِ الرسالةَ بمحمَّدٍ ﷺ]

❊ باب عقائد الإيمان باليوم الآخِر

[فصل: انتهاء الوجود الدنيوي وحدوثُ الوجود الأخروي]

[فصل: المعاد والبعث]

[فصل: وزن الأعمالِ والجزاءُ عليها]

[فصل: الصراط]

[فصل: دار العذاب]

[فصل: دار النعيم]

وقد ختمتُ الرسالةَ بفهرسٍ مُفصَّلٍ للموضوعات.

أسألُ اللهَ تعالى أَنْ ينفع به مُصنِّفَه وشارِحَه ومُصحِّحَه ومُراجِعَه وقارِئَه، إنه سميعٌ مُجيبٌ، وآخِرُ دعوانا أَنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين، وصلَّى اللهُ على نبيِّنا محمَّدٍ إمامِ المُرْسَلين، وخاتمِ النبيِّين، وشفيعِ المُذْنِبين، وعلى آله وأزواجه وذُرِّيَّتِه الطيِّبين الطاهرين، وصَحْبِه الراشدين، وإخوانه المهديِّين إلى يوم الدِّين، وسلَّم تسليمًا.

الجزائر في: ١٤ ذي القعدة ١٤٣٧هـ

الموافق لـ: ١٨ أغسطس ٢٠١٦م

جدول رموز النسخ المعتمدة في المقابلة

النسخة	الرمز
نسخةُ: محمَّد الصالح رمضان رحمه الله بطبعاتِها الثلاث.	«م.ر»
• الطبعةُ الأولى مِنْ نسخة: محمَّد الصالح رمضان رحمه الله، دار الكتاب الجزائري، مطابع الكيلاني ـ القاهرة، (١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م).	«م.ر.أ»
• الطبعةُ الثانية مِنْ نسخة: محمَّد الصالح رمضان رحمه الله، مكتبة الشركة الجزائرية بباب عزُّون، لبنان، (١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٦م).	«م.ر.ب»
• الطبعة الأولى لدار الفتح بالشارقة مِنْ نسخة: محمَّد الصالح رمضان رحمه الله، (١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م).	«م.ر.ش»
نسخة محمَّد الحسن فضلاء رحمه الله، (١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م).	«م.ف»

ترجمة الشيخ
عبد الحميد بن باديس رحمه الله

هو الإمام المُصْلِحُ المُجدِّدُ الشيخُ عبدُ الحميد بنُ محمَّد المصطفى بنِ المكِّي ابنِ باديسَ القسنطينيُّ الجزائريُّ، رئيسُ جمعيةِ العُلَماءِ المسلمين بالجزائر، ورائدُ النهضةِ الفكرية والإصلاحية، والقدوةُ الروحيةُ لحربِ التحرير الجزائرية.

وُلِد بقسنطينة سنة: (١٣٠٧هـ) وَسَط أسرةٍ مِنْ أكْبَرِ الأُسَرِ القسنطينية، مشهورةٍ بالعلم والفضل والثراء والجاه، عريقةٍ في التاريخ، يَمْتَدُّ نَسَبُها إلى المُعِزِّ بنِ باديس الصنهاجيِّ؛ فهو في مُقابِلِ اعتزازِه بالعروبة والإسلام لم يُخْفِ أصلَه الأمازيغيَّ، بل كان يُبْدِيهِ ويُعْلِنُه، ولعلَّ مِنْ دواعي الافتخارِ به قيامَ سَلَفِه بما يحفظ الدِّينَ ويصون الشريعةَ؛ فقَدْ كان جَدُّه الأوَّلُ يُناضِلُ الإسماعيليةَ الباطنية وبِدَعَ الشيعةِ في إفريقيَّة؛ فصارَ خَلَفًا له في مُقاوَمةِ التقليد والبِدَعِ والحوادث، ومُحارَبةِ الضلالِ والشركيَّات.

وقد أَتَمَّ حِفْظَ القرآنِ الكريم في أوَّلِ مَراحِلِ تَعَلُّمِه بقسنطينةَ في السنةِ الثالثةَ عَشَرَ مِنْ عُمُرِه على يد الشيخ «محمَّد المَدَّاسي»، وقُدِّمَ لصلاةِ التراويح بالناس على صِغَرِه، وأَخَذَ مَبادِئَ العربيةِ ومَبادِئَ الإسلام على يد شيخه: «حَمدان لُونِيسي»، وقد أَثَّرَ فيه القرآنُ الكريمُ وهزَّ كِيانَه، ليُكرِّسَ فيه بعد ذلك رُبُعَ قرنٍ مِنْ حياتِه في السعي لإرجاعِ الأمَّةِ الجزائرية إلى هذا المَصْدَرِ والنبعِ الربَّانيِّ بما يحمله مِنْ دعوةٍ

توحيديةٍ وهدايةٍ أخلاقيةٍ، وهو طريقُ الإصلاحِ والنهوضِ الحضاريِّ.

وفي سنة: (١٣٢٦هـ) الْتَحَق الشيخُ عبد الحميد بجامعِ الزيتونة بتونس، فأخَذَ عن جماعةٍ مِنْ كِبارِ عُلَمائها الأَجِلَّاء، وفي طليعتهم زعيمُ النهضةِ الفكرية والإصلاحية في الحاضرة التونسية العلَّامةُ: «محمَّد النخلي القيرواني» المتوفَّى سنة: (١٣٤٢هـ)، والشيخ: «محمَّد الطاهر بن عاشور» المتوفَّى سنة: (١٣٩٣هـ)، فضلًا عن مُرَبِّينَ آخَرين مِنَ المَشايخِ الذين كان لهم تأثيرٌ في نُمُوِّ استعداده، وتَعهَّدوهُ بالتوجيه والتكوين كـ: البشير صفر، وسعد العيَّاض السطايفي، ومحمَّد ابن القاضي وغيرِهم، وقد يسَّر اللهُ له في هذه الفترةِ الاطِّلاعَ على العلوم الحديثة، وعلى ما يَجْري في البلدان العربية والإسلامية مِنَ التغيُّرات السياسية والتحوُّلات الدينية مثل: حركة «جمال الدين الأفغاني»[1] و«محمَّد عَبْدُه»[2] و«محمَّد رشيد

---

(١) هو جمال الدين محمَّدُ بنُ صفدر بنِ عليِّ بنِ محمَّدٍ الحُسَيْنيُّ الشيعيُّ الأفغانيُّ، كان واسِعَ الاطِّلاعِ في العلوم العقلية والنقلية، له رحلاتٌ طويلةٌ، نُصِّبَ عضوًا في مجلس المَعارِف، نَفَتْهُ الحكومةُ المصرية، ورُمِيَ بالانحراف في الدِّينِ وتسخيرِه لخدمةِ أعداءِ الإسلام ومُؤاخَذاتٍ أخرى، حيث كان رئيسًا لمَحْفَلِ «كوكب الشرق» الماسونيِّ، وفي باريس أَنْشَأَ مع رفيقه محمَّد عَبْدُه المصريِّ مَجَلَّةَ «العُرْوة الوُثْقى»: اتَّسَمَتْ مَقالاتُها بتقريب الإسلام إلى الحضارة الغربية والتفكيرِ الغربيِّ الحديث، ولم تُعَمَّرْ طويلًا. مِنْ آثارِه: «تاريخ الأفغان». تُوُفِّيَ سنة: (١٣١٤هـ).

انظر ترجمته في: «مَشاهير الشرق» لزيدان (٢/ ٥٢)، «أعيان الشيعة» للعاملي (١٦/ ٣٣٦)، «أعلام الشيعة» لآغا بزرك (١/ ٣١٠)، «معجم المؤلِّفين» لكحالة (١/ ٥٠٢، ٣/ ٣٦٠)، «الاتِّجاهات الوطنية في الأدب المُعاصِر» لمحمَّد حسين (١/ ١٥٣، ٣٢٨).

(٢) هو محمَّد عَبْدُه بنُ خير الله المصريُّ مِنْ آل التركماني، فقيهٌ متكلِّمٌ كاتبٌ صحفيٌّ سياسيٌّ،=

رضا»(١) في مصر، ....

= له رحلاتٌ وأنْشأَ مَجَلَّةَ «العُرْوة الوُثْقى» مع جمال الدِّين الأفغانيِّ، عُيِّنَ قاضيًا ثمَّ مُفْتِيًا للدِّيار المصرية، وأُوخِذَ بانتهاجه ـ في نشاطه الدعويِّ ـ مَنْهَجَ التوفيقِ والتقارب بين الإسلام والحضارة الغربية، وغيرِها مِنَ المُؤاخَذات. مِنْ آثارِه: رسالةٌ في وَحْدَةِ الوجود، و«فلسفةُ الاجتماع والتاريخ»، و«شرحُ نَهْجِ البلاغة»، و«شرحُ البصائر النصيرية». تُوُفِّيَ سنة: (١٣٢٣هـ).

انظر ترجمته في: «مَشاهير الشرق» لزيدان (١/ ٢٨١)، «كنز الجوهر في تاريخ الأزهر» للزيَّاتي (١٦٤)، «الأعلام» للزركلي (٧/ ١٣١)، «معجم المؤلِّفين» لكحالة (٣/ ٤٧٤)، «الاتِّجاهات الوطنية في الأدب المُعاصِر» لمحمَّد حسين (٣٢٨).

(١) هو محمَّد رشيد بنُ علي رضا بنِ محمَّد القلموني، البغداديُّ الأصل، جَمَعَ علومًا كثيرةً منها: التفسيرُ والحديثُ والتاريخُ والأدبُ وغيرُها، لَحِقَ بمحمَّد عَبْدُه بمصر وأنْشأَ مَجَلَّةَ «المَنار»، وجَعَلَ موضوعَها الأوَّليَّ الإصلاحَ الدِّينيَّ، وقد انتشرَتْ مَجَلَّتُه في العالَمِ الإسلاميِّ، كما أَسَّسَ مدرسةَ الدعوةِ والإرشاد. له رحلاتٌ عديدةٌ استقرَّ آخِرَها بمصر، وانْتُخِبَ عضوًا بالمَجْمَعِ العلميِّ العربيِّ بدمشق، ورَغْمَ مكانتِه العلميةِ فعليه ـ مع الأسَفِ ـ جملةٌ مِنَ المُؤاخَذاتِ منها: تشكيكُه في أحاديثِ الدجَّال، وتشكيكُه في رَفْعِ عيسى بروحه وجَسَدِه، وطَعْنُه في مُعْجِزةِ انشقاقِ القمر، وطَعْنُه في كَعْبِ الأحبار، وتأييدُه لشيخه محمَّد عَبْدُه في جملةِ مُخالَفاتِه ومَواقِفِه.

لمحمَّد رشيد رضا تصانيفُ منها: تفسيرُ القرآن الكريم لم يُكْمِلْه، «الوحيُ المحمَّدي»، «الخلافةُ والإمامةُ الكبرى». تُوُفِّيَ بالقاهرة فجأةً سنة: (١٣٥٤هـ).

انظر ترجمته في: «الأعلام» للزركلي (٦/ ٣٦١)، «المُجدِّدون في الإسلام» للصعيدي (٥٣٩)، «معجم المؤلِّفين» لكحالة (٣/ ٢٩٣)، «خزائن الكُتُبِ العربية» للطرازي (١/ ٣٤٦)، «الأدب العصري» لمحمَّد سليمان (١٢٦).

و«شَكِيب أَرْسَلان»[١] و«الكواكبي»[٢] في الشام، وغيرهم؛ فكان لهذا المُحيطِ العلميِّ والبيئةِ الاجتماعية والمُلازَماتِ المُسْتَمِرَّةِ لرجال العلم والإصلاحِ الأثرُ البالغُ في تكوينِ شخصيَّته ومِنهاجِه في الحياة.

وبعد تخرُّجه وتأهيلِه بشهادةِ التطويع سنة: (١٣٣٠هـ) عادَ مِنْ تونس مُتأهِّبًا

---

(١) هو الأمير شكيب بنُ حمُّود بنِ الحسن أَرْسَلان اللبنانيُّ، كان أديبًا شاعرًا ومُؤرِّخًا سياسيًّا، أَتْقَنَ عِدَّةَ لُغاتٍ أجنبيةٍ، وانْتُخِبَ عضوًا بالمَجْمَعِ العلميِّ العربيِّ بدمشق، له رحلاتٌ كثيرةٌ تَعرَّفَ خلالَها على قياداتٍ سياسيةٍ وشخصياتٍ وطنيةٍ ودينيةٍ. أَلَّف عِدَّةَ مُصنَّفاتٍ منها: «لماذا تَأخَّرَ المسلمون؟»، و«حاضِرُ العالَمِ الإسلاميِّ»، و«الحُلَلُ السندسيةُ في الرحلة الأندلسية»، و«القولُ الفصلُ في رَدِّ العاميِّ إلى الأصل»، و«الارتسامات اللِّطافُ في خاطِرِ الحاجِّ إلى أَقْدَسِ مَطاف»، وديوانُ شعرٍ. تُوُفِّيَ ببيروت سنة: (١٣٦٦هـ).
انظر ترجمته في: «الأعلام» للزركلي (٣/ ٢٥١)، «نزهة الألباب» للعامري (٢١٥)، «معجم المؤلِّفين» لكحالة (١/ ٨١٨)، «رُوَّاد النهضة الحديثة» لعبُّود (١١٠).

(٢) هو عبد الرحمن بنُ أحمد البهائي بنِ مسعود بنِ عبد الرحمن آل الموقت، المشهورُ بالكواكبيِّ، نسبةً إلى الكواكبية مَدْرَسةِ أجدادِه، وهو مِنْ أَبْرَزِ رجالِ الدِّينِ والسياسة في زمانه، كان يُلَقَّبُ بالسيِّد الفُراتيِّ، تَوَلَّى في شبابِه تحريرَ جريدةِ «الفُرَات»، فكان هو المُحرِّرَ العربيَّ والمُتَرْجِمَ التركيَّ، وفي خلالِ خمسِ سنواتٍ مِنْ حياتها أَصْدَرَ جريدةَ «الشهباء» ثمَّ جريدةَ «الاعتدال» مُنِعَتَا حكوميًّا، تَوَلَّى مَنْصِبَ القضاءِ كما أُسْنِدَتْ إليه وظائفُ حكوميةٌ وإداريةٌ مُخْتَلِفةٌ. نَشَرَ في جريدةِ «المؤيَّد» مَقالاتِه في الاستبداد. له مُصنَّفاتٌ منها: «أمُّ القُرى»، «طبائعُ الاستبداد»، «صحائفُ قريش»، و«العظمةُ لله». تُوُفِّيَ بمصر سنة: (١٣٢٠هـ).
انظر ترجمته في: «معجم المؤلِّفين» لكحالة (٢/ ٧٢)، «مَشاهير الشرق» لزيدان (١/ ٣٢٢)، «رُوَّاد النهضة الحديثة» لعبُّود (٢٠١)، «الاتِّجاهات الوطنية في الأدب المُعاصِر» لمحمَّد حسين (٢٥٠)، «إيضاح المكنون» للبغدادي (٢/ ٧٧).

بطموحٍ قويٍّ للتفرُّغ للتدريس المُتمثِّلِ ـ في بدايته ـ في عَقْدِ حَلَقاتٍ دراسيةٍ بالجامع الكبير، غيرَ أنَّ صعوباتٍ واجَهَتْه في بدايةِ نشاطه العلميِّ حالَتْ دون تحقيقِ طموحِه وآمالِه.

وبعد طُولِ تأمُّلٍ رأى أنَّ مِنَ المُفيدِ ـ تزامنًا مع موسم الحجِّ ـ أَنْ يُؤَدِّيَ الفريضةَ مُغْتنِمًا الفرصةَ في رحلته المشرقية للاتِّصال بجماعةِ العُلَماءِ مِنْ مُخْتَلَفِ أنحاءِ العالَمِ الإسلاميِّ؛ الأمرُ الذي يَسْمَحُ له بالاحتكاك المُباشِرِ بهم وتَبَادُلِ الرأي معهم، والتعرُّفِ على مَواقِعِ الإصلاح الدينيِّ، فضلًا عن الاطِّلاع على حقيقةِ الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدةِ في المشرق العربيِّ. وفي أثناءِ وجوده بالحجاز حَضَرَ دروسَ العُلَماءِ الوافدين إلى هذه البِقاعِ المُقَدَّسةِ مِنْ مُخْتَلَفِ البلدان كالشيخ: «حسين الهندي» الذي نَصَحَهُ بالعودة إلى الجزائر لاحتياجها إلى عِلْمِه، وقد قدَّمه بعضُ الشيوخ الذين كانوا يعرفون مُسْتواهُ لإلقاءِ دروسٍ بالمسجد النبويِّ، وقد تَعرَّفَ على كثيرٍ مِنْ شبابِ العائلات الجزائرية المُهاجِرةِ، مثل: «محمَّد البشير الإبراهيمي» المتوفَّى سنة: (١٣٨٢هـ).

وقد استفاد الشيخ عبد الحميد بنُ باديس ـ رحمه الله تعالى ـ مِنْ مُخْتَلَفِ مَدارِسِ الإصلاح الدينيِّ بالمشرق التي ظهرَتْ في العالَمِ الإسلاميِّ على يد الشيخ «محمَّد بنِ عبد الوهَّاب»[1] المتوفَّى سنة: (١٢٠٦هـ)، والذين تَأَثَّروا بدعوته كالأمير

(١) هو محمَّد بنُ عبد الوهَّاب بنِ سليمان بنِ عليٍّ التميميُّ النجديُّ، الإمامُ المُصلِحُ والعلَّامةُ المُجدِّد، رائدُ النهضةِ العَقَديةِ في العصر الحديث، نَصَرَ السنَّةَ وقَمَعَ البدعةَ ودَعَا إلى التوحيدِ وتَرْكِ مَظاهِرِ الشركِ والوثنيةِ التي أصابَتْ حياةَ المسلمين العَقَدية. له مُصنَّفاتٌ منها: «كتابُ التوحيد»، و«أصولُ الإيمان»، و«ثلاثةُ الأصول»، و«مُخْتَصَرُ السيرةِ النبوية»، و«كَشْفُ=

الصنعانيّ المتوفَّى سنة: (١١٨٢هـ)، والإمام: «محمَّد بنِ عليّ الشوكانيّ» المتوفَّى سنة: (١٢٥٠هـ)، و«محمَّد رشيد رضا» المتوفَّى سنة: (١٣٥٤هـ) وغيرِهم. وليس التجديدُ والإصلاحُ الدينيُّ وليدَ العصرِ الحديث فحَسْبُ، وإنَّما يضربُ بجذوره في أغوار الماضي الإسلاميِّ العريق.

وبعد عودته إلى قسنطينة سنة: (١٣٣٢هـ) أَسْهَمَ في بَلْوَرَةِ الإصلاح الدينيِّ ميدانيًّا وتطبيقِ مَناهِجِه التربوية عمليًّا، وسَاعَدَهُ زُمَلاؤُه الأفاضلُ مِنَ العُلَماءِ الذين شَدُّوا عَضُدَه وقَوَّوْا زِنادَه؛ فكان تَعَاوُنُهم معه في هذه المَهَمَّةِ المُلْقاةِ على عاتِقِ الدُّعاةِ إلى الله تعالى منذ فجرِ النهضةِ دافعًا قويًّا وعاملًا فعَّالًا في انتشارِ دعوته وسُطُوعِ نَجْمِه وذُيوعِ صِيتِه، ومِنْ أمثالِ هؤلاء الذين آزَرُوهُ وسانَدُوهُ: الشيخُ العربي التبسِّي، والشيخ محمَّد البشير الإبراهيمي، والشيخ العُقْبِي، والشيخ مُبارَك الميلي وغيرُهم. كما ساعَدَهُ ـ أيضًا ـ الواقعُ الذي كانَتْ تمرُّ به الجزائرُ بين الحربين العالميَّتين: الأولى والثانية.

وقد شَرَعَ الإمامُ ابنُ باديس ـ رحمه الله تعالى ـ في العمل التربويِّ، وانتهج ـ في دعوته ـ مَنْهجًا يُوافِقُ الإصلاحَ الدينيَّ في البُعد والغاية، وإنْ كان له طابعٌ خاصٌّ في السلوك والعمل يقوم على ثلاثةِ محاوِرَ أساسيةٍ: يظهر أعلاها في إصلاح

= الشُّبهات». تُوُفِّيَ رحمه الله سنة: (١٢٠٦هـ).

انظر ترجمته في: «المجد في تاريخ نجد» لابن بشر (١/ ٨٩)، «عُلَماء نجد» للبسَّام (١/ ٢٥)، «عقيدة الشيخ محمَّد بنِ عبد الوهَّاب السلفية» للعبُّود (٦٥)، «منهج الإمام محمَّد بنِ عبد الوهَّاب في مسألة التكفير» للعقل (١٤)، «تعريف الخلف بمنهج السلف» للبريكان (٣٠١).

عقيدة الجزائريِّين بالدرجة الأولى، ببيانِ التوحيد الذي يُمثِّلُ عمودَ الدعوةِ السلفية وما يُضادُّهُ مِنَ الشرك؛ ذلك لأنَّ التوحيد هو غايةُ إيجادِ الخَلْقِ وإرسالِ الرُّسُل، ودعوةُ المُجدِّدين في كُلِّ العصور والأزمان؛ لذلك كانَتْ دعوتُه قائمةً على أَخْذِ العقيدةِ مِنَ الوحيين وعلى فَهْمِ الأوَّلِين، والتحذيرِ مِنَ الشرك ومَظاهِرِه، ومِنْ بدعةِ التقليد الأعمى، ومِنْ عِلْمِ الكلام وجنايتِه على الأُمَّة؛ ذلك لأنَّ مِنْ أَهَمِّ أسبابِ ضَياعِ التوحيدِ: ابتعادَ الناسِ عن الوحي، وفُشُوَّ عِلْمِ الكلام والخوض فيه، واتِّباعَ طُرُقِ أهلِه الضالَّةِ عن سواءِ السبيل، ومَرَضَ الجمودِ الفكريِّ والركونِ إلى التقليد، والزعمَ بأنَّ باب الاجتهادِ قد أُغْلِقَ في نهايةِ القرن الرابع، حيث قال رحمه الله: «كما أُدْخِلَتْ على مَذْهَبِ أهلِ العلمِ بدعةُ التقليدِ العامِّ الجامدِ التي أماتَتِ الأفكارَ وحالَتْ بين طُلَّاب العلم وبين السُّنَّة والكتاب، وصيَّرَتْهما ـ في زَعْمِ قومٍ ـ غيرَ مُحْتاجٍ إليهما مِنْ نهايةِ القرن الرابع إلى قيامِ الساعة، لا في فقهٍ ولا استنباطٍ ولا تشريعٍ، استغناءً عنهما ـ زعموا ـ بكُتُبِ الفروع مِنَ المتون والمُخْتَصَرات؛ فأَعْرَضَ الطُّلَّابُ عن التفقُّه في الكتاب والسُّنَّةِ وكُتُبِ الأئمَّة، وصارَتْ مَعانِيها الظاهرةُ ـ بَلْهَ الخفيَّة ـ مجهولةً حتَّى عند كِبارِ المُتصدِّرين»(١).

وقال ـ في مَعْرِضِ ذِكْرِ منهاج الخارجين عن منهاج السلف مِنَ المتكلِّمين والمتصوِّفة وغيرِهم ـ: «قلوبُنا مُعَرَّضةٌ لخطراتِ الوسواس بل للأوهام والشكوك؛ فالذي يُثَبِّتُها ويَدْفَعُ عنها الاضطرابَ ويربطها باليقين هو القرآنُ العظيم، ولقد ذَهَبَ قومٌ مع تشكيكاتِ الفلاسفةِ وفُروضِهم، ومُماحَكاتِ المتكلِّمين ومُناقَضاتِهم؛

(١) «الآثار» (٥/ ٣٨).

فما ازدادوا إلَّا شكًّا، وما ازدادَتْ قلوبُهم إلَّا مرضًا، حتَّى رَجَعَ كثيرٌ منهم في أواخِرِ أيَّامِهم إلى عقائدِ القرآن وأَدِلَّةِ القرآن؛ فشُفُوا بعدما كادوا كإمام الحرمين والفخر الرازيِّ»[١].

وفي مَقَامٍ آخَرَ ـ حالَ ترجمته للعلَّامة محمَّد رشيد رضا ـ يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: «دَعَاهُ شَغَفُه بكتابِ «الإحياء» إلى اقتناءِ شَرْحِه الجليل للإمام المرتضى الحُسَيْنِيِّ، فلمَّا طَالَعَهُ ورأى طريقتَه الأثرية في تخريجِ أحاديثِ «الإحياء»؛ فُتِحَ له بابُ الاشتغالِ بعلوم الحديث وكُتُبِ السُّنَّة، وتَخَلَّصَ مِمَّا في كتابِ «الإحياء» مِنَ الخطإِ الضارِّ ـ وهو قليلٌ ـ ولا سيَّما عقيدة الجبر والتأويلات الأشعرية والصوفية، والغلوّ في الزهد وبعضِ العبادات المُبْتَدَعة»[٢].

وقال ـ أيضًا ـ: «نحن ـ مَعْشَرَ المسلمين ـ قد كان مِنَّا للقرآنِ العظيمِ هجرٌ كثيرٌ في الزمان الطويل وإِنْ كنَّا به مؤمنين، بَسَطَ القرآنُ عقائدَ الإيمانِ كُلَّها بأَدِلَّتِها العقليةِ القريبةِ القاطعة، فهجَرْناها وقُلْنا: تلك أَدِلَّةٌ سمعيةٌ لا تُحَصِّلُ اليقينَ؛ فأَخَذْنا في الطرائقِ الكلاميةِ المُعقَّدة، وإشكالاتِها المُتعدِّدة، واصطلاحاتِها المُحْدَثة؛ مِمَّا يُصَعِّبُ أَمْرَها على الطلبةِ فضلًا عن العامَّة»[٣].

لذلك ظهَرَتْ عنايتُه الأكيدةُ بتربيةِ الجيلِ على القرآن وتعليمِ أصول الدِّين وعقائدِه مِنَ الآياتِ القرآنية والأحاديثِ النبوية؛ إذ كان هَمُّه تكوينَ رجالٍ قرآنيِّين

---

(١) «مجالس التذكير مِنْ كلام الحكيم الخبير» (٢٥٧).

(٢) «الآثار» (٣/ ٨٥).

(٣) «مجالس التذكير مِنْ كلام الحكيم الخبير» (٢٥٠).

يُوَجِّهون التاريخَ ويُغيِّرون الأُمَّةَ، وقد تَجَلَّى ذلك في بعضِ مَقالاتِه حيث يقول رحمه الله: «فإنَّنا ـ والحمدُ لله ـ نُرَبِّي تلامذتَنا على القرآن مِنْ أوَّلِ يومٍ، ونُوَجِّهُ نُفُوسَهم إلى القرآنِ في كُلِّ يومٍ...».

أمَّا المحور الثاني فيَتمثَّلُ في **إصلاحِ عقلية الجزائريِّين**، وذلك بإصلاحِ العقول بالتربية والتعليم؛ لتكوينِ أجيالٍ قائدةٍ في الجزائر، تعمل على بَعْثِ نهضةٍ شاملةٍ تخرج بها مِنْ حالةِ الجمود والركود إلى الحيوية والنشاط، وقد كان يرى أنَّ تحقيقَ هذه النهضةِ المنشودةِ يَتوقَّفُ ـ بالدرجة الأولى ـ على إصلاح الفرد الجزائريِّ وتكوينِه مِنَ الناحية الفكرية والنفسية.

والمحور الثالث يظهر في **إصلاح أخلاق الجزائريِّين**، ذلك الميدان الذي تَدَهْوَرَ كثيرًا نتيجةً لفسادِ العقول وفسادِ العقيدة الدينية، وقد كانَتْ عنايتُه به بَالِغةً بتطهيرِ باطنِ الفردِ الذي هو أساسُ الظاهر، وتهذيبِ النفوس وتزكيتها، وإنارةِ العقول، وتقويمِ الأعمال، وإصلاحِ العقيدة؛ حتَّى يعملَ الفردُ على تغييرِ ما بنَفْسه لكي يُغيِّرَ اللهُ ما به مِنْ سوءٍ وانحطاطٍ؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١].

هذا، وقد اعتبر الشيخُ عبد الحميد بنُ باديس أنَّ سبيلَ النجاةِ والنهوضِ يكمن في الرجوع إلى فِقْهِ الكتابِ والسُّنَّةِ وعلى فَهْمِ السلفِ الصالح؛ ذلك لأنَّ عُلَماءَ السلفِ إِنِ اتَّفقوا فاتِّفاقُهم حُجَّةٌ قاطعةٌ، وإِنِ اختلفوا فلا يجوز لأَحَدٍ أَنْ يخرج عن أقوالهم، وفي هذا المضمونِ يقول الشيخُ ابنُ باديس رحمه الله: «لا نجاةَ لنا مِنْ هذا التِّيهِ الذي نحن فيه، والعذابِ المُنَوَّعِ الذي نَذُوقُه ونُقاسِيهِ، إلَّا بالرجوع

إلى القرآن: إلى عِلْمِه وهَدْيه، وبناءِ العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقُّهِ فيه وفي السُّنَّةِ النبويةِ: شرحِه وبيانِه، والاستعانةِ على ذلك بإخلاصِ القصد، وصحَّةِ الفهم، والاعتضادِ بأنظار العُلَماءِ الراسخين، والاهتداءِ بهَدْيِهم في الفهم عن ربِّ العالَمِين»[١].

لذلك كان الإسلامُ بشموله ـ في نَظَرِه ـ أَوْسَعَ مِنْ أَنْ يُتَرْجِمَهُ مذهبٌ فقهيٌّ، وأَكْبَرَ مِنْ أَنْ تُمَثِّلَه مجموعةٌ مِنَ المَذاهِبِ الفقهية وغيرِها، فضلًا عن أَنْ تُمَثِّلَه وجهاتُ نَظَرِ فقيهٍ واحدٍ، وليس معنى ذلك إلغاءَ المَذاهِبِ الفقهية، وإنما يكون مفهومُ الرجوعِ إلى الكتاب والسنَّةِ بإعمالها كمعيارٍ لِمَا يُقْبَلُ منها وما يُرَدُّ مِنَ الأقوال: فإِنْ وافَقَتِ القرآنَ والسنَّةَ الثابتةَ الصحيحةَ وعَمَلَ السلفِ قُبِلَتْ، وما خَرَجَ عن هذه الأصولِ لم يَحْظَ لديها بالقَبول.

وفي نصيحةٍ نافعةٍ ووصيَّةٍ جامعةٍ يقول رحمه الله: «اعْلَمُوا ـ جَعَلَكُمُ اللهُ مِنْ وُعَاةِ العلم، ورَزَقَكم حلاوةَ الإدراكِ والفهم، وجمَّلكم بعزَّةِ الاتِّباع، وجنَّبكم ذِلَّةَ الابتداع ـ أنَّ الواجب على كُلِّ مسلمٍ في كُلِّ مكانٍ وزمانٍ: أَنْ يَعْتَقِدَ عَقْدًا يَتَشَرَّبُهُ قلبُه، وتَسْكُنُ له نَفْسُه، ويَنْشرِحُ له صَدْرُه، ويَلْهَجُ به لسانُه، وتَنْبَنِي عليه أعمالُه: أنَّ دِينَ اللهِ تعالى ـ مِنْ عقائِدِ الإيمان، وقواعدِ الإسلام، وطرائقِ الإحسان ـ إنَّما هو في القرآنِ والسنَّةِ الثابتةِ الصحيحة وعَمَلِ السلفِ الصالحِ مِنَ الصحابةِ والتابعين وأتباعِ التابعين، وأنَّ كُلَّ ما خَرَجَ عن هذه الأصول، ولم يَحْظَ لديها بالقَبول ـ قولًا كان أو عملًا أو عَقْدًا أو احتمالًا ـ فإنَّه باطلٌ مِنْ أصله، مردودٌ على صاحِبِه، كائنًا

(١) المصدر السابق (٢٥٢).

مَنْ كان، في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فاحْفَظوها واعْمَلوا بها؛ تهتدوا وتَرْشُدوا إنْ شاءَ اللهُ تعالى»[١].

ولَمَّا رأى رحمه الله أنَّ الحَلَقاتِ العلميةَ في المؤسَّساتِ التربوية والدروسَ المسجدية لا تَفِي بنَشْرِ دعوته على نطاقٍ واسعٍ وشاملٍ، ولا تُحَقِّقُ غاياتِها الساميةَ المُسطَّرةَ لها، إلَّا بتعزيزها بالعمل الصَّحَفيِّ مع توفيرِ شروطِ نجاحِه بتأمينِ مطبعةٍ خاصَّةٍ له على وجهِ الامتلاك؛ أَقْبَلَ على تطبيقِ فكرته في سبيلِ الإصلاح وتجديدِ الدِّينِ بتأسيسِ أوَّلِ صحيفةٍ جزائريةٍ بالعربية وُسِمَتْ بـ «المُنْتَقِد» كمرحلةٍ مُعضِّدةٍ؛ قَصْدَ الدخولِ في التطبيق العمليِّ لمُقاوَمةِ المَناهِجِ العَقَدِيةِ والسلوكية التي كان يَنْشُرُها رجالُ التصوُّف[٢] وأربابُ الطُّرُقية في الزوايا وأماكنِ الأضرحة والقبور، وقد تَغَلْغَلَ كثيرٌ مِنْ تلك الضلالاتِ والمُعْتقَداتِ الفاسدة في صفوف الدَّهْماءِ والعوامِّ وعند بعضِ الأوساط المُثقَّفة، وتَجَسَّدَ شِعارُها في عبارةِ: «اعْتَقِدْ ولا تَنْتَقِدْ»، وقد كان اختيارُه لعنوانِ صحيفته يهدف إلى القضاءِ على هذا الشعارِ أوَّلًا، وتحطيمِ فحواهُ كدعوةٍ ثانيًا، أي: تحذير الناسِ مِمَّا يحتويهِ الشعارُ مِنْ ضلالاتٍ ومَفاسِدَ: مبنًى ومعنًى، وإرادة التغيير مع الالتزام بالنقد الهادف ببيانِ الحقيقة بنزاهةٍ وصِدْقٍ وإخلاصٍ، غيرَ أنَّ هذه الصحيفةَ لم تُعَمَّرْ طويلًا وتَوَقَّفَتْ بسببِ المنع الصادرِ مِنْ

(١) «الآثار» (٣/ ٢٢٢).

(٢) قد كان أوائلُ الصوفيةِ مُلْتَزِمين بالكتاب والسُّنَّة، غيرَ أنَّ كثيرًا مِنْ مُتأخِّريهم حادوا عن الطريق السويِّ وغَلَوْا في البِدَعِ والمُنْكَراتِ والانحرافاتِ في الفكر والسلوك.

انظر: «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (٢١١) وما بعدها، «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ١٨)، «مَدارِج السالكين» لابن القيِّم (١/ ١٣٨).

قِبَلِ الحكومةِ الفرنسية بإيعازٍ مِنْ خصوم الدعوة والحقِّ.

لكنَّ هذا التوقُّفَ لم يَثْنِ عزيمةَ الشيخِ العلَّامة ابنِ باديس رحمه الله عن السعي إلى إصدارِ مجلَّةِ «الشهاب» خَلَفًا للمُنْتَقِد تعمل على نَفْسِ المبدإ والغاية، وتُؤدِّي رسالتَها النبيلةَ بكُلِّ صمودٍ، مُصدَّرةً في الغالبِ بآياتٍ مُفسَّرةٍ وأحاديثَ مشروحةٍ إلى غايةِ سنة: (١٣٥٨هـ).

وقد أَخَذَ الشيخُ العلَّامة رحمه الله يُكَثِّفُ عَمَلَه، ويُوَسِّعُ نشاطَه، ويُعَمِّقُ فكرتَه، مِنْ منبرِ المسجد والدروسِ المسجدية إلى منبرِ المَجَلَّة، إلى دعوةِ الأوساطِ السياسية المُخْتَلِفةِ إلى الاتِّحاد والتغيير، مُجَسِّدًا طموحَه بتأسيسِ جمعيةِ العُلَماءِ المسلمين الجزائريِّين (سنة: ١٣٤٩هـ ـ ٥ ماي ١٩٣١م) برئاسته؛ فظَهَرَ دورُها الفعَّالُ في الإصلاح الدينيِّ والاجتماعيِّ على نطاقٍ واسعٍ، وقد تَبَلْوَرَ نَهْجُه في الإصلاح بالقضاء على التخلُّف ومَظاهِرِه، وتحذيرِ الأُمَّةِ مِنَ الشرك بمُخْتَلَفِ أنواعه، وإزالةِ الجمودِ الفكريِّ، ومُحارَبةِ التقاليدِ والبِدَعِ المُنْكَرةِ والعادات الشركية المُسْتَحْكِمة، ومُقاوَمةِ الأباطيل والخرافات المُتَمَكِّنةِ مِنَ المُتَنكِّرين للتوحيد مِنَ الصوفيِّين والقبوريِّين والطُّرُقية وغيرِهم، وذلك بتعريفِ الأُمَّةِ بدِينِها الحقِّ، والعملِ بتعاليمه وأحكامه، والتحلِّي بفضائله وآدابه، والدعوةِ إلى النهضة والحضارة في إطارِ إصلاحِ الدِّينِ والمُجْتَمَع، وذلك بواسطةِ نشاطاتٍ مُخْتَلِفةٍ.

وكان للنشاط الصحفيِّ دورٌ بارزٌ ـ بصفته وسيلةً للسياسة والتهذيب ـ في تكوينِ القادة، وتوجيهِ الطاقات والجهودِ مُسلَّحةً بالعلم والمعرفة، وبَثِّ الوعيِ بين الأوساط الشعبية:

• فأَسَّسَتِ الجمعيةُ صحيفةً أسبوعيةً «السنَّة المحمَّدية» (الصادرة بتاريخ:

٨ ذي الحجَّة ١٣٥١هـ).

• ثمَّ خَلَفَتْها صحيفةُ «الشريعة المطهَّرة» (الصادرة بتاريخ: ٢٤ ربيع الأوَّل ١٣٥٢هـ).

• ثمَّ تَلَتْها بعد مَنْعِها صحيفةُ «الصراط السويِّ» (الصادرة بتاريخ: ٢١ جمادى الأولى ١٣٥٢هـ)، وهذه الأخيرةُ ـ أيضًا ـ مَنَعَتْها الحكومةُ الفرنسيةُ أُسْوَةً بأخواتها.

• ولكنَّ جمعيةَ العُلَماء لم تَلْبَثْ أَنْ أَسَّسَتْ صحيفةَ «البصائر» (الصادرةَ بتاريخ: أوَّل شوَّالٍ سنة ١٣٥٤هـ)، حيث بَقِيَتْ هذه الصحيفةُ لسانَ حالِ الجمعية مُسْتَمِرَّةً في أداءِ رسالتها بالمُوازاةِ مع مجلَّةِ «الشهاب» التي ظلَّتْ مِلْكًا للشيخ رحمه الله ومُسْتَقِلَّةً عن الجمعية، حيث كان ينطق فيها باسْمِه الشخصيِّ لا بوصفه رئيسًا للجمعية؛ حفاظًا على مَصيرِ جمعيةِ العُلَماءِ وصحيفتِها التي استمرَّتْ بعد وفاته إلى غايةِ: (١٣٧٦هـ)، وإِنْ تَخَلَّلَ انقطاعٌ في سلسلتها الأولى عند اقترابِ الحرب العالمية الثانية.

وفي هذه المرحلةِ اتَّخذ الشيخُ عبد الحميد بنُ باديس شعارَ «الحقِّ، والعدل، والمُؤاخاةِ في إعطاءِ جميعِ الحقوقِ للَّذِين قاموا بجميعِ الواجبات»، رجاءَ تحقيقِ مَطالِبِ الشعب الجزائريِّ بطريقٍ سِلْميٍّ، ولكنَّه بعد عودةِ وَفْدِ المؤتمر مِنْ باريس سنة: (١٣٥٥هـ) اقتضَتْ طبيعةُ المرحلةِ الجديدةِ إزاحتَه واستبدالَه بشعارٍ آخَرَ وهو: «لِنَعْتَمِدْ على أَنْفُسِنا، ولْنَتَّكِلْ على الله»، تعبيرًا عن العزم على الكفاح وغَلْقِ القلوب على فرنسا إلى الأبد، والاستعدادِ للدخول في معركةٍ ضاريةٍ، كما عبَّر عن ذلك بقوله رحمه الله ـ مُخاطِبًا الشعبَ الجزائريَّ ـ: «...وإِنْ ضيَّعَتْ فرنسا فرصتَها

هذه فإنَّنا نقبض أَيْدِينا ونُغْلِقُ قلوبَنا إلى الأبد... واعْلَمْ أنَّ عَمَلَك هذا ـ على جلالته ـ ما هو إلَّا خُطْوَةٌ ووَثْبَةٌ وراءَها خُطُوَاتٌ وَوَثَبَاتٌ، وبعدها إمَّا الحياةُ وإمَّا المماتُ».

وهذه الحقيقةُ عبَّر عنها ـ أيضًا ـ في مَقالٍ آخَرَ سنة: (١٣٥٦هـ) بلفظِ: «المُغامَرةُ والتضحية»، وهي طريقُ الكفاحِ والحربِ للخلاص مِنْ فرنسا، وظَلَّ ابنُ باديس وَفِيًّا لهذا المَسْلَكِ الشموليِّ في مُواجَهتِه للاستعمار خلالَ كُلِّ سنواتِ نشاطِه السياسيِّ المُنْدَرِجِ في نشاطه العامِّ، إلى أَنْ تُوُفِّيَ مساءَ الثلاثاء ٨ ربيع الأَوَّل ١٣٥٩هـ الموافق لـ: ١٦ أفريل ١٩٤٠م، ودُفِنَ بقسنطينة، تَغمَّدَهُ اللهُ برحمته وأَسْكَنَهُ فسيحَ جِنانه.

هذا، وقد عَمِلَ ابنُ باديس ـ خلالَ فترات حياته ـ على تقريبِ القرآنِ الكريم بين يَدَيِ الأُمَّة، مُفَسِّرًا له تفسيرًا سَلَفِيًّا، سالكًا طريقَ رُوَّادِ التفسيرِ بالمأثور، مُعْتَمِدًا على بيانِ القرآن للقرآن وبيانِ السُّنَّة له، آخذًا في الاعتبارِ أصولَ البيانِ العربيِّ، كما كانَتْ عنايتُه فائقةً بالسُّنَّةِ المطهَّرةِ وبالعقيدةِ الصحيحةِ التي تخدمُ دعوتَه الإصلاحية؛ فوَضَعَ كتابَه: «العقائد الإسلامية مِنَ الآيات القرآنيةِ والأحاديثِ النبوية»[1]، على نَهْجِ طريقِ القرآنِ في الاستدلال المُتَلائِمِ مع الفطرة الإنسانية، بعيدًا عن مَسْلَكِ الفلاسفة ومَنْهَجِ المتكلِّمين، وحارَبَ البِدَعَ والتقليدَ والشركَ ومَظاهِرَه والتخلُّف، ودَعَا إلى النهضة والحضارةِ في إطارِ إصلاحِ الدِّين والمُجْتَمَع، وقد سانَدَهُ عُلَماءُ أَفَاضِلُ في دعوته ومَهَمَّتِه النبيلة، كما ساعَدَتْه خبرتُه بعلوم العربية: آدابِها وقواعِدِها؛ لذلك جاء أسلوبُه في مُخْتَلَفِ كتاباته سهلًا مُمْتَنِعًا، بعيدًا عن التعقيد اللفظيِّ، وكذا

(١) وقد تناوَلْتُه بالشرح والتعليق، وأضفَيْتُ عليه حُلَّةً مِنْ مزيدِ توضيحٍ، وقد وَسَمْتُ شرحي بـ «الحُلَل الذهبية، شرح العقائد الإسلامية مِنَ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية».

شِعْرُه الفيَّاض، هذا بغضِّ النظر عمَّا كان عليه مِن اطِّلاعٍ على المَذاهِبِ الفقهية المُخْتَلِفة ـ كما هو ملموسٌ في فتاويه المُتعدِّدة ـ فضلًا عن مَذْهَبِ مالكٍ رحمه الله، ومِنْ عِلْمٍ بالأصول، مُتَمَرِّسًا بأسلوبه ومُتَزَوِّدًا بقواعده، مع الإدراك الصحيح والفهم التامِّ.

تلك هي بعضُ الجوانبِ مِنْ حياته وشخصيته وسيرته مُخْتَصَرةً؛ فرغم الفترة الزمنية القصيرة نسبيًّا التي عاشَها ابنُ باديس رحمه الله إلَّا أنَّ ما خلَّفه مِنْ كتاباتٍ مُهِمَّةٍ في الصُّحُفِ والمَجلَّات والكُتُبِ القيِّمةِ كان له أثرٌ بالغٌ، ولا تَزالُ هذه الكتاباتُ والمَقالاتُ تُؤْخَذُ منها دروسٌ وَعِظَاتٌ للمُتأمِّل، وهي ـ حاليًّا ـ مَصْدَرُ اهتمامِ الباحثين داخِلَ القطرِ الجزائريِّ وخارِجَه، كُلُّ هذه الآثارِ أَحْيَتْ ذِكْرَه، وخَلَّدَتِ اسْمَه، وأكَّدَتْ عظمةَ شخصيتِه الفكرية، وريادتَه في النهضة والتجديدِ والإصلاح[1].

(١) انظر ترجمته في: «مجالس التذكير» و«آثار الإمام عبد الحميد بنِ باديس رحمه الله تعالى»، «مجلَّة اللغة العربية» (٢١/ ١٤٠) سنة: (١٩٦٦)، «مُذكِّرات توفيق المدني» (٢/ ١١)، «الشيخ عبد الحميد بنُ باديس والحركةُ الإصلاحيةُ السلفيةُ في الجزائر» و«الشيخ عبد الحميد بنُ باديس شيخُ المُرَبِّينَ والمُصْلِحين في الجزائر في العصر الحديث» كلاهما للدكتور رابح تركي، «الأعلام» للزركلي (٤/ ٦٠)، «ابنُ باديس، حياتُه وآثارُه» للدكتور عمَّار طالبي (١/ ٧٢)، «معجم أعلام الجزائر» (٨٢) و«معجم المُفسِّرين» (١/ ٢٥٩) كلاهما للنويهض، «ابنُ باديس وعروبةُ الجزائر» للميلي (٩) وما بعدها.

متن
أبواب أركان الإيمان

ويشتمل على أربعة أبواب.

- باب الإيمان بالملائكة عليهم السلام.
- باب الإيمان بكُتُب الله تعالى.
- باب عقائد الإيمان بالرُّسُل عليهم الصلاة والسلام.
- باب عقائد الإيمان باليوم الآخِر.

باب
الإيمان بالملائكة عليهم السلام

[فصل: بيان حقيقة الملائكة وصفاتهم وأعمالهم]

المَلَائِكَةُ مَخْلُوقُونَ مِنَ النُّورِ، لَا يُوصَفُونَ بِذُكُورَةٍ وَلَا بِأُنُوثَةٍ، مُيَسَّرُونَ لِلطَّاعَاتِ، مَعْصُومُونَ مِنَ المَعَاصِي، مُسَخَّرُونَ - بِإِذْنِ اللهِ - فِي شُئُونِ الخَلْقِ وَتَدْبِيرِ الكَوْنِ، وَحِفْظِ العِبَادِ وَكِتَابَةِ أَعْمَالِهِمْ، أُمَنَاءُ عَلَى الوَحْيِ فِي حِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ؛ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «**خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ**» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩)**﴾ [الزخرف]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿**وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)**﴾ [الأنبياء]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿**وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)**﴾ [الصافات]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)**﴾ [الأنبياء]،

وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾ [النحل]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤)﴾ [الذاريات]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥)﴾ [النازعات]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ (٤)﴾ [الطارق]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢)﴾ [الانفطار]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (١٧) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨)﴾ [ق]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ (١٣) مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦)﴾ [عبس]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ (٧٩)﴾ [الواقعة]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا (٥) عُذْرًا أَوْ نُذْرًا (٦)﴾ [المُرْسَلات]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥].

باب
الإيمان بكتب الله تعالى

[فصل: معنى الإيمان بالكتب المنزلة ومقتضياته]

نُؤْمِنُ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللهِ المُنْزَلَةِ عَلَى رُسُلِهِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَمِنْهَا: **التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ وَالقُرْآنُ**، وَمِنْهَا غَيْرُهَا مِمَّا لَمْ نَعْلَمْهُ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ؛ فَكُلُّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَكُلُّ مَا فِيهَا حَقٌّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣؛ الإسراء: ٥٥].

[فصل: حفظ الله القرآن دون غيره]

حَفِظَ اللهُ القُرْآنَ دُونَ غَيْرِهِ: حَفِظَهُ مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ؛ فَبَقِيَ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ؛ فَهُوَ كُلُّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَلَمْ يَحْفَظْ غَيْرَهُ مِنَ الكُتُبِ فَدَخَلَتْ عَلَيْهَا الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ وَالتَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ؛ فَفِيهَا حَقٌّ وَفِيهَا بَاطِلٌ؛ وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ القُرْآنَ شَاهِدًا عَلَيْهَا: فَمَا وَافَقَهُ فَهُوَ

حَقٌّ، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

[فصل: القرآن هو الهداية العامة للبشر]

نُؤْمِنُ بِأَنَّ القُرْآنَ العَظِيمَ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى هِدَايَةً عَامَّةً لِجَمِيعِ البَشَرِ لِمَا فِيهِ سَعَادَتُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالأُخْرَوِيَّةُ؛ بِتَنْوِيرِ العُقُولِ، وَتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ، وَتَقْوِيمِ الأَعْمَالِ، وَإِصْلَاحِ الأَحْوَالِ، وَتَنْظِيمِ الاجْتِمَاعِ البَشَرِيِّ عَلَى أَكْمَلِ نِظَامٍ، وَكُلُّ مَنْ خَالَفَهُ فَهُوَ ضَالٌّ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[فصل: الإيمان بالسنة إيمان بالقرآن]

وَمِنَ الإِيمَانِ بِكِتَابِ اللهِ: أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَبَيَانٌ لِكِتَابِ اللهِ، وَأَنَّ الأَخْذَ بِهِ أَخْذٌ بِالقُرْآنِ، وَأَنَّ التَّرْكَ لَهُ تَرْكٌ لِلْقُرْآنِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ

وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [النساء]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الجن]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء].

باب
عقائدِ الإيمانِ بالرُّسُلِ عليهم الصلاةُ والسلام

[فصل: الحكمة من بعث الرسل وصفة اختيارهم]

إِنَّ الرَّبَّ الحَكِيمَ - جَلَّ جَلَالُهُ - خَلَقَنَا لِعِبَادَتِهِ، وَفِي عِبَادَتِهِ كَمَالُنَا وَسَعَادَتُنَا، وَعِبَادَتُهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَنَا وَنَهَانَا وَأَبَاحَ لَنَا، وَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَعْرِفَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا بَيَّنَهُ لَنَا؛ فَاخْتَارَ مِنَّا - تَفَضُّلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً - قَوْمًا فَطَرَهُمُ اللهُ عَلَى الفَضَائِلِ وَالكَمَالَاتِ، وَعَصَمَهُمْ مِنَ الرَّذَائِلِ وَالنَّقَائِصِ، وَهَيَّأَهُمْ لِمُلَاقَاةِ المَلَائِكَةِ الأَطْهَارِ؛ لِيَتَلَقَّوْا مِنْهُمْ وَحْيَ اللهِ وَبَيَانَهُ لِلْعِبَادِ؛ فَيُبَلِّغُوهُ إِلَيْهِمْ، وَيَكُونُوا قُدْوَةً لَهُمْ فِي تَنْفِيذِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالمُرْسَلُونَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِهِمْ كُلِّهِمْ، مَنْ عَرَفْنَا مِنْهُمْ - بِتَعْرِيفِ اللهِ - وَمَنْ لَمْ نَعْرِفْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ

عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٥-٦]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

[فصل: الرسل حجة الله]

وَالرُّسُلُ هُمْ حُجَّةُ اللهِ وَشُهُودُهُ، أَنْبَأَهُمُ اللهُ بِوَحْيِهِ، وَأَرْسَلَهُمْ لِتَبْلِيغِهِ لِخَلْقِهِ؛ لِيُعَرِّفُوهُمْ بِهِ وَبِشَرْعِهِ، وَيُنَبِّهُوهُمْ إِلَى آيَاتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ بِإِنْعَامَاتِهِ، وَيُبَشِّرُوهُمْ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ إِذَا اتَّبَعُوهُمْ، وَيُخَوِّفُوهُمْ مِنَ الشَّقَاوَةِ وَالهَلَاكِ إِذَا خَالَفُوهُمْ؛ فَقَامَتْ بِهِمْ ـ لَمَّا بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ وَأَدَّوُا الأَمَانَةَ ـ حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَكَانُوا ـ وَهُمُ العُدُولُ الأُمَنَاءُ الصَّادِقُونَ ـ شُهَدَاءَهُ عَلَيْهِمْ يَوْمَ لِقَائِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ

إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

[فصل: تأييد الله لهم بالبيِّنات والآيات]

لَمَّا أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ وَإِقَامَةِ حُجَّتِهِ أَيَّدَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ، وَهِيَ كُلُّ مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ الحَقُّ: مِنْ كَمَالِ سِيرَتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ، وَوُضُوحِ بَيَانِهِمْ، وَقُوَّةِ حُجَّتِهِمْ، وَأَيَّدَهُمْ بِالآيَاتِ المُعْجِزَاتِ الخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، المَعْجُوزِ عَنْ مُعَارَضَتِهَا؛ فَكَانُوا يَدْعُونَ الخَلْقَ بِالحُجَجِ وَالبَرَاهِينِ، فَإِذَا سَأَلُوهُمْ آيَةً رَدُّوا الأَمْرَ إِلَى اللهِ، وَتَبَرَّأُوا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَعَهُ تَصَرُّفٌ فِي الكَوْنِ حَتَّى يَأْتُوا بِالآيَاتِ، فَيُعْطِيهِمُ اللهُ الآيَاتِ تَأْيِيدًا لَهُمْ وَتَخْوِيفًا لِقَوْمِهِمْ؛ فَيَخْضَعُ قَوْمٌ فَيُؤْمِنُونَ، وَيَسْتَمِرُّ الأَكْثَرُونَ عَلَى العِنَادِ؛ فَتَحِقُّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ العَذَابِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]،

وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [إبراهيم]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾ [الإسراء].

[فصل: تمام عبوديتهم مع علو مرتبتهم]

هُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ ـ لَا يَمْتَازُونَ عَنِ الخَلْقِ فِي تَمَامِ عُبُودِيَّتِهِمْ: بِافْتِقَارِهِمْ إِلَى اللهِ، وَجَرَيَانِ قَدَرِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَدَمِ مِلْكِهِمْ شَيْئًا مَعَهُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي مُلْكِهِ، وَعَدَمِ عِلْمِهِمُ الغَيْبَ إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللهُ، وَجَرَيَانِ شَرْعِهِ عَلَيْهِمْ، وَقِيَامِهِمْ بِمَا كُلِّفُوا بِهِ، خَاضِعِينَ للهِ رَاجِينَ خَائِفِينَ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص]، وَلِقَوْلِهِ:

﴿وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾ [الأحقاف]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ۝٥٧﴾ [الإسراء].

[فصل: تأدُّبنا معهم فيما عُوتِبوا عليه واستغفَروا منه]

هُمْ عِبَادُ اللهِ يُخَاطِبُهُمْ بِمَا شَاءَ وَيُعَاتِبُهُمْ بِمَا أَرَادَ، فَيَعْتَرِفُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، وَلَيْسَ لَنَا فِيمَا عُوتِبُوا عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرُوا مِنْهُ إِلَّا حِكَايَةُ لَفْظِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَعَ اعْتِقَادِ احْتِرَامِهِمْ وَإِكْبَارِ جَانِبِهِمْ، وَأَنَّ اللهَ يُعَاتِبُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ - لِكَمَالِ مَعْرِفَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ وَعَظِيمِ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ - يَرَوْنَ مَا لَا يُعَدُّ تَقْصِيرًا - بِالنِّسْبَةِ لِغَيْرِهِمْ - تَقْصِيرًا بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝٥٧﴾ [الأحزاب].

[فصل: ختم الرسالة وعمومها]

خَتَمَ اللهُ الرِّسَالَةَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَجَعَلَ رِسَالَتَهُ الرِّسَالَةَ العَامَّةَ لِلْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالمَلَائِكَةِ، وَجَعَلَ شَرِيعَتَهُ الشَّرِيعَةَ الجَامِعَةَ لِمَا

يَحْتَاجُ إِلَيْهِ البَشَرُ فِيمَا بَقِيَ مِنْ آخِرِ أَطْوَارِهِمْ فِي وُجُودِهِمْ، وَهُوَ طَوْرُ رُقِيِّهِمُ العَقْلِيِّ وَالعِلْمِيِّ وَالعُمْرَانِيِّ؛ فَأَغْنَتْ عَمَّا قَبْلَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ فَكَانَتْ نَاسِخَةً لَهَا؛ وَلِهَذَا جَعَلَ آيَتَهُ ـ القُرْآنَ العَظِيمَ ـ آيَةً عَقْلِيَّةً عِلْمِيَّةً خَالِدَةً، يَخْضَعُ لَهَا وَيَهْتَدِي بِهَا كُلُّ مَنْ سَمِعَهَا وَفَهِمَهَا؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا﴾ [الجاثية: ١٨]، وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ» رَوَاهُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

باب
عقائد الإيمان باليومِ الآخِر

[فصل: انتهاء الوجود الدنيوي وحدوث الوجود الأخروي]

نُؤْمِنُ بِانْتِهَاءِ وُجُودِ هَذَا العَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِ وُجُودِهِ فِي عِلْمِ اللهِ: فَيَنْحَلُّ نِظَامُ هَذَا الكَوْنِ، فَيَخْرَبُ الكَوْنُ العُلْوِيُّ كَمَا يَخْرَبُ الكَوْنُ السُّفْلِيُّ؛ لِيَكُونَ وُجُودُ العَالَمِ الأُخْرَوِيِّ فِي كَوْنٍ آخَرَ وَنِظَامٍ آخَرَ؛ إِذِ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِهِ وَنِظَامِهِ قَادِرٌ عَلَى إِعْدَامِهِ وَإِبْطَالِ نِظَامِهِ، وَعَلَى خَلْقِ مِثْلِهِ وَنِظَامِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس].

[فصل: المعاد والبعث]

نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحْيِينَا بَعْدَ المَوْتِ، وَيُعِيدُنَا بِأَرْوَاحِنَا وَأَجْسَادِنَا: فَيَبْعَثُنَا -مِنْ قُبُورِنَا وَمِنْ حَيْثُ كُنَّا- إِلَى المَوْقِفِ الأَعْظَمِ لِلْمُحَاسَبَةِ عَلَى الأَعْمَالِ وَالجَزَاءِ عَلَيْهَا؛ إِذْ ذَلِكَ جَائِزٌ فِي قُدْرَتِهِ، وَوَاجِبٌ فِي عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: ٧]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾ [التغابن: ٩]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً

فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾ [المؤمنون].

[فصل: وزنُ الأعمال والجزاءُ عليها]

نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْصِبُ المِيزَانَ - يَوْمَ القِيَامَةِ - فَتُوزَنُ أَعْمَالُ العِبَادِ لِيُجَازَوْا عَلَيْهَا وَيقْتَصَّ مِنْ بَعْضِهِمُ البَعْض، فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ نَجا، وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عُذِّبَ؛ إِذْ ذَاكَ وَاجِبٌ فِي عَدْلِ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ [الزلزلة]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ ﴾ [القارعة]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية]، وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَتَدْرُونَ مَا المُفْلِسُ؟» قَالُوا: «المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ»، فَقَالَ:

«إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

[فصل: الصراط]

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَضْرِبُ الصِّرَاطَ عَلَى ظَهْرِ جَهَنَّمَ فَيَمُرُّ عَلَيْهِ النَّاسُ أَجْمَعُونَ، فَيَنْتَهِي أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَسْقُطُ - مِنْهُ فِي النَّارِ - أَهْلُ النَّارِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم].

[فصل: دار العذاب]

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَ النَّارَ دَارَ عَذَابٍ وَخُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ، وَدَارَ عَذَابٍ إِلَى أَجَلٍ لِمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ فَاسْتَحَقُّوا العَذَابَ، وَأَنَّ العَذَابَ فِيهَا لِلْأَرْوَاحِ وَالأَجْسَادِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ [هود]، وَلِحَدِيثِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا

يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً» رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

[فصل: دار النعيم]

نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَ الجَنَّةَ دَارَ نَعِيمٍ وَخُلُودٍ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ، وَأَنَّ النَّعِيمَ فِيهَا لِلْأَرْوَاحِ وَالأَجْسَادِ، وَأَنَّ أَعْظَمَ نَعِيمِهَا هُوَ رِضْوَانُ اللهِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩؛ المرسلات: ٤٣]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة] اهـ.

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات]، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

بـاب
الإيمان بالملائكة [عليهم السلام](١)

ويشتمل على فصلٍ واحد.

- [فصل: بيانُ حقيقةِ الملائكة وصِفَاتِهم وأعمالهم]

(١) «م.ف»: «عليهم الصلاة والسلام».

[فصل: بيانُ حقيقةِ الملائكةِ وصِفاتِهم وأعمالهم][1]

المَلَائِكَةُ[2] ....

---

(١) «م.ر»: «الملائكة»، وساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٢) الملائكة: جَمْعُ مَلَكٍ، وقد اخْتُلِفَ في أصلِ اشتقاقِ تسميتهم، وما عليه عامَّةُ أهلِ اللغةِ والتفسير: أنَّ اشتقاقَ اسْمِ «الملائكة» مِنَ «الألوكة» وهي الرسالة، وهذا القولُ أَقْرَبُ مِن جهةِ اللغةِ وأَصْوَبُ مِن جهةِ المعنى، وقد سمَّى اللهُ تعالى ملائكتَه بالرُّسُل في آياتٍ كثيرةٍ منها: قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧﴾ [هود]، وقولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣١﴾ [الحِجر: ٥٧؛ الذاريات: ٣١]، وزِيدَتِ الهاءُ في الملائكةِ إمَّا تأكيدًا لتأنيثِ الجمع، ومثلُه الصَّلادِمَة، والصَّلادِمُ: الخيلُ الشِّدَادُ، ووَاحِدُها: صِلْدِمٌ، وإمَّا للمُبالَغةِ مثل: علَّامةٍ ونسَّابةٍ، [انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٢٢٩)، «لسان العرب» لابن منظور (١٣/ ١٨٥)، «تفسير القرطبي» (١/ ٢٦٢)، «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٣٠٦)].

والإيمان بالملائكةِ عليهم السلام هو الركنُ الثاني مِنْ أركانِ الإيمانِ السِّتَّةِ التي لا يصحُّ إيمانُ عبدٍ ولا يُقْبَل منه إلَّا بتحقيقه، وقَدْ جاء هذا الأصلُ مرتَّبًا بعد الإيمان بالله تعالى في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقولِه صلى الله عليه وسلم لَمَّا سأله جبريلُ عليه السلام عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ،=

= وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (١/ ١٥٠) بابُ بيانِ الإسلام والإحسان، وأبو داود في «السنَّة» (٥/ ٦٩) بابٌ في القَدَر، والترمذيُّ في «الإيمان» (٥/ ٦) بابُ ما جاءَ في وصفِ جبريلَ للنبيِّ ﷺ الإيمانَ والإحسانَ، وابنُ ماجه في «المقدِّمة» (١/ ٢٤) بابٌ في الإيمان، وابنُ حبَّان (١/ ٣٩٠)، مِن حديثِ عبد الله بنِ عمر عن أبيه رضي الله عنهما].

ولعلَّ الحكمةَ مِنْ تقديمِ المصنِّفِ الإيمانَ بالقَدَرِ على هذا الأصلِ تكمن في أنَّ الإيمان بالقَدَرِ داخلٌ في الإيمانِ بالله ـ سبحانه ـ وهو مِنْ جملةِ ما استأثر اللهُ بعِلْمِه؛ فناسَبَ تقديمَه على فصلِ الإيمان بالملائكة.

هذا، وقد دلَّ الكتابُ والسنَّةُ وإجماعُ المسلمين على وجوب الإيمان بالملائكة إجمالًا، وهو فرضُ عينٍ يجب تعلُّمُه واعتقادُه.

■ والإيمانُ المُجْمَلُ بالملائكةِ يتضمَّن المعانيَ التالية:

١ ـ الإقرارَ بوجودهم على وجهِ الحقيقة لا المجاز؛ فالإيمانُ بهم ولو لم نُشاهِدْهم هو مِنَ الإيمان بالغيب، وقد رأى رسولُ الله ﷺ بعضَ الملائكةِ على صورته الحقيقية، ورآهم الأنبياءُ والصحابةُ والصالحون وهُمْ مُتشكِّلون بصورة البشر ـ كما سيأتي [انظر: (ص ٦٢)] ـ.

٢ ـ إنزالَهم مَنازِلَهم التي أَنْزَلَهم اللهُ، وإثباتَ أنهم ـ كسائرِ خَلْقِه مِنَ الإنس والجنِّ ـ عِبادُ الله، مأمورون ومُكلَّفون، وأنَّ الله أَكْرَمَهم ورَفَعَ مَقامَهم عنده، وفضَّلَ بعضَهم على بعضٍ، وهُمْ رُسُلُ اللهِ إلى خَلْقِه بما يَشاءُ مِنْ وحيٍ أو غيرِه، وهُمْ لا يَقْدِرون إلَّا على ما يُقْدِرُهم اللهُ تعالى عليه، والموتُ جائزٌ عليهم، ولكنَّ الله جَعَلَ لهم أَمَدًا بعيدًا فلا يتوفَّاهم حتَّى يبلغوه، كما أنهم لا يملكون لأَنْفُسهم ولا لغيرهم شيئًا مِنْ دونِ الله؛ لذلك فلا يجوز أَنْ يُصْرَف لهم شيءٌ مِنْ أنواعِ العبادة،=

= ولا أَنْ يُوصَفُوا بشيءٍ مِنْ صفات الربوبية ـ كما تَدَّعِيهِ النصارى وتزعمه ـ.

٣ ـ الإقرار بما يَثْبُتُ في حقِّهم في الكتاب والسنَّة؛ فما ثَبَتَ مُجْمَلًا وَجَبَ الإيمانُ به إجمالًا، وما ثَبَتَ في حَقِّهم مفصَّلًا وَجَبَ الإيمانُ به تفصيلًا؛ فلا يُوصَفون إلَّا بما وَصَفَهم به اللهُ، ولا يُسَمَّوْنَ إلَّا بما سمَّاهم به خالِقُهم ـ سبحانه ـ في كتابه أو سنَّةِ نبيِّه ﷺ، سواءٌ كان ذلك:

ـ بتسميةٍ عامَّةٍ: مثل اسْمِ «الرُّسُل» كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، واسْمِ «السَّفَرة» حيث سمَّاهم اللهُ تعالى به في قوله: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [عَبَس]، واسْمِ «الجنود»، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٢٦]، وقولِه تعالى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]، واسْمِ «الأشهاد»، وذلك في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ١٨]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر]، واسْمِ «الملإ الأعلى» فقَدْ سمَّاهم اللهُ بذلك في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾﴾ [الصافَّات].

ـ أو بتسميةٍ خاصَّةٍ كاسْمِ «جبريلَ» وأسمائه الأخرى كـ: «الروح» و«الروح الأمين» و«روح القُدُس»، وكذا اسم: «ميكائيل» و«إسرافيل»، و«مالكٍ» و«المُنْكَر» و«النكير» وغيرِهم؛ بل يجب الإيمانُ بما وَصَفَهم اللهُ به وسَمَّاهم،=

= دون ما لم يُسَمَّ لنا: كتسميةِ مَلَكِ الموتِ «عزرائيلَ» - مثلًا - فلا أَصْلَ له في السنَّةِ الصحيحة، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«البداية والنهاية» (١/ ٤٧)]: «وأمَّا مَلَكُ الموتِ فليس بمُصَرَّحٍ باسْمِه في القرآنِ ولا في الأحاديث الصحاح، وقد جاء تسميتُه في بعضِ الآثار بعزرائيل»؛ لذلك لا ينبغي تسميةُ مَلَكِ الموتِ بهذا الاسْمِ لعدَمِ ثبوته، ولا يثبت - أيضًا - اسمُ المَلَكين: رقيبٍ وعتيدٍ، كما في قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق]، فليسا بِاسْمَيْن لهما، وإنما هما - على الصحيح - وصفانِ للكرام الكاتبين، وقد ذَكَر أبو الشيخ الأصفهانيُّ رحمه الله في «العظمة» وكذا السيوطيُّ رحمه الله في «الحبائك» ضِمْنَ أبوابٍ متعدِّدةٍ جملةً مِنَ الأسماء لا يثبت منها شيءٌ؛ لذلك يجب الحذرُ مِنِ اعتقادها مثل: إسماعيل، والديك، والسكينة، وشراهيل، وهراهيل، ورمائيل، وإرتيائيل، وغيرها. [انظر متضمَّناتِ الإيمان بالملائكة في: «شُعَب الإيمان» للبيهقي (١/ ٢٩٦)، «إغاثة اللهفان» لابن القيِّم (٢/ ١٢٥)، «الحبائك في أخبار الملائك» للسيوطي (٩)].

تنبيه: هذا ويجدر التنبيهُ إلى أمرين هما:

أوَّلًا: أنَّ تسمية الملائكة المشتهرة بالروحانيِّين غيرُ ثابتةٍ، بل هي تسميةٌ اصطلاحيةٌ لم يَرِدْ ذِكْرٌ منها في الكتاب ولا في السنَّة الصحيحة، فضلًا عن كونها مُشعِرةً بأنَّ الملائكة أرواحٌ لا أجسامَ لهم ولا صُوَرَ، وهذا - بلا شكٍّ - يتعارض مع نصوصِ صفاتِهم الخَلْقية التي تُثْبِتُ للملائكة أجسامًا حقيقيةً خَلَقها اللهُ مِنْ نورٍ، وميَّزها بصفاتٍ خَلْقية ليس في وُسْعِ البشر رؤيتُهم، لا لكونهم أرواحًا لا صُوَرَ لهم ولا أجسامَ. =

= ثانيًا: كما اشتهر عند كثيرٍ مِنَ العلماء تسميةُ حَمَلةِ العرش ومَنْ حولهم بالكروبيِّين، ومعناها: المقرَّبون كما جاء في «النهاية» لابن الأثير (٤/ ١٦١)، وهذه التسمية غيرُ ثابتةٍ ـ أيضًا ـ لعدمِ ورودها في القرآن ولا في السنَّة الصحيحة، والأدلَّةُ المُعتمَدةُ فيها واهيةٌ وضعيفةٌ، لا تقوم بمثلها حجَّةٌ، وإذا كانَتْ تسميةُ الكروبيِّين غيرَ ثابتةٍ فإنَّ وَصْفَ الملائكة بالمقرَّبين ثابتةٌ بنصِّ قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

فهذا الإيمانُ بالملائكة إجمالًا، وكُلَّما عَلِمَ العبدُ بتفاصيلِ ما يتعلَّق بهذا الأصلِ أو بغيره لَزِمَه مِنَ الإيمانِ بحَسَبِ ما حَصَّلَ مِنَ التفاصيل، وازدادَ إيمانُه بقَدْرِ ما بَلَغه منها.

ونصوصُ القرآنِ والسنَّةِ مملوءةٌ بذِكْرِ الملائكةِ ومَراتِبِهم وأصنافِهم وأخبارِهم وأحوالهم مع الله تعالى ومع الناسِ، وبيانِ أعمالهم المُختلِفة، سواءٌ تَعلَّقَتْ بالكون أو بالإنسان ـ كما سيأتي [انظر: (ص ٧٥)] ـ إجمالًا وتفصيلًا. ولبيانِ عِظَمِ منزلتهم قَرَنَ اللهُ شهادتَهم بشهادته في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، كما جَعَلَ اللهُ سبحانه البِرَّ لا يُنالُ إلَّا بالإيمان بهم مقرونًا بأمورٍ أخرى وَرَدَ ذِكْرُها في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وعليه، فمَنْ أَنْكَرَ وجودَ الملائكةِ أصلًا أو تَأَوَّلَ الملائكةَ بأَخْيِلَةِ القوى العقليةِ والنفسيةِ بمعنًى: أنْ لا وجودَ لأعيانهم في الخارج، وإنما هي في الأذهانِ؛ فهو=

مَخْلُوقُونَ مِنَ النُّورِ(١)، ....

= مُكذِّبٌ لله ولرسوله، وقد حَكَمَ اللهُ بكفرِ مَنْ أَنْكَرَ وجودَهم وجَعَلَ الكفرَ بهم كفرًا به؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء].

(١) جاء في حديثِ عائشة رضي الله عنها الآتي التصريحُ بأنَّ الله خَلَقَ الملائكةَ مِنْ نورٍ [انظر: (ص ٨٦)]، وهذا النورُ ـ في حَدِّ ذاته ـ مخلوقٌ كما ثَبَتَ في «صحيح مسلم» (١٧/ ١٣٣) مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَخَذَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بِيَدِي فَقَالَ: «خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الجِبَالَ يَوْمَ الأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الإِثْنَيْنِ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عليه السلام بَعْدَ العَصْرِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فِي آخِرِ الخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ العَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ» [والحديث وإنْ تكلَّم فيه بعضُ أهلِ العلم فقدْ قوَّاه ابنُ حِبَّان وابنُ الأنباريِّ والمُعلِّميُّ وأحمد شاكر والألبانيُّ وغيرُهم].

فخَلَقَ اللهُ تعالى مادَّةَ النورِ ـ أوَّلًا ـ ثمَّ خَلَقَ منها الملائكةَ، كما خَلَقَ اللهُ تعالى مادَّةَ النارِ ثمَّ خَلَقَ الجنَّ منها، وخَلَقَ اللهُ مادَّةَ الطينِ ـ أيضًا ـ ثمَّ خَلَقَ منها آدمَ عليه السلام. وإذا كانَتِ النصوصُ الشرعيةُ فصَّلَتْ في مادَّةِ خَلْقِ الجنِّ والإنسِ كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر]، وغيرِها مِنَ الآياتِ المُفصَّلةِ ـ خاصَّةً =

= في خَلْقِ آدَمَ ومادَّةِ خَلْقِه وزَمَنِ خَلْقِه ـ فإنَّ النصوصَ الحديثية اكتفَتْ بذِكْرِ النور المخلوقِ: مادَّةِ خَلْقِ الملائكة.

وما وَرَدَ مِنْ رواياتٍ تحدَّثَتْ بنوعٍ مِنَ التفصيل عن مادَّةِ خَلْقِ الملائكةِ فهي غيرُ ثابتةٍ، ولا يجوز اعتقادُها ولا الاحتجاجُ بها، فمِنْ ذلك: ما رُوِيَ عن عبد الله ابنِ عمرِو بنِ العاص رضي الله عنهما قال: «خَلَقَ اللهُ الملائكةَ مِنْ نورِ الذراعَيْن والصدر»، وما رُوِيَ عن عِكْرِمةَ قال: «خُلِقَتِ الملائكةُ مِنْ نورِ العِزَّة، وخُلِقَ إبليسُ مِنْ نار العِزَّة»؛ فهاتان الروايتان وغيرُهما ضعيفةٌ لا تقوى على الاحتجاجِ والعملِ بها، قال الألبانيُّ رحمه الله في [«السلسلة الصحيحة» (١/ ٢/ ١٩٧) رقم: (٤٥٩)]: «هذا كُلُّه مِنَ الإسرائيليات التي لا يجوز الأخذُ بها؛ لأنها لم تَرِدْ عن الصادقِ المصدوقِ ﷺ».

أمَّا مِنْ حيث زمنُ خَلْقِ الملائكةِ فالثابتُ ـ قطعًا ـ في القرآنِ الكريم أنَّ الملائكة خُلِقوا قبل آدَمَ عليه السلام؛ فقَدْ أَخْبَرَ اللهُ تعالى أنه أَعْلَمَ ملائكتَه بأنه سيجعلُ خليفةً في الأرض، وهو آدمُ عليه السلام، ثمَّ أَمَرَهم بعد خَلْقِه أَنْ يسجدوا له في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠]، ثمَّ قال: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ﴾ [البقرة: ٣٤]. وهذه الآيةُ وغيرُها وإِنْ دلَّتْ على تَقَدُّمِ خَلْقِ الملائكةِ على خَلْقِ آدَمَ عليه السلام، لكِنْ لم تُبيِّنْ ـ بالتحديد ـ زَمَنَ خَلْقِهم؛ فكان ذلك غيبًا، والواجبُ الإيمانُ بكُلِّ ما ثَبَتَ بالنصوص الصحيحةِ والوقوفُ عند مدلولها مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نقصانٍ، وعدَمُ التكلُّف والتنقيرِ فيما لا دليلَ عليه مِنَ الكتاب والسنَّة.

لَا يُوصَفُونَ [بِذُكُورَةٍ وَلَا بِأُنُوثَةٍ](١)(٢)، مُيَسَّرُونَ لِلطَّاعَاتِ، ....

---

(١) «م.ف»: «بِالذُّكُورَةِ وَلَا بِالأُنُوثَةِ» بالتعريف.

(٢) بَدَأَ المصنِّفُ رحمه الله بذِكْرِ بعضِ الصفات الخَلْقية للملائكة: فهُمْ عبادُ الرحمنِ، جنسٌ مُسْتقِلٌّ لا يُوصَفُ بذكورةٍ ولا أنوثةٍ، وهُمْ باقون على أصلِ خِلْقَتِهم، يخلق اللهُ كُلَّ واحدٍ منهم بذاته فلا يَتزاوجون ولا يَتناسلون، وقد أَنْكَرَ اللهُ تعالى على المشركين أَشَدَّ الإنكارِ زَعْمَهم أنَّ الملائكة إناثٌ وأنهم بناتُ الله، وعِبادتَهم لهم مِنْ دونِ الله تعالى فقال: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الصافَّات]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الزخرف]؛ قال القرطبيُّ رحمه الله في [«تفسيره» (١٦/ ٧٢)] عند هذه الآيةِ: «والمقصودُ: إيضاحُ كَذِبِهم وبيانُ جَهْلِهم في نسبةِ الأولاد إلى الله ـ سبحانه ـ ثمَّ في تحكُّمِهم بأنَّ الملائكةَ إناثٌ وهُمْ بناتُ الله، وذِكْرُ العبادِ مَدْحٌ لهم، أي: كيف عَبَدوا مَنْ هو في نهايةِ العبادة؟! ثمَّ كيف حَكَموا بأنهم إناثٌ مِنْ غيرِ دليلٍ؟!».

وفضلًا عن هذه الصفةِ الخَلْقية التي ذَكَرَها المصنِّفُ رحمه الله فإنه يمكن إضافةُ صفاتٍ خَلْقيةٍ أخرى للملائكة ـ باختصارٍ ـ إتمامًا للفائدة، وتظهر فيما يلي: =

• أوَّلًا: ضخامة خِلْقَةِ الملائكة وعِظَمُ أجسامهم وقوَّتِهم:

لم يخلقِ اللهُ تعالى الملائكةَ على درجةٍ واحدةٍ في الخَلْق والمقدار، ولكنْ خلَقَهم على صُوَرٍ عظيمةٍ مُناسِبةٍ لأعمالهم الموكولةِ إليهم، وقد وَصَفَ اللهُ تعالى ملائكةَ النارِ بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم]، وقال تعالى في شأنِ جبريلَ عليه السلام: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ٦﴾ [النجم]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ٢٠﴾ [التكوير]، وقال ﷺ واصفًا له: «رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٨) بابُ معنى قولِ الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ١٣﴾ [النجم]، والترمذيُّ في «تفسير القرآن» (٥/ ٢٦٢) باب: ومِنْ سورة الأنعام، مِنْ حديثِ عائشة رضي الله عنها].

وقال ﷺ في وَصْفِ حَمَلةِ العرش: «أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللهِ مِنْ حَمَلَةِ العَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ» [أخرجه أبو داود في «السنَّة» (٥/ ٩٦) بابٌ في الجهمية، مِنْ حديثِ جابر بنِ عبد الله رضي الله عنه. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٧٢) برقم: (١٥١)].

وممَّا يدلُّ على قوَّتِهم ـ أيضًا ـ: قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ ٨٢﴾ [هود]، وقولُه تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٣١ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٣٢ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ٣٣ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ ٣٤﴾ [الذاريات].

ومِنْ ذلك: عِظَمُ قوَّةِ مَلَكِ الجبال الذي قال للنبيِّ ﷺ: «أَنَا مَلَكُ الجِبَالِ، وَقَدْ=

= بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ» [وهُمَا جبلان بمكّةَ يحيطان بها]، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣١٢) باب: إذا قال أحدُكم: «آمين»، ومسلمٌ في «الجهاد والسِّيَر» (١٢/ ١٥٤) بابُ ما لَقِيَ النبيُّ ﷺ مِنْ أذَى المُشْركين والمُنافِقين، مِنْ حديثِ عائشة رضي الله عنها].

• ثانيًا: أجنحة الملائكةِ وعِظَمُ سرعتهم وحُسْنُ منظرهم:

خَلَقَ اللهُ تعالى للملائكة أجنحةً على اختلافِ أعدادها مِنْ مَلَكٍ لآخَرَ، وهي أجنحةٌ جميلةٌ ذاتُ ألوانٍ قويَّةٍ كألوان الدُّرِّ والياقوت، تطير بها ما بين السماءِ والأرض بسرعةٍ هائلةٍ لا تُقاسُ بمقاييسِ البشر، وتَحُفُّ بها طَلَبَةَ العلمِ وأَهْلَ الذِّكْرِ في مجالِسِهم؛ قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ [فاطر].

ـ وقد «رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ جِبْرِيلَ فِي صُورَتِهِ وَلَهُ سِتُّمِائَةِ جَنَاحٍ، كُلُّ جَنَاحٍ مِنْهَا قَدْ سَدَّ الأُفُقَ، يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِهِ مِنَ التَّهَاوِيلِ وَالدُّرِّ وَاليَاقُوتِ مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ» [أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٣٩٥) مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه. قال أحمد شاكر في تحقيقه لـ «مسند أحمد» (٥/ ٢٨٢): «إسنادُه صحيحٌ»، وجوَّد إسنادَه ابنُ كثيرٍ في «البداية والنهاية» (١/ ٤٤)، إلَّا أنَّ عبارةَ: «كُلُّ جناحٍ منها قد سدَّ الأُفُقَ» قدِ استنكرها الألبانيُّ، وانظر: «الإسراء والمعراج» (١٠١، ١٠٢)].

ـ وفي حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى=

= حَاجَتِكُمْ »، قَالَ: « فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا » [أخرجه البخاريُّ في «الدَّعوات» (١١/ ٢٠٨) بابُ فضلِ ذِكْرِ الله عزَّ وجلَّ، ومسلمٌ في «الذِّكرِ والدعاء والتوبة» (١٧/ ١٤) بابُ فضلِ مجالِسِ الذِّكْر].

- وفي حديثِ صَفْوانَ بنِ عَسَّالٍ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: « إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضًا بِمَا يَطْلُبُ » [أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ٢٣٩). والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «الجامع الصغير» (٢/ ١٦٦) رقم: (١٩٥٢)].

أمَّا صورةُ خِلْقَتِهم فجميلةٌ وكريمةٌ على عَكْسِ صورةِ الشياطين؛ قال اللهُ تعالى عن جبريلَ عليه السلام: ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦﴾ [النجم]، أي: قويٌّ وحَسَنُ المنظر، وقال تعالى -في حقِّ يوسف عليه السلام حكايةً عن النسوة لمَّا رأَيْنَه -: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝٣١﴾ [يوسف]، ولا يَزال الناسُ يُشبِّهون الجميلَ مِنَ البشرِ بالمَلَكِ.

• ثالثًا: عدَمُ حاجةِ الملائكة للأكل والشرب وغيرهما:

والملائكة لا يحتاجون إلى طعامٍ ولا شرابٍ ولا نكاحٍ؛ لأنَّ أجسامهم مُركَّبةٌ تركيبًا لا يقبل الطعامَ والشراب وغيرَهما، بخلافِ الجنِّ والإنس، وهو أمْرٌ أَطْبَقَ عليه العلماءُ، وقد نَقَلَ الفخرُ الرازيُّ رحمه الله هذا الإجماعَ في [تفسيره «مفاتيح الغيب» (١/ ٩٠) بتصرُّف] بما نصُّه: « اتَّفقوا على أنَّ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا يَنْكِحون.. وأمَّا الجنُّ والشياطين فإنهم يأكلون ويشربون .. وأيضًا فإنهم يتوالدون »، ونَقَلَ السيوطيُّ رحمه الله في [«الحبائك» (٢٦٤)] عنه ذلك - أيضًا -.

ويدلُّ على ذلك: ما أَخْبَرَ اللهُ به مِنْ أنَّ الملائكة الذين دَخَلوا على إبراهيمَ عليه السلام=

....

= في صورةِ بَشَرٍ لمَّا رأى أَيْدِيَهم لم تَمْتَدَّ إلى الطعام الذي قدَّمه لهم أَوْجَسَ منهم خيفةً فطَمْأَنُوه بالكشف عن حقيقتهم؛ قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨﴾ [الذاريات]، وقال ـ في آيةٍ أخرى ـ: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠﴾ [هود].

• رابعًا: قدرة الملائكة على التشكُّل والتمثُّل:

مَنَحَ اللهُ تعالى الملائكةَ قدرةً على التشكُّل بغيرِ أشكالهم التي خُلِقوا عليها، والتصوُّرِ بغيرِ طبيعتهم الأصلية، وقَدْ وَرَدَتْ نصوصٌ شرعيةٌ كثيرةٌ تدلُّ على قدرة الملائكة في التمثُّل للأنبياء وغيرِ الأنبياء، وتارةً بصورةٍ جميلةٍ وأخرى غيرِ جميلةٍ، وأنها لا تتمثَّل إلَّا في صورة الذكور فقط؛ فمِنْ ذلك: إرسالُ اللهِ تعالى إلى إبراهيم عليه السلام ملائكةً في صورةِ بَشَرٍ لم يعرفهم حتَّى كشفوا عن أَنْفُسهم؛ قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥﴾ [الذاريات]، ثمَّ حَلُّوا ضيوفًا على لوطٍ عليه السلام فضاقَ صَدْرُه وخافَ عليهم مِنْ قومِه الفاحشةَ والأذى حيث جاؤوه «في صورةِ شبابٍ حِسانٍ امتحانًا واختبارًا حتَّى قامَتْ على قوم لوطٍ الحجَّةُ وأَخَذَهم اللهُ أَخْذَ عزيزٍ مُقْتدِرٍ» [«البداية والنهاية» لابن كثير (١/ ٤٠)]، وقال تعالى ـ أيضًا ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ۝٧٧ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى =

= ضَيْفِيٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ﴿٧٨﴾ ﴾ [هود].

ومِنْ ذلك: إرسالُ اللهِ تعالى جبريلَ الروحَ الأمينَ عليه السلام إلى مريمَ عليها السلام وتَمثُّله بصورةِ البشر؛ قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم].

وقد تتشكَّلُ الملائكةُ لغيرِ الأنبياء كما في قصَّةِ مريمَ عليها السلام المتقدِّمةِ، أو كما في حديثِ قصَّةِ الأبرصِ والأقرعِ والأعمى مِنْ بني إسرائيلَ الذين أراد اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فبَعَثَ إليهم مَلَكًا في صورةِ بَشَرٍ، [أخرجه البخاريُّ في «أحاديث الأنبياء» (٦/ ٥٠٠) بابُ حديثِ أَبْرَصَ وأَعْمَى وأَقْرَعَ في بني إسرائيل، ومسلمٌ في «الزهد» (١٨/ ٩٧)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، والأمثلةُ على ذلك كثيرةٌ اكتفيتُ بإيرادِ بعضِها.

• خامسًا: عِلْمُ الملائكةِ وكلامُهم وانتفاءُ المَلَلِ عنهم.

للملائكة علمٌ وفيرٌ، يعلمون الأشياءَ بالتلقِّي المُباشِرِ مِنَ الله تعالى، بخلافِ الإنسان الذي يُميِّزُه اللهُ بقدرةِ التعرُّف على الأشياء واكتشافِ سُنَنِ الكون، ومِنَ العلم الذي علَّمَه اللهُ إيَّاهم: عِلْمُ الكتابةِ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار].

ومِنْ صفاتِ الملائكة الذاتيةِ: **الكلامُ**، وهو صفةٌ مُلازِمةٌ لهم ولو في حالِ تَمثُّلهم بصورة الآدميِّ، ويتكلَّمون بكلامٍ مسموعٍ، يفهمون ويعقلون ـ كما تَقَدَّمَ ـ ويُكلِّمُ بعضُهم بعضًا، ويُكلِّمون الناسَ بحَسَبِ لُغاتِهم مِنْ غيرِ حاجةٍ إلى ترجمانٍ=

= في الدنيا، كما يسألونهم في قبورهم أو عند البشارة والنذارة يومَ القيامة، ويُسلِّمون على أهل الجنَّة ويُبشِّرون أهلَ النارِ بالعذاب، ويُكلِّمون الفريقين بحَسَبِ مَقامِهم في الجنَّة أو النار؛ ويدلُّ على ذلك نصوصٌ كثيرةٌ نكتفي منها بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة]، وقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ].

والملائكة عليهم السلام يعبدون ربَّهم ويطيعونه ويُنفِّذون أوامِرَه بلا ضعفٍ ولا تَعَبٍ ولا كَلَلٍ ولا مَلَلٍ، وقَدْ وَصَفَهم اللهُ تعالى بأنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء]، أي: لا يَضْعُفون، وقال تعالى ـ أيضًا ـ: ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت]، أي: لا يَمَلُّون.

هذه ـ في الجملةِ ـ الصفاتُ الخَلْقيةُ للملائكة عليهم السلام، والمصنِّفُ رحمه الله لم يتعرَّضْ للصفاتِ الخُلُقية التي تَتَّصِفُ بها الملائكةُ إلَّا مِنْ جهةِ كونِهم أُمَناءَ طائعين معصومين أو بعضِ الآيات التي استدلَّ بها رحمه الله، ويمكن أَنْ نُجمِلَ الصفاتِ الخُلُقيةَ فيما يلي:

• أوَّلًا: صفة الكرم والبِرِّ: فالملائكةُ جامعون لأنواع الخير والشرف والفضل، مُحْسِنون في عباداتهم، مُطيعون ربَّهم، لا يَعْصون ربَّهم فيما أَمَرَهم ويفعلون ما يُؤْمَرون، مُحِبُّون لأهل الإيمان والتوحيد ومُحْسِنون لهم بدُعائهم واستغفارِهم لهم وشفاعتِهم لأهل التوحيد يومَ القيامة ونحوِ ذلك.

ويدلُّ على تلك الصفاتِ: قولُه تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ =

= ﴿بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ۝٢٧﴾ [الأنبياء]، وقولُه تعالى: ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦﴾ [عبس]، أي: القرآن الكريم بأيدي الملائكة لأنهم سُفَرَاءُ اللهِ إلى رُسُله وأنبيائه، ووَصَفَ اللهُ تعالى هؤلاءِ الملائكةَ بأنهم كِرامٌ بَرَرَةٌ، «أي: خَلْقُهم كريمٌ حَسَنٌ شريفٌ، وأخلاقُهم وأفعالهم بارَّةٌ طاهرةٌ كاملةٌ» [«تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٧١)]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الَّذِي يَقْرَأُ القُرْآنَ - وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ - مَعَ السَّفَرَةِ الكِرَامِ البَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَؤُهُ - وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ - لَهُ أَجْرَانِ**» [رواهُ البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٦٩١)، ومسلمٌ في «صلاة المسافرين وقَصْرِها» (٦/ ٨٤) بابُ حافِظِ القرآن، وأحمد في «مسنده» (٦/ ٤٨)، مِنْ حديثِ عائشة رضي الله عنها، واللفظُ لأحمد].

• **ثانيًا: صفة الحياء**: ومِنْ خُلُقِ الملائكةِ: تَمَتُّعُهم بالحياء الذي يمنع صاحِبَه مِنْ ركوبِ الآثام واقترافِ المعاصي والذنوب، والحياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمان؛ ويدلُّ على اتِّصافِهم بخُلُقِ الحياءِ ما رواهُ مسلمٌ عن عائشة رضي الله عنها، وفيه أنها قالت للنبيِّ ﷺ: «.. ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ؟» فَقَالَ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ المَلَائِكَةُ؟!**» [أخرجه مسلمٌ في «فضائل الصحابة» (١٥/ ١٦٨) بابُ فضائلِ عثمانَ رضي الله عنه].

قال النوويُّ رحمه الله في [«شرح مسلم» (١٥/ ١٦٩)]: «وفيه فضيلةٌ ظاهرةٌ لعثمانَ، وجلالتُه عند الملائكةِ، وأنَّ الحياءَ صفةٌ جميلةٌ مِنْ صفات الملائكة».

• **ثالثًا: صفة التواضع للحقِّ والخَلْق**: ومِنْ خُلُقِ الملائكة الكِرامِ اتِّصافُهم بالتواضع للحقِّ والخَلْقِ دون تكبُّرٍ أو استعلاءٍ؛ ويدلُّ عليه: قولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩﴾ [الأنبياء]، =

مَعْصُومُونَ مِنَ المَعَاصِي، مُسَخَّرُونَ ـ بِإِذْنِ اللهِ ـ فِي شُئُونِ الخَلْقِ وَتَدْبِيرِ الكَوْنِ، وَحِفْظِ العِبَادِ وَكِتَابَةِ أَعْمَالِهِمْ، أُمَنَاءُ[(١)] عَلَى الوَحْيِ فِي حِفْظِهِ وَتَبْلِيغِهِ[(٢)]؛.....

= وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف]، وقولُه تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء].

ومِنْ تَواضُعِهم للخَلْقِ: سجودُهم لآدَمَ عليه السلام، ومحبَّتُهم لعبادِ الله، ودُعاؤُهم واستغفارُهم لهم، وإحسانُهم إليهم ـ كما سيأتي ـ [انظر: (ص ٦٨)].

(١) «م.ر.ش»: «وَأُمَنَاءُ».

(٢) بعد ذِكْرِ صفةِ الملائكة الخَلْقيةِ شَرَعَ المصنِّفُ رحمه الله في بيانِ الحكمةِ مِنْ خَلْقِ الملائكة وما وَكَّلَهم اللهُ به مِنْ أعمالٍ عِظامٍ يقومون بها تعبُّدًا لله تعالى:

فالحكمةُ مِنْ خَلْقِ الملائكةِ الكِرامِ هي: عِبادةُ الله ـ سبحانه ـ؛ فهُمْ عبيدُه كسائرِ الخَلْقِ، أَكْرَمهم اللهُ بعبادته وطاعتِه، وحَفِظَهم اللهُ بفعلِ المأمور وعَصَمَهم مِنْ ركوب المحظور، وفَطَرَهم على العبادات الموكولةِ إليهم وجَبَلَهم عليها؛ فهُمْ مُيسَّرون للطاعات مطبوعون عليها، لا يَعْصُون أَمْرَ اللهِ ولا يُخالِفونه، ويفعلون ما يأمرهم به مُطيعين مُسْتجيبين؛ وبذلك يستقيم أَمْرُ العالَمِ العلويِّ والسفليِّ؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ =

= ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ۝٢٩﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم].

هذا، وقد دلَّتِ النصوصُ الشرعيةُ على أنَّ عبادةَ الملائكةِ أنواعٌ: فمنها عباداتٌ محضةٌ، وعباداتٌ أخرى مُتمثِّلةٌ في أعمالٍ عِظامٍ تَتوافَقُ مع ما وَهَبَهم اللهُ مِنْ فائقِ القوَّةِ الجسدية ـ التي يتمتَّعون بها ـ ما لا يطيقها الآدميُّ، لا تنقطع أعمالُهم بانقطاع الدنيا وانتهائها ـ كما هو شأنُ الجنِّيِّ والإنسيِّ ـ بل تبقى أعمالُ الملائكةِ مُسْتمِرَّةً يومَ القيامةِ ـ كما سيأتي إيضاحُه ـ [انظر: (ص ٩٠)].

• أَوَّلًا: عبادات الملائكة المحضة:

أمَّا العباداتُ المحضةُ التي يَتعبَّد بها الملائكةُ ربَّهم فتنقسم إلى:

أ. عباداتٍ قلبيةٍ: فمنها: الخوفُ والخشيةُ؛ فالملائكة الكِرامُ على علمٍ كبيرٍ بربِّهم، وعلى قَدْرٍ كبيرٍ مِنْ تعظيمه لقُرْبِهم منه؛ لذلك كانَتْ قلوبُهم خائفةً وَجِلةً منه وخاشيةً مُشْفِقةً؛ قال اللهُ تعالى مُخْبِرًا عن حالِ ملائكته: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى ـ أيضًا ـ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ۝٢٨﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

وممَّا يدلُّ ـ مِنَ السنَّةِ ـ على شدَّةِ خوفِ الملائكة مِنْ ربِّهم:

ـ حديثُ جابرِ بنِ عبد الله رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَرَرْتُ ـ لَيْلَةَ أُسْرِيَ=

....

= بي ـ بِالمَلَإِ الأَعْلَى وَجِبْرِيلُ كَالحِلْسِ البَالِي مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» [أخرجه الطبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٥/ ٦٤)، وابنُ أبي عاصمٍ في «السنَّة» (١/ ٢٧٦). والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (١/ ٢٧٦) وفي «السلسلة الصحيحة» (٥/ ٣٦٢)].

ـ وعن عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: «إِذَا تَكَلَّمَ بِالوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صَلْصَلَةً كَصَلْصَلَةِ الحَدِيدِ عَلَى الصَّفْوَانِ؛ فَيَفْزَعُونَ فَيَخِرُّونَ سُجَّدًا وَظَنُّوا أَنَّهُ أَمْرُ السَّاعَةِ، فَإِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ تَنَادَوْا: «مَا قَالَ رَبُّكُمْ؟» قَالُوا: «الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ»» [أخرجه أبو داود مرفوعًا في «السنَّة» (٥/ ١٠٥) بابٌ في القرآن، وعلَّقه البخاريُّ في «التوحيد» (١٣/ ٤٥٢) بابُ قولِ الله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ..﴾ [سبأ: ٢٣] موقوفًا، واللفظُ لأبي الشيخ في «العظمة» (٢/ ٤٦٤). وإسنادُه صحيحٌ، قال الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٢٨٣): «والموقوف ـ وإنْ كان أَصَحَّ مِنَ المرفوع؛ ولذلك علَّقه البخاريُّ في «صحيحه» (٩/ ١١٣) (مطبعة الفجالة) ـ فإنه لا يُعِلُّ المرفوعَ؛ لأنه لا يُقالُ مِنْ قِبَلِ الرأيِ كما هو ظاهرٌ، لاسيَّما وله شاهدٌ مِنْ حديثِ أبي هريرة مرفوعًا نحوَه»].

ب. عباداتٌ قوليةٌ:

• منها الذِّكْرُ والتسبيح والاستغفار والدعاء؛ فالملائكة الكِرامُ يذكرون اللهَ كثيرًا، وأَفْضَلُ ذِكْرِهم تسبيحُ اللهِ تعالى، وهو تسبيحٌ دائمٌ غيرُ مُتوقِّفٍ ولا مُنْقطِعٍ، ولا يَلْحَقهم ـ في تسبيحهم لله ـ مَلَلٌ ولا كَلَلٌ ولا سآمةٌ؛ ويدلُّ على ذلك نصوصٌ كثيرةٌ منها: قولُه تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى]، وقولُه تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقولُه تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ =

....

= ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء]، وقولُه تعالى: ﴿فَإِنِ ٱسۡتَكۡبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ۩ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت].

وقد يأتي التسبيحُ مقرونًا بالدعاء لأهل الأرض والاستغفارِ لهم كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر]؛ ولذلك سُمُّوا بالمُسبِّحين لكثرةِ تسبيحهم ولحُبِّهم له، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات]؛ فاللهُ ـ سبحانه ـ اختارَ لهم أفْضَلَ الذِّكْرِ وأحَبَّ الكلامِ إليه؛ فعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم سُئِلَ: «أَيُّ الكَلَامِ أَفْضَلُ؟» قَالَ: «مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلَائِكَتِهِ أَوْ لِعِبَادِهِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» [أخرجه مسلمٌ في «الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار» (١٧/ ٤٨) بابُ فضلِ: «سبحان الله وبحَمْدِه»]، وقد ثبَتَتْ أفضليةُ التسبيح على الكلام في حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «كَلِمَتَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ» [أخرجه البخاريُّ في «التوحيد» (١٣/ ٥٣٧) بابُ قولِ الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ومسلمٌ في «الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار» (١٧/ ١٩) بابُ فضلِ التهليل والتسبيح والدعاء].

• ومِنَ العبادات القوليةِ ـ أيضًا ـ: دعاءُ الملائكةِ الكِرامِ لجميعِ المؤمنين دعاءً عامًّا=

....

= بالخير والرحمة والهداية إلى النور مع الاستغفار لهم؛ قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأحزاب]، والمرادُ بالصلاةِ مِنَ الملائكة هو: بمعنى الدعاءِ للناسِ والاستغفارِ لهم، [انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ١٩٨)، «تفسير ابنِ كثير» (٣/ ٤٩٦)].

كما أنَّ الملائكة الكِرامَ تدعو للمؤمنين بالخير والرحمةِ دعاءً خاصًّا لأصحاب الأعمال الصالحة:

- كدُعائهم لطالبِ العلم ومُعلِّمِه؛ قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالأَرَضِينَ - حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ - لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيْرَ» [أخرجه الترمذيُّ في «العلم» (٥/ ٥٠) بابُ ما جاء في فضلِ الفقه على العبادة، مِنْ حديثِ أبي أمامةَ الباهليِّ ﷺ. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» برقم: (٢٦٨٥)].

وقال ﷺ: «.. وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ - لَيْلَةَ البَدْرِ - عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ..» الحديث [أخرجه أبو داود في «العلم» (٤/ ٥٧) بابُ الحثِّ على طلبِ العلم، والترمذيُّ في «العلم» (٥/ ٤٨) بابُ ما جاء في فضلِ الفقه على العبادة، وابنُ ماجه في «المقدِّمة» (١/ ٨١) بابُ فضلِ العلماء والحثِّ على طلبِ العلم، مِنْ حديثِ أبي الدرداء ﷺ. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٢٦٨٢)].

- ودعاء الملائكة الكِرامِ لمُنْتظِرِ الصلاةِ في المسجد ولِلَّذين يَصِلُون الصفوفَ ويَسُدُّون الفُرَجَ ودعاؤهم للصفوف الأولى؛ ويدلُّ على ذلك:

- قولُه ﷺ: «المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ مَا لَمْ=

= يُحْدِثْ، تَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ» [أخرجه البخاريُّ في «الصلاة» (١/ ٥٣٨) بابُ الحَدَثِ في المسجد. ومسلمٌ في «المساجد ومَواضِعِ الصلاة» (٥/ ١٦٦) بابُ فضلِ صلاة الجماعة وانتظارِ الصلاة. مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

وفي روايةٍ أخرى: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لَا يَزَالُ العَبْدُ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَ فِي مُصَلَّاهُ يَنْتَظِرُ الصَّلَاةَ، وَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ» حَتَّى يَنْصَرِفَ أَوْ يُحْدِثَ» [أخرجه مسلمٌ في «المساجد» (٥/ ١٦٦) بابُ فضلِ الصلاة المكتوبة في الجماعة، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

- وقولُه ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الَّذِينَ يَصِلُونَ الصُّفُوفَ، وَمَنْ سَدَّ فُرْجَةً رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً» [أخرجه ابنُ ماجه في «إقامة الصلاة» (١/ ٣١٨) بابُ إقامة الصفوف، مِنْ حديثِ عائشة رضي الله عنها. وإسنادُه صحيحٌ، انظر: «السلسلة الصحيحة» (٦/ ١/ ٧٢) رقم: (٢٥٣٢) و«صحيح ابنِ ماجه» (١/ ٢٩٦) رقم: (٨٢١) كلاهما للألباني].

- وقولُه ﷺ: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصَّفِّ الأَوَّلِ» [أخرجه ابنُ ماجه في «إقامة الصلاة» (١/ ٣١٩) بابُ فضلِ الصفِّ المتقدِّم، مِنْ حديثِ البَراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه. انظر: «صحيح ابنِ ماجه» (١/ ٢٩٧) رقم: (٨٢٣)]. وفي روايةِ أبي داود: «إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الصُّفُوفِ الأُوَلِ» [أخرجها أبو داود في «الصلاة» (١/ ٤٣٢) مِنْ حديثِ البَراءِ ابنِ عازبٍ رضي الله عنه. انظر: «صحيح أبي داود» للألباني (١/ ١٩٧) رقم: (٦٦٤)].

ومِنَ الأعمال الصالحةِ التي تدعو الملائكةُ الكِرامُ بالخير لمَنْ عَمِلَها: المُنْفِقُ مالَه في سبيل الله، والمتسحِّرُ، والمصلِّي على النبيِّ ﷺ، ومَنْ عادَ مريضًا. ويدلُّ على ذلك:

- قولُه ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ العِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: =

=« اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا »، وَيَقُولُ الآخَرُ: « اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » » [أخرجه البخاريُّ في «الزكاة» (٣/ ٣٠٤) بابُ قولِ الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥..﴾ [الليل]، ومسلمٌ في «الزكاة» (٧/ ٩٥) باب: كُلُّ نوعٍ مِنَ المعروف صدقةٌ، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

ـ وقولُه ﷺ: « إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى الْمُتَسَحِّرِينَ » [أخرجه الطبرانيُّ في «المعجم الأوسط» (٦/ ٢٨٧)، وابنُ حِبَّان في «صحيحه» ـ «موارد الظمآن» ـ (٢٢٢)، وأبو نُعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٢٠)، مِنْ حديثِ ابنِ عمر رضي الله عنهما. والحديث حسَّنه الألبانيُّ بمجموعِ طُرُقه، انظر: «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٢١٢) رقم: (١٦٥٤)].

ـ وقولُه ﷺ: « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصَلِّي عَلَيَّ إِلَّا صَلَّتْ عَلَيْهِ المَلَائِكَةُ مَا صَلَّى عَلَيَّ؛ فَلْيُقِلَّ العَبْدُ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ » [أخرجه ابنُ ماجه في «إقامة الصلاة» (١/ ٢٩٤) بابُ الصلاةِ على النبيِّ ﷺ، مِنْ حديثِ عامرِ بنِ ربيعةَ رضي الله عنه. والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح ابنِ ماجه» (١/ ٢٧٣) رقم: (٧٤٩)].

ـ وقولُه ﷺ: « إِذَا عَادَ الرَّجُلُ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ مَشَى فِي خِرَافَةِ الجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسَ، فَإِذَا جَلَسَ غَمَرَتْهُ الرَّحْمَةُ، فَإِنْ كَانَ غُدْوَةً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ كَانَ مَسَاءً صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ » [أخرجه أبو داود في «الجنائز» (٣/ ٤٧٥) بابٌ في فضلِ العيادة، وابنُ ماجه في «الجنائز» (١/ ٤٦٣) بابُ ما جاء في ثوابِ مَنْ عادَ مريضًا، وأحمد في «مسنده» (١/ ٨١)، مِنْ حديثِ عليٍّ رضي الله عنه. والحديث إسنادُه صحيحٌ. انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٣/ ٣٥٣) رقم: (١٣٦٧)].

فالحاصل: أنَّ عباداتِ الملائكةِ الكِرامِ القوليةَ كثيرةٌ، تتمثَّل في: الذِّكْرِ والتسبيح والاستغفار والدعاء ـ أيضًا ـ والتأمينِ والسلام واللعنِ ونحوِ ذلك، وذِكْرُ بعضِها يُنْبِئُ عن كُلِّها، وإلَّا ففي هذا الموضوعِ أحاديثُ كثيرةٌ أخرى ثابتةٌ، المَقامُ لا يَسَعُ=

= ذِكْرَها جميعًا.

ج. عباداتٍ فعليةٍ: منها: الصلاةُ وهيئاتُها مِنْ قيامٍ واصطفافٍ وركوعٍ وسجودٍ. وقد تَقَدَّمَ أنَّ المراد بالصلاة مِنَ الملائكةِ: الدعاءُ إذا تَعَلَّقَ بالأذكار، وهي **الصلاةُ العامَّةُ**، أمَّا **الصلاةُ الخاصَّةُ** بهم فهي في البيت المعمور، لا تأتي بها الملائكةُ فعلًا إلَّا مرَّةً واحدةً، لا يَعْلَمُ حقيقتَها ولا كيفيَّتَها، ولا يُحْصي عدَدَهم إلَّا خالِقُهم، وقد صحَّ ذلك في «حديثِ الإسراء»: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: « .. **فَرُفِعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: « هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ** » » [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣٠٢) بابُ ذِكْرِ الملائكة، ومسلمٌ في «الإيمان» (٢/ ٢٠٩) بابُ الإسراءِ برسول الله ﷺ، مِنْ حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه].

ومِنْ هيئات الصلاة الخاصَّةِ بالملائكة في مَقامِ العبادة: **القيامُ والاصطفافُ للصلاة**؛ فقَدْ أَقْسَمَ اللهُ بالملائكة الصافَّاتِ بين يديه ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فهي تَقِفُ في السماء صفوفًا في العبادة والطاعةِ كصفوف الخَلْق في الدنيا؛ قال تعالى: ﴿**وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ١**﴾ [الصافَّات]، كما يدلُّ عليه: ما حَكَاهُ اللهُ عنهم بقوله: ﴿**وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ١٦٥**﴾ [الصافَّات].

وهذا المعنى مِنَ القيام والاصطفافِ جاء مبيَّنًا في حديثِ حُذَيْفَةَ بنِ اليَمانِ رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « **فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ** .. » الحديث [أخرجه مسلمٌ في «المساجد ومَواضِعِ الصلاة» (٥/ ٤)].

وفي قوله ﷺ: « **أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟** » فَقُلْنَا: « يَا رَسُولَ اللهِ، =

= وَكَيْفَ تَصُفُّ المَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟» قَالَ: «يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الأُوَلَ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ» [أخرجه مسلمٌ في «الصلاة» (٤/ ١٥٢) باب السكون في الصلاة، مِنْ حديثِ جابر ابنِ سَمُرَةَ رضي الله عنهما].

وفي الحديث دلالةٌ واضحةٌ على أنَّ صفوف الملائكةِ في الصلاة تكون بهذه الصفة، [انظر: «شرح مسلم» للنووي (٤/ ١٥٤)، «فتح الباري» لابن رجب (٦/ ٢٦٨)].

ومِنْ هيئات صلاةِ الملائكة ـ أيضًا ـ: الركوعُ والسجودُ، ويدلُّ عليه: قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [النحل]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف]. ومِنَ السنَّة:

ـ حديثُ العَلاءِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال يومًا لجُلَسائِه: «هَلْ تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ؟» قَالُوا: «وَمَا تَسْمَعُ يَا رَسُولَ اللهِ؟» قَالَ: «أَطَّتِ السَّمَاءُ [أي: صاحتْ] وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ؛ إِنَّهُ لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ رَاكِعٌ أَوْ سَاجِدٌ، وَقَالَتِ المَلَائِكَةُ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافَّات]» [أخرجه محمَّد بنُ نصرٍ المروزيُّ في «تعظيم الصلاة» (١/ ٢٦١). وانظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٤/ ٢٩٩)].

ـ وحديثُ حكيمِ بنِ حِزامٍ رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فِي أَصْحَابِهِ إِذْ قَالَ لَهُمْ: «تَسْمَعُونَ مَا أَسْمَعُ؟» قَالُوا: «مَا نَسْمَعُ مِنْ شَيْءٍ»، قَالَ: «إِنِّي لَأَسْمَعُ أَطِيطَ السَّمَاءِ، وَمَا تُلَامُ أَنْ تَئِطَّ؛ وَمَا فِيهَا مَوْضِعُ شِبْرٍ إِلَّا وَعَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ»» [أخرجه الطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (٣/ ٢٠)، وأبو نُعَيْمٍ في «الحلية» (٢/ ٢١٧)، والبزَّار=

= في «مسنده» (٨/ ١٧٧)، والطحاويُّ في «مُشْكِل الآثار» (٣/ ١٦٧). والحديث إسنادُه صحيحٌ، انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (٢/ ٣٥١) رقم: (٨٥٢)].

وهذه النصوصُ المتقدِّمةُ تدلُّ على مَقاماتِ عبادةِ الملائكة عند ربِّها؛ فما مِنْ مَلَكٍ في السماوات إلَّا له مَوْضِعٌ معلومٌ ومَقامٌ مخصوصٌ يَتعبَّد فيه لله تعالى على ما أَمَرَه به ربُّه لا يَتجاوَزُه ولا يَتعدَّاه، وهو المعنى الذي حَكَاهُ ربُّ العِزَّةِ والجلالِ عنهم بقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات].

• **ثانيًا: أعمال الملائكة الكرام:**

فقَدْ تَقَدَّمَ أنَّ الله تعالى خَلَقَ الملائكةَ ووَكَلَ لهم القيامَ بأعمالٍ عِظامٍ في مُخْتَلَفِ شئون الخَلْقِ وتدبيرِ الكون المُشاهَدِ وغيرِ المُشاهَدِ تعبُّدًا لله تعالى بطاعته؛ فتلك الأعمالُ تَتناسَبُ مع ما وَهَبَهم اللهُ مِنْ قوَّةٍ جسديةٍ فائقةٍ؛ ولهم ـ إِذَنْ ـ أعمالٌ تَتعلَّقُ بالكون أي: العالَمِ العلويِّ والسفليِّ، وأعمالٌ أخرى تَتعلَّقُ بالإنسان باعتباره آدميًّا.

١) ـ أعمال الملائكةِ المتعلِّقةُ بالكون:

ويمكن أَنْ نُعَدِّدَ ـ باختصارٍ ـ بعضَ أعمال الملائكة الكِرامِ فيما يُوكَل إليهم في مُخْتَلَفِ شئون العالَمِ العلويِّ والسفليِّ، سواءٌ في الدنيا وما نُشاهِدُه، أو فيما يَغيب عنَّا مِنْ أمور الدنيا والآخرة، فمِنْ ذلك:

أ ـ الملائكة الموكَّلون بحملِ العرش (حَمَلة العرش):

فاللهُ تعالى خَلَقَ ملائكةً مِنْ جملةِ خَلْقِه يحملون عَرْشَه، وآخَرين حول عَرْشِه،=

....

= وَصَفَهم اللهُ تعالى بالتسبيحِ بحمده والدعاءِ لِمَنْ في الأرض بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧﴾ [غافر].

وحَمَلةُ العرشِ ـ مِنْ حيث عددُهم ـ على اختلافٍ، وهُمْ ثمانيةُ ملائكةٍ يومَ القيامة؛ لظاهِرِ قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ١٧﴾ [الحاقَّة].

ب ـ ملائكةٌ موكَّلون بالجنَّة والنار (خَزَنَةُ الجنَّة والنار):

ـ أمَّا خَزَنَةُ الجنَّة فهُمْ ملائكةٌ مُوكَّلون بالجنَّة، يَعْمُرُونها ويُعِدُّونها لأهلها، ويتلقَّوْنَ المؤمنين بالتحيَّة عند دخولهم الجنَّةَ، والتهنئةِ على ما حَصَلَ لهم مِنَ الله مِنَ التقريب والإنعام والإقامة في دار السلام؛ ويدلُّ على ذلك: قولُه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزُّمَر]، وقولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ [الرعد].

ـ وأمَّا خَزَنَةُ النار فهُمْ ملائكةٌ مُوكَّلون بالنار، يتلقَّوْنَ الكافرين بالتبشير بها حالَ دخولهم لها، ويلومونهم على تَرْكِهم لطاعةِ الله ورسوله ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ =

= حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزُّمَر]، وقال تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك]، ونحوهما مِنَ الآيات.

وهؤلاء ملائكةُ العذابِ لهم صفاتُ الغلظةِ وطباعُ الشدَّةِ والمنظرُ المُخيفُ الذي يَليقُ بأهل النار ويبعث ـ في نفوسهم ـ الحزنَ العميقَ والخوفَ الشديدَ، وهُمْ تسعةَ عَشَرَ مَلَكًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر]، ومعهم خَلْقٌ لا يُحصيهم إلَّا اللهُ تعالى، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدّثر: ٣١]، وقال الله تعالى ـ عن صفاتِهم الغليظة ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم].

ج ـ ملائكةٌ مُوكَّلون بالجبال والقَطْر والنبات والأرزاق:

فقَدْ تَقدَّمَ أنَّ الله أَرْسَلَ مَلَكَ الجبالِ إلى النبيِّ ﷺ يَسْتَأْمِرُه ليُطْبِقَ على أهلِ مكَّةَ الأخشبين، [انظر: (ص ٥٩)]، كما أنَّ الله تعالى وكَّل بالسحاب والقَطْرِ ملائكةً تزجر السحابَ وتَسوقُه إلى الأرض التي أَمَرَهم اللهُ بها، فتسقي أرضًا دون أرضٍ وبلدًا دون بلدٍ، وهُمُ المَعْنِيُّون بقوله تعالى: ﴿فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾﴾ [الصافّات]، [انظر: «تفسير ابنِ كثير» (٤/ ٢)، «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٣٨٦)]، وقد ثَبَتَ مِنْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن الرعد فقال: «مَلَكٌ مِنَ المَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ، مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللهُ» فَقَالُوا: «فَمَا هَذَا الصَّوْتُ الَّذِي نَسْمَعُ؟» قَالَ: «زَجْرُهُ بِالسَّحَابِ إِذَا زَجَرَهُ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى=

....

= حَيْثُ أُمِرَ» [أخرجه الترمذيُّ في «تفسير القرآن» (٥/ ٢٩٤) باب: ومِنْ سورة الرعد، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٧٤)، والطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١٢/ ٤٥) وفي «الدعاء» (٣٠٥)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٢٧٩). قال أحمد شاكر في تحقيقه لـ «مسند أحمد» (٤/ ١٦١): «إسنادُه صحيحٌ»، وحسَّنه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٤٩١) رقم: (١٨٧٢)].

وميكائيلُ مُوكَّلٌ بالقَطْر والنبات، وقد جاء التصريحُ به في حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ سأل جبريلَ: «عَلَى أَيِّ شَيْءٍ مِيكَائِيلُ؟» قَالَ: «عَلَى النَّبَاتِ وَالقَطْرِ» [أخرجه ابنُ أبي شيبة في «العرش وما رُوِي فيه» (٤٦٢)، والطبرانيُّ في «المعجم الكبير» (١١/ ٣٧٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٧٠١)، والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» (١/ ٣١٥). وإسنادُه صحيحٌ لشواهده، انظر: تحقيقَ محمَّد بنِ خليفة التميميِّ على كتاب «العرش وما رُوِي فيه» (٤٦٢)].

وضِمْنَ هذا السياقِ يقول ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«البداية والنهاية» (١/ ٤٦)]: «وميكائيلُ مُوكَّلٌ بالقَطْرِ والنباتِ اللَّذَيْنِ يخلق منهما الأرزاقَ في هذه الدار، وله أعوانٌ يفعلون ما يأمرهم به بأَمْرِ ربِّه: يُصرِّفون الرياحَ والسحابَ كما يشاء الربُّ جلَّ جلالُه، وقد روينا أنه ما مِنْ قطرةٍ تنزل مِنَ السماءِ إلَّا ومعها مَلَكٌ يُقَرِّرُها في موضعها مِنَ الأرض».

هذه بعضُ الأعمالِ العظيمةِ التي وَكَّل اللهُ ملائكتَه للقيام بها في الكون، بل لهم أعمالٌ جليلةٌ أخرى تزيد على ذلك بكثيرٍ، وهي مُتنوِّعةٌ، تُدَبِّرُ أَمْرَ العالَمِ العلويِّ والسفليِّ بإذنِ الله وبمشيئته وأَمْرِه، وتُباشِرُ تلك الأعمالَ تعبُّدًا لله تعالى، وهذا المعنى أَفْصَحَ عنه ابنُ القيِّم رحمه الله في [«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٢٥)] بقوله: «وكُلُّ حركةٍ في السماوات والأرض: مِنْ حركات الأفلاك والنجوم والشمس والقمر،=

= والرياحِ والسحاب، والنباتِ والحيوان، فهي ناشئةٌ عن الملائكةِ المُوكَّلين بالسماوات والأرض؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ۝٥﴾ [النازعات]، وقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ [الذاريات]، وهي الملائكةُ عند أهل الإيمان وأتباعِ الرُّسُل عليهم السلام، وأمَّا المُكذِّبون للرُّسُلِ المُنْكِرون للصانع فيقولون: هي النجوم»، ثمَّ قال رحمه الله: «.. وقد دلَّ الكتابُ والسنَّةُ على أصناف الملائكة، وأنها مُوكَّلةٌ بأصناف المخلوقات، وأنه ـ سبحانه ـ وكَّل بالجبال ملائكةً، ووَكَّل بالسحابِ والمطر ملائكةً، ووكَّل بالرَّحِم ملائكةً تُدبِّرُ أَمْرَ النطفةِ حتَّى يَتِمَّ خَلْقُها، ثمَّ وكَّل بالعبد ملائكةً لِحفْظِه، وملائكةً لِحفْظِ ما يعمله وإحصائه وكتابتِه، ووكَّل بالموت ملائكةً، ووكَّل بالسؤال في القبر ملائكةً، ووكَّل بالأفلاك ملائكةً يُحرِّكونها، ووكَّل بالشمس والقمر ملائكةً، ووكَّل بالنار وإيقادِها وتعذيبِ أهلها وعمارتِها ملائكةً، ووكَّل بالجنَّةِ وعمارتِها وغِراسِها وعَمَلِ الأنهار فيها ملائكةً؛ فالملائكةُ أَعْظَمُ جنودِ الله تعالى .. ومنهم ملائكةُ الرحمةِ وملائكةُ العذاب، وملائكةٌ قد وُكِّلوا بحَمْلِ العرش، وملائكةٌ قد وُكِّلوا بعمارةِ السماوات بالصلاة والتسبيح والتقديس، إلى غيرِ ذلك مِنْ أصناف الملائكة التي لا يُحْصِيها إلَّا اللهُ تعالى؛ ولفظُ «المَلَكِ» يُشْعِرُ بأنه رسولٌ مُنَفِّذٌ لأمرِ غيره؛ فليس لهم مِنَ الأمر شيءٌ، بلِ الأمرُ كُلُّه لله الواحدِ القهَّار..» [بتصرُّف].

٢) ـ أعمال الملائكةِ المتعلِّقةُ بالإنسان:

ومِنْ أَهَمِّ أعمال الملائكةِ المتعلِّقةِ بالإنسان:

أ ـ ملائكةٌ مُوكَّلةٌ بتدبيرِ أَمْرِ النطفة في الرَّحِم: مِنْ تخليقٍ ونقلٍ مِنْ طورٍ إلى آخَرَ=

= وتصويرٍ وما إلى ذلك؛ ويدلُّ عليه: حديثُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ وَأَجَلِهِ وَعَمَلِهِ وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؛ فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا، وَإِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا» [رواهُ البخاريُّ في «بدء الخلْق» (٦/ ٣٠٣) بابُ ذِكْرِ الملائكة، وفي «التوحيد» (١٣/ ٤٤٠) بابُ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافّات]، ومسلمٌ في «القَدَر» (١٦/ ١٩٠) بابُ كيفيةِ خَلْقِ الآدميِّ في بطنِ أمِّه].

ب ـ ملائكةٌ مُوكَّلةٌ بكتابة أعمال الإنسان مِنَ الحسنات والسيِّئات: وقد جَعَلَهم اللهُ تعالى كِرامًا يحفظون أعمالَ الإنسانِ وأقوالَه، ويكتبونها في صُحُفٍ حقيقيةٍ يقرأها الإنسانُ في الآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف]، وغير ذلك مِنَ الآياتِ الدالَّةِ على مُلازَمةِ الملائكةِ الكرامِ الكاتبين للإنسان، يكتبون كُلَّ أفعاله القلبيةِ وأقوالِه وجوارحِه كتابةً حقيقيةً تظهر يومَ=

= القيامة في صُحُفٍ حقيقيةٍ؛ قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء].

ج ـ ملائكةٌ مُوكَّلةٌ بإحاطةِ الإنسان وحِفْظِه ممَّا يضرُّه مِنَ الحوادث والأسواء والأعداء يتعاقبون فيه: وذلك في صلاة الفجر وصلاة العصر، فيقوم بعضُهم بخلافةِ بعضٍ في حماية الإنسان، حتَّى إذا جاء القَدَرُ الذي قُدِّرَ له خَلَّتْ عنه الحَفَظَةُ وتركَتْه؛ فأصابَهُ ما شاءَ اللهُ أَنْ يُصيبَه؛ قال تعالى: ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾ [الرعد]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الأنعام]، وقال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الطارق]، ومِنَ السنَّةِ: قولُه ﷺ: «يَتَعَاقَبُونَ فِيكُمْ مَلَائِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلَائِكَةٌ بِالنَّهَارِ، وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلَاةِ الفَجْرِ وَصَلَاةِ العَصْرِ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذِينَ بَاتُوا فِيكُمْ، فَيَسْأَلُهُمْ ـ وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ ـ: «كَيْفَ تَرَكْتُمْ عِبَادِي؟» فَيَقُولُونَ: «تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَأَتَيْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّونَ»» [أخرجه البخاريُّ في «مواقيت الصلاة» (٢/ ٣٣) بابُ فضلِ صلاة العصر، ومسلمٌ في «المساجد ومَواضِعِ الصلاة» (٥/ ١٣٣) بابُ فضلِ صلاتَيِ الصبح والعصرِ والمُحافَظةِ عليهما، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

د ـ ملائكةٌ مُوكَّلةٌ بالسفارة بين الله وعِبادِه: فهُمْ رُسُلُ الله وسُفَراؤه إلى خَلْقه، ينزلـون على الأنبياءِ والرُّسُل وحيًا، وعلى غيرِ الأنبياء تبشيرًا أو ابتلاءً؛ قال=

....

= تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وقال تعالى: ﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۢ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ ٥١﴾ [الشورى]، وقَدْ تَقَدَّمَ بيانُ تَمثُّلِ جبريلَ عليه السلام لمريمَ لتبشيرِها بعيسى عليه السلام، وتَمثُّلِ المَلَكِ في صورة الأقرع والأعمى والأبرص، ونحو ذلك.

هـ - ملائكةٌ مُوكَّلةٌ بقبضِ روحِ الإنسان عند الموت: ويدلُّ عليه: قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ٦١﴾ [الأنعام]، وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ ١١﴾ [السجدة]. ويحضر مع مَلَكِ الموت:

- إمَّا ملائكةُ الرحمةِ: كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ٣١﴾ [فُصِّلَت].

- وإمَّا ملائكةُ العذابِ: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٥٠ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾ [الأنفال]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ =

= ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلۡمَوۡتِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيۡدِيهِمۡ أَخۡرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَكُنتُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهِۦ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الأنعام].

وقد جاء ـ في السنَّةِ ـ تفصيلٌ لِعَمَلِ الملائكة المُوكَّلين بقبضِ الأرواح في حديثِ البَراء بنِ عازبٍ رضي الله عنه الطويل: « إِنَّ العَبْدَ المُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، بِيضُ الوُجُوهِ كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الجَنَّةِ وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الجَنَّةِ ... وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الوُجُوهِ، مَعَهُمُ المُسُوحُ .. » [أخرجه أبو داود في «السنَّة» (٥/ ١١٤) بابٌ في المسألة في القبر وعذابِ القبر، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨) واللفظُ له، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧). والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «أحكام الجنائز» (١٥٩)].

و ـ ملائكةٌ مُوكَّلةٌ بسؤال الميِّت في قبره: وقد جاء ذِكْرُ ذلك في حديثِ البَراءِ ابنِ عازبٍ رضي الله عنه المتقدِّم، وفيه: « .. فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: « مَنْ رَبُّكَ؟ » فَيَقُولُ: « رَبِّيَ اللهُ »، فَيَقُولَانِ لَهُ: « مَا دِينُكَ؟ » فَيَقُولُ: « دِينِيَ الإِسْلَامُ »، فَيَقُولَانِ لَهُ: « مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ » فَيَقُولُ: « هُوَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم »، فَيَقُولَانِ لَهُ: « وَمَا عِلْمُكَ؟ » فَيَقُولُ: « قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ »، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الجَنَّةِ »، قَالَ: « فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ .. وَإِنَّ العَبْدَ الكَافِرَ.. » إلى قوله: « .. حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ ».

والمَلَكان المُوكَّلانِ بعذاب القبر يُقال لأحَدِهما: المُنْكَرُ وللآخَرِ: النكيرُ؛ ويدلُّ=

= على الاسْمَيْن: حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا قُبِرَ المَيِّتُ ـ أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ ـ أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: المُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ ..» الحديث [رواهُ الترمذيُّ في «الجنائز» (٣/ ٣٨٣) بابُ ما جاء في عذاب القبر، وابنُ حِبَّان في «صحيحه» ـ «الموارد» ـ (١٩٧)، وابنُ أبي عاصمٍ في «السنَّة» (٤٠٢). والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» رقم: (١٠٧١) وفي «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٧٩) رقم: (١٣٩١)].

فهذه أَهَمُّ أعمالِ الملائكة الكِرام، وإِنْ كان لهم أعمالٌ أخرى كثيرةٌ، سواءٌ المتعلِّقة بالكون: كالمُوكَّلِ بالنفخ في الصُّورِ، أو الحافَّةِ بمكَّةَ والمدينةِ، أو المُوكَّلةِ بالشام، أو المُتعلِّقةِ بالإنسان: كالمُوكَّلةِ بالمساجد يومَ الجمعة، أو بمَجالِسِ الذِّكْر، أو تبليغِ النبيِّ ﷺ سلامَ أُمَّتِه عليه ونحوِ ذلك، وقد أَجْمَلَ ابنُ القيِّم رحمه الله القولَ في أعمال الملائكة، فبعدما قَدَّمْتُ كلامَه على الملائكةِ المُوكَّلةِ بالعالَمِ العلويِّ والسفليِّ أَنْقُلُ كلامَه عن الملائكة المُوكَّلةِ ببني آدَمَ مِنْ [«إغاثة اللهفان» (٢/ ١٣٠)] بما نصُّه: «والملائكةُ المُوكَّلةُ بالإنسان ـ مِنْ حينِ كونه نطفةً إلى آخِرِ أَمْرِه ـ لهم وله شأنٌ آخَرُ؛ فإنهم مُوكَّلون بتخليقه، ونَقْلِه مِنْ طَوْرٍ إلى طَوْرٍ، وتصويرِه، وحِفْظِه في أطباقِ الظلمات الثلاث، وكتابةِ رِزْقِه، وعَمَلِه، وأَجَلِه، وشقاوتِه وسعادتِه، ومُلازَمتِه في جميعِ أحواله، وإحصاءِ أقواله وأفعاله، وحِفْظِه في حياته، وقبضِ رُوحِه عند وَفاتِه، وعَرْضِها على خالِقِه وفاطِرِه. وهُمُ المُوكَّلون بعذابه ونعيمِه في البرزخ وبَعْدَ البعث، وهُمُ المُوكَّلون بعملِ آلات النعيم والعذاب، وهُمُ المُثَبِّتون للعبد المؤمنِ بإذن الله، والمُعَلِّمون له ما ينفعه، والمُقاتِلون الذابُّون عنه، وهُمْ أولياؤه في الدنيا والآخرة، وهُمُ الذين يُرُونَه ـ في مَنامِه ـ ما يَخافه لِيَحْذَره، وما=

لِحَدِيثِ عَائِشَةَ رضي الله عنها(١) قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «خُلِقَتِ المَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا

= يُحِبُّه ليقوى قلبُه ويزدادَ شكرًا، وهُمُ الذين يَعِدُونه بالخير ويَدْعُونه إليه، وينهَوْنَه عن الشرِّ ويُحذِّرونه منه؛ فهُمْ أولياؤه وأنصارُه، وحَفَظَتُه ومُعلِّموه وناصِحُوه، والدَّاعُونَ له والمُسْتَغْفِرُون له، وهُمُ الذين يُصَلُّون عليه ما دامَ في طاعةِ ربِّه، ويُصَلُّون عليه ما دامَ يُعلِّم الناسَ الخيرَ، ويُبشِّرونه بكرامةِ الله تعالى في مَنامِه وعند موتِه ويومَ بَعْثِه، وهُمُ الذين يُزهِّدونه في الدنيا ويُرغِّبُونَه في الآخرة، وهُمُ الذين يُذكِّرونه إذا نَسِيَ، ويُنشِّطونه إذا كَسِلَ، ويُثبِّتونه إذا جَزِعَ، وهُمُ الذين يَسْعَوْن في مَصالِحِ دُنْياهُ وآخِرَتِه؛ فهُمْ رُسُلُ اللهِ في خَلْقِه وأَمْرِه، وسُفَراؤُه بينه وبين عِبادِه، تَتنزَّلُ بالأمرِ مِنْ عندِه في أقطار العالَمِ وتصعد إليه بالأمر».

(١) هي أمُّ المؤمنين عائشةُ بنتُ أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنهما، القُرَشيةُ التيميةُ المكِّيةُ، وتُكنَّى بأمِّ عبد الله، وُلِدَتْ بعد المبعث بأربعِ سنينَ أو خمسٍ، وتزوَّجها النبيُّ ﷺ وهي بنتُ تسعِ سنينَ حين دَخَلَ بها، ولم يَنْكِحِ بكرًا غيرَها، ومِنْ أخصِّ مَناقِبِها: ما عُلِم مِنْ شيوعِ تخصيصها، وحُبُّ النبيِّ ﷺ لها، ونزولِ القرآن في عُذْرِها وبراءتها، والتنويهِ بقَدْرِها، ووفاةِ الرسول ﷺ عندها، ونزولِ الوحي في بيتها.

وهي أَفْقَهُ نساءِ الأمَّةِ على الإطلاق، وتُوُفِّيَ عنها رسولُ الله ﷺ وهي بنتُ ثماني عَشْرَةَ سنةً، ثمَّ عاشَتْ بعده ستًّا وأربعين سنةً، وتُوُفِّيَتْ سنة: (٥٧هـ) لسَبْعَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رمضان، وصلَّى عليها أبو هريرة رضي الله عنه، ودُفِنَتْ بالبقيع، في زَمَنِ خلافةِ مُعاوِيةَ بنِ أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين. =

وُصِفَ لَكُمْ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ[(١)(٢)]، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ

= انظر ترجمتها وأحاديثها في: «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٨/ ٥٨)، «الاستيعاب» لابن عبد البرِّ (٤/ ١٨٨١)، «أُسْد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٥٠١)، «وفيات الأعيان» لابن خِلِّكان (٣/ ١٦)، «سِيَر أعلام النُّبلاء» (٢/ ١٣٥) و«تذكرة الحُفَّاظ» (١/ ٢٧) كلاهما للذهبي، «البداية والنهاية» لابن كثير (٨/ ٩١)، «الإصابة» لابن حجر (٤/ ٣٥٩)، «أعلام النساء» لكحالة (٣/ ٩)، ومؤلِّفي: «الإعلام بمنثورِ تَراجِمِ المَشاهير والأعلام» (١٧٩).

(١) هو أبو الحسين مسلمُ بنُ الحجَّاج القُشَيْرِيُّ النيسابوريُّ، أحَدُ الأئمَّة مِنْ حُفَّاظ الحديث، تقوم شهرتُه ومكانتُه على كتابه: «الجامع الصحيح» الذي يفضِّله المغاربةُ على «صحيح البخاري»؛ لِمَا امتاز به مِنْ جمعِ الطُّرُق وجودةِ السياق والمحافظةِ على أداء الألفاظ مِنْ غير تقطيعٍ ولا روايةٍ بالمعنى. هذا، وقد كان مسلمٌ مِنْ أوعية العلم، ثِقَةً جليلَ القَدْر، له مؤلَّفاتٌ منها: «العِلَل» و«الأسماء والكُنَى» و«الطبقات» و«التاريخ». تُوُفِّيَ سنة: (٢٦١هـ).

انظر ترجمته في: «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٨/ ١٨٢)، «الفهرست» للنديم (٢٨٦)، «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (١٣/ ١٠٠)، «اللباب» لأبي الحسن ابن الأثير (٣/ ٣٨)، «وفيات الأعيان» لابن خِلِّكان (٥/ ١٩٤)، «سِيَر أعلام النُّبلاء» للذهبي (١٢/ ٥٥٧)، «مرآة الجنان» لليافعي (٢/ ١٧٤)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١١/ ٣٣)، «شذرات الذهب» لابن العماد (٢/ ١٤٤)، ومؤلِّفي: «الإعلام بمنثور تراجم المشاهير والأعلام» (٣٩٣).

(٢) أخرجه مسلمٌ في «الزهد» (١٨/ ١٢٣) بابٌ في أحاديثَ مُتفرِّقة، وأحمد في=

عِبَٰدُ(١) ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ(٢) خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ [الزخرف](٣)، ....

= «مسنده» (٦/ ١٥٣، ١٦٨)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٩/ ٦) وفي «الأسماء والصِّفات» (٢/ ٢٥٨) وفي «شُعَب الإيمان» (١/ ٣٠١)، وابنُ منده في «التوحيد» (٢٠٨)، وابنُ عساكر في «مُعْجَم الشيوخ» (١/ ٣٠٩)، وأبو الشيخ في «العظمة» (٢/ ٧٢٥).

في الحديثِ دليلٌ صريحٌ على أنَّ الخِلْقَةَ مِنْ نورٍ قاصرةٌ على الملائكة دون آدَمَ الذي خُلِقَ مِنْ طينٍ، وشَرَحَ القرآنُ أحوالَ الطين بأنه مِنْ صلصالٍ كالفخَّار، قال الألبانيُّ رحمه الله عن هذا الحديثِ في [«السلسلة الصحيحة» (١/ ١٩٧) رقم: (٤٥٩)] بأنَّ: «فيه إشارةٌ إلى بطلانِ الحديثِ المشهورِ على ألسنةِ الناس: «أوَّلُ ما خَلَقَ اللهُ: نورُ نَبِيِّكَ يا جابرُ»، ونحوِه مِنَ الأحاديث التي تقول بأنه ﷺ خُلِقَ مِنْ نورٍ؛ فإنَّ هذا الحديثَ دليلٌ واضحٌ على أنَّ الملائكة ـ فقط ـ هُمُ الذين خُلِقوا مِنْ نورٍ، دون آدَمَ وبَنِيهِ».

(١) «م.ر.ب، م.ف»: «عِندَ»، وهي قراءةُ نافعٍ.

(٢) «م.ر.ب، م.ف»: «أَءُشْهِدُواْ»، وهي قراءةُ نافعٍ.

(٣) قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٤/ ١٢٥)]: «.. فجمعوا بين أنواعٍ كثيرةٍ مِنَ الخطإ:

أَحَدُها: جَعْلُهم لله ولدًا، تعالى وتَقَدَّسَ وتَنَزَّهَ عن ذلك عُلُوًّا كبيرًا.

الثاني: دَعْواهُمْ أنه اصطفى البناتِ على البنين، فجعلوا الملائكةَ الذين هُمْ عِبادُ الرحمنِ إناثًا. =

وَلِقَوْلِهِ[١]: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء]، وَلِقَوْلِهِ[١]: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات][٢]، وَلِقَوْلِهِ[٣]: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ

= الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كُلِّه بلا دليلٍ ولا برهانٍ ولا إذنٍ مِنَ الله عزَّ وجلَّ، بل بمُجرَّدِ الآراء والأهواء، والتقليدِ للأسلاف والكُبَراءِ والآباء، والخَبْطِ في الجاهلية الجَهْلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقديرهم على ذلك قَدَرًا، والحجَّةُ إنما تكون بالشرع، وقد جَهِلوا في هذا الاحتجاجِ جَهْلًا كبيرًا؛ فإنه تعالى قد أَنْكَرَ ذلك عليهم أَشَدَّ الإنكار؛ فإنه منذ بَعَثَ الرُّسُلَ وأَنْزَلَ الكُتُبَ يأمر بعبادته وَحْدَه لا شريكَ له، وينهى عن عبادةِ ما سِواهُ».

وقد تَقَدَّمَ الشاهدُ مِنْ ذِكْرِ الآيةِ، وهو أنَّ الله تعالى ردَّ على مَنْ وَصَفَ الملائكةَ بأنهم بناتُ اللهِ وأنهم إناثٌ؛ فأَثْبَتَ اللهُ أَحَدِيَّتَهُ، وأنه لم يَلِدْ ولم يُولَدْ، ولم يكن له كُفُوًا أَحَدٌ.

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) وقد تَقَدَّمَ بيانُه في أنواع العبادات التي كَلَّفَ اللهُ بها ملائكتَه، منها: ذِكْرُ الله وتسبيحُه ودعاؤُه، وقد استفاضَ ذلك في الكتاب والسنَّة، وتسبيحُ الملائكةِ دائمٌ لا يَعْتَرِيهِ انقطاعٌ ولا تَلْحَقُه مَلالةٌ ولا كَلالةٌ ولا سَآمةٌ، ولكثرةِ حُبِّهم للتسبيح وأدائه تَسَمَّوْا به وأَقَرَّهم اللهُ تعالى على هذه التسمية.

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء]، وَلِقَوْلِهِ[1]: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل][2]، وَلِقَوْلِهِ[3]: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ ﴾ [الذاريات]، وَلِقَوْلِهِ[3]: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ ﴾ [النازعات]، وَلِقَوْلِهِ[3]: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا[4] عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ ﴾ [الطارق]، وَلِقَوْلِهِ[5]: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١]، وَلِقَوْلِهِ[5]: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الانفطار]، وَلِقَوْلِهِ[5]: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [ق]، وَلِقَوْلِهِ[5]: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس]، وَلِقَوْلِهِ[5]: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الواقعة]، وَلِقَوْلِهِ[5]: ﴿فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ ﴾ [المرسلات]،............

---

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٣/ ١٧٦) بتصرُّف]: «الملائكة عِبادُ اللهِ مُكْرَمُونَ عنده في مَنازِلَ عاليةٍ ومَقاماتٍ سامِيةٍ، وهُمْ له في غاية الطاعة قولًا وفعلًا .. لا يتقدَّمون بين يَدَيْه بأمرٍ، ولا يُخالِفونه فيما أَمَرَهم به، بل يُبادِرون إلى فِعْلِه، وهو تعالى عِلْمُه مُحيطٌ بهم؛ فلا يخفى عليه منهم خافيةٌ».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٤) «م.ر.ب، م.ف»: «لَمَا»، وهي قراءةُ نافعٍ.

(٥) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥](٢).

---

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) فهذه الآياتُ تَضمَّنَها العنوانُ الفرعيُّ الموسومُ بـ: «أعمال الملائكة الكِرام»، تلك الأعمال التي تُوكَلُ إليهم مِنْ ربِّ العِزَّةِ والجَلال في مُخْتَلفِ شئون الخَلْقِ وتدبيرِ الكون العلويِّ والسفليِّ، سواءٌ في الدنيا وما نُشاهِدُه أو فيما غابَ عنَّا مِنْ أمور الدنيا والآخرة، أو أعمال الملائكة المُتعلِّقة بالإنسان ـ كما تَقَدَّمَ تفصيلُه، [انظر: (ص ٧٥)] ـ وهي أعمالٌ ـ بلا شكٍّ ـ مُتعدِّدةٌ ومُتنوِّعةٌ، تربو عمَّا تمَّ ذِكْرُه بكثيرٍ، وهُمْ ـ في ذلك ـ رُسُلُ اللهِ، يُنَفِّذون أَمْرَ ربِّهم تَعَبُّدًا لله تعالى، وليس لهم مِنَ الأمرِ مِنْ شيءٍ، بلِ الأمرُ كُلُّه لله تعالى.

فحاصِلُ القول في عبادة الملائكة عليهم السلام أنها تَتبلْوَرُ في: اشتغالهم بعبادةِ الله تعالى على وجهِ الإخلاص له، مع التخلِّي عن جميعِ الشهوات، وهي عبادتان: إحداهما **مَحْضَةٌ**، قلبيةً كانَتْ أو قوليةً أو عمليةً، والأخرى **أعمالٌ تُوكَلُ إليهم** يقومون بها طاعةً لله تعالى، وتَتَّصِفُ عبادتُهم بالدوام والاستمرار على وجهِ الثبات ودون انقطاعٍ، يُؤدُّونها في تواضعٍ جَمٍّ دون استكبارٍ، ويقومون بأعمالٍ ـ على ضخامتها وكثرتها ـ بلا عُجْبٍ، ولا تنتهي أعمالُهم بانتهاء الدنيا، بل التكليفُ ـ في حَقِّهم ـ يبقى قائمًا في الآخرة، بخلافِ الإنسِ والجنِّ.

هذا، ونختمُ هذا الفصلَ بذِكْرِ أَهَمِّ **ثمرات الإيمان بالملائكة وفوائده**، وهي تتجلَّى في النقاط التالية:

ـ **أوَّلًا**: العلم بقدرة خالِقِ الملائكة والكونِ وعظمتِه، والتفكُّرُ في مخلوقاته، والنظرُ في آلائه، والتدبُّرُ في آياته؛ للوصول إلى إفراد الله بالألوهية والعبادة المتضمِّنِ=

= الإقرارَ بربوبية الله وبأسمائه وصِفَاتِه، وهي الغايةُ العُظْمى مِنْ خَلْقِ الخَلْقِ ومِنْ بَعْثِ الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ.

ـ **ثانيًا**: زيادة الإيمان ـ في قلب المؤمن ـ بالإيمان بالملائكة وما يقومون به مِنْ أعمالٍ عِظامٍ في مُخْتَلِفِ شئون الكون والحياةِ وما يُوكَّلون به مِنْ أعمالٍ تُجاهَ العباد.

ـ **ثالثًا**: شُكْرُ الله تعالى على نعمةِ خَلْقِه للملائكة للعنايةِ بِعِبادِهِ، حيث يَسَّرَ لهم ملائكةً مُوكَّلةً بالعمل على ما يُصْلِحُ أَمْرَ عِبادِهِ في الدنيا والآخرة؛ فيحفظون العبدَ بأمرِ الله منذ أَنْ كان في الظلمات الثلاث، وينقلونه مِنْ طَوْرٍ إلى طَوْرٍ حتَّى يخرج للدنيا، ويصحبونه صغيرًا إلى أَنْ يخرج مِنَ الدنيا، مع حَضِّهم له على الخير، وتحذيرِهم له مِنَ الشرِّ، وكتابةِ أعماله، ونحوِ ذلك ممَّا يستوجب شُكْرَ اللهِ تعالى على أَنْ وكَّلَ ملائكةً يقومون بحِفْظِه والاستغفارِ له والدعاءِ لإخراجه مِنَ الظلمات إلى النور بإِذْنِ ربِّهم.

ـ **رابعًا**: محبَّة الأعمالِ الصالحة التي ـ بفعلها والقيامِ بها ـ تُصلِّي الملائكةُ على أصحابها وتدعو لهم: كمعلِّمِ الناسِ الخيرَ وطالِبِ العلمِ والمتسحِّر، ومحبَّةُ الأماكنِ الفاضلةِ كالمساجد وحِلَقِ العلمِ ونحوِ ذلك؛ فإنها أَماكِنُ حلولِ الملائكةِ فيها وصلاتِهم على أهلها واستغفارِهم لهم.

ـ **خامسًا**: كراهةُ المعاصي والذنوبِ وبُغْضُها؛ لأنها سببُ لَعْنِ الملائكة لعامِلِها؛ فيجب أَنْ يتجنَّبها العبدُ ويَبْتَعِدَ عنها ويَحْرِصَ على أَنْ لا تَكْتُبَ عليه الملائكةُ إلَّا ما هو حَسَنٌ: فيترك البدعةَ لأنَّ الملائكة تلعن صاحِبَها، ويترك الإشارةَ إلى أخيه بالسلاح ونحوِه لأنَّ الملائكة تلعن فاعِلَه، ويُعَظِّمُ صحابةَ رسول الله ﷺ =

= ولا ينتقصهم بكلمةٍ لأنَّ الملائكة تلعن سابَّهم، ولا يُدْخِلُ بيتَه صورةً ولا كلبًا لئلَّا يمنع دخولَ الملائكةِ بيتَه، ونحو ذلك.

ـ سادسًا: محبَّةُ الملائكة على كبيرِ قَدْرِهم وعظيمِ عِبادتهم، وأَنْ يتأسَّى بهم فيما يُوافِقُ القدرةَ البشرية والأوامِرَ الشرعية: كالاقتداء بالملائكة في إتمام الصفوف وتَرَاصِّها، والإكثارِ مِنْ العبادة والمُداوَمةِ عليها، مع التواضع لله والبعدِ عن الاستكبار عن العبادة أو العُجْبِ في القيامِ بها أو المَنِّ على الله بفعلها ونحوِ ذلك.

ـ سابعًا: حصول الأمن والطمأنينة وزوالُ الخوف؛ وذلك إذا عَلِمَ العبدُ أنَّ الله وكَّل به ملائكةً يحفظونه مِنْ أمرِ الله وبإذنه، كذلك إذا ذَكَرَ اللهَ بالأذكار المشروعةِ حَفِظَتْه الملائكةُ بإذنِ ربِّها مِنَ السِّحر والشيطان والهامَّةِ والعين اللامَّةِ ونحوِ ذلك، وحَرَصَ بذلك على الأذكارِ ونحوِها مِنَ العبادات، التي يشعر فيها بالأمن والطُّمَأْنينة والسلامةِ مِنْ كُلِّ ما يَخاف ضرَرَه ويحذر أذيَّتَه.

باب

الإيمان بكتب الله تعالى[1]

ويشتمل على أربعة فصول.

- [فصل: معنى الإيمان بالكُتُب المنزلة ومقتضَياتُه]
- [فصل: حفظُ اللهِ القرآنَ دون غيره]
- [فصل: القرآن هو الهداية العامَّة للبشر]
- [فصل: الإيمان بالسُّنَّة إيمانٌ بالقرآن]

(١) «تعالى» ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

[فصل: معنى الإيمان بالكُتُب المنزلة ومقتضَياتُه][(١)]

نُؤْمِنُ بِجَمِيعِ كُتُبِ اللهِ الْمُنْزَلَةِ عَلَى رُسُلِهِ [عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ][(٢)]، فَمِنْهَا: التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ وَالزَّبُورُ [وَالقُرْآنُ، وَمِنْهَا غَيْرُهَا][(٣)] مِمَّا لَمْ نَعْلَمْهُ عَلَى سَبِيلِ التَّفْصِيلِ؛ فَكُلُّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ[(٤)]، ....

(١) «م.ر.أ»: «الإيمان بالكُتُب السماوية»، وساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ف».

(٣) «م.ف»: «وَالفُرْقَانُ، وَغَيْرُهَا».

(٤) انتقل المصنِّف رحمه الله مِنَ الفصل المتعلِّق بالإيمان بالملائكة عليهم السلام إلى أصلٍ آخَرَ مِنْ أصول الإيمان وأركانِه التي ينبني عليها إيمانُ العبدِ وصحَّةُ إسلامه، ولا يتمُّ له ذلك إلَّا به، وهو الإيمان بالكُتُب السماوية المُنْزَلةِ مِنَ الله تعالى على أنبيائه ورُسُله، ووجوبُ التصديقِ الجازم بها جميعًا؛ لأنها كلامُ الله الذي أوحاهُ إلى رُسُله؛ ليُبلِّغوا عنه شَرْعَه ودِينَه إلى عباده بالحقِّ المبين والهدى المستبين.

وقد استفاضَتِ النصوصُ الشرعية مِنَ الكتاب والسنَّة في إثبات هذا الأصل، وانعقد عليه إجماعُ الأمَّة سلفًا وخَلَفًا، ورضي بذلك المؤمنون؛ قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ =

= ﴿ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، والآياتُ القرآنية الدالَّةُ على هذا الأصلِ الإيمانيِّ كثيرةٌ جدًّا.

وأمَّا مِنَ السنَّةِ فيدلُّ عليه حديثُ جبريل عليه السلام حين سأل رسولَ الله ﷺ عن الإيمان فقال له: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٥١)].

وينقسم واقعُ الناسِ حِيالَ الكُتُبِ السماوية المُنْزَلة إلى ثلاثةِ أصنافٍ:

ـ الصنف الأوَّل: أتباع الرُّسُل: الذين يؤمنون بجميع الرُّسُل وما أُنْزِل إليهم مِنَ الكُتُب مِنْ غيرِ تفريقٍ بينها ولا تبعيضٍ ولا اختلافٍ، وقد امتدحهم اللهُ تعالى ووَصَفهم بالإيمان والتقوى في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ٥﴾ [البقرة]، وقولِه تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. قال ابنُ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح العقيدة الطحاوية» (٣٣٢) بتصرُّف]: «فجَعَلَ اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمانَ هو الإيمانَ بهذه الجملة، وسمَّى مَنْ آمَنَ بهذه الجملةِ مؤمنين، كما جَعَلَ الكافرين مَنْ كَفَرَ بهذه الجملةِ بقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [النساء].. فهذه الأصولُ التي اتَّفقَتْ عليها=

= الأنبياءُ والرُّسُلُ صلواتُ الله عليهم وسلامُه، ولم يؤمن بها حقيقةَ الإيمان إلَّا أتباعُ الرُّسُل».

- **الصنف الثاني: أعداء الرُّسُل**: مِنَ الكُفَّار والمشركين والمُلْحِدين ومَنْ سارَ على نهجهم مِنَ الفلاسفة وغيرِهم؛ فإنهم يُكذِّبون بها جميعًا، ويسخرون مِنَ الرُّسُل وأتباعِهم ويَصِفُونهم بالسفه، ويُسَمُّون أَنْفُسَهم حُكَمَاءَ بما عندهم مِنَ العقل والرأي والقياس، كما قال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ** ﴿٨٣﴾ ﴾ [غافر]. قال ابنُ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح العقيدة الطحاوية» (٣٣٣) بتصرُّف]: « وأمَّا أعداؤهم [أي: أعداء الرُّسُل] ومَنْ سَلَكَ سبيلَهم مِنَ الفلاسفة وأهلِ البِدَع فهُمْ مُتفاوِتون في جَحْدِها وإنكارها، وأعظمُ الناسِ لها إنكارًا الفلاسفةُ المُسَمَّوْنَ عند مَنْ يُعظِّمهم بالحُكَماء؛ فإنَّ مَنْ عَلِمَ حقيقةَ قولهم عَلِمَ أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رُسُله ولا كُتُبه ولا ملائكتِه ولا باليوم الآخِرِ .. أمَّا كُتُبُه ـ عندهم ـ فإنهم لا يَصِفُونه بالكلام، فلا يُكلِّم ولا يتكلَّم، ولا قال ولا يقول، والقرآنُ ـ عندهم ـ فيضٌ فاضَ مِنَ العقل الفعَّال على قلبِ بَشَرٍ زاكِي النفسِ طاهرٍ»، ونحو ذلك مِنَ التكذيب والتضليل والهذيان والباطل.

- **الصنف الثالث**: ويُلْحَق بأعداء الرُّسُل صنفٌ آخَرُ آمَنَ ببعض الكُتُب وكَفَرَ ببعضها؛ تكبُّرًا على الحقِّ واتِّباعًا للهوى وركونًا للظنونِ الكاذبة، وهُمُ اليهودُ والنصارى ومَنْ تَبِعَهم؛ فهُمْ يقولون: ﴿ **نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ** ﴾ [البقرة: ٩١]، وقد ذمَّهم اللهُ ـ تعالى ـ على هذا الإيمانِ المبعَّضِ الذي هو ـ في حقيقته ـ كفرٌ بجميع الكُتُب؛ إذ الإيمانُ المطلوبُ ـ شرعًا ـ =

= إنما هو إيمانٌ جامعٌ مُؤتلِفٌ لا يقبل تفريقًا بين أحَدٍ مِنْ كُتُبه أو رُسُلِه ولا تبعيضًا بينها ولا اختلافًا. وقد ذمَّ اللهُ تعالى الذين اختلفوا في الكتابِ وتَفَرَّقوا فيه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [البقرة]، وقَدْ توعَّدهم على أفعالهم المُخْزِيةِ بالعذاب الشديد في قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة].

هذا، ومِنْ **مُقْتَضَيات الإيمانِ بالوحي والكُتُب السماوية المُنْزَلة**: التصديقُ الجازم بأنها مِنْ كلام اللهِ المُنْزَل، تَكلَّم بها حقيقةً كما شاءَ على الصفة التي أراد، **فكان منها**:

ـ المسموعُ مِنْ وراءِ حجابٍ بلا واسطةٍ، فمِنْ ذلك ما خصَّ اللهُ تعالى به موسى عليه السلام وحيًا؛ فإنه كلَّمه مُشافَهةً منه إليه لا بواسطةٍ، حتَّى اشتهر بهذا عند العالَمِين فيقال: «موسى كليمُ الرحمن». قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء]، وقال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وكذلك لنبيِّنا محمَّدٍ ﷺ ليلةَ المعراج فقَدْ كلَّمه وحيًا بلا واسطةٍ [انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢/ ٣٢٠، ١٠/ ٤٣٣)].

ـ ومنها: ما يكلِّم اللهُ به رسولَه مِنَ الملائكة ويُسْمِعُه ويأمره بأَنْ يُبلِّغَه منه إلى رسوله مِنَ البشر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى]، ونحو ذلك مِنَ الآيات. ومنها: ما خطَّهُ اللهُ تعالى بيده كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى =

= ﴿ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف]. قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٢/ ٢٤٦) بتصرُّف]: «أخبر تعالى أنه كَتَبَ له في الألواح مِنْ كُلِّ شيءٍ موعظةً وتفصيلًا لكُلِّ شيءٍ .. وكانَتْ هذه الألواحُ مُشْتَمِلةً على التوراة التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ [القصص: ٤٣]، وقِيلَ: الألواحُ أُعْطِيَها موسى قبل التوراة»، وقد ثَبَت في حديثِ احتجاجِ آدَمَ وموسى عليهما السلام: «وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ» وفي لفظٍ: «كَتَبَ لَكَ التَّوْرَاةَ بِيَدِهِ» [أخرجه البخاريُّ في «القَدَر» (١١/ ٥٠٥) بابُ تَحاجِّ آدَمَ وموسى عند الله، ومسلمٌ في «القَدَر» (١٦/ ٢٠٠ ـ ٢٠١) بابُ حِجاجِ آدَمَ وموسى صلَّى الله عليهما وسلَّم، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (١٢/ ٥٢٠)]: «قد ثَبَت بالنقل الصحيح أنَّ الله كَتَب لموسى التوراةَ بيده وأنزلها مكتوبةً».

هذا، ومِنْ مُقْتَضَيَاتِ الإيمان بالكُتُب السماوية المُنَزَّلة ـ أيضًا ـ: التصديقُ بأنَّ الله أوجب العملَ بكُلِّ ما فيها مِنَ الشرائع على الأُمَمِ التي أُنْزِلَتْ إليهم الكُتُبُ الأولى لينقادوا لها ويحكموا بما فيها ويتحاكموا إليها، وليس فيها ما يُكذِّب بعضُه بعضًا، بل جميعُها يصدِّق بعضُه بعضًا، وأنَّ نَسْخَ الكُتُبِ الأولى بعضِها ببعضٍ حقٌّ، ويدلُّ على هذا المعنى قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ =

....

= وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٤ ـ ٤٩].

ويدلُّ على نسخ بعض شرائع التوراة بالإنجيل قولُه تعالى في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران]، وكذلك نسخُ القرآنِ ـ بعضِ آياته ببعضٍ ـ حقٌّ يدلُّ عليه: قولُه تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [النحل]، ونحوُها مِنَ الآيات القرآنية، =

....

= علمًا أنَّ الناسخ والمنسوخ مِنَ القرآن معلومةٌ آياتُه ومذكورةٌ في مَظانِّها مِنْ كُتُب التفسيرِ وغيرِها، [انظر: «مَعارِج القَبول» للحَكَمي (٢/ ٦٧٢ ـ ٦٧٤)].

هذا، والواجب على المُكلَّف أَنْ يُؤمِنَ بكُلِّ ما أَنْزَله اللهُ تعالى مِنْ كتابٍ أنه مِنْ عندِ الله وحقٌّ، سواءٌ ما سُمِّيَ أو ما لم يُسَمَّ مِنَ الكُتُب التي أنزلها على أنبيائه والتي لا يعلمها إلَّا هو ـ سبحانه ـ. وممَّا سمَّى اللهُ منها في كتابه: صُحُفُ إبراهيم، وألواحُ موسى وتَوْراتُه، وزبورُ داود، وإنجيلُ عيسى، وفرقانُ محمَّدٍ صلَّى الله عليه وعليهم أجمعين وسلَّم، وهي خمسةٌ ـ على الصحيح ـ على اعتبارِ أنَّ صُحُفَ موسى وألواحَه هي التوراةُ نَفْسُها، وإلَّا فهي ستَّةُ كُتُبٍ سماويةٍ مُنْزَلةٍ، وقد ذكَرَتِ السنَّةُ الصحيحةُ الكُتُبَ الخمسةَ المُنْزَلة، وأخبر النبيُّ ﷺ أُمَّتَه أنها نزلَتْ جميعُها في شهرِ رمضانَ فقال ﷺ: «**أُنْزِلَتْ صُحُفُ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ لِسِتٍّ مَضَيْنَ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الإِنْجِيلُ لِثَلَاثَ عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الزَّبُورُ لِثَمَانِي عَشْرَةَ خَلَتْ مِنْ رَمَضَانَ، وَأُنْزِلَ الْقُرْآنُ لِأَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مَضَتْ مِنْ رَمَضَانَ**» [أخرجه أحمد (٤/ ١٠٧)، والطبرانيُّ في «المُعْجَم الكبير» (٢٢/ ٧٥)، والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» (٣/ ٥٢١)، مِنْ حديثِ واثلةَ ابنِ الأسقع رضي الله عنه. والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٠٤) رقم: (١٥٧٥)].

والإيمان بالكُتُب السماوية المُنْزَلةِ إيمانٌ مُجْمَلٌ، يكون بالإقرار به بالقلب واللسان، وأمَّا الإيمانُ بالقرآن فهو إيمانٌ مفصَّلٌ، أي: يكون بالإقرار به بالقلب واللسان، ويزيد على غيره بوجوبِ اتِّباعِ ما جاء فيه، وامتثالِ أوامره واجتنابِ نواهيه، وتحليلِ حلالِه وتحريمِ حرامِه، وتحكيمِه في كُلِّ كبيرةٍ وصغيرةٍ. قال ابنُ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح العقيدة الطحاوية» (٣٥٠)]: «وأمَّا الإيمان بالكُتُب=

= المُنْزَلة على المُرْسَلين، فنؤمن بما سمَّى اللهُ تعالى منها في كتابه: مِنَ التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأنَّ لله تعالى سوى ذلك كُتُبًا أنزلها على أنبيائه، لا يعرف أسماءَها وعدَدَها إلَّا اللهُ تعالى.

وأمَّا الإيمان بالقرآن: فالإقرارُ به، واتِّباعُ ما فيه، وذلك أمرٌ زائدٌ على الإيمان بغيره مِنَ الكُتُب؛ فعلينا الإيمانُ بأنَّ الكُتُبَ المُنْزَلةَ على رُسُلِ الله أَتَتْهُمْ مِنْ عندِ الله، وأنها حقٌّ وهدًى ونورٌ وبيانٌ وشفاءٌ».

ومِنْ مُقْتَضَيَاتِ الإيمانِ بالكُتُب السماوية المُنْزَلةِ: أنَّ الله تعالى جَعَلَ الكُتُبَ الأولى خاصَّةً ببني إسرائيل، وموقوتةً بزمنٍ مُعيَّنٍ، ودَخَلَها التحريفُ والتبديلُ، وأصابَها الضياعُ والنسيان ـ كما سيأتي ـ ووَكَلَ اللهُ حِفْظَها إلى الذين اسْتُحْفِظوا عليها مِنَ الناسِ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ [المائدة: ٤٤].

لذلك كانَتْ مَحَلَّ نسخٍ بآخِرِ الكُتُبِ السماوية المُنْزَلةِ وأَكْمَلِها، وهو القرآنُ الكريمُ الذي نَسَخَ اللهُ تعالى به كُلَّ ما سَبَقَ مِنَ الكُتُب، لا مُبدِّلَ لشيءٍ مِنْ شرائعه بعده، وليس لأحَدٍ الخروجُ عن أحكامه؛ لأنَّ رسالةَ القرآنِ عامَّةٌ لكُلِّ الأُمَمِ وشاملةٌ لكُلِّ العصور والأقطار والبلدان؛ فوظيفةُ القرآنِ باقيةٌ إلى قيام الساعة لا تتوقَّف على صلاح العباد وفسادِهم، ولا تنتهي بموتِ آحادهم، وقد تولَّى اللهُ ـ تعالى ـ حِفْظَه بنَفْسِه، ولم يَكِلْه إلى غيرِه كما هو أَمْرُ الكُتُبِ الأولى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر].

وَكُلُّ مَا فِيهَا حَقٌّ[١]؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ[٢] مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورى: ١٥][٣]، ....

---

(١) المصنِّف رحمه الله أطلق على الكُتُب السماوية أنَّ «كُلَّ ما فيها حقٌّ»، ولم يُقيِّدْها بما قبل أَنْ تتطرَّق إليها يدُ التحريف والتصحيف والتبديل والتغيير والزيادة والنقص، وما أصابها مِنْ تضييعٍ ونسيانٍ، باستثناء القرآن الكريم الذي بقي في أمَّة النبيِّ ﷺ محفوظًا لم تَجْرِ عليه زيادةٌ ولا نقصانٌ، ولم يَفُتْ منه شيءٌ، ولم يَضِعْ بنسيانِ ناسٍ ولا ضلالِ صحيفةٍ، ولم يتعرَّضْ للتحريف ولا التبديل، كما وَعَد اللهُ تعالى بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر].

غير أنَّ المصنِّف ذَكَر هذا المعنى في الفصل الذي يَليه، مُشيرًا إلى أنَّ الكُتُبَ السماوية ما عَدَا القرآن الكريم قد دَخَل فيها التحريفُ والتبديل والتضييع وغيرها؛ ولهذا قال رحمه الله: «ففيها حقٌّ وفيها باطلٌ» [انظر: (ص ١٠٥)].

وكان الأَوْلى أَنْ يُقيِّد العبارةَ الأولى تقييدًا مُتَّصِلًا عند قوله عن الكُتُب المنزلة: «فكُلُّها مِنْ عندِ الله، وكُلُّ ما فيها حقٌّ» بما قبل دخول التحريف والتبديل عليها؛ لئلَّا يُتوهَّم التعارضُ بين العبارتين؛ فيُدْفَعُ الإيهامُ في وقته ويُبيَّن الأمرُ في حينه.

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.أ»، وهو خطأٌ في الآية.

(٣) والمصنِّف رحمه الله استدلَّ بهذه الآيةِ وغيرِها لإثباتِ وجوبِ الإيمان بجميعِ الكُتُب التي أنزلها اللهُ مِنَ السماء على رُسُله وأنبيائه إيمانًا جامعًا وتصديقًا جازمًا، مِنْ غيرِ اتِّباعِ سبيلِ أعداءِ الرُّسُل الذين كذَّبوا بها كُلِّها كما هو شأنُ الكُفَّار والمُشْرِكين وأضرابِهم، أو الذين آمنوا ببعضٍ منها وكفروا ببعضٍ وهُمُ اليهودُ والنصارى=

وَلِقَوْلِهِ[1]: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾ [آل عمران: ٣ ـ ٤][2]، وَلِقَوْلِهِ[3]: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾ [النساء: ١٦٣؛ الإسراء: ٥٥].

= ومَنْ تَبِعَهم؛ فإنَّ مقتضى الإيمانِ: التصديقُ الجازمُ بجميعِ الكُتُبِ السماوية المُنْزَلة وبجميعِ الأنبياء والمُرْسَلين، مِنْ غيرِ تفريقٍ ولا تبعيضٍ ولا اختلافٍ يُضادُّ الائتلافَ.

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ٣٤٣)] عند هاتين الآيتين: «وقولُه تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني: نَزَّلَ عليك القرآنَ ـ يا محمَّدُ ـ ﴿ بِٱلْحَقِّ ﴾ أي: لا شكَّ فيه ولا ريبَ، بل هو مُنَزَّلٌ مِنْ عندِ الله عزَّ وجلَّ، ﴿ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ [النساء]؛ وقولُه: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي: مِنَ الكُتُبِ المُنْزَلة قبلَه مِنَ السماء على عباد الله الأنبياء؛ فهي تُصدِّقُه بما أخبرَتْ به وبشَّرَتْ في قديم الزمان، وهو يُصدِّقها؛ لأنه طابَقَ ما أخبرَتْ به وبشَّرَتْ مِنَ الوعد مِنَ الله بإرسالِ محمَّدٍ ﷺ، وإنزالِ القرآن العظيم عليه؛ وقولُه: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ ﴾ أي: على موسى بنِ عمران عليه السلام، ﴿ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾ أي: على عيسى ابنِ مريم؛ ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي: مِنْ قبلِ هذا القرآن؛ ﴿ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ أي: في زمانهما؛ ﴿ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ﴾: وهو الفارقُ بين الهدى والضلال، والحقِّ والباطل، والغيِّ والرشاد، بما يذكره اللهُ تعالى مِنَ الحُجَجِ والبيِّنات، والدلائلِ الواضحات، والبراهينِ القاطعات، ويُبيِّنُه ويوضِّحُه ويُفسِّرُه ويُقرِّرُه، ويُرْشِدُ إليه ويُنبِّهُ عليه مِنْ ذلك».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

[فصل: حفظُ اللهِ القرآنَ دونَ غيرِه][١]

حَفِظَ اللهُ القُرْآنَ [دُونَ غَيْرِهِ: حَفِظَهُ][٢] مِنَ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصِ وَالتَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ؛ فَبَقِيَ كَمَا أَنْزَلَهُ اللهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ؛ فَهُوَ كُلُّهُ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَلَمْ يَحْفَظْ غَيْرَهُ مِنَ الكُتُبِ فَدَخَلَتْ عَلَيْهَا الزِّيَادَةُ وَالنَّقْصُ وَالتَّحْرِيفُ وَالتَّبْدِيلُ؛ فَفِيهَا حَقٌّ [وَفِيهَا بَاطِلٌ][٣]؛ [وَلِهَذَا جَعَلَ اللهُ القُرْآنَ شَاهِدًا عَلَيْهَا: فَمَا وَافَقَهُ فَهُوَ حَقٌّ، وَمَا خَالَفَهُ فَهُوَ بَاطِلٌ][٤]؛ ....

(١) «م.ف»: «أنزل اللهُ القرآنَ وحَفِظه»، وفي «م.ر.أ»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «حِفْظُ اللهِ للقرآن».

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر».

(٣) «م.ف»: «وَبَاطِلٌ».

(٤) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.ش».

القرآنُ الكريمُ هو كلامُ اللهِ ووحيُه وتنزيلُه غيرُ مخلوقٍ، تكلَّمَ اللهُ به حقيقةً، منه بَدَا وإليه يعود، مُعْجِزٌ في ذاته ونَظْمِه، لا يُشْبِهُ شيئًا مِنْ كلام المربوبين، ولا يقدر على مِثْلِه أحدٌ مِنَ المخلوقين؛ قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]، وهو المكتوبُ في المصاحف، المحفوظُ في الصدور، المنقولُ بالتواتر، المتعبَّدُ بتلاوته بإقامةِ حروفه وتحسينِه عند قراءته، والإيمانُ بالقرآن إنما يكون بامتثالِ=

= أوامِرِه واجتنابِ نواهيه، وتحليلِ حلالِه وتحريمِ حرامِه، والوقوفِ عند حدوده، «والذبِّ عنه في تأويل المحرِّفين له وطعنِ الطاعنين عليه، والتصديقِ بوَعْدِه ووعيدِه، والاعتبارِ بمَواعِظِه، والتفكُّرِ في عجائبه، والعلمِ بفرائضه وسُنَنِه وآدابه، والعملِ بمُحْكَمِه، والتسليمِ لمُتَشَابِهِه، والتفقُّهِ في علومه، والتبيُّنِ لَمواضِعِ المُرادِ به مِنْ خاصِّه وعامِّه، وناسخِه وسائرِ وجوهه» [«أعلام الحديث» للخطَّابي (١/ ١٩١ـ ١٩٢)].

والمصنِّف رحمه الله أراد بيانَ مَنْزِلةِ القرآن الكريم ومكانتِه بين الكُتُبِ المُنْزَلةِ الأخرى؛ فبيَّن أَهَمَّ فَرْقٍ وأَعْظَمَه، وهو: أنَّ القرآن الكريم «الذي في مَصاحِفِ المسلمين لم يَفُتْ منه شيءٌ، ولم يَضِعْ بنسيانِ ناسٍ ولا ضلالِ صحيفةٍ، ولا موتِ قارئٍ، ولا كتمانِ كاتمٍ، ولم يُحرَّفْ منه شيءٌ، ولم يُزَدْ فيه حرفٌ، ولم يُنْقَصْ منه حرفٌ» [«شُعَب الإيمان» للبيهقي (١/ ٣٢٦)].

فإنَّ القرآن الكريم كُلَّه حقٌّ مِنْ عندِ الله، وقد تَعَهَّدَ اللهُ تعالى بحِفْظِه إلى أَنْ يَرْفَعَه إليه؛ فقيَّضَ له رجالًا أُمَنَاءَ حَفِظوه في الصدور والسطور؛ فصَانَهُ مِنْ أَنْ تَمْتَدَّ إليه يدٌ بالتحريف أو التصحيف، أو التغييرِ أو التبديل؛ فـ «بقي في أُمَّتِه محفوظًا لم تَجْرِ عليه زيادةٌ ولا نقصانٌ؛ كما وَعَدَ اللهُ بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، وهو كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فُصِّلَتْ]» [«الاعتقاد» للبيهقي (١١٧)].

وهذا بخلافِ غيرِه مِنَ الكُتُب الأولى المُنْزَلة، فلم يَبْقَ فيها ما يُجْزَمُ بصحَّةِ نسبته إلى الله تعالى؛ لِمَا داخَلَها مِنْ تحريفٍ وتبديلٍ، وما أصابَهَا مِنْ تضييعٍ=

....

= ونسيانٍ، إلَّا ما وافقَهُ القرآنُ وصحَّحه ونصَّ عليه:

- فالتوراة المُتداوَلةُ - مثلًا - ليسَتْ كُلُّها هي التوراةَ التي نَزَلَتْ على موسى عليه السلام نورًا وهدًى، على ما جاءَ ثناءُ اللهِ تعالى عليها بقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنبياء]؛ فقَدْ أَثْبَتَ اللهُ تحريفَ التوراةِ، ونَعَى على اليهودِ التغييرَ وعابَ عليهم التبديلَ الذي أدخلوه عليها ليُخْفُوا ما في كتاب الله مِنَ الحقِّ، ونَسُوا قَدْرًا ممَّا ذكَّرهم اللهُ به في التوراة؛ قال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦].

- أمَّا الإنجيل فقَدْ لَحِقَهُ مِنَ التحريفِ أَعْظَمُ ممَّا لَحِقَ التوراة؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ [المائدة: ١٤-١٥].

لذلك جاء القرآنُ الكريمُ مصدِّقًا لِمَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الكُتُبِ السماويةِ السابقة، أي: مُؤيِّدًا للحقِّ الذي فيها مِنْ: توحيدِ الله في عبادته، والإيمانِ برُسُلِه، والتصديقِ باليومِ الآخِرِ وما يقعُ فيه مِنَ الجزاء، ورعايةِ الحقِّ والعدل، والتخلُّقِ بالأخلاق الفاضلة ونحوِ ذلك.

وفي الوقت ذاتِه جاءَ القرآنُ الكريمُ مُهَيْمِنًا عليها رقيبًا وشهيدًا ومبيِّنًا ما وَقَعَ=

= فيها مِنْ تحريفٍ وزيادةٍ ونقصٍ، وأخطاءٍ وأغلاطٍ، وتغييرٍ وتبديلٍ وتصحيفٍ؛ فكان ما صحَّحه القرآنُ الكريمُ منها وأقرَّه صحَّ وأُقِرَّ، وما أَبْطَلَهُ منها ونَفَاهُ ـ لكونه زورًا وزَيْغًا ودخيلًا ـ بَطَلَ وانتفى، وما سَكَت عنه فلم يصحِّحه ولم يُبْطِلْه فلا يُقَرُّ ولا يُنْفى، ويجوز حكايتُه؛ فتَبَلْوَرَتْ هيمنةُ القرآنِ على الكُتُب الأولى المُبدَّلةِ بالرقابة والشهادة، وتحقَّقَتْ هيمنتُه على شرائعها وأحكامِها بالإلغاء والنسخ.

فالحاصلُ: أنَّ الكُتُبَ السماوية الأولى فَقَدَتِ الكثيرَ مِنَ الهدى والنور والرحمة والموعظة التي حَمَلَتْها لأجيالها الأوَّلين، ولم تَعُدْ تُمَثِّلُ ـ حقيقةً ـ كُتُبَ اللهِ تعالى، ولا باستطاعتها الإصلاحُ، ولا هي قادرةٌ على الهداية لأهلها فضلًا عن سائر الخَلْق؛ بالنظر إلى ما تَطرَّقَ إليها مِنَ الزيادة والنقص، والتحريف والتبديل والتغيير. علمًا أنَّ تشريعاتِها وأحكامَها خاصَّةٌ ببني إسرائيل؛ فهي معيَّنةُ الأجيالِ، ومحدَّدةُ الأوقات والأزمنة، وخاصَّةُ البقاع والأمكنة، بخلاف التشريع القرآنيِّ، فهو عامٌّ للعالَمين مكانًا وزمانًا. ويدلُّ على عمومِ رسالةِ النبيِّ محمَّدٍ ﷺ: قولُه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]، وقولُه تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

لذلك أَنْزَلَ اللهُ تعالى على نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ القرآنَ الكاملَ الجامعَ المحفوظَ بالحقِّ مُصدِّقًا لِمَا بين يَدَيْهِ مِنَ الكتاب ومُهَيْمِنًا عليه، وأَمَرَ اللهُ تعالى رسولَه ﷺ أَنْ يحكم بالقرآنِ بين الناسِ كافَّةً على اختلافِ أجناسِهم ولُغاتِهم ودياناتِهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم =

= بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥]؛ فعُلِمَ بذلك: نَسْخُ القرآنِ الكريم لكُلِّ ما سَبَقَهُ مِنْ كُتُبِ اللهِ تعالى الأولى لفظًا وحُكْمًا؛ فلا يُعْمَلُ بما فيها مِنْ شرائعَ ولا يُتحاكَمُ إليها ولا يُتَعبَّدُ بتلاوتها، ونَسْخُ الدينِ الإسلاميِّ سائرَ الأديانِ والشرائع السابقة؛ مِصْدَاقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقولِه تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران].

ويدلُّ على ذلك مِنَ السنَّةِ: قولُه ﷺ لعُمَرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه لمَّا أتاهُ بكتابٍ أصابَهُ مِنْ بعضِ أهلِ الكتاب فقَرَأه عليه؛ فغَضِبَ ﷺ وقال: « أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ [أي: أهلَ الكتاب] عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي » [أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٣٨٧)، والدارميُّ في «سننه» (١/ ١١٥)، وابنُ أبي عاصمٍ في «السنَّة» (١/ ٢٧)، مِنْ حديثِ جابر بنِ عبد الله رضي الله عنه. والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «إرواء الغليل» (٦/ ٣٤) رقم: (١٥٨٩)].

ويُؤكِّد ما جَزَمَ به النبيُّ ﷺ مِنْ وجوبِ اتِّباعِ موسى عليه السلام له ـ فضلًا عن أُمَّته ـ قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ =

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ [الحجر](١)، وَلِقَوْلِهِ(٢): ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

= هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٨٢ ﴾ [آل عمران]. قال الحافظ ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ٣٧٨)]: «قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ وابنُ عمِّه عبدُ الله بنُ عبَّاسٍ رضي الله عنهم: ما بَعَثَ اللهُ نبيًّا مِنَ الأنبياء إلَّا أخَذَ عليه الميثاقَ: لَئِنْ بَعَثَ اللهُ محمَّدًا ﷺ وهو حيٌّ لَيُؤمِنَنَّ به ولَيَنْصُرَنَّه، وأَمَرَه أَنْ يأخذ الميثاقَ على أُمَّتِه: لَئِنْ بُعِثَ محمَّدٌ ﷺ وهُمْ أحياءٌ لَيُؤْمِنُنَّ به ولَيَنْصُرُنَّه»؛ فكان ذلك بيانًا لنَسْخِ «القرآنِ» لغيرِه مِنَ الكُتُب، ونَسْخِ دينِ «الإسلامِ» لغيرِه مِنَ الأديان.

(١) قال السعديُّ رحمه الله في [«تفسيره» (٤٩٨)]: «﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾ أي: القرآنَ الذي فيه ذِكْرَى لكُلِّ شيءٍ مِنَ المَسائلِ والدلائل الواضحة، وفيه يتذكَّرُ مَنْ أراد التذكُّرَ، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾ أي: في حالِ إنزاله وبَعْدَ إنزاله:

- ففي حالِ إنزاله: حافظون له مِنِ اسْتِرَاقِ كُلِّ شيطانٍ رجيمٍ.

- وبَعْدَ إنزالِه أَوْدَعَهُ اللهُ في قلبِ رسوله واستودعه فيها، ثمَّ في قلوب أُمَّتِه، وحَفِظَ اللهُ ألفاظَه مِنَ التغيير فيها والزيادةِ والنقص، ومَعانيَه مِنَ التبديل؛ فلا يُحرِّفُ مُحرِّفٌ معنًى مِنْ مَعانِيهِ إلَّا وقيَّض اللهُ له مَنْ يُبيِّنُ الحقَّ المُبينَ، وهذا مِنْ أَعْظَمِ آيات الله ونِعَمِه على عباده المؤمنين، ومِنْ حِفْظِه: أنَّ الله يحفظ أَهْلَه مِنْ أعدائهم، ولا يُسلِّطُ عليهم عَدُوًّا يجتاحهم».

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

[فصل: القرآن هو الهداية العامَّة للبشر][1]

نُؤْمِنُ بِأَنَّ القُرْآنَ العَظِيمَ أَنْزَلَهُ اللهُ تَعَالَى[2] هِدَايَةً عَامَّةً لِجَمِيعِ[3] البَشَرِ لِمَا فِيهِ سَعَادَتُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ وَالأُخْرَوِيَّةُ؛ بِتَنْوِيرِ العُقُولِ، وَتَزْكِيَةِ النُّفُوسِ، وَتَقْوِيمِ الأَعْمَالِ، وَإِصْلَاحِ الأَحْوَالِ، وَتَنْظِيمِ الاِجْتِمَاعِ[4] البَشَرِيِّ عَلَى[5] أَكْمَلِ نِظَامٍ، [وَكُلُّ مَنْ][6] خَالَفَهُ فَهُوَ ضَالٌّ[7]؛ ....

---

(١) «م.ر.أ»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «القرآن هدايةٌ»، وفي «م.ر.ب» بزيادةِ: «وظيفةُ القرآن».

(٢) «م.ف»: بزيادةِ: «إلى» بعدها، ولعلَّه خطأٌ مطبعيٌّ.

(٣) «م.ر.ش»: «جَمِيعَ».

(٤) «م.ف»: «المُجْتَمَعِ».

(٥) «م.ف»: «إِلَى».

(٦) «م.ر»: «وَأَنَّ كُلَّ مَا».

(٧) أراد المصنِّف رحمه الله ـ مِنْ خلالِ هذا الفصل ـ بيانَ ما في القرآنِ الكريم مِنَ الهدى والرحمةِ والموعظة والتذكيرِ والشفاء وعمومِ الخير للعالَمين جميعًا، بحيث لا يجد مُبْتغي الحقِّ أمامَه سوى القرآنِ الكريم لإدراكِ الحقائقِ العلمية المُثْبَتةِ فيه، والوصولِ إلى التعاليم الإلهية الصحيحةِ بما حَوَى مِنْ أصول التشريع وقواعدِه، والوقوفِ على أسراره وعجائبه؛ فهو الكتابُ العزيز والقرآنُ المَجيدُ الذي حُفِظَتْ أصولُه وسَلِمَتْ تعاليمُه، واشتمل على ما لم تَشْتَمِلْ عليه كُتُبُ المتقدِّمين مِنَ العلم العظيم والحقِّ المُبين واليقينِ المُوصِلِ إلى كُلِّ خيرٍ، والهدى=

= المُبيِّنِ للحقِّ مِنَ الباطل، والصحيحِ مِنَ الضعيف؛ فهو الهدى المُرْشِدُ للطُّرُقِ النافعةِ للعباد في دُنْيَاهم وأُخْرَاهُم لتحقيقِ سعادة الدارين؛ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة].

ويجدر التنبيه إلى أنَّ المصنِّف رحمه الله ذَكَر أنَّ الله أَنْزَل القرآنَ هدايةً عامَّةً لجميع البشر، ثمَّ أعقب ذلك بقوله: «وكُلُّ مَنْ خالفه فهو ضالٌّ»، ولعلَّه يُفْهَم مِنْ ذِكْرِ خصوص المخالِفِ الضالِّ عدمُ شمولِ الهداية له تحديدًا على وجه التعيين أو شمولُهَا له ابتداءً لا انتهاءً، أي: خروجه منها بسببِ مخالفته، وهو الأقرب إلى مذهب المصنِّف.

والذي يظهر لي صحيحًا أنَّ القرآن العظيم هدًى ورحمةٌ وموعظةٌ وتذكيرٌ للناس أجمعين، غير أنَّ المُخالِف الضالَّ لم تنتفِ عنه الهدايةُ كُلِّيًّا، وإنما حَصَل على هدايةٍ ناقصةٍ غيرِ نافعةٍ، وهي هدايةُ بيانٍ لا توفيقٍ؛ لعدمِ توفيقه للعمل بمُقتضاها؛ وفي هذا المعنى قال السعديُّ رحمه الله في [«تفسيره» (٢٩)]: « ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: لأنه ـ في نَفْسِه ـ هدًى لجميعِ الخَلْق: فالأشقياءُ لم يرفعوا به رأسًا، ولم يقبلوا هُدَى الله؛ فقامَتْ عليهم به الحجَّةُ، ولم ينتفعوا به لشقائهم، وأمَّا المُتَّقون الذين أَتَوْا بالسبب الأكبر لحصول الهداية ـ وهو التقوى التي حقيقتُها: اتِّخاذُ ما يَقِي سَخَطَ اللهِ وعذابَه، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ النواهي ـ فاهتدَوْا به، وانتفعوا غايةَ الانتفاع؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]؛ فالمُتَّقون هُمُ المُنْتَفِعون بالآيات القرآنية والآياتِ الكونية؛ ولأنَّ الهداية نوعان: هدايةُ البيانِ وهدايةُ التوفيقِ؛ فالمُتَّقون حَصَلَتْ لهم الهدايتان، وغيرُهم=

= لم تحصل لهم هدايةُ التوفيق، وهدايةُ البيانِ بدون توفيقٍ للعمل بها ليسَتْ هدايةً حقيقيةً تامَّةً».

ـ والقرآن الكريم هو الحافلُ بجميعِ ما يحتاج إليه البشرُ، والمُبيِّنُ لكُلِّ شيءٍ تتوقَّفُ عليه سعادتُهم الدنيويةُ والأخرويةُ مِنْ حيث العقائدُ والعبادات والأخلاق والآداب والمُعامَلاتُ؛ وهو البشرى للمسلمين بخيرِ الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]. قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٢/ ٥٨٢)]: «.. فإنَّ القرآن اشتمل على كُلِّ علمٍ نافعٍ مِنْ خبرِ ما سَبَقَ وعِلْمِ ما سيأتي، وكُلِّ حلالٍ وكُلِّ حرامٍ، وما الناسُ إليه محتاجون في أمرِ دنياهم ودينِهم ومَعاشِهم ومَعادِهم».

ـ والقرآن الكريم هو الجامع لأَسْمَى المبادئ وأَقْوَمِ المَناهِجِ وخيرِ النُّظُم، وهو خيرُ كفيلٍ بتكوين الفرد الكامل، وإعدادِ الأسرة الفاضلة، وإيجادِ المجتمع الصالح، والوسيلةُ الناجعةُ لإقامةِ الحقِّ والعدل، وإبعادِ الظلم، وصدِّ العدوان، ودفعِ الضلال والشقاء؛ قال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾﴾ [لقمان]، قال السعديُّ رحمه الله في [«تفسيره» (٧٥٨)]: «آياتُه مُحْكَمَةٌ، صدرَتْ مِنْ حكيمٍ خبيرٍ.

مِنْ إحكامها: أنها جاءَتْ بأَجَلِّ الألفاظ وأَفْصَحِها وأَبْيَنِها، الدالَّةِ على أَجَلِّ المعاني وأَحْسَنِها.

ومِنْ إحكامها: أنها محفوظةٌ مِنَ التغيير والتبديل، والزيادةِ والنقص، والتحريف.

ومِنْ إحكامها: أنَّ جميعَ ما فيها مِنَ الأخبار السابقةِ واللاحقة، والأمورِ الغيبيةِ=

= كُلَّها، مُطابِقةٌ للواقع، مُطابِقٌ لها الواقعُ، لم يخالفها كتابٌ مِنَ الكُتُبِ الإلهية، ولم يُخْبِرْ بخلافِها نبيٌّ مِنَ الأنبياء، ولم يأتِ ولن يأتيَ علمٌ محسوسٌ ولا معقولٌ صحيحٌ يُناقِضُ ما دلَّتْ عليه.

ومِنْ إحكامها: أنها ما أَمَرَتْ بشيءٍ إلَّا وهو خالصُ المصلحةِ أو راجِحُها، ولا نَهَتْ عن شيءٍ إلَّا وهو خالصُ المفسدةِ أو راجِحُها، وكثيرًا ما يجمع بين الأمرِ بالشيء مع ذِكْرِ حكمتِه وفائدتِه، والنهيِ عن الشيء مع ذِكْرِ مَضَرَّتِه.

ومِنْ إحكامها: أنها جمعَتْ بين الترغيب والترهيب، والوعظِ البليغ الذي تعتدل به النفوسُ الخيِّرةُ وتحتكم، فتعملُ بالحزم.

ومِنْ إحكامها: أنك تجد آياتِه المتكرِّرةَ ـ كالقَصص والأحكام ونحوِها ـ قد اتَّفقَتْ كُلُّها وتَواطأَتْ، فليس فيها تَناقُضٌ ولا اختلافٌ؛ فكُلَّما ازداد بها البصيرُ تدبُّرًا، وأَعْمَلَ فيها العقلَ تفكُّرًا؛ انبهر عَقْلُه وذَهِلَ لُبُّه مِنَ التوافق والتواطؤ، وجَزَمَ جزمًا لا يُمترى فيه: أنه تنزيلٌ مِنْ حكيمٍ حميدٍ.

ولكِنْ ـ مع أنه حكيمٌ: يدعو إلى كُلِّ خُلُقٍ كريمٍ، وينهى عن كُلِّ خُلُقٍ لئيمٍ ـ أَكْثَرُ الناسِ محرومون الاهتداءَ به، مُعْرِضون عن الإيمانِ والعمل به، إلَّا مَنْ وفَّقَهُ اللهُ تعالى وعَصَمَه، وهُمُ المُحْسِنون في عبادةِ ربِّهم والمُحْسِنون إلى الخَلْق».

ـ والقرآن الكريم هو العلم اليقينيُّ والنورُ الكاشفُ لجميعِ الظلمات القلبية، والمُزيلُ لجميعِ الشُّبَهِ والجهالات النفسية، والمبيِّنُ للحقائق والأسرار الكونية، وقد جَعَلَ اللهُ اتِّباعَ القرآن ـ وهُوَ النورُ المنزَّل الذي جاءَ به نَبِيُّنا محمَّدٌ ﷺ مبلِّغًا إلى الناسِ ـ سببَ فلاحِهم وسعادتِهم في الدنيا والآخرة؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا =

= ﴿النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [النساء]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف].

- والقرآن الكريم هو الشفاءُ والرحمةُ لجميعِ الأمراض الحسِّيَّةِ والمعنوية: فهو شفاءٌ لأمراضِ الأبدان وأعراضِ الأجسام وأدوائها، وشفاءٌ لأمراض القلوب والنفوسِ والعقول؛ فهو شفاءٌ مِنَ الكفر والشرك، والحيرةِ والخوف، والقلقِ والاضطراب، والكِبْرِ والحسد، والعجزِ والكسل، والظلمِ والجَوْر، والبخلِ والشُّحِّ؛ فهو شفاءٌ بالتذكير والموعظة الداعيةِ إلى اكتسابِ كُلِّ فضيلةٍ، والزاجرةِ عن كُلِّ رذيلةٍ؛ قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]، وهذا الشفاء خاصٌّ بالمؤمنين بالقرآن، المصدِّقين بآياته، العالِمين والعامِلين به، أمَّا الظالمون الجاحدون به فإنَّ الحجَّة تقوم عليهم به ولا تزيدهم آياتُه إلَّا خسارةً؛ قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾ [الإسراء].

- والقرآن الكريم هو الذِّكْرُ الإلهيُّ، جليلُ النعمةِ عظيمُ القَدْرِ كريمُ الوصفِ، به تَحْيَا قلوبُ العباد، وتَطيبُ أرواحُهم بتلاوته، وتزكو نفوسُهم بالعمل به؛ فهو المذكِّر لهم بكُلِّ ما يحتاجون إليه مِنَ العلم بأسماء الله وصِفاتِه وأفعالِه، وبأصولِ دِينهم وفروعِه، وبأخبارِ المَعاد والجزاء؛ فهو يُذكِّرُهم بما فيه الخيرُ الدنيويُّ والأخرويُّ ويحثُّهم عليه، ويذكِّرُهم بالشرِّ ويُرهِّبُهم منه؛ قال تعالى: ﴿ص ۚ وَالْقُرْآنِ =

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١]، ....

= ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف].

ـ والقرآن الكريم هو الروحُ التي تَتوقَّفُ عليها حياةُ البشر في مَنافِعِهم الدينيةِ ومَصالِحِهم الدنيوية، وإذا كان الجسدُ لا يَحْيَا بدونِ روحٍ فكذلك حالُ الناس؛ فإنهم أمواتٌ إنْ لم تَسْرِ فيهم الروحُ القرآنية؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى]، قال السعديُّ رحمه الله في [«تفسيره» (٨٩٧)]: « .. هذا القرآن الكريم سمَّاهُ: «روحًا» لأنَّ الروح يَحْيَا به الجسدُ، والقرآن تَحْيَا به القلوبُ والأرواح، وتَحْيَا به مَصالِحُ الدنيا والدين؛ لِمَا فيه مِنَ الخير الكثير والعلم الغزير، وهو محضُ مِنَّةِ الله على رسوله وعِبادِهِ المؤمنين، مِنْ غيرِ سببٍ منهم؛ ولهذا قال: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى﴾ أي: قبل نزوله عليك، ﴿مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي: ليس عندك علمٌ بأخبار الكُتُب السابقة، ولا إيمانٌ وعملٌ بالشرائع الإلهية، بل كُنْتَ أُمِّيًّا لا تخطُّ ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتابُ الذي ﴿جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾: يستضيئون به في ظلمات الكفر والبِدَع والأهواءِ المُرْدِيَة، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: تُبيِّنُه لهم وتوضِّحُه وتُنيرُه، وتُرغِّبُهم فيه، وتَنْهاهم عن ضدِّه وتُرهِّبُهم منه».

وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ(٢)﴾ [الإسراء: ٨٢]، وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمَ عَرَفَةَ فِي حَجَّةِ الوَدَاعِ: «وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ(٣) تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ: كِتَابَ اللهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ(٤).

---

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.أ».

(٣) «م.ف»: «لَمْ»، وهي روايةُ ابنِ ماجه أخرجها في «سننه» (٢/ ١٠٢٥).

(٤) أخرجها مسلمٌ في «الحجِّ» (٨/ ١٨٤) بابُ حجَّةِ النبيِّ ﷺ، مِنْ حديثِ جابر ابنِ عبد الله رضي الله عنهما. وأخرجه ـ أيضًا ـ أبو داود في «المناسك» (٢/ ٤٦٢) بابُ صفةِ حجَّة النبيِّ ﷺ، وابنُ ماجه في «المناسك» (٢/ ١٠٢٥) بابُ حجَّة رسول الله ﷺ، والبيهقيُّ في «سننه» (٥/ ٧)، وابنُ جارودٍ في «المنتقى» (١٩٢).

قال المباركفوريُّ رحمه الله في [«مرعاة المفاتيح» (٩/ ٢٥)]: «.. أي: هو كتابُ اللهِ، ولم يذكر السنَّةَ مع أنَّ بعضَ الأحكامِ يُستفادُ منها لاندراجها تحته؛ فإنَّ الكتاب هو المُبيِّنُ للكُلِّ: بعضها بلا واسطةٍ وبعضها بواسطةٍ؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، كذا في «شرح المواهب»، وقال القاري: إنما اقتصر على الكتاب لأنه مُشْتمِلٌ على العمل بالسنَّة لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩، وغيرها]، وقولِه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]؛ فيَلْزَمُ مِنَ العمل بالكتاب العملُ بالسنَّة، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الأصل الأصيلَ هو الكتابُ».

[فصل: الإيمان بالسُّنَّة إيمانٌ بالقرآن](١)

وَمِنَ الإِيمَانِ بِكِتَابِ اللهِ: أَنْ نُؤْمِنَ بِأَنَّ كُلَّ مَا ثَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَبَيَانٌ لِكِتَابِ اللهِ، وَأَنَّ الأَخْذَ بِهِ أَخْذٌ بِالقُرْآنِ، وَأَنَّ التَّرْكَ لَهُ تَرْكٌ لِلْقُرْآنِ(٢)؛ ....

(١) «م.ف»: «ترجمة: **الإيمان**»، وفي «م.ر.أ»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «**حقٌّ ما ثَبَت عن النبيِّ**»، وفي «م.ر.ب» بزيادةِ: «**حُجِّيَّةُ السنَّة**».

(٢) المُصنِّفُ رحمه الله بعدما أَظْهَرَ ـ في فصلٍ سابقٍ ـ منزلةَ القرآنِ مِنَ الكُتُبِ المُنْزَلةِ الأخرى، تَناوَلَ ـ في هذا الفصل ـ منزلةَ السنَّةِ في التشريعِ ومرتبتَها مِنَ القرآن الكريم؛ فإنَّ الله تعالى امتنَّ على هذه الأمَّةِ بالبعثة المحمَّدية التي تُعَدُّ مِنْ أعظمِ النِّعَمِ وأجلِّها؛ قال تعالى: ﴿**لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ١٦٤**﴾ [آل عمران]؛ فجَعَل اللهُ تعالى لنبيِّه الأمِّيِّ الأمين آيةً علميةً وحجَّةً خالدةً، وهي القرآنُ الكريم: آخِرُ الكُتُبِ وخاتمُها، وأعظمُها وأكملها وأشملُها؛ فأَنْزَلَهُ اللهُ تعالى على أكملِ صورةٍ مِنْ صُوَرِ الوحي، وضمَّن فيه محاسنَ ما قبله مِنَ الكُتُبِ المُنْزَلة، وزاده مِنَ الكمالات ما ليس في غيره؛ فجَمَع فيه الحِكَمَ والأحكامَ، والعلومَ والمعارفَ التي لا تنقضي عجائبُها ولا تنتهي فوائدُها، ووضَّح النبيُّ صلى الله عليه وسلم الحلالَ والحرام، وأصَّل الأصولَ وفصَّلها، حتَّى استتمَّ هذا الدِّينُ=

....

= واستقام، وقد وجّه العلماءُ عنايتَهم الفائقةَ إلى الاشتغال بالسنّة المطهّرة، وأظهروا مرتبتَها مِنَ القرآن الكريمِ ومنزلتَها في التشريع، ومِنْ مُنطلَقات النصوصِ الشرعيةِ المتضافِرة بيّنوا بيانًا شافيًا أنَّ مِنْ مُقتضَياتِ الإيمانِ بكتاب الله: الإيمانَ بأنَّ كُلَّ ما ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ فهو حقٌّ مِنْ عندِ الله، وبيانٌ لكتابِ الله، وأنَّ الأخذَ به أخذٌ بالقرآن، وأنَّ التركَ له تركٌ للقرآن.

وقد بيّن المصنِّف رحمه الله ـ في هذا الفصل ـ أنَّ السنَّة المُطهَّرةَ وحيٌ، وهي مصدرٌ تشريعيٌّ مُسْتقِلٌّ، وحجَّةٌ كاملةٌ في ثبوت الأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾ [النجم]، وقولِه تعالى: ﴿ **وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟** ﴾ [الحشر: ٧].

ولهذا لا تَقِلُّ السنَّةُ النبويةُ منزلةً عن القرآن في إثبات الأحكام؛ فما جاء عنه ﷺ في سُنَنِه فهو تبليغٌ للقرآن؛ فهي حقٌّ وصدقٌ، وكُلُّ حكمٍ في السنَّةِ يُعَدُّ حكمًا مِنْ عندِ الله تعالى، وأحكامُ الله تعالى متساويةٌ في العلم والاعتقاد والقول والعمل، لا تقبل التفاوتَ بينها ولا التمييزَ لأحَدِها عن الآخَر، وقد أوضح ابنُ حزمٍ رحمه الله هذا المعنى في [«الإحكام في أصول الأحكام» (١/ ١٣٥)] بقوله: «فصحَّ أنَّ كلام رسولِ الله ﷺ كُلَّه في الدِّين وحيٌ مِنْ عندِ الله عزَّ وجلَّ ـ لا شكَّ في ذلك ـ ولا خلافَ بين أحَدٍ مِنْ أهل اللغة والشريعةِ في أنَّ كُلَّ وحيٍ نَزَلَ مِنْ عندِ الله تعالى فهو ذِكْرٌ مُنزَّلٌ؛ فالوحيُ كُلُّه محفوظٌ بحفظِ الله تعالى له بيقينٍ».

ذلك لأنَّ القرآن والسنَّة صنوانِ مِنْ جهةِ وجوب الاتِّباع والتسليم بما جاء به اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ؛ لذلك أَمَرَ اللهُ تعالى بطاعة الرسول وجَعَلَ طاعتَه مِنْ=

= طاعةِ الله تعالى في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران]، وقولِه تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وأَمَرَ بالردِّ إلى الرسول عند النزاع وجَعَلَ الردَّ إليه مِنْ مُوجَباتِ الإيمان ولوازِمِه في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [النساء: ٥٩]، وقولِه تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء]، وجَعَلَ الخيارَ مُنْتفِيًا عن المؤمنين إذا صَدَرَ حكمٌ عن رسول الله ﷺ كما رتَّبَ الوعيدَ على مَنْ خالَفَ أَمْرَه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقولِه تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

أمَّا مِنَ السنَّةِ فيدلُّ على تأكيدِ طاعة النبيِّ ﷺ ووجوبِ اتِّباعه: قولُه ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: «يَا قَوْمِ، إِنِّي رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ؛ فَالنَّجَاءَ»، فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَأَدْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مَهَلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَاحَهُمْ، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي فَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ بِمَا جِئْتُ بِهِ مِنَ الحَقِّ» [أخرجه البخاريُّ في «الاعتصام» (١٣/ ٢٥٠) باب الاقتداءِ بسنن رسول الله ﷺ، ومسلمٌ في «الفضائل» (١٥/ ٤٨) بابُ شفقته ﷺ على أمَّته، ومُبالَغته في تحذيرهم ممَّا يضرُّهم. مِنْ حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه]، وقولُه ﷺ: «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ، وَمَنْ يَعْصِنِي فَقَدْ عَصَى اللهَ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ=

= يَعْصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي» [أخرجه البخاريُّ في «الأحكام» (١٣/ ١١١) بابُ قول الله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]، ومسلمٌ في «الإمارة» (١٢/ ٢٢٣) بابُ وجوبِ طاعةِ الأمراء في غيرِ معصيةٍ، وتحريمِها في المعصية، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، وقولُه ﷺ: «فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» [أخرجه البخاريُّ في «النكاح» (٩/ ١٠٤) باب الترغيب في النكاح، ومسلمٌ في «النكاح» (٩/ ١٧٥ ـ ١٧٦) بابُ استحباب النكاح لمَنْ تاقَتْ نَفْسُه إليه ووَجَدَ مُؤْنَةً، واشتغالِ مَنْ عَجَزَ عن المُؤَن بالصوم، مِنْ حديثِ أنسٍ رضي الله عنه، وفيه قولُه: «لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ..»]، ونحوُ ذلك مِنَ الأحاديث الصحيحة، وسيأتي مَزيدٌ منها قريبًا.

وبهذا المعنى الصحيح والفهم السليمِ لوجوب الاتِّباعِ والتسليمِ والطاعة اتَّصف صحابةُ رسول الله ﷺ أثناءَ تَلَقِّيهم لأحكامِ الله تعالى، ولم يُفرِّقوا ـ في العمل ـ بين حكمِ الله تعالى وحكمِ رسوله، بل عَمِلوا بهما جميعًا؛ لعِلْمِهم بأنَّ كِلَيْهما مِنَ الله تعالى في الأوامرِ والنواهي والحلالِ والحرام والوعدِ والوعيد وغيرِها، وقد وَصَفَهم اللهُ تعالى بذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور]؛ فمَنْ جَمَعَ بين طاعةِ الله وطاعةِ رسوله ﷺ وخشيةِ الله وتَقْواهُ فازَ بالمطلوب ونَجَا مِنَ المكروه؛ لأنَّ الله حَصَرَ الفلاحَ والفوزَ فيمَنْ حكَّم اللهَ ورسوله، وأطاعَ الله ورسولَه، وخَشِيَ اللهَ واتَّقاهُ؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور].

لذلك كان المؤمنُ مُكلَّفًا بالإيمان بكُلِّ ما جاء به الرسولُ ﷺ وبلزومِ طريقته في العلم والاعتقاد والقولِ والعمل، فما عَرَفَ مَعْناهُ آمَنَ به إيمانًا مُجْمَلًا ومُفصَّلًا، وما لم يعرف مَعْناهُ المُفصَّلَ آمَنَ به إيمانًا مُجْمَلًا. =

....

= كما أنَّ المؤمن مُطالَبٌ ـ شرعًا ـ باتِّباعِ الوحيين وطاعةِ الله وطاعةِ رسوله ﷺ بتطبيق الأحكام الشرعية والعملِ بمُقْتضاها كُلِّها، سواءٌ جاءَتْ في الكتاب العزيز أو وَرَدَتْ بها السنَّةُ الصحيحة الثابتةُ عن النبيِّ ﷺ إجماعًا، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (١٩/ ٨٥ ـ ٨٦)]: «وهذه السنَّةُ إذا ثَبَتَتْ فإنَّ المسلمين كُلَّهم مُتَّفِقون على وجوبِ اتِّباعِها».

والمؤمن مُطالَبٌ ـ أيضًا ـ بأَنْ لا يُقدِّمَ أيَّ شيءٍ بين يَدَيِ الله ورسولِه، وذلك هو ميزانُ الإيمانِ واليقين، ولا عُذْرَ له ـ ألبتَّةَ ـ في تركِ السنَّةِ اكتفاءً بالقرآن، أو الابتعادِ عنها بعدَمِ الرجوعِ إليها أو عدَمِ الاحتجاج بها، أو تأويلِها بدونِ مُسوِّغٍ شرعيٍّ؛ ذلك لأنَّ الأخذ بالسنَّة هو الأخذُ بالقرآن، والتركَ لها هو التركُ للقرآن، قال الشوكانيُّ رحمه الله في [«إرشاد الفحول» (٣٣)]: «اعْلَمْ أنه قد اتَّفق مَنْ يُعْتَدُّ به مِنْ أهل العلم على أنَّ السنَّة المُطهَّرةَ مُسْتقِلَّةٌ بتشريع الأحكام وأنها كالقرآن في تحليل الحلال وتحريم الحرام»، وقد وَرَدَتْ ـ في هذا الشأنِ ـ نصوصٌ شرعيةٌ كثيرةٌ تَقدَّمَ بعضُها، والمُصنِّفُ رحمه الله ذَكَرَ بعضَ الآيات القرآنية الدالَّةِ على هذا المعنى، ويمكن ـ تكملةً للنصوص القرآنية ـ إضافةُ بعضِ الأحاديثِ الصحيحة منها:

ـ حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ سُؤَالُهُمْ وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ؛ فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ**» [أخرجه البخاريُّ في «الاعتصام» (١٣/ ٢٥١) بابُ الاقتداء بسُنَنِ رسول الله ﷺ، ومسلمٌ في «الفضائل» (١٥/ ١٠٩) بابُ وجوبِ اتِّباعه ﷺ]. =

....

= - حديث العرباض بنِ ساريةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ في وصيَّته: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» [أخرجه أبو داود في «السنَّة» (٥/ ١٣) بابٌ في لزوم السنَّة، والترمذيُّ في «العلم» (٥/ ٤٤) بابُ ما جاء في الأخذ بالسنَّة واجتناب البِدَع، وابنُ ماجه في «المقدِّمة» (١/ ١٥) بابُ اتِّباعِ سنَّةِ الخلفاء الراشدين المهديِّين. والحديثُ صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» (٣/ ١١٩) برقم: (٤٦٠٧)].

- حديث أبي رافعٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ الأَمْرُ مِنْ أَمْرِي مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ فَيَقُولُ: لَا نَدْرِي، مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللهِ اتَّبَعْنَاهُ» [أخرجه أبو داود في «السنَّة» (٥/ ١٢) بابٌ في لزوم السنَّة، والترمذيُّ في «العلم» (٥/ ٣٧) بابُ ما نُهِيَ عنه أنْ يقال عند حديثِ النبيِّ ﷺ، وابنُ ماجه في «المقدِّمة» (١/ ٦) بابُ تعظيمِ حديثِ رسول الله ﷺ والتغليظِ على مَنْ عارَضَه. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٣/ ٦٤) وفي «صحيح ابن ماجه» (١/ ٢١)].

- حديث المقدام بنِ مَعْدِي كَرِبَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: «عَلَيْكُمْ بِهَذَا القُرْآنِ؛ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ»»، وفي رواية الترمذيِّ وابنِ ماجه بزيادةِ: «أَلَا وَإِنَّ مَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِثْلُ مَا حَرَّمَ اللهُ» [أخرجه أبو داود في «السنَّة» (٥/ ١٠) بابٌ في لزوم السنَّة، والترمذيُّ في «العلم» (٥/ ٣٨) بابُ ما نُهِيَ عنه أنْ يقال عند حديثِ النبيِّ ﷺ، وابنُ ماجه في «المقدِّمة» (١/ ٦) بابُ تعظيمِ حديثِ رسول الله ﷺ والتغليظِ على مَنْ عارَضَه. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الجامع» (٢/ ٣٧٩) و«صحيح الترمذي» (٣/ ٦٤) و«صحيح ابنِ ماجه» (١/ ٢١)]. =

....

= ـ حديث العرباض بنِ ساريةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ، قَدْ يَظُنُّ أَنَّ اللهَ لَمْ يُحَرِّمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ، أَلَا وَإِنِّي ـ وَاللهِ ـ قَدْ وَعَظْتُ وَأَمَرْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ، إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ» [أخرجه أبو داود في «الخراج والإمارة والفيء» (٣/ ٤٣٦) بابٌ في تعشير أهل الذمَّةِ إذا اختلفوا بالتجارات، والبيهقيّ في «السنن الكبرى» (٩/ ٣٤٣). والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٥٧٠) رقم: (٨٨٢). وصحَّحه الأرناؤوط في «سنن أبي داود» برقم: (٣٠٥٠)].

وهذه النصوص الحديثية تدلُّ على تحريم الإعراض عن حديثِ رسول الله ﷺ؛ لأنه مهما ثَبَتَ عنه ﷺ كان حجَّةً بنَفْسِه، ولأنَّ المُعْرِض عنه إنما هو مُعرِضٌ ـ في حقيقة الأمر ـ عن القرآن، ويؤكِّد ـ هذه الحقيقةَ ـ الخطَّابيُّ رحمه الله في [«مَعالِم السنن» (٥/ ١٠)] بقوله: «يُحذِّرُ بذلك مُخالَفةَ السنن التي سنَّها رسولُ الله ﷺ ممَّا ليس له في القرآنِ ذِكْرٌ على ما ذَهَبَتْ إليه الخوارجُ والروافضُ؛ فإنهم تَعلَّقوا بظاهِرِ القرآن، وتركوا السننَ التي قد ضُمِّنَتْ بيانًا للكتاب؛ فتَحيَّرُوا وضلُّوا».

وهذه النصوصُ السابقة ظاهرةٌ ـ أيضًا ـ في ثبوتِ حجِّيَّةِ السنَّة المُسْتقِلَّة، وهو ما أشار إليه الشوكانيُّ رحمه الله في [«إرشاد الفحول» (٣٣)] بقوله: «إنَّ ثبوت حجِّيَّةِ السنَّة المُطهَّرةِ واستقلالِها بتشريع الأحكام ضرورةٌ دينيةٌ، ولا يُخالِفُ في ذلك إلَّا مَنْ لا حَظَّ له في دين الإسلام».

والسلف مُتَّفِقون على أنَّ سنَّة النبيِّ ﷺ يجب اتِّباعُها مطلقًا، مِنْ غيرِ تفريقٍ بين السنَّة المُوافِقةِ للكتاب أو المُبيِّنةِ له، وبين السنَّةِ الزائدة على ما في القرآن، أي: الثابتة بتشريعٍ ابتدائيٍّ مِنَ النبيِّ ﷺ؛ فكُلُّ ذلك وحيٌ مِنْ عندِ الله تعالى، تجب طاعةُ النبيِّ ﷺ فيه ولا تَحِلُّ معصيتُه، وقَدْ أَفْصَحَ الشافعيُّ رحمه الله في [«الرسالة» =

= (١٠٤)] عن هذا المعنى بقوله: «فقَدْ بَيَّنَ اللهُ أنه فَرَضَ فيه طاعةَ رسوله، ولم يجعل لأحَدٍ مِنْ خَلْقه عُذْرًا بخلافِ أمرٍ عَرَفَه مِنْ أمرِ رسول الله، وأَنْ قد جَعَلَ اللهُ بالناسِ كُلِّهم الحاجةَ إليه في دينهم، وأقامَ عليهم حُجَّتَه بما دلَّهُمْ عليه مِنْ سنن رسول الله مَعانِيَ ما أراد اللهُ بفرائضه في كتابه؛ ليَعْلَمَ مَنْ عَرَفَ منها ما وَصَفْنا أنَّ سنَّتَه ﷺ إذا كانَتْ سنَّةً مُبيِّنةً عن الله مَعْنَى ما أرادَ مِنْ مفروضه فيما فيه كتابٌ يَتْلُونَه، وفيما ليس فيه نصُّ كتابٍ أُخْرَى؛ فهي كذلك أين كانَتْ، لا يختلف حكمُ الله ثمَّ حكمُ رسوله، بل هو لازمٌ بكُلِّ حالٍ».

وأكَّد ابنُ عبد البرِّ رحمه الله في [«جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٩٠)] وجوبَ طاعةِ الرسول واتِّباعِه مُطْلَقًا بقوله: «وقد أَمَرَ الله جلَّ وعزَّ بطاعته واتِّباعِه أمرًا مطلقًا مُجْمَلًا لم يُقيِّدْ بشيءٍ كما أَمَرَنا باتِّباع كتاب الله، ولم يقل: «وافَقَ كتابَ الله» كما قال بعضُ أهلِ الزيغ، قال عبد الرحمن بنُ مهديٍّ: «الزنادقةُ والخوارج وضعوا ذلك الحديثَ»، يعني: ما رُوِيَ عنه ﷺ أنه قال: «ما أتاكم عنِّي فاعْرِضُوهُ على كتاب الله، فإنْ وافَقَ كتابَ الله فأنا قُلْتُه، وإنْ خالَفَ كتابَ الله فلم أَقُلْه، وإنما أنا مُوافِقٌ كتابَ الله، وكيف أُخالِفُ كتابَ الله وبه هداني اللهُ؟!». وهذه الألفاظُ لا تصحُّ عنه ﷺ عند أهل العلم بصحيح النقل مِنْ سقيمه، وقد عارَضَ هذا الحديثَ قومٌ مِنْ أهل العلم وقالوا: نحن نعرض هذا الحديثَ على كتاب الله قبل كُلِّ شيءٍ ونعتمد على ذلك، قالوا: فلمَّا عَرَضْناهُ على كتاب الله عزَّ وجلَّ وَجَدْناه مُخالِفًا لكتاب الله؛ لأنَّا لم نجد في كتاب الله أَلَّا نقبل مِنْ حديثِ رسول الله ﷺ إلَّا ما وافَقَ كتابَ الله، بل وجَدْنا كتابَ الله يُطْلِقُ=

= التأسِّيَ به والأمرَ بطاعته، ويُحَذِّرُ المُخالَفةَ عن أَمْرِه جملةً على كُلِّ حالٍ».

قلت: وحديث الأمر بعَرْضِ الأحاديث على القرآن ضعَّفه يحيى بنُ مَعينٍ وقال: «إنه موضوعٌ وضَعَتْه الزنادقةُ»، ومثلُه عبد الرحمن بنُ مهديٍّ كما تَقدَّمَ، [انظر: «إرشاد الفحول» للشوكاني (٣٣)]، وقال الخطَّابيُّ في [«مَعالِم السنن» (٥/ ١١)]: «باطلٌ لا أصلَ له».

وقد ألَّف السيوطيُّ رحمه الله في هذا الشأنِ رسالتَه الموسومة بـ: «مفتاح الجنَّة في الاحتجاج بالسنَّة»، ضمَّن فيها ردًّا على هؤلاء الزنادقةِ والخوارج والروافض الذين تركوا السننَ ولم يعملوا بها؛ اكتفاءً بظواهر القرآن.

ولا يخفى أنَّ الأمر بلزوم السنَّةِ واتِّباعِ ما جاء به النبيُّ ﷺ مِنْ أَوْجَبِ الواجبات؛ إذ ليس مِنْ سبيلٍ في تَلَقِّي الدِّين إلَّا عنه، كما رتَّبَ النبيُّ ﷺ الهلاكَ والذِّلَّةَ والصَّغارَ على التقاعس عنِ اتِّباع السنَّةِ أو تَرْكِها؛ فقال ﷺ: «**لِكُلِّ عَمَلٍ شِرَّةٌ، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةٌ؛ فَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّتِي فَقَدِ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ١٨٨، ٢١٠)، وابنُ حِبَّان (١/ ١٨٧)، وابنُ خزيمة (٣/ ٢٩٣)، وابنُ أبي عاصمٍ في «السنَّة» (١/ ٢٨)، والبزَّار في «مسنده» (٦/ ٣٣٧)، والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» (٥/ ٢٩٠)، مِنْ حديثِ عبد الله بنِ عمرِو بنِ العاص رضي الله عنهما. قال الألبانيُّ رحمه الله: «إسنادُه صحيحٌ»، انظر: «ظلال الجنَّة» (١/ ٢٨) رقم: (٥١)]، وقال ﷺ: «.. **وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**» [علَّقه البخاريُّ بصيغةِ التمريض في «الجهاد والسِّيَر» (٦/ ٩٨) بابُ ما قِيلَ في الرماح، وأخرجه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢)، والخطيب في «الفقيه والمتفقِّه» (٢/ ٧٣)، مِنْ حديثِ ابنِ عمر رضي الله عنهما. قال ابنُ حجرٍ في «فتح الباري» (٦/ ٩٨): «وله شاهدٌ مُرْسَلٌ بإسنادٍ حَسَنٍ أخرجه ابنُ أبي شيبة». وانظر: «جلباب المرأة المسلمة» للألباني (٢٠٤)]. =

....

= هذا، وإذا تَقرَّرَ أنَّ كُلَّ ما صحَّ عن رسول الله ﷺ هو واجبُ الاتِّباع ـ سواءٌ كان شرعًا ابتدائيًّا أو بيانًا لِمَا شَرَعه اللهُ في كتابه ـ فإنه يَحْسُنُ ـ إكمالًا لهذا الفصل ـ أَنْ نختمه بمَراتِبِ السنَّةِ باعتبارِ علاقتها بالقرآن الكريم، فهي تنقسم ـ مِنْ حيث مَراتِبُها ـ إلى أقسامٍ ثلاثةٍ:

المرتبة الأولى: السنَّةُ المُقرِّرةُ لحكمِ القرآن المؤكِّدةُ له، وهي السنَّةُ المُوافِقةُ للقرآن مِنْ جميعِ الوجوه؛ فإنَّ الحكم المُترتِّبَ عليها يَثْبُتُ بدليلين: القرآن والسنَّة، وهذا القسمُ مِنَ السنَّة كثيرُ التطبيق، مثل وجوبِ الصلاة والزكاة والصوم والحجِّ، ومثل النهيِ عن الشرك وعقوقِ الوالدين وقتلِ النفس بغيرِ حقٍّ وغيرِها.

المرتبة الثانية: السنَّةُ المُبيِّنةُ لحكمٍ وَرَدَ في القرآن الكريم، وفي هذه المرتبةِ يَرِدُ البيانُ مُتنوِّعًا مِنْ وجوهٍ:

• فقَدْ يَرِدُ البيانُ على وجه التفسير لِمَا أُجْمِلَ مِنْ حكمٍ في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣، وغيرها]، وقولِه تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فلم يُبيِّنِ القرآنُ كيفيةَ الصلاةِ ولا مِقْدارَ الزكاةِ ولا مفهومَ الصومِ ولا مَناسِكَ الحجِّ؛ فأتَتِ السنَّةُ رافعةً للإجمال الحاصل في هذه الأحكامِ بالبيان والتوضيح والتفصيل.

• وقد يَرِدُ البيانُ على وجه التخصيص لحكمٍ عامٍّ في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡ﴾ [النساء: ١١]؛ فالآيةُ ـ بعمومها ـ تدلُّ على أنَّ جميعَ الأولادِ يَرِثُون مِنْ آبائهم، وجاءَتِ السنَّةُ فبيَّنَتْ أنَّ هذا العمومَ مخصوصٌ فلا=

= يَسْتَحِقُّ الولدُ الكافرُ ولا القاتلُ لمورثِّه الإرثَ، وكذلك آيات الزكاةِ شاملةٌ لكُلِّ مالٍ، فخصَّصَتْها السنَّةُ بأموالٍ واجبةِ الزكاةُ فيها دون غيرِها، وقولِه تعالى ـ أيضًا ـ بعد آية المحرَّمات مِنَ النساء: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ﴾ [النساء: ٢٤]؛ فخصَّصَتِ السنَّةُ العمومَ بتحريمِ نكاحِ المرأةِ على عمَّتِها وخالَتِها، أي: الجمعِ بينهما.

• وقد يَرِدُ البيانُ على وجه التقييد لحكمٍ مطلقٍ في القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣]؛ فالرضاعُ مُطْلَقٌ؛ فبيَّنَتِ السنَّةُ العددَ المُحرِّمَ المُقيِّدَ للرضاع وهو خمسُ رضعاتٍ مُشْبِعاتٍ على الصحيح، وكذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]؛ فاليدُ مُطْلَقةٌ، وجاءَتِ السنَّةُ مُقيِّدةً للإطلاق، فبَيَّنَتْ مَحَلَّ القطعِ وهو مِنْ كُوعِ اليد اليمنى.

المرتبة الثالثة: السنَّة المُسْتقِلَّةُ بشرعٍ ابتدائيٍّ، وتُسمَّى ـ أيضًا ـ: السنَّةَ الزائدة على ما في القرآن؛ فهي تُنْشِئُ حكمًا جديدًا سَكَتَ القرآنُ الكريم عن إيجابه أو تحريمه، مثل: أحكام الشفعة، والقضاءِ بشاهدٍ ويمينٍ، ونحوِ ذلك.

وقد نصَّ الشافعيُّ رحمه الله على هذه المَراتبِ الثلاث في [«الرسالة» (٩١ ـ ٩٢)] بقوله: «فلم أَعْلَمْ مِنْ أهل العلم مُخالِفًا في أنَّ سنن النبيِّ مِنْ ثلاثة وجوهٍ، فاجتمعوا منها على وجهين.

والوجهان يجتمعان ويتفرَّعان: أحَدُهما: ما أَنْزَلَ اللهُ فيه نصَّ كتابٍ فبَيَّنَ رسولُ الله مِثْلَ ما نصَّ الكتابُ، والآخَرُ مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ فيه جملةَ كتابٍ فبَيَّنَ عن الله مَعْنَى ما أراد، وهذانِ الوجهان اللَّذان لم يختلفوا فيهما.

والوجه الثالث: ما سنَّ رسولُ الله فيما ليس فيه نصُّ كتابٍ». =

....

= هذا، وقد أضافَ بعضُ العُلَماء على ما تَقدَّمَ مرتبةً رابعةً وهي: **السنَّة الناسخةُ للحكم الوارد في القرآن الكريم**، وهذه المرتبةُ مَحَلُّ اختلافٍ بين العُلَماء، وذَهَبَ أَكْثَرُ الفُقَهاء إلى جوازِ نَسْخِ القرآن بالخبر المُتواتِر، مثل قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة: ١٨٠]؛ فهو منسوخٌ ـ عندهم ـ بحديثِ: « **إِنَّ اللهَ قَدْ أَعْطَى كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ؛ فَلَا وَصِيَّةَ لِوَارِثٍ** » [أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٧)، وأبو داود في «البيوع والإجارات» (٣/ ٨٢٤) بابٌ في تضمين العارية، والترمذيُّ في «الوصايا» (٤/ ٤٣٣) بابُ ما جاء: لا وصيَّةَ لوارثٍ، وابنُ ماجه في «الوصايا» (٢/ ٩٠٥) باب: لا وصيَّةَ لوارثٍ، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٦/ ٢٦٤)، مِنْ حديثِ أبي أُمامة الباهليِّ رضي الله عنه. والحديث رواهُ جمعٌ مِنَ الصحابة، وله طُرُقٌ مُتعدِّدةٌ، وإنْ كان سندُه قويًّا في موضعٍ وفي آخَرَ وَرَدَ مِنْ طُرُقٍ لا يخلو إسنادٌ منها مِنْ مَقالٍ، لكِنْ بمجموعها يعتضدُ الحديثُ ليَثْبُتَ تواترُه بالانضمام ـ كما تَقرَّرَ في أصول الحديث ـ انظر: «نصب الراية» للزيلعي (٤/ ٤٠٣)، «الدراية» (٢/ ٢٩٠) و«التلخيص الحبير» (٣/ ٩٢) كلاهما لابن حجر، «فيض القدير» للمُناوي (٢/ ٢٤٥)، «إرواء الغليل» للألباني (٦/ ٨٧)].

كما يجوز نَسْخُ القرآنِ الكريم بخبر الآحاد على الراجح؛ لأنَّ الجميع وحيٌ مِنَ الله تعالى، واللهُ هو الناسخُ حقيقةً، وقد ثَبَتَ وجوبُ التعبُّدِ بالوحي عن طريق القطع، لكنَّ غايةَ ما في الأمرِ أنه ـ بعد تَتبُّعِ الأدلَّةِ واستقرائها ـ لا يُوجَدُ مثالٌ في الشرع يدلُّ على الوقوع، [انظر المصادرَ الأصولية التالية: «الإحكام» لابن حزم (٤/ ١٠٧)، «الإشارة» للباجي (٣٠٨)، «التبصرة» للشيرازي (٢٦٤)، «المستصفى» للغزَّالي (١/ ١٢٦)، «التمهيد» للكلوذاني (٢/ ٣٨٢)، «الوصول» لابن بَرهان (٢/ ٤٧)، «روضة الناظر» لابن قدامة (٢/ ٢٢٧)، «المسوَّدة» لآل تيمية (٢٠١، ٢٠٧)، «شرح الكوكب المنير» للفتوحي (٣/ ٥٦١)، «فواتح الرحموت» للأنصاري (٢/ ٧٦)، «إرشاد الفحول» للشوكاني (١٩٠)]. =

= وبمجموعِ مراتب السنَّة المتقدِّمة يظهر ـ جليًّا ـ أنَّ حاجة القرآنِ أكيدةٌ إلى السنَّة النبوية مِنَ الوجوه السالفة البيان، وضِمْنَ هذا المنظورِ قال الأوزاعيُّ رحمه الله: «الكتابُ أحوجُ إلى السنَّة مِنَ السنَّة إلى الكتاب» [انظر: «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البرِّ (٢/ ١٩١). وجاء ـ أيضًا ـ عن مكحولٍ: أورده ابنُ عبد البرِّ في «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٩١)]، قال ابنُ عبد البرِّ رحمه الله موضِّحًا ذلك بما نصُّه في [المصدر السابق (٢/ ١٩١)]: «يريد أنها تقضي عليه وتُبيِّنُ المرادَ منه، وهذا نحوُ قولهم: تَرَكَ الكتابُ موضعًا للسنَّة، وتركَتِ السنَّةُ موضعًا للرأي».

وأخيرًا، فإنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ السنَّة المُطهَّرةَ مصدرٌ تشريعيٌّ مُسْتَقِلٌّ بالتشريع والبيانِ؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، على ما تَقدَّمَ بيانُه.

غيرَ أنَّ السنَّة الصحيحة الثابتة ـ وإنْ كانَتْ قطعيةَ الثبوتِ عن النبيِّ ﷺ جملةً ـ إلَّا أنها مِنْ جهةِ التفصيل فمنها: ما هو قطعيُّ الثبوتِ كالحديث المتواتر، ومنها: ما هو ظنِّيُّ الثبوت كخبر الآحاد المُجرَّدِ عن القرائن، وهو الغالبُ في السنَّة، بخلاف القرآن فهو قطعيُّ الثبوتِ جملةً وتفصيلًا؛ لذلك فأحاديثُ الآحادِ بما حفَّ بها مِنْ ظنونٍ في طريقِ ثبوتها يجعل السنَّةَ في الدرجة الثانية بعد القرآن الكريم، ويُؤكِّدُ هذه الدرجةَ أنَّ السنَّةَ تأتي مُبيِّنةً للقرآن ومُقرِّرةً له ومُفسِّرةً لإجماله ونحوِ ذلك ممَّا سَبَقَ ذِكْرُه، ومَعْنَى ذلك أنَّ القرآن أصلٌ والسنَّةَ تَبَعٌ له تأتي في الدرجة الثانية مِنْ هذه الحيثية؛ لأنَّ البيان تابعٌ للمُبيَّن ـ كما تَقرَّر أصوليًّا ـ. =

....

= وأمَّا مِنْ حيث الاجتهادُ والفتوى وفهمُ النصوص فيَلْزَمُ الرجوعُ إلى السنَّةِ الثابتةِ قبل العمل بنصوص القرآن وتنفيذِها؛ لاحتمالِ كونِ النصِّ القرآنيِّ العامِّ مُخصَّصًا بالسنَّة، أو مُطْلَقِهُ مُقيَّدًا بها، أو نحوِ ذلك مِنْ وجوه البيان والتفسير والنسخ التي ثَبَتَتْ في السنَّة.

فالسنَّةُ ـ بالنظر إلى مُقابَلةِ نصوصها بنصوص القرآن والجمعِ والتوفيق بينهما ـ مُتساويةٌ مع القرآن الكريم، لا نزاعَ في ذلك بين العُلَماءِ ممَّنْ يحتجُّ بالسنَّة الصحيحة، ومِنْ هذه الحيثيةِ نُدْرِكُ أنَّ علاقة السنَّة بالقرآن علاقةٌ تكامليةٌ في التشريع والبيان، ينتفي بينهما الاختلافُ والتعارضُ الحقيقيُّ؛ ذلك لأنَّ الوحي مُنزَّهٌ عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء]، ولقوله تعالى مُخْبِرًا عن نبيِّه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم]، ولأنَّ اللهَ أَمَرَ بالرجوع ـ عند الاختلاف ـ إلى الكتاب والسنَّة ليرتفع الخلافُ في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فدلَّ ذلك على انتفاءِ التعارض الحقيقيِّ، وإنما المُرادُ به التعارضُ الظاهريُّ الذي هو وهمٌ يقوم في ذهنِ الناظر ولا وجودَ له في الواقع، ويزول هذا الوهمُ بمُجرَّدِ إظهارِ التوفيق بين الدليلين وحصولِ الائتلاف بينهما.

فعُلِمَ أنَّ أدلَّةَ الشرعِ لا تَتناقَضُ في نَفْسِها، بل يُصدِّقُ بعضُها بعضًا؛ فهي مُتَّفِقةٌ لا تختلف ومُتلازِمةٌ لا تفترق؛ مصداقًا لقوله ﷺ: «**إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا؛ فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ**» [أخرجه أحمد (٢/ ١٨١) مِنْ حديثِ عبد الله بنِ عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما، =

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى](٢): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، وَلِقَوْلِهِ(٣): ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ(٤) لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]،

= قال محقِّقو طبعةِ الرسالة (١١/ ٣٠٥): «صحيحٌ، وهذا إسنادٌ حسنٌ»]، وفي هذا المعنى قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (٧/ ٤٠)]: «وكذلك إذا قلنا: «الكتاب والسنَّة والإجماع» فمدلولُ الثلاثةِ واحدٌ؛ فإنَّ كُلَّ ما في الكتاب فالرسولُ ﷺ مُوافِقٌ له والأمَّةُ مُجْمِعةٌ عليه مِنْ حيث الجملةُ؛ فليس في المؤمنين إلَّا مَنْ يُوجِبُ اتِّباعَ الكتاب، وكذلك كُلُّ ما سَنَّهُ الرسولُ ﷺ فالقرآنُ يأمر باتِّباعه فيه والمؤمنون مُجْمِعون على ذلك، وكذلك كُلُّ ما أَجْمَعَ عليه المسلمون فإنه لا يكون إلَّا حقًّا مُوافِقًا لِمَا في الكتاب والسنَّة، لكِنِ المسلمون يَتَلَقَّوْنَ دينَهم كُلَّه عن الرسول ﷺ، وأمَّا الرسول ﷺ فينزل عليه وحيُ القرآن ووحيٌ آخَرُ هو الحكمةُ، كما قال ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ١٢٣)]».

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ»، و«تعالى»: ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٤) «م.ر.أ، م.ر.ب، م.ف»: «تَكُونَ»، وهي قراءةُ نافعٍ.

[وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ(١) نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾ [النساء]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۝٢٣﴾ [الجن]، وَلِقَوْلِهِ](٢): ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء].

---

(١) كذا في قراءةِ عاصمٍ، والمُثْبَتُ في المتن: «نُدْخِلْهُ» على قراءةِ نافعٍ.

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر».

باب
عقائدِ الإيمانِ بالرُّسُلِ
عليهم الصلاةُ والسلام

ويشتمل على ستَّة فصول.

- [فصل: الرُّسُل حجَّةُ الله]
- [فصل: تأييدُ اللهِ لهم بالبيِّناتِ والآيات]
- [فصل: تمامُ عبوديَّتِهم مع عُلُوِّ مَرْتبتِهم]
- [فصل: وجوبُ تأدُّبِنا معهم فيما عُوتِبوا عليه واستغفَروا منه]
- [فصل: ختمُ اللهِ الرسالةَ بمحمَّدٍ ﷺ]

[فصل: الحكمة من بعث الرسل وصفة اختيارهم][1]

إِنَّ الرَّبَّ الحَكِيمَ ـ جَلَّ جَلَالُهُ ـ خَلَقَنَا لِعِبَادَتِهِ، وَفِي عِبَادَتِهِ كَمَالُنَا وَسَعَادَتُنَا، وَعِبَادَتُهُ بِطَاعَتِهِ فِيمَا أَمَرَنَا وَنَهَانَا وَأَبَاحَ لَنَا، وَلَا يُمْكِنُنَا أَنْ نَعْرِفَ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا بَيَّنَهُ لَنَا؛ فَاخْتَارَ [مِنَّا ـ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً ـ][2] قَوْمًا فَطَرَهُمْ اللهُ[3] عَلَى الفَضَائِلِ وَالكَمَالَاتِ، وَعَصَمَهُمْ مِنَ الرَّذَائِلِ وَالنَّقَائِصِ، وَهَيَّأَهُمْ لِمُلَاقَاةِ المَلَائِكَةِ الأَطْهَارِ؛ لِيَتَلَقَّوْا مِنْهُمْ وَحْيَ اللهِ وَبَيَانَهُ لِلْعِبَادِ؛ فَيُبَلِّغُوهُ إِلَيْهِمْ، وَيَكُونُوا قُدْوَةً لَهُمْ فِي تَنْفِيذِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالمُرْسَلُونَ[4] ....

(١) «م.ر.أ»: «الإيمان بالرُّسُل»، «م.ر.ب»: «الرُّسُل»، «م.ف»: «ترجمة: عقائد الإيمان».

(٢) «م.ف»: «ـ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَرَحْمَةً ـ مِنَّا»، تقديمٌ وتأخير.

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٤) قبل التعرُّض للإيمان بالرُّسُل والأنبياء ـ باعتباره أصلًا مِنْ أصول الإيمان ـ فإنَّ المَقام يقتضي التعريفَ بمعنى «الرسول» و«النبيِّ» وإقامةَ الفرق بينهما.

فالرسول ـ في اللغة ـ مُشتَقٌّ مِنَ الإرسال، ومعناهُ: البعثُ والتوجيه والإطلاق والامتداد، يقال: «أرسَلْتُ فلانًا في رسالةٍ» أي: بعثْتُه، فهو مُرْسَلٌ ورسولٌ؛ قال تعالى ـ حاكيًا قولَ مَلِكة سَبَإٍ ـ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ٣٥﴾ [النمل]، ويُجْمَعُ «الرسول» على: «أَرْسُلٍ» و«رُسُلٍ» و«رُسَلاءَ»، وإنما سُمُّوا بذلك=

= لأنهم موجَّهون مِنَ الله تعالى ومبعوثون برسالةٍ مُعيَّنةٍ لتبليغِ وحيِه وشرعِه وأوامِرِه لخَلْقِه؛ فهُمْ مكلَّفون بحمل الرسالة وتبليغِها ومُتابَعتِها؛ قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [المؤمنون: ٤٤]، [انظر: «المُفْردات» للراغب (٢٠٠)، «لسان العرب» لابن منظور (٥/ ٢١٣)، «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٣٠٠)].

أمَّا النبيءُ ـ في اللغة ـ فمُشتَقٌّ مِنَ النبإ وهو الخبرُ كما قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢﴾ [النبأ]، أو هو مُشتقٌّ مِنَ النَّبْوَة أو النَّباوة وهي الارتفاع عن الأرض، كما يُطْلَقُ النبيُّ ـ بدون همزٍ ـ على الطريق، وكُلُّ هذه المعاني اللغوية ـ مِنْ حيث مُناسَبتُها ـ مُوافِقةٌ للمعنى الشرعيِّ للنبوَّة؛ لأنها إخبارٌ عن الله تعالى، وهي مَقامٌ رفيعٌ ومكانةٌ عاليةٌ مُنيفةٌ لصاحِبِها، وهي طريقٌ مُوصِلٌ إليه ـ سبحانه وتعالى ـ [انظر: «غريب الحديث» للخطَّابي (٣/ ١٩٣)، «مقاييس اللغة» لابن فارس (٥/ ٣٨٤)، «لسان العرب» لابن منظور (١٤/ ٨)].

هذا، وقد اختلف أهلُ العلم في الفرق بين الرسول والنبيِّ بسببِ اختلافِ ضَبْطِهم للتعريف الاصطلاحيِّ لكُلٍّ منهما، والشائعُ المشتهر ـ عند العلماء ـ: أنَّ الرسول هو: مَنْ أُوحِيَ إليه بشرعٍ وأُمِرَ بتبليغه، والنبيَّ هو: مَنْ أُوحِيَ إليه بشرعٍ ولم يُؤْمَرْ بتبليغه، [انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ (١٦٧)، «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (١/ ٤٩)].

والظاهر أنَّ على هذا التعريفِ مآخِذَ منها:

ـ المعلوم أنَّ كُلًّا مِنَ الرسول والنبيِّ أرسلهما اللهُ تعالى، والإرسالُ يقتضي=

....

= التبليغَ؛ فالنبيُّ: الذي يُنبئه اللهُ وهو ينبئ الناسَ بما أنبأهُ اللهُ به مِنْ شَرْعِه وأَمْرِه ونهيِه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]؛ ففي الآية: دليلٌ على أنَّ النبيَّ مُرْسَلٌ، ولا يُسمَّى رسولًا عند الإطلاق؛ لأنه يَعمل بشريعةِ مَنْ قَبْله ولم يُرْسَلْ إلى قومٍ بما لا يعرفونه ليبلِّغَ رسالةَ الله إليهم؛ فهو نبيٌّ وليس برسولٍ، [انظر: «النبوّات» لابن تيمية (٢/ ٧١٤)].

ـ أنَّ النبيَّ مأمورٌ بالبلاغ، ولا يجوز له أَنْ يكتم وحيَ الله تعالى؛ لأنَّ في كتمانِ ما أَنْزَلَ اللهُ مُضادَّةً لأمرِ الله تعالى ومُشاقَّةً له، وتنزيهُ مَقامِ النبيِّ عن ذلك حتمٌ لازمٌ، ويدلُّ على ذلك قولُه ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ» [مُتَّفَقٌ عليه: أخرجه البخاريُّ في «الطبِّ» (١٠/ ١٥٥) بابُ مَنِ اكتوى أو كوى غيرَه وفضلِ مَنْ لم يكتوِ، و(١٠/ ٢١١) بابُ مَنْ لم يَرْقِ، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٩٣) باب الدليل على دخولِ طوائفَ مِنَ المسلمين الجَنَّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عذابٍ، والترمذيُّ في «صفة القيامة» (٤/ ٦٣١) باب (١٦)، والبغويُّ في «شرح السنَّة» (١٥/ ١٣٥) بابُ مَنْ يدخل الجنَّةَ بغيرِ حسابٍ، مِنْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما].

وهذا يدلُّ على أنَّ الأنبياء مأمورون بتبليغ الناسِ ما أنبأهم اللهُ به مِنَ الخبر والأمر والنهي، وهُمْ متفاوِتون في الاستجابة لهم.

قال الشنقيطيُّ رحمه الله في [«أضواء البيان» (٥/ ٧٣٥)] ما نصُّه: «وآية الحجِّ هذه تبيِّنُ أنَّ ما اشتهر على ألسنةِ أهل العلم مِنْ «أنَّ النبيَّ هو: مَنْ أُوحِيَ إليه وحيٌ ولم يُؤْمَرْ بتبليغه، وأنَّ الرسول هو: النبيُّ الذي أُوحِيَ إليه وأُمِرَ بتبليغِ ما أُوحِيَ إليه» غيرُ صحيح؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]=

= الآية، يدلُّ على أنَّ كُلًّا منهما مُرْسَلٌ، وأنهما ـ مع ذلك ـ بينهما تغايرٌ.

واستظهر بعضُهم أنَّ النبيَّ الذي هو رسولٌ: أُنْزِلَ إليه كتابٌ وشرعٌ مُستقِلٌّ مع المعجزة التي ثبتَتْ بها نُبوَّتُه، وأنَّ النبيَّ المُرْسَلَ الذي هو غيرُ الرسول هو: مَنْ لم ينزل عليه كتابٌ، وإنما أُوحِيَ إليه أَنْ يدعوَ الناسَ إلى شريعةِ رسولٍ قبله كأنبياءِ بني إسرائيل الذين كانوا يُرْسَلون ويُؤْمَرون بالعمل بها في التوراة، كما بيَّنه تعالى بقوله: ﴿يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ [المائدة: ٤٤]».

فوجهُ الفرق بينهما ـ إذن ـ هو: أنَّ الرسول: نبيٌّ أُوحِيَ إليه شرعٌ مُستقِلٌّ إلى مَنْ خالف أَمْرَ اللهِ ليُبلِّغوه رسالةَ الله إليه، والنبيَّ: مُرْسَلٌ بُعِثَ لتقريرِ شرعِ مَنْ قبله؛ فيكون بينهما عمومٌ وخصوصٌ مطلقًا؛ «فالنبوَّةُ داخلةٌ في الرسالة، والرسالةُ أعَمُّ مِنْ جهةِ نفسِها وأخَصُّ مِنْ جهةِ أهلها؛ فكُلُّ رسولٍ نبيٌّ وليس كُلُّ نبيٍّ رسولًا؛ فالأنبياءُ أعَمُّ والنبوَّةُ نفسُها جزءٌ مِنَ الرسالة؛ فالرسالةُ تتناوَلُ النبوَّةَ وغيرَها، بخلاف النبوَّة فإنها لا تتناول الرسالةَ» [«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٧/ ١٠)، وانظر: «تفسير الألوسي» (١٧/ ١٥٧)، «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ (١٦٧)، «لوامع الأنوار» للسفاريني (١/ ٤٩)].

هذا، والمصنِّف رحمه الله بيَّن وجوبَ الإيمان بالرُّسُل والأنبياء عليهم السلام، وأنه جزءٌ مِنْ عقيدة المؤمن وأصلٌ مِنْ أصول الإيمان لا يقبل التجزئة؛ إذ لا يصحُّ إيمانُ العبدِ ولا تكمل عقيدتُه إلَّا بالإيمان بهم.

ثمَّ عرَّج المصنِّفُ رحمه الله على حكمة الله في بَعْثِ الرُّسُلِ والأنبياء عليهم السلام، مُفْصِحًا أنَّ الغاية التي مِنْ أجلها خَلَقَ اللهُ الخليقةَ: هي عبادةُ الله تعالى وَحْدَه=

= لا شريكَ له، وعبادتُه ـ سبحانه ـ بطاعته فيما أَمَرَ به وأباح ونهى عنه وزَجَرَ، ولا تتحقَّقُ معرفةُ ذلك إلَّا عن طريق الرُّسُل والأنبياء الذين اختارهم اللهُ تعالى للقيام بهذه المَهَمَّةِ الرسالية النبيلة؛ فاللهُ ـ سبحانه ـ هو المنفرد بالخَلْق والاختيار مِنَ المخلوقات ويجتبي ما يشاء ويصطفي، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]، وكما أنَّ الله منفردٌ بالخَلْق فهو منفردٌ بالاختيار منه؛ فإنه ـ سبحانه ـ أَعْلَمُ بمواقِعِ اختيارِه ومَحَالِّ رِضاهُ، وما يَصْلُح للاختيار ممَّا لا يصلح له، وغيرُه لا يُشارِكه في ذلك بوجهٍ مِنَ الوجوه؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، «أي: الله أَعْلَمُ بالمَحَلِّ الذي يَصْلُح لاصطفائه وكرامته وتخصيصِه بالرسالة والنبوَّةِ دون غيرِه» [«زاد المَعاد» لابن القيِّم (١/ ٤١)].

فالرسالة أو النبوَّةُ ـ إذن ـ مِنْحةٌ إلهيةٌ وهِبَةٌ خاصَّةٌ لا تُنالُ بمجرَّدِ التشهِّي والرغبة، ولا بالكسب والمجاهَدة والمعاناة، وإنما هي لله وَحْدَه، يَهَبُها مَنْ أَهَّلَه لها مِنْ عبادِه المؤمنين؛ ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ١٠٥؛ آل عمران: ٧٤]؛ فيُنْعِمُ عليه مِنَ الكمالات النفسية والعقلية والخُلُقية ما يُمثِّلُ به الكمالَ البشريَّ في أَرْقى صُوَرِه، وإذا اختار اللهُ رسولًا واصطفاهُ لنَفْسِه فإنه يختار أَطْهَرَ البشرِ قلبًا وأزكاهم خُلُقًا وأَجْوَدَهم قريحةً وأكملَهم عقلًا وذكاءً وفطنةً ورأيًا، يُنزِّهُه عن كُلِّ ما يُخِلُّ بالمروءة مِنَ النقائص والعيوب والرعوناتِ ومختلفِ الشهوات ومُتَعِ الحياة، ويصونه مِنَ الانحراف الفطريِّ والفساد الخُلُقيِّ، ويحفظه مِنَ التلوُّث النفسيِّ والضلال العقليِّ، ويُبْعِده عن أيِّ مسلكٍ شائنٍ مُنحرِفٍ تبغضه الطباعُ البشرية=

....

= السليمة، وتَشمئِزُّ منه النفوسُ الكريمة؛ ليتأهَّلَ لِمَقامِ النبوَّة الشريف، ويتهيَّأَ به لتلقِّي الوحي الإلهيِّ؛ ليكون سفيرَ اللهِ إلى عباده؛ قَصْدَ تبليغِ أمانة الوحي، ودعوةِ الناس إلى الهدى ودِينِ الحقِّ؛ فهذا تفضُّلٌ مِنَ الله تعالى على عبادِه الأنبياءِ والمُرْسَلين، ونعمةٌ منه ورحمةٌ بهم؛ قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآ﴾ [مريم: ٥٨]، وقال الله لموسى عليه السلام: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وغيرهما مِنَ الآيات البيِّنات.

ومِنْ رحمته تعالى بعباده أنه أرسل إليهم بشرًا منهم؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ [الكهف: ١١٠؛ فُصِّلَتْ: ٦]؛ لأنَّ البشر أَعْظَمُ في الابتلاء والاختبار، وأَمْكَنُ على مخاطَبةِ الناس والفهمِ عنهم، وتقديرِ بواعثهم وتأثيراتهم، وأَقْدَرُ على القيادة والتوجيه؛ فلو بَعَثَ اللهُ رُسُلَه وأنبياءَه مِنَ الملائكة فإنهم لا يُطيقون التلقِّيَ منهم، وقد اعترض كثيرٌ مِنْ أعداء الرُّسُل على الإيمان بهم وبما جاءوا به لكونهم مِنَ البشر، وهذا مِنْ أَعْظَمِ الصدِّ عن الإيمان، وقد بيَّن الله تعالى أنَّه لو كان سُكَّانُ الأرض ملائكةً لَأرسل إليهم رسولًا مِنْ جنسهم، فكذلك تجلَّتْ حكمةُ الله ورحمتُه بعباده أَنْ أَرْسَلَ إليهم رسولًا مِنْ جنسهم؛ قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٣/ ٦٤)] شارحًا هذه الآيةَ بما نصُّه:=

....

= « يقول تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ ﴾ أي: أكثرَهم، ﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ ﴾ ويُتابِعوا الرُّسُلَ إلَّا استعجابُهم مِنْ بعثة البشرِ رُسُلًا، كما قال تعالى: ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنۡهُمۡ أَنۡ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ [يونس: ٢]، وقال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا ﴾ [التغابن: ٦] الآية، وقال فرعونُ ومَلَؤُه: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المؤمنون]، وكذلك قالَتِ الأُمَمُ لرُسُلِهم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتُونَا بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم]، والآياتُ في هذا كثيرةٌ، ثمَّ قال تعالى ـ منبِّهًا على لطفِه ورحمته بعباده ـ: إنه يبعث إليهم الرسولَ مِنْ جنسهم ليَفْقَهوا عنه لتمكُّنِهم مِنْ مخاطَبته ومكالمته، ولو بَعَثَ إلى البشر رسولًا مِنَ الملائكة لَمَا استطاعوا مُواجَهته ولا الأخذَ عنه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [البقرة]؛ ولهذا قال ـ هاهنا ـ: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ ﴾ [الإسراء: ٩٥] أي: كما أنتم فيها، ﴿لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا ﴿٩٥﴾ ﴾ [الإسراء] أي: مِنْ جنسهم، ولمَّا كنتم أنتم بشرًا بَعَثْنا فيكم رُسُلَنا منكم لطفًا ورحمةً ».

ومِنَ الكمال البشريِّ الذي حَباهُمُ اللهُ تعالى به: أَنْ جَعَلهم أَشْرَفَ النوعِ البشريِّ=

....

= مِنْ كمال العقل والذكاء والفطنة وقوَّةِ الرأي؛ لذلك لم يبعث اللهُ نبيًّا إلَّا في أشرافِ قومِه، والمرادُ بالشرف ـ بمعناه العامِّ ـ: التنزُّهُ عن كُلِّ ما يُخِلُّ بالمروءة مِنَ النقائص والعيوب، والترفُّعُ عن الدنايا الخُلُقية، واجتنابُ كُلِّ انحرافٍ عن الطباع العامَّة السويَّة، والابتعادُ عن كُلِّ ما تنفر منه النفوسُ الزكيَّة، فلم يحصل أَنْ بَعَثَ نبيًّا مِنْ ذوي النسب المُبتذَل، ولا عبدًا ولا لئيمًا ولا امرأةً لعُلُوِّ مرتبة الذكورة على الأنوثة؛ فخصَّ اللهُ الرجالَ بالرسالة حصرًا لهم دون النساء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الأنبياء: ٧]، ولأنَّ مَقام النبوَّة يُناسِبُ الذكورةَ لكمالها عن ناقصات العقل والدِّين كما جاء في الحديث؛ لذلك جَعَلَ اللهُ تعالى القِوامةَ للرجال في قوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣٤]، ولأنَّ مقتضى الرسالةِ الاشتهارُ بالدعوة ومخاطَبةُ الناسِ والتنقُّلُ إليهم؛ لإصلاح النفوس وتزكيتها، وتقويمِ الفكر المنحرف والعقائد الزائفة، ومُواجهةِ الخصوم ومحاجَّتِهم وإقامةِ الحجَّة عليهم، وإعدادِ العُدَّة الإيمانية والمادِّية؛ فهذه الوظائفُ والمَهَمَّاتُ وغيرُها لا تُناسِبُ إلَّا الرِّجالَ؛ لأنَّ الأنوثة تقتضي التستُّرَ وتُنافي الاشتهار لِمَا بين الاشتهار والتستُّرِ مِنَ التمانع، ولأنَّ الأنثى ناقصةٌ في وصفها وفي منطقها وبيانها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ١٨﴾ [الزخرف]، فضلًا عن أنَّ النفوس مائلةٌ في ذواتهنَّ بحسَبِ الطبع؛ فيغفلون عن دعوتهنَّ ومقالتهنَّ، وأنَّ المرأة يطرأ عليها ـ أيضًا ـ ما يمنع القيامَ بأعباء الرسالة وتكاليفِها كالحيض والحمل والولادة والنفاس، وما يستتبع ذلك مِنَ الرعاية للأولاد والعناية بصحَّتِهم والقيامِ على حوائجهم، وهذه الموانعُ تجعل المرأةَ غيرَ قادرةٍ على تولِّي=

= حقِّ الرسالةِ والنبوَّةِ على الوجه الأكمل.

علمًا أنَّ ما أخبر اللهُ به مِنْ أنه أوحى إلى بعض النساء كأمِّ موسى وغيرِها فإنَّما حصل ذلك منامًا، وهو يقع لغير الأنبياء، أمَّا مريمُ عليها السلام فجمهورُ الفُقَهاء على أنها ليسَتْ نبيَّةً، بل حكى ابنُ تيمية رحمه الله في [«الصفدية» (١/ ١٩٨)] عن القاضيين: أبي بكر بنِ الطيِّب وأبي يعلى، وعن أبي المعالي الجُوَينيِّ الإجماعَ على أنه لم يكن في النساء نبيَّةٌ، وأنَّ خلافَ ابنِ حزمٍ غيرُ مُعتبَرٍ لأنه شاذٌّ مسبوقٌ بالإجماع، وأنَّ دعواه أنَّ أمَّ موسى كانَتْ نبيَّةً هي ومريم قولٌ لا يُعْرَف عن أحَدٍ مِنَ السلف والأئمَّة، وقد نَقَل النوويُّ رحمه الله نحوَ هذا الإجماعِ في [«الأذكار» (١٠٩)]، وقد جاء عن الحسن البصريِّ رحمه الله أنه قال: «لَيْسَ فِي النِّسَاءِ نَبِيَّةٌ وَلَا فِي الجِنِّ» [انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٤٧١)].

هذا، والرسالة الإلهية ضرورةٌ مِنْ ضروراتِ حياة العبد، وحاجةٌ أكيدةٌ مِنْ حاجاته؛ إذ لا بُدَّ للعبد مِنْ حقٍّ يُقيمُه تُجاهَ ربِّه ومِنْ هدًى يعيش عليه؛ لذلك لا غِنَى له عنها بحالٍ، وجحودُ ما هو ضرورةُ الحياةِ يُعَدُّ فسادًا فطريًّا شائنًا وخطأً عقليًّا خطيرًا، وقد بيَّن هذا المعنى ابنُ تيمية رحمه الله وبلوره في [«مجموع الفتاوى» (١٩/ ٩٣)] بقوله: «والرسالة ضروريةٌ للعباد لا بُدَّ لهم منها، وحاجتُهم إليها فوق حاجتِهم إلى كُلِّ شيءٍ، والرسالةُ رُوحُ العالَمِ ونورُه وحياتُه؛ فأيُّ صلاحٍ للعالَمِ إذا عَدِمَ الروحَ والحياةَ والنورَ؟ والدنيا مُظْلِمةٌ ملعونةٌ إلَّا ما طَلَعَتْ عليه شمسُ الرسالة، وكذلك العبدُ ما لم تُشْرِقْ في قلبه شمسُ الرسالة ويناله مِنْ حياتها ورُوحِها فهو في ظلمةٍ وهو مِنَ الأموات؛ قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ =

....

= ﴿وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]؛ فهذا وصفُ المؤمنِ: كان مَيْتًا في ظلمة الجهل، فأحياهُ اللهُ برُوح الرسالة ونورِ الإيمان، وجَعَلَ له نورًا يمشي به في الناس».

وقد أفصح ابنُ القيِّم رحمه الله عن هذه الحقيقةِ في [«زاد المَعاد» (١/ ٦٩)] بما نصُّه: «ومِنْ هاهنا تعلم اضطرارَ العبادِ ـ فوق كُلِّ ضرورةٍ ـ إلى معرفة الرسول وما جاء به، وتصديقِه فيما أخبر به، وطاعتِه فيما أَمَرَ؛ فإنه لا سبيلَ إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلَّا على أيدي الرُّسُل، ولا سبيلَ إلى معرفة الطيِّب والخبيث على التفصيل إلَّا مِنْ جهتهم، ولا يُنالُ رِضَا اللهِ ـ ألبتَّةَ ـ إلَّا على أيديهم؛ فالطيِّبُ مِنَ الأعمال والأقوال والأخلاقِ ليس إلَّا هديَهم وما جاءوا به؛ فهُمُ الميزانُ الراجح الذي [كذا، ولعلَّ الصواب: الذين] ـ على أقوالهم وأعمالِهم وأخلاقهم ـ تُوزَنُ الأقوالُ والأخلاق والأعمال، وبمُتابَعتِهم يتميَّزُ أهلُ الهدى مِنْ أهل الضلال؛ فالضرورةُ إليهم أَعْظَمُ مِنْ ضرورةِ البدن إلى روحه، والعينِ إلى نورها، والروحِ إلى حياتها؛ فأيُّ ضرورةٍ وحاجةٍ فُرِضَتْ فضرورةُ العبدِ وحاجتُه إلى الرُّسُل فوقها بكثيرٍ، وما ظنُّك بمَنْ إذا غاب عنك هديُه وما جاء به طَرْفَةَ عَيْنٍ فَسَدَ قلبُك، وصار كالحوت إذا فارَقَ الماءَ ووُضِعَ في المقلاة؟ فحالُ العبدِ عند مُفارَقةِ قلبه لِمَا جاء به الرُّسُلُ كهذه الحالِ بل أَعْظَمُ، ولكِنْ لا يُحِسُّ بهذا إلَّا قلبٌ حيٌّ، وما لجرحٍ بميِّتٍ إيلامٌ».

وأكَّد رحمه الله ذلك في [«مفتاح دار السعادة» (٣/ ٢١)] بقوله: «فالحاجة إلى الرُّسُل ضروريةٌ، بل هي فوق كُلِّ حاجةٍ؛ فليس العالَمُ إلى شيءٍ أحوجَ منهم إلى=

....

= المُرْسَلين ـ صلواتُ الله عليهم أجمعين ـ وهٰذا يُذكِّرُ سبحانه عِبادَه نِعَمَه عليهم برسوله، ويَعُدُّ ذلك عليهم مِنْ أعظمِ المِنَن منه؛ لشدَّةِ حاجتهم إليه، ولتوقُّفِ مصالحهم الجزئيةِ والكُلِّية عليه، وأنه لا سعادةَ لهم ولا فلاحَ ولا قيامَ إلَّا بالرُّسُل، فإذا كان العقلُ قد أَدْرَكَ حُسْنَ بعضِ الأفعال وقُبْحَها فمِنْ أين له معرفةُ اللهِ تعالى بأسمائه وصِفَاته وآلائه التي تَعرَّفَ بها اللهُ إلى عباده على ألسِنَةِ رُسُلِه؟ ومِنْ أين له معرفةُ تفاصيلِ شرعِه ودِينِه الذي شَرَعه لعباده؟ ومِنْ أين له تفاصيلُ مواقعِ محبَّتِه ورِضاهُ وسخطِه وكراهتِه؟ ومِنْ أين له معرفةُ تفاصيلِ ثوابه وعقابِه، وما أَعَدَّ لأوليائه وما أعَدَّ لأعدائه، ومقاديرِ الثواب والعقابِ وكيفيتهما ودرجاتها؟ ومِنْ أين له معرفةُ الغيب الذي لم يُظْهِرِ اللهُ عليه أحَدًا مِنْ خَلْقِه إلَّا مَنِ ارتضاهُ مِنْ رُسُلِه؟ إلى غيرِ ذلك ممَّا جاءَتْ به الرُّسُلُ وبلَّغَتْه عن الله وليس في العقل طريقٌ إلى معرفته؛ فكيف يكون معرفةُ حُسْنِ بعض الأفعال وقُبْحِها بالعقل مُغْنِيًا عمَّا جاءَتْ به الرُّسُلُ؟ فظهر أنَّ ما ذَكَرْتُموه مجرَّدُ تهويلٍ مشحونٍ بالأباطيل والحمدُ لله، وقد ظهر بهذا قصورُ الفلاسفةِ في معرفة النبوَّات، وأنهم لا عِلْمَ عندهم بها إلَّا كعلمِ عوامِّ الناسِ بما عندهم مِنَ العقليات، بل علمُهم بالنبوَّات وحقيقتِها وعِظَمِ قَدْرِها وما جاءَتْ به أقلُّ بكثيرٍ مِنْ علم العامَّة بعقلياتهم؛ فهُمْ عوامٌّ بالنسبة إليها كما أنَّ مَنْ لم يعرف علومَهم عوامٌّ بالنسبة إليهم؛ فلولا النبوَّاتُ لم يكن في العالَمِ علمٌ نافعٌ ـ ألبتَّةَ ـ ولا عملٌ صالحٌ ولا صلاحٌ في معيشته ولا قِوامٌ لمملكةٍ، ولَكان الناسُ بمنزلة البهائم والسباعِ العادية والكلابِ الضارية التي يعدو بعضُها على بعضٍ، وكُلُّ دِينٍ في العالَمِ فمِنْ آثار النبوَّة، وكُلُّ شيءٍ وَقَعَ=

عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، الَّذِينَ نُؤْمِنُ بِهِمْ كُلِّهِمْ، مَنْ عَرَفْنَا مِنْهُمْ - بِتَعْرِيفِ اللهِ - وَمَنْ لَمْ نَعْرِفْ(١)؛ ....

= في العالَمِ أو سيَقَعُ فبسببِ خفاءِ آثار النبوَّة ودروسِها؛ فالعالَمُ - حينئذٍ - روحُه النبوَّةُ، ولا قيامَ للجسد بدون رُوحِه؛ ولهذا إذا تمَّ انكسافُ شمسِ النبوَّة مِنَ العالَمِ ولم يَبْقَ في الأرض شيءٌ مِنْ آثارِها - ألبتَّةَ - انشقَّتْ سماؤه وانتثَرَتْ كواكبُه، وكُوِّرَتْ شمسُه وخُسِفَ قمرُه، ونُسِفَتْ جبالُه وزُلْزِلَتْ أرضُه وأُهْلِكَ مَنْ عليها؛ فلا قيامَ للعالَمِ إلَّا بآثار النبوَّة؛ ولهذا كان كُلُّ موضعٍ ظهرَتْ فيه آثارُ النبوَّة فأهلُه أَحْسَنُ حالًا وأَصْلَحُ بالًا مِنَ الموضع الذي يخفى فيه آثارُها، وبالجملة فحاجةُ العالَمِ إلى النبوَّة أعظمُ مِنْ حاجتهم إلى نور الشمس وأعظمُ مِنْ حاجتهم إلى الماء والهواءِ الذي لا حياةَ لهم بدونه».

(١) هذا، والإيمان بالرُّسُل والأنبياء عليهم السلام - إجمالًا وتفصيلًا - جزءٌ لا يتجزَّأ مِنْ عقيدة المؤمن - كما تقدَّم [انظر: (ص ١٤٠)] - فلا يصحُّ إيمانُ العبد ولا تكمل عقيدتُه إلَّا به، بل الإيمانُ بالله تعالى يستلزم الإيمانَ بكُلِّ ما أَمَرَ اللهُ بالإيمان به مِنَ: الملائكة والكُتُبِ والرُّسُل واليوم الآخِرِ والقضاء والقَدَر وغيرِ ذلك، وقد جاء أمرُ اللهِ تعالى بالإيمان بالرُّسُل والأنبياء صريحًا ومؤكَّدًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

والرُّسُل والأنبياء - مِنْ حيث عددُهم - كانوا جمًّا غفيرًا: مائةَ ألفٍ وأربعةً وعشرين ألفًا مِنَ الأنبياء، والرُّسُلُ مِنْ ذلك ثلاثُمِائةٍ وخمسةَ عَشَرَ، على ما ثَبَت في حديثِ أبي=

= أمامة رضي الله عنه [أخرجه أحمد (٥/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦) وغيره. وصحَّحه الألبانيُّ، انظر: «مشكاة المصابيح» للألباني (٣/ ١٥٩٩)]، لا يعلم أسماءَهم إلَّا اللهُ تعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر]؛ لذلك وجَبَ الإيمانُ بهم جملةً: مَنْ عُرِفَ منهم بتعريف الله ومَنْ لم يُعْرَفْ؛ فقَدْ قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ٥٨٥)]: «وهذه تسميةُ الأنبياءِ الذين نصَّ اللهُ على أسمائهم في القرآن وهُمْ: آدمُ وإدريسُ ونوحٌ، وهودٌ وصالحٌ، وإبراهيمُ ولوطٌ، وإسماعيلُ وإسحاقُ، ويعقوبُ ويوسفُ، وأيُّوبُ، وشُعَيْبٌ، وموسى وهارونُ، ويونسُ، وداودُ وسليمانُ، وإلياسُ واليَسَعُ، وزكريَّا ويحيى وعيسى، وكذا ذو الكِفْلِ عند كثيرٍ مِنَ المفسِّرين، وسيِّدُهم محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم».

والرُّسُلُ والأنبياء عليهم السلام يتفاضلون، وبعضُهم أَفْضَلُ مِنْ بعضٍ عند الله، وقد أخبر اللهُ أنه فاضَلَ بينهم في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، كما حصَلَتِ المفاضَلةُ بين الأنبياءِ عليهم السلام ـ أيضًا ـ وأخبر بها تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء].

وقد أجمعَتِ الأمَّةُ على أنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام أفضلُ مِنَ الأنبياء عليهم السلام، [انظر: «بداية السول» لابن عبد السلام (٧٦)، «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (٢/ ٣٠٠)]، ونصَّ الكثيرُ مِنَ =

....

= العلماء على أنَّ أَفْضَلَ المُرْسَلين أولو العزم منهم، وهُمُ الخمسةُ الذين خُصُّوا بالذِّكْر مجتمعين وهُم: نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمَّدٌ صلَّى الله عليهم وسلَّم، وجاء القرآن الكريم مُبيِّنًا عددَهم وأسماءَهم ـ معًا ـ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣]، وأفضلُ أولي العزمِ: الخليلان: إبراهيمُ ومحمَّدٌ عليهما السلام، وأفضلُ الخليلين: نبيُّنا محمَّدٌ صلى الله عليه وسلم.

هذا، ويجب على العبد أنْ يُؤْمِنَ بكُلِّ مَنْ عَرَف نُبوَّتَه ورسالتَه عن طريق الوحي الإلهيِّ إيمانًا تفصيليًّا، فيؤمن بهم جميعًا مِنْ غير تفريقٍ؛ ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]؛ فلا يصحُّ الإيمانُ برسالةِ بعضٍ والكفرُ برسالةِ بعضِهم الآخَرِ: كما هو صنيعُ اليهود الذين آمَنوا بأنبياءِ بني إسرائيل وكفروا بعيسى ابنِ مريم ومحمَّدٍ صلَّى الله عليهما وسلَّم، والنصارى الذين آمَنوا بكافَّةِ الأنبياء وكفروا بخاتمهم محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم.

لذلك يُعَدُّ الكفرُ بواحدٍ منهم كفرًا بجميعهم، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٤/ ٢٢٣)]: «ومَنْ كذَّب رسولًا فكأنَّما كذَّب جميعَ الرُّسُلِ: كقوله جلَّ وعَلَا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٠٥﴾ [الشعراء]، وإنَّما جاءهم رسولٌ واحدٌ؛ فهُمْ ـ في نفسِ الأمر ـ لو جاءهم جميعُ الرُّسُلِ كذَّبوهم». والمكذِّبُ بالرُّسُل مُتوعَّدٌ بالعذاب المُهين كما جاء التبيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ =

....

= وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ ﴾ [النساء]، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ٥٧٢) [بتصرُّف]]: «يتوعَّدُ ـ تَبارَكَ وتعالى ـ الكافرين به وبرُسُله مِنَ اليهود والنصارى، حيث فرَّقوا بين الله ورُسُله في الإيمان: فآمَنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعضٍ بمُجرَّد التشهِّي والعادة وما أَلْفَوْا عليه آباءَهم، لا عن دليلٍ قادَهم إلى ذلك؛ فإنه لا سبيلَ لهم إلى ذلك، بل بمجرَّد الهوى والعصبية؛ فاليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله ـ آمَنوا بالأنبياء إلَّا عيسى ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمَنوا بالأنبياء وكفروا بخاتمهم وأشرفِهم محمَّدٍ ﷺ .. والمقصودُ أنَّ مَنْ كَفَر بنبيٍّ مِنَ الأنبياء فقَدْ كَفَر بسائر الأنبياء؛ فإنَّ الإيمان واجبٌ بكُلِّ نبيٍّ بَعَثه اللهُ إلى أهل الأرض؛ فمَنْ ردَّ نبوَّتَه للحسد أو العصبية أو التشهِّي تَبيَّنَ أنَّ إيمانه بمَنْ آمَنَ به مِنَ الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًّا، إنما هو عن غرضٍ وهوًى وعصبيةٍ».

أمَّا الإيمان بمحمَّدٍ ﷺ: فتصديقُه على الرسالة، والعملُ بها، واتِّباعُ ما جاء به مِنَ الحقِّ والهدى ودَعَا إليه مِنَ الشرائع ـ إجمالًا وتفصيلًا ـ مع وجوبِ محبَّتِه وطاعتِه والانقيادِ له؛ فهي ضروريَّةٌ للنجاة مِنْ عذاب الله والفوزِ بنعيمه المُقيم؛ بخلافِ شرائع الرُّسُل قبله عليهم السلام جميعًا فيكفي الإيمانُ بها جملةً ولا يَلْزَم اتِّباعُها؛ فهي منسوخةٌ بشريعةِ خاتمهم محمَّدٍ ﷺ ـ كما تقدَّمَ في «معنى الإيمانِ بالكُتُب المُنْزَلة ومُقتضَياتِه» [انظر: (ص ١٠٢)] ـ فلا يُقْبَلُ مِنَ العبد صرفٌ ولا عدلٌ إلَّا بتوحيدِ مُتابَعتِه ونهجِ طريقه؛ إذ جميعُ السُّبُل غيرَ سبيلِه مسدودةٌ، وكُلُّ الأعمال=

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم: ١١]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الدخان: ٥-٦]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ۝٤٧﴾ [ص]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ(٢)﴾ [الأنعام: ١٢٤]،

= على غيرِ هديه مردودةٌ؛ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾ [آل عمران]، والنصوصُ كثيرةٌ في هذا المجال، فلم يَبْقَ ما يَلْزَمُ المؤمنَ إزاءَ رُسُلِ الله وأنبيائه عليهم السلام سوى الإيمانِ بهم واعتقادِ عِصمتهم وكمالِهم ووجوبِ تعظيمهم وتوقيرِهم واحترامِهم، و«الإيمان بأنهم بلَّغوا جميعَ ما أُرْسلوا به على ما أَمَرَهم اللهُ به، وأنهم بيَّنوه بيانًا لا يَسَعُ أحَدًا ممَّنْ أُرْسِلوا إليه جهلُه ولا يَحِلُّ خلافُه» [«شرح الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٣٤٩). وانظر: «لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/ ٢٦٩)، «شُعَب الإيمان» للبيهقي (١/ ١٤٥)].

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) «م.ر.ب، م.ف»: «رِسَالَتِهِۦ»، وهي قراءةُ نافعٍ.

وَلِقَوْلِهِ[(١)]: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى][(٢)]: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]، وَلِقَوْلِهِ[(٣)]: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى][(٤)]: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وَلِقَوْلِهِ[(٥)]: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

---

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ»، و« تعالى » ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٤) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ»، و« تعالى » ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٥) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

[فصل: الرسل حجَّة الله][(١)]

[وَالرُّسُلُ هُمْ][(٢)] حُجَّةُ اللهِ وَشُهُودُهُ، أَنْبَأَهُمُ اللهُ بِوَحْيِهِ، وَأَرْسَلَهُمْ لِتَبْلِيغِهِ لِخَلْقِهِ؛ لِيُعَرِّفُوهُمْ بِهِ وَبِشَرْعِهِ، وَيُنَبِّهُوهُمْ إِلَى آيَاتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ بِإِنْعَامَاتِهِ، وَيُبَشِّرُوهُمْ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ إِذَا اتَّبَعُوهُمْ، وَيُخَوِّفُوهُمْ مِنَ الشَّقَاوَةِ وَالهَلَاكِ إِذَا خَالَفُوهُمْ؛ فَقَامَتْ بِهِمْ ـ لَمَّا بَلَّغُوا الرِّسَالَةَ وَأَدَّوُا الأَمَانَةَ ـ حُجَّةُ اللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَكَانُوا ـ وَهُمُ العُدُولُ الأُمَنَاءُ الصَّادِقُونَ ـ شُهَدَاءَهُ[(٣)] عَلَيْهِمْ يَوْمَ لِقَائِهِ[(٤)]؛

---

(١) «م.ر»: «الرُّسُلُ حُجَّةٌ».

(٢) «م.ف»: «وَالرُّسُلُ»، «م.ر»: «هُمْ».

(٣) «م.ر.ش»: «شُهَدَاءَ».

(٤) «م.ف»: «القِيَامَةِ».

بيَّن المصنِّفُ رحمه الله فيما تَقدَّمَ [انظر: (ص ١٣٧)] اختصاصَ النبوَّةِ والرسالةِ لِمَنْ أهَّلَهُ اللهُ لها مِنْ عبادِه المتَّصِفين بصفات الفضائل والكمالات التي فَطَرَهم عليها، وعَصَمهم مِنَ الكُدُورات والرذائل والنقائص والرُّعونات والشهوات ومُتَعِ الحياة، وأَبْعَدَهم عن الضلال والانحراف والفساد، وقد خصَّ اللهُ تعالى أنبياءَه ورُسُلَه بهذه المزايا والفضائل؛ ليتمكَّنوا مِنَ الاضطلاع بأعباء الرسالة ويَقْوَوْا على ما تحويهِ مَهَمَّتُهم الربَّانيةُ مِنْ تبليغ الحقِّ والدعوةِ إلى الله ووعظِ العباد بآيات الترغيب والترهيب وإقامةِ الحجَّة عليهم ونحوِ ذلك مِنْ جهةٍ، وليكونوا ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ=

= مثالًا يُقْتدى به في أمور الدِّين والدنيا؛ فلو انتفَتْ عن الرُّسُل والأنبياء هذه الخصائصُ الروحية والعقلية بأَنْ ضَعُفَتْ عقولُهُم أو انحطَّتْ فِطَرُهم لَمَا كانوا أهلًا لحَمْلِ هداية الله إلى الناس ـ كما سيأتي، [انظر: (ص ١٦٤)] ـ؛ فكان المؤهَّلُ المختارُ الذي اصطفاهُ اللهُ مِنْ سائر خَلْقِه لحملِ رسالة الله إلى عباده يتَّصِفُ بالصدق باطنًا وظاهرًا في القصد والقول والعمل، كما يتَّصِفُ بالأمانة في كُلِّ أحوالها ومجالاتها القولية والعملية: كتبليغ كُلِّ ما أَمَرَ اللهُ تعالى به أَنْ يُبلِّغَ عنه مِنْ غيرِ كتمانٍ بحالٍ مِنَ الأحوال، ودعوةِ الناس بالوحي الإلهيِّ في السرِّ والعلن، وتأديةِ الأمانة في الحكم والقضاء ونحوِ ذلك دون خيانةٍ ولا إهمالٍ، كما يتَّصِفُ ـ أيضًا ـ بالفطنة بمفهومها الواسع مِنْ: دقَّةِ الفهم، وحُسْنِ الإدراك، وصفاءِ الذهن، وقوَّةِ الذكاء، وسَعَةِ الاستيعاب، ورِقَّةِ الشعور، ورَهافةِ الحسِّ، وسرعةِ البداهة، وغيرِها مِنْ مؤهِّلات تلقِّي الوحي عن الله تعالى.

ولا يخفى أنَّ مَقامَ النبوَّةِ أَسْمَى مِنْ أَنْ يتَّصِف أهلُها بأضداد الكمالات والفضائل؛ فمتى وُجِدَتِ النقائصُ والرذائل بَطَلَتِ النبوَّةُ وانتفَتِ الرسالة؛ إذ لا نبوَّةَ مع الكذب والنفاق والخيانة، ولا أهليةَ مع كتمان الحقِّ وبطءِ الإدراك وبلادةِ الحسِّ والغباء؛ فالأنبياءُ والرُّسُل معصومون مِنَ التورُّط في الآثام والرذائل، ومنزَّهون مِنَ الوقوع في المعاصي والقبائح، بل جمَّلَهم اللهُ بالأخلاق العظيمة، وحلَّاهم بالصفات الجميلة التي تجعل منهم المَثَلَ الأعلى المقتدى به للوصول إلى كمالهم المقدَّر لهم.

فالحاصل: أنهم ـ بهذه الصفاتِ الكمالية التي يتمتَّع بها مَنِ اختاره اللهُ لَمقامِ النبوَّة=

....

= مِنَ الأمانة والصدق والتبليغ والفطنةِ والتفاني في الحقِّ وأداءِ الواجب وغيرِها مِنَ الكمالات الخَلْقية والعقلية والنفسية ـ شرَّفهم اللهُ بتلقِّي الوحي الإلهيِّ مِنَ الملَكِ الموكَّلِ به؛ لتبليغِ أمانةِ ما يُوحِي به اللهُ تعالى ـ مِنْ كلماته الصادقةِ في أخبارها، العادلةِ في أحكامها ـ إلى عبادِه فيما يُخالِفُ مُعتقَداتهم، ويأمرونهم بما يَسْتنكِرونه، وينهَوْنهم عمَّا أَلِفوه، بثباتٍ وعزمٍ وصدقٍ وشجاعةٍ لا خشيةَ فيها ولا خوفَ إلَّا مِنَ الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ولا تقتصِرُ المَهَمَّةُ الرساليةُ والوظيفةُ الربَّانيةُ على بيان الحقِّ وتبليغِه، بل تتعدَّى إلى دعوة العباد إلى السبيل المُوصِلِ إلى الله تعالى وإلى دارِ كرامته، المتضمِّنِ للعلم بالحقِّ والعملِ به وإيثارِه وإخلاص الدِّينِ لله وَحْدَه لا شريكَ له؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف]، وتبذل الرُّسُلُ والأنبياءُ ـ لأداء المَهَمَّةِ الرسالية ـ الجهودَ العظيمة بتبليغ الحقِّ والدعوةِ إلى الله ليلًا ونهارًا، سرًّا وعلانيةً، مع اتِّخاذِ أساليبِ الترغيب والترهيب والوعدِ والوعيد؛ لفتحِ قلوب العباد وتنويرِ عقولِهم وتحفيزِ نفوسهم إلى فعلِ الطاعات وتركِ المعاصي؛ ذلك لأنَّ النفس البشرية مطبوعةٌ على محبَّةِ الخير لذاتها ومُشتاقةٌ إلى تحصيله ودفعِ الشرِّ =

= والمَضارَّ عنها؛ فالتبشيرُ والإنذارُ هما مفتاحُ النفسِ البشرية؛ لذلك كانَتْ دعوةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ مُصطبِغةً بهما؛ فهُمْ يبشِّرون الطائعين بما تَسْتعذِبُه قلوبُهم وتهواهُ نفوسُهم وتَلَذُّ أَعْيُنُهم مِنَ الحياة الطيِّبة، ويَعِدُونهم بالعزِّ والتمكين والأمن في الدنيا، كما أخبر اللهُ به في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقولِه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا﴾ [النور: ٥٥]، ويرغِّبونهم في الإيمان والعمل الصالح وما يُجازيهم اللهُ به مِنْ ثوابٍ ونعيمٍ في الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ [النساء]. وبالمُقابِل يُنْذِرون العُصاةَ بالشقاء والهلاك في الدنيا، ويخوِّفونهم بما يُلاقونه مِنْ عذابٍ في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء].

فالحاصل: أنَّ مَهَمَّةَ الرُّسُل والأنبياءِ تظهر في الدعوة إلى عبادة الله وَحْدَه، ونبذِ الشرك، وإقامةِ دِين الله وتبليغه بتعليم الناسِ الحلالَ والحرامَ، وتزكيةِ النفوس وتطهيرها وإصلاحها بالأعمال المُوجِبة لها، وتقويمِ المُعْتقَداتِ المُنحرِفة عن الفطرة السليمة، وإخراجِ الناس مِنْ ظلمات الكفر والشرك والجهل إلى نور الإسلام والحقِّ،=

= واتِّخاذِ الوعظ بالتبشير والإنذار أسلوبًا للدعوة إليه سبحانه؛ حتَّى يُقيمَ اللهُ الحجَّةَ على عِبادِه برُسُله، ويقطعَ عُذْرَ مَنْ أَغْفَلَ اللهُ قلبَه عن ذِكْرِه واتَّبع هواهُ وكان أمرُه فُرُطًا؛ قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨؛ الكهف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه]؛ فاللهُ أَعْدَلُ العادلين، ومنزَّهٌ ـ سبحانه ـ عن الظلم؛ فلا يُعذِّبُ أحدًا حتَّى تقوم عليه الحجَّةُ الرسالية ثمَّ يُعانِدَها ولا ينتفعَ بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء].

والله تعالى يأتي لكُلِّ أمَّةٍ ـ يومَ القيامة ـ برسولها؛ ليَشْهدَ عليها بالخير والشرِّ، وأنه بلَّغها رسالةَ ربِّه وأقامَ عليها الحجَّةَ؛ فلا يُقْبَلُ للكُفَّار عذرٌ بعدما عَلِموا ـ يقينًا ـ بطلانَ ما هم عليه، وهُمْ يُقِرُّون على أَنْفُسهم بالكفر والافتراء على الله تعالى؛ فلا يُرْفَعُ عنهم العقابُ، ولا يُخفَّفُ عنهم العذابُ، مِنْ غيرِ إنظارٍ ولا إمهالٍ مِنْ حينِ يَرَوْنه؛ قال تعالى مُخبِرًا عن ذلك: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [النحل]، وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى ـ أيضًا ـ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء]. =

....

= هذا، ولا تنتهي مَهَمَّةُ الرُّسُل والأنبياءِ عند الوظائف الربَّانية السابقة، بل ـ فضلًا عن ذلك ـ فهُمْ يقودون أُمَمَهم في السياسة والحكم في السلم والحرب، ويقومون على رعايةِ مَصالِحِ الناس، ويحكمون بين الناس بحكم الله تعالى؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗا﴾ [المائدة: ٤٨]؛ ففي الآيةِ: الأمرُ بالحكم بالتنزيل، وأنَّ «الشرائع التي تختلف باختلاف الأُمَم هي التي تَتغيَّرُ بحسَبِ تغيُّرِ الأزمنة والأحوال، وكُلُّها ترجع إلى العدل في وقتِ شِرْعَتِها، وأمَّا الأصولُ الكِبارُ التي هي مصلحةٌ وحكمةٌ في كُلِّ زمانٍ فإنها لا تختلف؛ فتُشْرَعُ في جميع الشرائع» [«تفسير السعدي» (٢٥٨)]، وقال تعالى عن التوراة: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، وقال ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ» [أخرجه البخاريُّ في «أحاديث الأنبياء» (٦/ ٤٩٥) بابُ ما ذُكِرَ عن بني إسرائيل، ومسلمٌ في «الإمارة» (١٢/ ٢٣١) بابُ وجوبِ الوفاء ببيعة الخليفة الأوَّلِ فالأوَّل، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

فالأنبياء والرُّسُل ـ إذن ـ هم النموذج المثاليُّ للكمال البشريِّ في الطهر والنزاهة والقداسة، وهُمُ الأُمَناءُ العُدولُ الصادقون، الذين بلَّغوا وحيَ اللهِ البلاغَ المُبين، وهُمْ حجَّتُه على خَلْقه وشُهَداؤُه عليهم يومَ القيامة، وقد أَكْمَلَ اللهُ تعالى دِينَه الحقَّ بخاتمهم محمَّدٍ الأمين ﷺ، وبه تمَّتْ نعمةُ الله على خَلْقِه بما أَنْزَلَ مِنَ الهداية والنور؛ فالسعيدُ مَنِ اتَّبعها ولازَمَها واستقامَ عليها ونَصَرها، والشقيُّ مَنْ شاقَّها ولم ينقَدْ إليها، وعارَضها بالهوى والخرافات، وخالَفَها بالبِدَع والمُحْدَثات؛ فإنَّ=

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء][1]،

= «بحسَبِ متابَعةِ الرسول تكون العزَّةُ والكفايةُ والنصرة، كما أنَّ بحسَبِ متابَعتِه تكون الهدايةُ والفلاح والنجاة؛ فاللهُ ـ سبحانه ـ علَّقَ سعادةَ الدارَيْن بمتابَعتِه، وجَعَلَ شقاوةَ الدارَيْن في مخالَفته؛ فلأتباعِه الهدى والأمنُ والفلاح والعزَّةُ والكفاية والنصرةُ والولاية والتأييدُ وطِيبُ العيشِ في الدنيا والآخرة، ولُمخالِفِيه الذلَّةُ والصَّغارُ والخوفُ والضلال والخذلان والشقاءُ في الدنيا والآخرة» [«زاد المَعاد» لابن القيِّم (١/ ٣٧)]، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٦)]: «والرُّسُلُ ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ عليهم البلاغُ المُبين، وقد بلَّغوا البلاغَ المُبين، وخاتمُ الرُّسُلِ محمَّدٌ ﷺ أنزل اللهُ كتابَه مُصدِّقًا لِمَا بين يدَيْه مِنَ الكتاب ومُهيمِنًا عليه؛ فهو الأمينُ على جميع الكُتُب، وقد بلَّغ أَبْيَنَ البلاغِ وأَتَمَّه وأكمله، وكان أنصحَ الخَلْقِ لعبادِ الله، وكان بالمؤمنين رءوفًا رحيمًا: بلَّغ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، وجاهَدَ في الله حقَّ جهادِه، وعَبَدَ اللهَ حتَّى أتاهُ اليقينُ؛ فأَسْعَدُ الخَلْقِ وأعظمُهم نعيمًا وأعلاهم درجةً: أعظمُهم اتِّباعًا ومُوافَقةً له علمًا وعملًا».

(١) قال السعديُّ رحمه الله في [«تفسيره» (٢٣٤)] شارحًا لهذه الآياتِ بما نصُّه: «يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبدِه ورسولِه مِنَ الشرع العظيم والأخبارِ الصادقة ما أوحى=

= إلى هؤلاء الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلام، وفي هذا عدَّةُ فوائد:

منها: أنَّ محمَّدًا ﷺ ليس ببِدْعٍ مِنَ الرُّسُل، بل أرسل اللهُ قبله مِنَ المُرْسَلين العددَ الكثيرَ والجمَّ الغفيرَ؛ فاستغرابُ رسالتِه لا وجهَ له إلَّا الجهلُ والعناد.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم مِنَ الأصول والعدل الذي اتَّفقوا عليه، وأنَّ بعضهم يُصدِّقُ بعضًا ويُوافِقُ بعضُهم بعضًا.

ومنها: أنه مِنْ جنسِ هؤلاء الرُّسُل؛ فليَعتبِرْه المُعتبِرُ بإخوانه المُرْسَلين؛ فدعوتُه دعوتُهم، وأخلاقُهم مُتَّفِقةٌ، ومَصْدرُهم واحدٌ؛ وغايتُهم واحدةٌ؛ فلم يقرنه بالمجهولين ولا بالكذَّابين ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أنَّ في ذِكْرِ هؤلاء الرُّسُلِ وتَعْدادهم مِنَ التنويه بهم، والثناءِ الصادق عليهم، وشرحِ أحوالهم ما [وفي الأصل: ممَّا] يزداد به المؤمنُ إيمانًا بهم، ومحبَّةً لهم، واقتداءً بهديهم، واستنانًا بسنَّتِهم، ومعرفةً بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقًا لقوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي ٱلْعَٰلَمِينَ ٧٩﴾ [الصافَّات]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ١٠٩﴾ [الصافَّات]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ١٢٠﴾ [الصافَّات]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ١٣٠﴾ [الصافَّات]، ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الصافَّات: ٨٠، ١٠٥، ١٢١، ١٣١؛ المُرْسَلات: ٤٤]؛ فكُلُّ مُحْسِنٍ له مِنَ الثناء الحسنِ بين الأنامِ بحسَبِ إحسانه، والرُّسُلُ ـ خصوصًا هؤلاء المُسمَّوْنَ ـ في المرتبة العليا مِنَ الإحسان.

ولمَّا ذَكَرَ اشتراكَهم بوحيِه ذَكَرَ تخصيصَ بعضِهم: فذَكَرَ أنه آتى داودَ الزَّبورَ، وهو الكتاب المعروفُ المزبورُ الذي خصَّ اللهُ به داودَ عليه السلام لفضلِه وشرفِه، وأنه =

[وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى](١): ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء]، [وَلِقَوْلِهِ](٢): ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم (٣)

= كلَّم موسى تكليمًا أي: مشافهةً منه إليه لا بواسطةٍ، حتَّى اشتهر بهذا عند العالَمِين فيقالُ: «موسى كليمُ الرحمن».

وذَكَرَ أنَّ الرُّسُلَ عليهم السلام منهم مَنْ قصَّه اللهُ على رسوله ومنهم مَنْ لم يَقْصُصْه عليه، وهذا يدلُّ على كثرتهم، وأنَّ الله أَرْسَلهم مبشِّرين لمَنْ أطاع اللهَ واتَّبَعهم بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومُنْذِرين مَنْ عصى اللهَ وخالَفهم بشقاوة الدارين؛ لئلَّا يكون للناس على الله حجَّةٌ بعد الرُّسُل فيقولوا: ﴿مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ﴾ [المائدة: ١٩].

فلَمْ يَبْقَ للخَلْق على الله حجَّةٌ؛ لإرساله الرُّسُلَ تَتْرَى يبيِّنون لهم أَمْرَ دِينِهم ومَراضِيَ ربِّهم ومَساخِطَه وطُرُقَ الجنَّة وطُرُقَ النار؛ فمَنْ كَفَرَ منهم ـ بعد ذلك ـ فلا يلومَنَّ إلَّا نَفْسَه.

وهذا مِنْ كمال عِزَّته تعالى وحكمتِه: أَنْ أَرْسَلَ إليهم الرُّسُلَ وأَنْزَلَ عليهم الكُتُبَ، وذلك ـ أيضًا ـ مِنْ فضلِه وإحسانه، حيث كان الناسُ مُضطرِّين إلى الأنبياء أَعْظَمَ ضرورةٍ تُقدَّرُ، فأزالَ هذا الاضطرارَ؛ فله الحمدُ وله الشكرُ، ونسأله ـ كما ابتدأ علينا نعمتَه بإرسالهم ـ أَنْ يُتِمَّها بالتوفيق لسلوكِ طريقهم؛ إنه جوادٌ كريمٌ».

(١) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ»، و«تعالى» ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.ش».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.ش»، وهو خطأٌ في الآية.

مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ *وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ *[1] ﴾ [النحل: ٨٩]][2].

---

(١) ما بين النجمتين ساقطٌ مِنْ «م.ر.ش».

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ، م.ر.ب».

[فصل: تأييد الله لهم بالبيِّنات والآيات][١]

لَمَّا أَرْسَلَ اللهُ الرُّسُلَ[٢] لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ وَإِقَامَةِ حُجَّتِهِ أَيَّدَهُمْ بِالبَيِّنَاتِ، وَهِيَ كُلُّ مَا يَتَبَيَّنُ[٣] بِهِ الحَقُّ: مِنْ كَمَالِ سِيرَتِهِمْ فِي قَوْمِهِمْ، وَوُضُوحِ بَيَانِهِمْ، وَقُوَّةِ حُجَّتِهِمْ، وَأَيَّدَهُمْ بِالآيَاتِ المُعْجِزَاتِ الخَارِقَةِ لِلْعَادَةِ، المَعْجُوزِ عَنْ مُعَارَضَتِهَا؛ فَكَانُوا يَدْعُونَ الخَلْقَ بِالحُجَجِ وَالبَرَاهِينِ، فَإِذَا سَأَلُوهُمْ آيَةً رَدُّوا الأَمْرَ إِلَى اللهِ، وَتَبَرَّأُوا مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ مَعَهُ تَصَرُّفٌ فِي الكَوْنِ حَتَّى يَأْتُوا بِالآيَاتِ، فَيُعْطِيهِمُ اللهُ الآيَاتِ تَأْيِيدًا لَهُمْ وَتَخْوِيفًا لِقَوْمِهِمْ؛ فَيَخْضَعُ قَوْمٌ فَيُؤْمِنُونَ، وَيَسْتَمِرُّ الأَكْثَرُونَ عَلَى العِنَادِ؛ فَتَحِقُّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ العَذَابِ[٤]؛ ....

---

(١) «م.ف»: «تأييد الرُّسُل بالبيِّنات»، وفي «م.ر.أ»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «مُعجِزات الرُّسُل».

(٢) «م.ر.أ»: بزيادةِ: «الله» بعدها، وهو خطأٌ مطبعيٌّ.

(٣) «م.ر»: «تَبَيَّنَ».

(٤) بيَّن المصنِّف رحمه الله أنَّ الأنبياء والرُّسُل عليهم السلام صفوةُ خَلْقِ الله، اختارهم لقيادة الخَلْقِ إلى الحقِّ، وخصَّهم بالفضائل والكمالات، وعَصَمهم مِنَ النقائص والرذائل؛ ليتمكَّنوا مِنَ القيام بأعباء الرسالة وتحقيقِ المقصود منها، وهو: هدايةُ الخَلْقِ وإقامةُ الحجَّةِ عليهم، وقد أيَّدهم اللهُ بالبيِّنات النفسية التي تتعلَّق بذواتهم مِنَ المَواهِبِ الذهنية والقدرات العقلية، والأخلاقِ السامية والسيرةِ الحميدة والصفاتِ الحسنة؛=

= ف: «كان الرُّسُلُ عليهم الصلاةُ والسلامُ أَكْمَلَ الناسِ في أخلاقهم، وأَنْزَهَهم في سيرتهم، معروفين بذلك بين أقوامهم قبل نُبُوَّتِهم، ثمَّ إذا بَعَثَهم اللهُ تعالى آتاهم مِنَ العلم وقوَّةِ الإدراك ووضوحِ البيانِ ما تنهض به حُجَّتُهم، وتتَّضِحُ به دعوتُهم، ويُقْطَعُ بكُلِّ مَنْ يُعارِضُهم بشبهةٍ ويُموِّهُ بباطلٍ، وإذا قَرَأْتَ ما قصَّه علينا القرآنُ العظيم مِنْ مواقف الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم رأيتَ كيف أنهم كانوا يَدْعون الناسَ بالحُجَجِ والبراهين والأدلَّةِ العقلية الجليَّة» [«مجالس التذكير مِنْ حديثِ البشير النذير» لابن باديس (٣٣)].

ومِنْ صُوَرِ مَواهِبِهم: أنَّ إبراهيم عليه السلام أَسْكَتَ خَصْمَه في مَعْرِض الحِجاج فقال تعالى: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة]؛ فالمُحاجَّةُ لإبطال الباطل ولإحقاق الحقِّ مِنْ مَقامات الرُّسُل لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وتفريعُ إبراهيمَ عليه السلام حُجَّتَه كان على حجَّةٍ أَوْضَحَ منها كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ومُحاجَّةُ إبراهيمَ عليه السلام لقومه هي مَواهِبُ خصَّ اللهُ بها مَنِ اصطفى مِنْ خَلْقه؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وكذلك انتهضَتْ في وجهِ فرعونَ حجَّةُ موسى عليه السلام وتَبَيَّنَ بها الحقُّ الذي دَعَا إليه؛ فانقطعَتْ شبهةُ فرعونَ حتَّى انتقل إلى التهديد بالقوَّة والترهيبِ بالسجن؛ قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا =

= بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشُّعَراء]؛ ففي الآيةِ أنَّ موسى عليه السلام احتجَّ على فرعونَ مِنَ البيان والتبيان بما يفهمه مَنْ له أَدْنَى مسكةٍ مِنْ عقلٍ، ورميُ فرعونَ لموسى بالجنون ـ مع أنه مِنْ أَزْكى الخَلْق عقلًا وأَكْمَلِهم علمًا ـ غايةٌ في الجحود، وإنما ـ في حقيقة الأمر ـ أنَّ مَنْ يُوصَفُ بالجنون الذي تكون البهائمُ أَعْقَلَ منه والأنعامُ أَهْدَى: هو مَنْ أَنْكَرَ أَظْهَرَ الموجوداتِ خالِقَ السماواتِ والأرض وما بينهما.

فهذه نماذجُ تُظْهِرُ أنَّ الأنبياءَ والرُّسُلَ تَولَّتْهم الرعايةُ الإلهية تأديبًا وتربيةً وتعليمًا حتَّى كانوا مَناراتِ الهدى ومُثُلًا عُلْيَا، وقد أثنى اللهُ عليهم بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٨٩ ـ ٩٠]، وبقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء].

واللهُ تعالى أيَّد رُسُلَه وأنبياءَه عليهم السلام بالآيات البيِّنات، وهي المُعْجِزاتُ والحُجَجُ الباهراتُ والدلائلُ القاطعاتُ التي تَقْطع بصدقِ دعواهم، وأنهم مُرْسَلون مِنْ عندِ الله، وموصولون بالملإ الأعلى يتلقَّوْن عنه الوحيَ، ومنه يأخذون دِينَ اللهِ وشَرْعَه.

والآيات البيِّناتُ التي يُؤيِّدُ اللهُ بها رُسُلَه ضروريةٌ لكُلِّ نبيٍّ؛ ليُستدَلَّ بها على صدقِه، ويتمَّ بها المقصودُ مِنْ تبليغ الرسالة، ويُقيمَ بها حجَّةَ اللهِ على خَلْقه؛ لقوله=

= ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ» [مُتَّفَقٌ عليه: سيأتي تخريجه، انظر: (ص ٢٣٧)]، قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (٩/ ٦) بتصرُّف] ما نصُّه: «هذا دالٌّ على أنَّ النبيَّ لا بُدَّ له مِنْ معجزةٍ تقتضي إيمانَ مَنْ شاهَدَها بصدقِه، ولا يضرُّه مَنْ أَصرَّ على المعانَدة .. والمعنى: أنَّ كُلَّ نبيٍّ أُعطِيَ آيةً أو أَكْثَرَ، مِنْ شأنِ مَنْ يُشاهِدُها مِنَ البشر أَنْ يُؤْمِنَ به لأَجْلِها .. أي: يؤمن بذلك مغلوبًا عليه بحيث لا يستطيع دَفْعَه عن نَفْسِه، لكِنْ قد يَجْحَد فيُعانِدُ، كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤]».

وهذه الآياتُ تكون ـ عادةً ـ مُخالِفةً للسنن الخاصَّة بالمادَّة، وخارقةً للعادات المعروفه، وخارجةً عن مألوف الحياة الطبيعية؛ ولهذا سُمِّيَتْ بالمعجزات؛ لأنها فوق طاقة البشر، يعجز العقلُ عن تفسيرها، وخارجةٌ عن نطاقِ قدرتهم وعلومِهم ومَعارفهم، تعجز القدرةُ البشريةُ عن الإتيان بمِثْلِها.

وعليه، فالنفسُ النزيهة لا تتوقَّفُ في تصديقِ شيءٍ متى وَقَعَ إذا ما ثَبَتَ بالدليل القاطع الذي لا يَتطرَّقُ إليه شكٌّ؛ لعِلْمِها بأنَّ اللهَ تعالى لا يَتقيَّدُ بالسنن الظاهرة التي وَضَعها؛ فهي تُدْرِكُ تمامَ الإدراك أنَّ الذي خَلَقَ النارَ بقدرته مُحْرِقةً ـ مثلًا ـ لا يمنعه شيءٌ مِنْ سَلْبِ خاصِّية الإحراق عنها، كما حَدَثَ مع إبراهيم عليه السلام حين أَفْحَمَ قومَه الحجَّةَ: استعملوا قوَّتَهم في مُعاقَبته فـ: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]؛ فانتصر اللهُ لخليله فأَبْطَلَ مفعولَ النارِ بسَلْبِ الإحراق عنها؛ فكانَتْ بَرْدًا وسلامًا عليه، لم=

....

= يَنَلْه مكروهٌ ولا أحَسَّ بأذًى.

والنفس المؤمنةُ تعلم أنَّ الذي خَلَقَ الإنسانَ مِنْ ذَكَرٍ وأُنْثَى بقدرته، وخَلَقَ آدَمَ مِنْ ترابٍ: قادرٌ على أَنْ يخلق غلامًا مِنْ غيرِ مَسيسٍ ولا لقاحٍ كما حَدَثَ مع العفيفةِ مريمَ العذراءِ عليها السلام التي ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم].

والنفس المؤمنة النزيهة تُدْرِكُ ـ أيضًا ـ بأنَّ الذي أعطى المرأةَ الوَلود القدرةَ على الإنجاب: قادرٌ على أَنْ يُعطيَ العقيمَ هذه القدرةَ متى شاء، كما وَقَعَ ذلك لأمِّ يحيى بنِ زكريَّا عليهما السلام حينما بشَّرَهُ اللهُ بالولد، وكمالِ صِفَاته، وكونِه نبيًّا مِنَ الصالحين؛ قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران]؛ فتَعجَّبَ زكريَّا عليه السلام مِنْ حصول الولد مع وجودِ مانعِ الكِبَرِ والعقم؛ فإِنْ كان الواحدُ منهما يمنع مِنْ وجود الولد فكيف إذا اجتمعا؟ هذا أمرٌ خارقٌ للعادة؛ فأخبره اللهُ تعالى أنه أمرٌ هيِّنٌ عليه؛ فكما أنه تعالى يُوجِدُ الأولادَ بأسباب التناسل المعتادة، فإذا أراد أَنْ يُوجِدَهم مِنْ غيرِ ما سببٍ معتادٍ أَوْجَدَهم؛ فاللهُ يفعل ما يشاء، لا يستعصي عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء، وهو ـ سبحانه ـ الحكيمُ القدير.

فالله تعالى يُري عِبادَه خَرْقَ العوائد في بعض الأسباب العادية؛ للدلالة على كمالِ=

= قدرتِه سبحانه، وأنه لا يتقيَّد بالسنن الظاهرة، بل مِنْ وراءِ هذه السننِ سننٌ أخرى فوق العادة، وأنه ـ سبحانه ـ خالقُ الأسبابِ ومُوجِدُها جميعِها؛ فلا يخرج شيءٌ عن عِلْمِه وإرادته وقدرته؛ وعليه فلا تَستقِلُّ الأسبابُ بالتأثير، وإنما تأثيرُها بتقدير الله تعالى؛ لِئلَّا يَقِفَ الناسُ مع الأسباب ويقطعوا النظرَ عن واضِعِ سننِ الكون ومُقدِّرِ الأسباب ومسبِّبِها.

فهذه معجزاتٌ ممكنةٌ في ذاتها، لا يمنعها العقلُ، ولا ينفيها العلمُ، ويُؤيِّدُها الواقعُ، وهي ـ بالاستقراء ـ تَندرِجُ تحت مَحاوِرَ ثلاثةٍ، وهي: العلم، والقدرةُ، والغنى.

ـ وممَّا يُعَدُّ مِنْ معجزاتٍ خارقةٍ داخلةٍ في باب **العلم**: الإخبارُ بالمغيَّبات الماضيةِ والحاضرة والمُستقبَلة: كإخبار عيسى عليه السلام قومَه بما يأكلون وما يدَّخِرون في بيوتهم، و«إخبارِ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ـ عن الأنبياء المتقدِّمين وأُمَمِهم ومخاطَباتِه لهم وأحوالِه معهم، وغيرِ الأنبياء مِنَ الأولياء وغيرِهم ـ بما يُوافِقُ ما عند أهل الكتاب الذين وَرِثوهُ بالتواتر أو بغيره، مِنْ غيرِ تعلُّمٍ له منهم، وكذلك إخباره ـ عن أمور الربوبية والملائكة والجنَّة والنار ـ بما يُوافِقُ الأنبياءَ قبلَه مِنْ غيرِ تعلُّمٍ منهم، ويُعْلَمُ أنَّ ذلك مُوافِقٌ لنُقولِ الأنبياء: تارةً بما في أيديهم مِنَ الكُتُب الظاهرة ونحوِ ذلك مِنَ النقلِ المتواتر، وتارةً بما يعلمه الخاصَّةُ مِنْ علمائهم» [«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٣١٥)].

ـ ومِنَ المعجزات الخارقة الداخلة في باب **القدرة**: ما تَقدَّمَ في شأنِ إبراهيمَ عليه السلام مِنْ إبطالِ مفعول النار وسَلْبِ الإحراق عنها، وانفلاقِ البحر لموسى عليه السلام وتحويلِ عَصاهُ أفعَى، ومعجزةِ إحياء الموتى لعيسى عليه السلام وإبراءِ الأكمه والأبرص، وإخراجِ=

= الناقة لصالحٍ عليه السلام، وانشقاقِ القمر ونبعِ الماء مِنْ أصابعِ محمَّدٍ ﷺ، وتسبيحِ الحصى، وحنينِ الجِذْع، ورَجْفِ الجبل، وإخبارِ الذراع إيَّاهُ أنها مسمومةٌ ونحوِ ذلك.

ـ ومِنَ المعجزات الداخلة في باب **الغنى**: عصمةُ اللهِ لرسوله ﷺ مِنَ الناس وحفظُه له؛ بحيث لا يستطيع أحَدٌ منهم أَنْ يَصِلَ إليه بسوءٍ يُؤْذيه؛ قال تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾ [المائدة: ٦٧]، وحمايةُ الله لرسوله ﷺ ـ أيضًا ـ ممَّنْ همُّوا بالفتك به في غزوة تبوك؛ قال تعالى: ﴿**وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ**﴾ [التوبة: ٧٤]، ووِصالُه ﷺ في الصوم مع بقاءِ قوَّتِه وحيويَّتِه ونشاطِه، وكذلك طوافُه على نسائه في ليلةٍ مِنْ غيرِ تأثُّرٍ، ونحو ذلك.

وهذه المَحاوِرُ الثلاثة التي ترجع إليها المعجزاتُ مَرَدُّها ـ جميعًا ـ إلى الله تعالى، وهي واقعةٌ بإذنٍ منه سبحانه، ليس للرُّسُل والأنبياء عليهم السلام أيُّ تصرُّفٍ مع الله في الكون؛ لذلك «كانوا إذا سُئِلوا الآياتِ المعجزاتِ الخارقةَ للعادة؛ رَدُّوا الأمرَ إلى الله، ونَفَوْا أَنْ تكون لهم قدرةٌ على الإتيان بها إلَّا بإذن الله؛ كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ**﴾ [إبراهيم: ١١]؛ فيُظْهِرُ اللهُ ـ على أيديهم ـ الآياتِ تأييدًا لهم وتخويفًا لأقوامهم وقطعًا لمُشاغَبتهم؛ فيخضع لها بعضُهم ويَستمِرُّ الأكثرون على العناد؛ فما مِنْ نبيٍّ مِنَ الأنبياء إلَّا وقد أعطاهُ اللهُ مِنَ الآيات والمعجزاتِ ما مِثْلُه ـ في وضوحه وظهوره والعجزِ عن مُعارَضته ـ ما يُؤْمِنُ عليه العبادُ ويتَّفِقون عليه لولا ما يَصُدُّهم عنه مِنَ العناد، وهو معنَى قولِه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ**» =

= [سيأتي تخريجه، انظر: (ص ٢٣٧)]» [«مجالس التذكير مِنْ حديثِ البشير النذير» لابن باديس (٣٣_٣٤)].

ولا يخفى أنَّ الأنبياء والرُّسُلَ عليهم السلام لم يَدَّعوا أنَّ بأيديهم مَفاتيحَ رِزْقِ اللهِ ورحمتِه، ولا أنهم يملكون التصرُّفَ في خزائن الله، ولا أنهم يعلمون الغيبَ، ولا أنهم ملائكةٌ، وإنما هُمْ بشرٌ ممَّنْ خَلَقَ، يُوحَى إليهم مِنَ الله تعالى، شرَّفَهم اللهُ بالوحي الذي يتَّبِعونه ولا يخرجون عنه، وأَنْعَمَ عليهم بالمَكارم والفضائل والكمالات، وعَصَمَهم مِنَ الرذائل والنقائص والمَعايب، وأَكْرَمهم بالرسالة أو النبوَّة لهداية الخَلْق إلى الحقِّ وإقامةِ الحجَّة عليهم، وأَيَّدهم بالآيات البيِّنات والمُعْجِزات الباهرات وخوارقِ العادات الدالَّةِ على صِدْقِهم؛ حتَّى لا يبقى عذرٌ لأَحَدٍ في تكذيبهم والخروجِ عن طاعتِهم؛ ولهذا أَمَرَ اللهُ تعالى نبيَّه أَنْ يَبْرَأَ مِنْ دعوَى هذه المَحاورِ الثلاثة مِنَ العلم والقدرة والغنى ـ التي ترجع إليها المُعْجِزاتُ ـ بقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (١١/ ٣١٣)] ما نصُّه: «فأَمَرَهُ أَنْ يخبر أنه لا يعلم الغيبَ، ولا يملك خزائنَ الله، ولا هو مَلَكٌ غنيٌّ عن الأكل والمال، إنْ هو إلَّا مُتَّبِعٌ لِمَا أُوحِيَ إليه، واتِّباعُ ما أُوحِيَ إليه هو الدِّينُ، وهو طاعةُ اللهِ وعبادتُه علمًا وعملًا بالباطن والظاهر، وإنما يَنالُ مِنْ تلك الثلاثةِ بقَدْرِ ما يعطيه اللهُ تعالى: فيعلم منه ما علَّمَه إيَّاهُ، ويقدر منه على ما أَقْدَرهُ اللهُ عليه، ويستغني عمَّا أغناهُ اللهُ عنه مِنَ الأمور المُخالِفةِ للعادة المطَّردةِ أو لعادةِ غالبِ الناس» [وانظر: «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٥٥٨)].=

....

= تنبيه:

هذا، ويجدر التنبيهُ إلى أمرين مُهِمَّين وهُما:

أحَدُهما: الفرقُ بين آيات الرُّسُل والأنبياء، وخوارقِ السَّحَرة والكُهَّان وغيرهم:

لا ينبغي أَنْ تلتبس دلائلُ النبوَّةِ ومعجزاتُ الرُّسُل والأنبياء بخوارق السَّحَرة والكُهَّان، وعجائبِ المُخْتَرَعات الصناعية، وغرائبِ التنويهات المغناطيسية:

ـ فالمعجزةُ هي الأمرُ الممكن الخارق للعادة، المقرونُ بالتحدِّي، الخالي عن المعارض، الذي يُجْريهِ اللهُ على يدِ نبيٍّ مُرْسَلٍ ليُقيمَ به الدليلَ القاطع على صدقِ نبوَّته، [انظر: «الانتصارات الإسلامية» للطوفي (١/ ٢٨٦)]، وأهلُها مُتَّصِفون بالإيمان والتقوى والاستقامةِ على وجه الطهر والكمال؛ فنفوسُهم بَقِيَتْ على طُهْرِها، وكمالُهم فطريٌّ، وعصمتُهم ربَّانيةٌ إلى الغايات التي لا تُنال، وأخبارُ الأنبياءِ والرُّسُلِ كُلُّها صادقةٌ مُوافِقةٌ للحقيقة ومُطابِقةٌ للواقع، لا يقع فيها تخلُّفٌ أو غلطٌ، ومعجزاتُهم خارجةٌ عن مقدور البشر ولا تحصل بأفعالهم، وإنما يفعلها اللهُ آيةً وعلامةً لهم.

ـ أمَّا الخوارق بسبب الكفر والشرك والطغيان والفسق والظلم فهي مِنَ الأحوال الشيطانية؛ لأنَّ السَّحَرة والكُهَّانَ والمُتنبِّئين لا يتَّصِفون إلَّا بالشرك وتكذيبِ بعضِ ما أَنْزَلَ اللهُ، وغالِبُ أخبارهم مبنيَّةٌ على الكذب والدَّجَل؛ فيخدعون حواسَّ الناسِ مِنَ السمع والبصر بالتخييل الذي يَحْذقه المُشَعْوِذون ويُجيدُه السَّحَرةُ، كالذي فَعَله سَحَرةُ فرعونَ المعنيِّ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾﴾ [طه]؛ فهؤلاء لا يجوز أَنْ يُوثَقَ بشيءٍ مِنْ أخبارهم وإِنْ صَدَقوا ـ تارةً ـ في بعض الأمور والأخبار؛ فإنما ذلك لأجلِ استراقِ شياطينِهم للسمع، =

= وما يحصل مِنْ خوارق السَّحَرة والكُهَّان والمُختَرَعاتِ الصناعية والتنويم المغناطيسيِّ ونحوِها فإنما هي مِنْ أفعال الخَلْق، وهي مقدورةٌ للجنِّ والإنس يمكن مُعارَضتُها بمِثْلِها؛ لأنَّ السحر والكهانة والاختراع الصناعيَّ والتنويم المغناطيسيَّ لا يزيد عن كونه مِنَ الأمور المعتادة التي يحصِّلُها طالِبُها بكَسْبِه ويَنالُها بالتعلُّم، بينما آياتُ الرُّسُل والأنبياء لا تقع بأفعالهم، وإنما يفعلها اللهُ بأمره؛ ليكون إظهارُها على أيديهم ـ مع بشريَّتِهم ـ دليلًا على أنهم رُسُلٌ وأنبياءُ مُنْذِرون مِنْ عندِ الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْآيَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ [العنكبوت]؛ فأَمْرُ الآياتِ مِنْ: عدمِ حَرْقِ النار لإبراهيم، وناقةِ صالحٍ، وعَصَا موسى وانفلاقِ البحر، وما ظَهَرَ على يدَيْ عيسى مِنْ إحياء الموتى وغيرِها، وانشقاقِ القمر لمحمَّدٍ ﷺ؛ كُلُّها إلى الله لا إلى اختيار المخلوقين، وهي غيرُ داخلةٍ في قدرتهم.

فشتَّانَ ـ إذن ـ بين معجزات الأنبياء والرُّسُل وآياتِهم وما جاءوا به مِنَ الوحي والدِّين الذي يُوافِقُ الفِطَرَ ويُجانِسُ العقولَ ويُكمِّلُها صحَّةً وصلاحًا، وبين مُخالَفةِ السَّحَرة والكُهَّان والدجَّالين وأضرابِهم للأدلَّة السمعية والعقلية والفطرية؛ فإنها لا تزيد العقولَ والفِطَرَ إلَّا ضَياعًا وفسادًا، وهي مِنْ قبيل المَكْرِ والاستدراج والمِحَنِ والاعوجاج.

ثانيهما: الفرقُ بين المعجزة والكرامة:

تختلف الكرامةُ عن المعجزة مِنْ ناحيةٍ: أنَّ الكرامةَ غيرُ مقرونةٍ بالتحدِّي والإعجاز، وليس فيها دَعْوَى النبوَّةِ ولا هي مقدِّمةٌ لها؛ فذلك خاصٌّ بالرُّسُل والأنبياء بمعجزاتهم، وإنما الكرامةُ هي ما يُكْرِمُ به اللهُ أولياءَه كرامةً خاصَّةً على=

= صلاحِهم وقوَّةِ إيمانهم وتقواهُمْ، بما يُجْرِيهِ اللهُ على أيديهم مِنْ خوارق العادات في أنواع العلوم والمكاشَفات وأنواعِ القدرة والتأثيرات، [انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣/ ١٥٦)]، وقد جاء تعريفُ السفارينيِّ رحمه الله في [«لوامع الأنوار البهيَّة» (٢/ ٣٩٢)] بما يُفيدُ هذا المعنى بقوله: «الكرامة: وهي أمرٌ خارقٌ للعادة غيرُ مقرونٍ بدعوى النبوَّة ولا هو مقدِّمةٌ، يظهر على يدِ عبدٍ ظاهرِ الصلاح، مُلتزِمٍ لمُتابَعةِ نبيٍّ كُلِّفَ بشريعته، مصحوبٍ بصحيح الاعتقاد والعملِ الصالح، عَلِمَ بها ذلك العبدُ الصالح أم لم يعلم».

وتُفارِقُ الكرامةُ المعجزةَ مِنْ ناحيةٍ أخرى، وهي: أنَّ الأصل ـ في الكرامة ـ الإخفاءُ والكتمان، وهو لازمٌ عمَّا تَقدَّمَ مِنْ كونها غيرَ مقرونةٍ بالتحدِّي والإعجاز، بخلافِ المعجزةِ فإنَّ إظهارَها واجبٌ؛ لتكونَ دليلًا على أنَّ صاحِبَها مُرْسَلٌ مِنْ عندِ الله؛ ليتمَّ بها تبليغُ الرسالة.

علمًا أنَّ الكرامة لا تدلُّ ـ دائمًا ـ على تفضيلِ مَنْ أَكْرَمه اللهُ بها على غيرِه بخلاف المعجزة؛ إذ قد يكون الذي لم يَحْظَ بالكرامة أَكْمَلَ استقامةً مِنَ الذي أُعْطِيَها وأَفْضَلَ منه علمًا وعملًا وطاعةً؛ لذلك كانَتِ الخوارقُ في التابعين أَكْثَرَ منها في الصحابة رضي الله عنهم، والصحابةُ رضي الله عنهم خيرٌ مِنَ التابعين وأَكْمَلُ منهم علمًا وعملًا وأخلاقًا وجهادًا، قال ابنُ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح العقيدة الطحاوية» (٥٦٠)]:
«وأمَّا ما يبتلي اللهُ به عَبْدَه مِنَ السرِّ بخَرْقِ العادة أو بغيرِها أو بالضرَّاء فليس ذلك لأجلِ كرامة العبد على ربِّه ولا هوانِه عليه، بل قد سَعِدَ بها قومٌ إذا أطاعوه، وشَقِيَ بها قومٌ إذا عصَوْه؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ =

....

= ﴿فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّاۖ﴾ [الفجر: ١٥ - ١٧]؛ ولهذا كان الناسُ - في هذه الأمور - ثلاثةَ أقسامٍ: قسمٌ ترتفع درجتُهم بخرق العادة، وقسمٌ يتعرَّضون بها لعذاب الله، وقسمٌ يكون - في حقِّهم - بمنزلة المُباحات».

لذلك كان المطلوبُ مِنَ العبد: الاستقامةَ على الدِّينِ، والْتزامَ طاعةِ الله، والسعيَ في الاستفادة مِنَ العلم، والزيادةَ في العمل، وهدايةَ الخَلْقِ إلى الحقِّ، وليس إشغالُ المرءِ نَفْسَه بالتطلُّع إلى الكرامة مطلوبًا حتَّى يتحسَّرَ أو يَحزن إذا لم يَحْظَ بالكرامة أو يُوَفَّقْ إليها، «قال أبو عليٍّ الجوزجانيُّ: كُنْ طالبًا للاستقامة لا طالبًا للكرامة؛ فإنَّ نَفْسَك مُنْجَبِلةٌ على طلبِ الكرامة، وربُّكَ يطلب منك الاستقامةَ» [«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٣٢٠)، «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٥٥٩)]؛ ذلك لأنَّ الاستقامة حظُّ الربِّ، وطَلَبَ الكرامةِ حظُّ النفس؛ «فسبيلُ الصادقِ مُطالَبةُ النفسِ بالاستقامة فهي كُلُّ الكرامة، ثمَّ إذا وَقَعَ في طريقِه شيءٌ خارقٌ كان كأَنْ لم يقع؛ فما يُبالي ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجبِ حقِّ الاستقامة» [«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٣٢١)].

هذا، والمعجزاتُ الخارقةُ للعادةِ المعجوزُ عن مُعارَضتِها - التي أيَّد اللهُ بها رُسُلَه عليهم السلام ليُستدَلَّ بها على صدقِهم ويتمَّ المقصودُ مِنْ تبليغ الرسالة وإقامةِ الحجَّة على خَلْقه - لا تَستمِرُّ لأحَدٍ كائنًا مَنْ كان للدلالة على صدقِه بعد انقطاع الوحي بوفاة النبيِّ محمَّدٍ ﷺ؛ فلا نبوَّةَ ولا رسالةَ بعد نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ خاتمِ الأنبياء والرُّسل عليهم السلام؛ قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ =

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥](١)، وَلِقَوْلِهِ(٢): ﴿قَالُوا يَا صَالِحُ

= ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ فلم يَبْقَ ـ إذن ـ إلَّا كراماتُ الأولياء، والتصديقُ بها مِنْ أصول أهل السنَّة والجماعة؛ فالقرآنُ الكريم حدَّث بها، وصحَّتْ ـ في ذِكْرِها ـ الأحاديثُ الثابتة؛ فلا مجالَ لإنكارها، وقد حكى القرآنُ الكريم عن الكرامات التي تُلازِمُ المُخْلِصين لله المتفرِّغين لعبادته، الذين سَلِمَتْ فِطَرُهم وزَكَتْ نفوسُهم؛ فمِنْ ذلك ما حدَّث به في شأنِ مريمَ عليها السلام؛ فقَدْ كان يُوجَدُ عندها فاكهةُ الشتاء في فصل الصيفِ وفاكهةُ الصيف في الشتاء، فجاء في القرآنِ عنها أنه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران]، وما وَقَعَ ـ أيضًا ـ لأصحاب الكهف وبقائهم فيه أحياءً مضروبًا على آذانهم ثلاثةَ قرونٍ وزيادةَ تسعِ سنواتٍ هلاليةٍ، [للتوضيح: قال ابنُ كثيرٍ في «تفسيره» (٣/ ٧٩): «هذا خبرٌ مِنَ الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدارِ ما لَبِثَ أصحابُ الكهف في كهفِهم منذ أرقدهم إلى أَنْ بَعَثَهم اللهُ وأَعْثَر عليهم أهلَ ذلك الزمان، وأنه كان مقدارُه: ثلاثَمائة سنةٍ تزيد تسعَ سنين بالهلالية، وهي الثلاثُمائة سنةٍ بالشمسية؛ فإنَّ تَفاوُتَ ما بين كُلِّ مائةِ سنةٍ بالقمرية إلى الشمسية ثلاثُ سنين؛ فلهذا قال ـ بعد الثلاثمائة ـ: ﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝٢٥﴾ [الكهف]»]، وحِفْظِ اللهِ أبدانَهم مِنَ التدهور وأجسامَهم مِنَ الإتلاف طِيلةَ تلك المدَّةِ الطويلة، وما وَقَعَ في صدرِ هذه الأمَّةِ مِنَ الصحابة والتابعين وسائرِ قرون الأمَّة، وهي موجودةٌ فيها إلى يوم القيامة.

(١) وتمامُ الآية: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٢٥﴾ [الحديد].

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ [هود: ٦٢](١)، وَلِقَوْلِهِ(٢): ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤](٣)، وَلِقَوْلِهِ(٤): ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ﴾ [الأنعام: ٨٣](٥)، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى](٦): ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ

---

(١) وتمامُ الآية: ﴿ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ ﴾ [هود].

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٣) وتمامُ الآية: ﴿ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ [إبراهيم].

(٤) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٥) وتمامُ الآية: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ ﴾ [الأنعام].

(٦) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ»، و«تعالى» ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

مَا ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [إبراهيم]، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى](١): ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء].

---

(١) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ»، و«تعالى» ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

[فصل: تمام عبوديتهم مع علو مرتبتهم][(١)]

هُمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ عَلَى عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ ـ لَا يَمْتَازُونَ عَنِ الخَلْقِ فِي تَمَامِ عُبُودِيَّتِهِمْ: بِافْتِقَارِهِمْ إِلَى اللهِ، وَجَرَيَانِ قَدَرِهِ عَلَيْهِمْ، وَعَدَمِ مِلْكِهِمْ شَيْئًا مَعَهُ مِنَ[(٢)] التَّصَرُّفِ فِي مُلْكِهِ، وَعَدَمِ عِلْمِهِمُ الغَيْبَ [إِلَّا مَا عَلَّمَهُمُ اللهُ][(٣)]، وَجَرَيَانِ شَرْعِهِ عَلَيْهِمْ، وَقِيَامِهِمْ بِمَا كُلِّفُوا بِهِ، خَاضِعِينَ للهِ رَاجِينَ خَائِفِينَ[(٤)]؛.........

---

(١) «م.ف»: «عُلُوُّ مراتبِ الرُّسُل»، وفي «م.ر.أ»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «عبودية الرُّسُل لله».

(٢) في نسخة «م.ف»: «في».

(٣) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ف».

(٤) الرُّسُلُ والأنبياء عليهم السلام بَشَرٌ مِنْ نفسِ الأمَّة؛ فهُمْ مِنْ معدنٍ كريمٍ، خصَّهم اللهُ بكمالاتٍ ذاتيةٍ ومواهِبَ عقليةٍ وفضائلَ خُلُقيةٍ؛ فجعَلهم اللهُ أشرفَ النوعِ البشريِّ وأَسْماهُ روحًا وأكملَه رفعةً، هيَّأهم اللهُ التهيئةَ الخاصَّة، وأعدَّهم الإعدادَ المميَّزَ؛ ليقوموا بما فَرَض اللهُ عليهم مِنَ البلاغ والتبشير والإنذار؛ فهُمْ ـ إذَنْ ـ بشرٌ ممَّنْ خلَق، يجوز في حقِّهم ـ شرعًا وعقلًا ـ ما يجوز على البشر مِنَ الأكل والشرب والنوم والمشي والجلوس والزواج والبيع والشراء وسائرِ الأعراض والأغراض البشرية التي لا تُفْضي إلى عيبٍ يؤثِّر في مراتبهم أو نقصٍ يلحق كمالاتِهم العليَّة؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ =

= ﴿فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨].

كما يتعرَّضون لِمَا يتعرَّض له البشرُ مِنَ الصحَّة والمرض، واللذَّةِ والألم، والسعادةِ والحزن، ويطرأ عليهم ـ أيضًا ـ ما يطرأ على الناس مِنَ الشِّبَع والجوع، والرِّيِّ والعطش، والحياةِ والموت، والقوَّةِ والضعف ونحو ذلك، غيرَ أنَّ ما ينزل بهم لا يعرِّضُهم لتنفيرِ الناس منهم؛ فقَدْ جاء ذِكْرُ إبراهيمَ عليه السلام لربِّه: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١﴾ [الشُّعَراء]، وقال تعالى في شأن أيُّوبَ عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ۝٨٤﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر]، وبيَّن اللهُ أنها سنَّته في جميع الرُّسُل فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، وقال ﷺ: «لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ» [سبق تخريجه، انظر: (ص ١٢١)].

والأنبياء والرُّسُل عليهم السلام بَشَرٌ تمتدُّ إليهم أيدي العدوان والظلم، وينالهم الاضطهادُ، وقد يَصِلُ إلى حدِّ قتلِهم: كما أخبر اللهُ تعالى عن بني إسرائيلَ بقوله: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]؛=

= فيعتريهم ما يعتري سائرَ البشر فيما لا علاقةَ له بتبليغ الشرع والأحكام عن الله تعالى.

« والحاصل أنهم عليهم الصلاةُ والسلامُ مِنَ البشر، وأُرْسِلوا إلى البشر؛ فظواهرُهم خالصةٌ للبشر، يجوز عليها مِنَ الآفات والتغييرات والآلام والأسقام وتجرُّعِ كأسِ الحِمام [وهو قَدَرُ الموتِ وقَضاؤه، انظر: «القاموس المحيط» للفيروزآبادي (١٠٩٧)] ما يجوز على البشر ممَّا لا نقيصةَ فيه؛ فإنَّ نبيَّنا ﷺ كان يمرض ويتألَّمُ ويتشكَّى، وكان يُصيبُه الحرُّ والقُرُّ، والجوعُ والعطش، والغضبُ والضجر، والنَّصَبُ والتعب، ونحوُ ذلك ممَّا لا نَقْصَ عليه فيه، ولا يُوجِبُ الاتِّصافُ به نوعَ نفرةٍ عند كُلِّ نبيِّه» [«لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (٢/ ٣١٠)].

والرُّسُلُ والأنبياء عليهم السلام محَلُّ محبَّةٍ واجبةٍ وتعظيمٍ دائمٍ، ومع ذلك يَحْرُمُ الغُلُوُّ فيهم ورفعُهم فوق منزلتهم، ومجاوَزةُ الحدِّ المقدَّرِ المشروع في حقِّهم إلى ما ليس بمشروعٍ؛ قال تعالى ناهيًا أهلَ الكتاب عن الغُلُوِّ في الدِّين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١]، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ٥٨٩)]: «ينهى تعالى أهلَ الكتاب عن الغُلُوِّ والإطراء، وهذا كثيرٌ في النصارى؛ فإنهم تجاوَزوا الحدَّ في عيسى حتَّى رفعوه فوقَ المنزلة التي أعطاهُ اللهُ إيَّاها، فنقَلوه مِنْ حيِّزِ النبوَّة إلى أَنِ اتَّخذوه إلهًا مِنْ دونِ الله يعبدونه كما يعبدونه، بل قد غَلَوْا في أتباعه وأشياعه ممَّنْ زَعَم أنه على دِينِه؛ فادَّعَوْا فيهم العصمةَ، واتَّبَعوهم في كُلِّ ما قالوه سواءٌ كان حقًّا أو باطلًا، أو ضلالًا أو=

= رشادًا، أو صحيحًا أو كذبًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]»، وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ» [أخرجه النسائيُّ في «المناسك» (٥/ ٢٦٨) بابُ الْتقاطِ الحصى، وابنُ ماجه في «المناسك» (٢/ ١٠٠٨) بابُ قَدْرِ حَصَى الرمي، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢١٥، ٣٤٧)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٦٦)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٥/ ١٢٧)، مِنْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما. والحديث صحَّحه النوويُّ في «المجموع» (٨/ ١٧١)، والألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٢٧٨)]، وقال ﷺ: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ؛ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» [أخرجه البخاريُّ في «أحاديث الأنبياء» (٦/ ٤٧٨) بابُ قولِ الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦]، والحُمَيْديُّ في «مسنده» (١/ ١٦)، والبغويُّ في «شرح السنَّة» (١٣/ ٢٤٦)، مِنْ حديثِ عمر بنِ الخطَّاب رضي الله عنه]، وقال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: «مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ»، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا [وفي لفظٍ: نِدًّا]، بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ» [أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣)، وابنُ ماجه بنحوه في «الكفَّارات» (١/ ٦٨٤) باب النهي أَنْ يقال: ما شاء اللهُ وشئتَ، والبخاريُّ في «الأدب المُفْرَد» (٢/ ٤٧٥)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٣/ ٢١٧)، مِنْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما. قال أحمد شاكر في تحقيقه لـ «مسند أحمد» (٣/ ٢٥٣): «إسنادُه صحيحٌ»، وصحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٥٦) رقم: (١٣٩)].

ذلك لأنَّ مِنْ مقتضى بَشَرِيَّتِهم أنهم لا يتَّصِفون بصفات الملائكة الكِرام ولا بصفات الإلهية وخصائصها؛ فليس بإمكانهم التصرُّفُ في الكون ـ ألبتَّةَ ـ ولا التأثيرُ في إرادة الله عزَّ وجلَّ، بل يبرأون مِنَ الحول والطَّوْل، ويعتصمون بالله وَحْدَه؛ ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ =

= ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلۡتُ لَهُمۡ إِلَّا مَآ أَمَرۡتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۚ وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة]؛ فهُمْ ـ صلواتُ الله عليهم ـ لا يملكون النفعَ أو الضرَّ، ولا يعلمون الغيبَ ولا يدَّعون منه إلَّا القَدْرَ الذي أطلعهم اللهُ عليه وأراده لهم؛ ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴿٢١﴾ ﴾ [الجن]، ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجن].

هذا، وينبغي الحذرُ والتحرُّزُ مِنَ الاشتباهِ الذي قد يحصل ما بين حقِّ الله تعالى وما للرسول مِنْ حقٍّ؛ إذ قد يَقَعُ التداخلُ بين الحقَّيْن على وجهٍ لا يشعر العبدُ فيه بالفرق، وقد يتعمَّدُ الخلطَ بين المفهومين ظانًّا أنه بذلك يؤدِّي واجبًا تُجاهَ النبيِّ ﷺ، أو قد يكون مدفوعًا بفرطِ محبَّةِ النبيِّ ﷺ والمبالغةِ في تعظيمه؛ فيتجاوزُ بذلك حدودَ حقِّ الله تعالى الخالصِ فيجعلُه مِنْ حقِّ الرسول ﷺ ظلمًا وغُلُوًّا، فيصرف ـ بذلك ـ العبادةَ إليه، فيقع في الشرك المنهيِّ عنه بهذه الأسبابِ أو بغيرها؛ فلا يحقِّق ـ بالتالي ـ رُكْنَ الشهادة ولا شَرْطَها.

والمعلومُ أنَّ لله حقًّا خالصًا لا يُشْرَكُ فيه معه غيرُه، وهو ما يختصُّ به مِنَ الربوبية=

....

= والألوهية، والأسماءِ والصفات؛ فإنَّ كُلَّ ما دَعَا إليه الشرعُ الحكيمُ مِنْ أنواع الطاعات وأعمالِ الخير والإحسان ـ ممَّا أَمَر به وحثَّ على فعلِه، ورغَّب فيه مِنَ الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة ـ داخلٌ في مفهوم العبادة وعمومِها، لا يجوز صرفُه ـ بحالٍ ـ لغير الله تعالى، بل حقُّ اللهِ المؤكَّدُ على العبيد: وجوبُ صرفِ كُلِّ العبادات له دون غيرِه؛ لأنه هو المعبودُ المُطاع، ولا معبودَ بحقٍّ سِواه، وهي الغايةُ التي خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ لأجلها؛ ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات]، والمعلومُ أَنْ لا نصيبَ لأحَدٍ في الجنَّة بدون القيام بحقِّ الله تعالى، كما جاء في حديثِ مُعاذ بنِ جبلٍ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟» قَالَ: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «أَنْ يُعْبَدَ اللهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ»، قَالَ: «أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ؟» فَقَالَ: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ» [أخرجه البخاريُّ في «التوحيد» (١٣/ ٣٤٧) بابُ ما جاء في دعاء النبيِّ ﷺ أمَّتَه إلى توحيد الله تَبارَك وتعالى، ومسلمٌ في «الإيمان» (١/ ٢٣٣) باب الدليل على أنَّ مَنْ مات على التوحيد دَخَل الجنَّةَ قطعًا، مِنْ حديثِ مُعاذ بنِ جبلٍ رضي الله عنه] الحديث، قال السعديُّ رحمه الله في [«الحقِّ الواضح المبين» (١١١)]: «وهذا النوعُ ـ يعني: توحيدَ الألوهية والعبادة ـ زبدةُ رسالةِ الله لرُسُله؛ فكُلُّ نبيٍّ يبعثه اللهُ يدعو قومَه يقول: ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥؛ هود: ٥٠، ٦١، ٨٤؛ المؤمنون: ٢٣، ٣٢]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]، وهو الذي خَلَق اللهُ الخَلْقَ لأجله، وشَرَع الجهادَ لإقامته، وجَعَل الثوابَ الدنيويَّ والأخرويَّ لمَنْ قام به وحقَّقه، والعقابَ لمَنْ تَركه، وبه يحصل الفرقُ بين أهل =

= السعادة القائمين به، وأهلِ الشقاوةِ التاركين له»، وقال رحمه الله في موضعٍ آخَرَ في [«القول السديد» (١٣)]: «فجميعُ الكُتُبِ السماويةِ وجميعُ الرُّسُل دَعَوْا إلى هذا التوحيد، ونَهَوْا عن ضِدِّه مِنَ الشرك والتنديد، وخصوصًا محمَّدٌ ﷺ وهذا القرآنُ الكريم؛ فإنه أَمَر به وفَرَضه، وقَرَّره أعظمَ تقريرٍ، وبيَّنه أعظمَ بيانٍ، وأخبر أنه لا نجاةَ ولا فلاحَ ولا سعادةَ إلَّا بهذا التوحيد، وأنَّ جميعَ الأدلَّةِ العقلية والنقلية والأُفُقية والنفسيةِ أدلَّةٌ وبراهينُ على هذا الأمرِ بهذا التوحيدِ ووجوبه؛ فالتوحيدُ هو حقُّ اللهِ الواجبُ على العبيد، وهو أعظمُ أوامرِ الدِّينِ وأصلُ الأصول كُلِّها وأساسُ الأعمال».

والمعلوم ـ أيضًا ـ أنَّ للرُّسُل والأنبياء صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ حقًّا خاصًّا: هو توقيرُهم وتبجيلهم وإعانتُهم ونُصرتُهم وتقديرهم بما يَستحِقُّون؛ لقوله تعالى: ﴿**وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ**﴾ [الفتح: ٩]، وهذا الحقُّ الخاصُّ للرُّسُل والأنبياء عليهم السلام يَندرِجُ في النصيحة لرسول الله ﷺ في الحديث المشهور: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**»، قُلْنَا: «لِمَنْ؟» قَالَ: «**للهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٢/ ٣٧) بابُ بيانِ أنَّ الدين النصيحةُ، مِنْ حديثِ تميم ابنِ أوسٍ الداريِّ رضي الله عنه]، قال الخطَّابيُّ رحمه الله في [«أعلام الحديث» (١/ ١٩٢)]: «وأمَّا النصيحة لرسوله ﷺ فإنما هي في تصديقه على الرسالة، وقَبولِ ما جاء به ودَعَا إليه، وطاعتِه فيما سنَّ وشَرَع، وبيَّن مِنْ أمرِ الدِّين وشَرَح، والانقيادِ له فيما أَمَر ونَهَى، وحَكَم وأَمْضى، وتركِ التقديم بين يدَيْه، وإعظامِ حقِّه وتعزيره وتوقيره ومؤازَرته ونصرتِه، وإحياءِ طريقته في بَثِّ الدعوة وإشاعةِ السنَّة، ونفيِ =

= التهمة في جميعِ ما قالَهُ ونَطَق به؛ فإنه لَكَمَا وَصَفه ربُّه وباعِثُه فقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾ [النساء]».

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ [الفتح] فإنَّ التسبيح مِنْ حقوق الله الخاصَّةِ به؛ فلا يجوز تسبيحُ الرسول ﷺ كما يُسبَّحُ اللهُ تعالى؛ فإنَّ ذلك يُعَدُّ ـ بلا شكٍّ ـ شركًا، بخلافِ الإيمان بالله ورسوله وطاعتِهما؛ فإنهما مِنَ الحقوق المشترَكةِ بين الله ورسوله؛ لقوله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٩؛ المجادلة: ٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة: ٩٢؛ التغابن: ١٢]. والإيمانُ بالله والرسولِ وطاعتُه هو ـ في حقيقة الأمر ـ إيمانٌ بالله وطاعةٌ له؛ لقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، «فذَكَر اللهُ ـ في هذه الآية ـ الحقَّ المشترَكَ بين الله وبين رسوله وهو: الإيمانُ بهما، والمختصَّ بالرسول وهو: التعزيرُ والتوقير، والمختصَّ بالله وهو: التسبيحُ له والتقديسُ بصلاةٍ أو غيرِها» [«تفسير السعدي» (٩٣٤)]. لذلك يَحْرُمُ مجاوَزةُ الحدِّ المشروع في الأنبياء والرُّسُلِ عليهم السلام والغُلُوُّ فيهم؛ خشيةَ رفعِهم مِنْ درجة النبوَّةِ إلى حيِّزِ صفات الربوبية والألوهية: كنسبةِ عِلْمِ اللوح والقلم للرسول ﷺ، أو اعتقادِ القدرة فيه على كشفِ الضرِّ أو جلبِ النفع والخير، وما يَنجرُّ عنه مِنْ دعائه والاستغاثةِ به فيما لا يقدر على تحصيله إلَّا اللهُ تعالى، والتوكُّلِ عليه، ونحوِ ذلك ممَّا يُنافي التوحيدَ؛ لكونها مِنَ الحقوق الخاصَّةِ بالله عزَّ وجلَّ، سواءٌ وَقَع التداخلُ والخلطُ بين هذه الحقوقِ مِنْ غيرِ تميُّزٍ بينها=

= ـ جهلًا ـ أو بدعوَى مَزيدِ محبَّة النبيِّ ﷺ المُفْرِطة، علمًا أنَّ محبَّةَ الرسولِ الحقيقيةَ إنما هي مُتابَعتُه والمُسارَعةُ في طاعته فيما يُحِبُّه اللهُ مِنَ الإيمان والعمل الصالح، ومِنْ دفعِ ما يبغضه مِنَ الكفر والفسوق والعصيان؛ فالمحبَّةُ لها علامتان: فهي لا تتمُّ إلَّا بتجريد المتابَعةِ لشرعِ الله الذي جاء به النبيُّ ﷺ عن ربِّه أوَّلًا؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران]، وممَّا جاء به ﷺ عن ربِّه: إفرادُ الله بالعبادة بجميعِ أنواعها ومراتبها وصُوَرِها، مِنْ غيرِ صرفِ أيِّ شيءٍ منها لأحَدٍ كائنًا مَنْ كان، وهذا معنَى كلمةِ التوحيد، ولا تتمُّ محبَّةُ الله ـ ثانيًا ـ إلَّا بموالاته تعالى ومُوافقته فيما يُحِبُّ ويكره؛ فيُحِبُّ العبدُ ما يُحِبُّه ربُّه ويبغض ما يبغضه؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، وبقوله ﷺ: «[فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ]، لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ [وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ]» [أخرجه البخاريُّ في «الإيمان» (١/ ٥٨) باب: حبُّ الرسولِ ﷺ مِنَ الإيمان، مِنْ حديثِ أبي هريرة ﷺ. وأخرجه البخاريُّ (١/ ٥٨)، ومسلمٌ في «الإيمان» (٢/ ١٥) بابُ وجوبِ محبَّةِ رسول الله ﷺ أكثرَ مِنَ الأهل والولدِ والوالد والناس أجمعين، مِنْ حديثِ أنس بنِ مالكٍ ﷺ].

ولتثبيتِ هذه الحقائقِ والمعاني في نفوس المسلمين وترسيخِها أفصحَ القرآنُ الكريم أنَّ النبيَّ ﷺ بَشَرٌ يدعو إلى عبادة الله وَحْدَه لا شريكَ له وإلى إقامةِ دِينِه، مقيَّدًا بما جاء به مِنْ سنَّتِه؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ =

....

= ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]، وقد بيَّن ابنُ القيِّم رحمه الله هذا المعنى ـ بجلاءٍ ـ بقوله في [«إعلام الموقِّعين» (٢/ ١٨١)]: «والأعمال أربعةٌ: واحدٌ مقبولٌ وثلاثةٌ مردودةٌ؛ فالمقبولُ ما كان لله خالصًا وللسنَّة مُوافِقًا، والمردودُ ما فُقِدَ منه الوصفان أو أحَدُهما، وذلك أنَّ العمل المقبولَ هو ما أَحبَّه اللهُ ورَضِيَه، وهو ـ سبحانه ـ إنما يُحِبُّ ما أَمَر به وما عُمِلَ لوجهِه، وما عَدَا ذلك مِنَ الأعمال فإنه لا يُحِبُّها، بل يمقتها ويمقت أهلَها»، وفصَّل ابنُ رجبٍ رحمه الله مسألةَ العمل ـ مِنْ حيث ظاهِرُه وباطِنُه ـ في [«جامع العلوم والحِكَم» (١٠)] بما نصُّه: «.. وإنما يتمُّ ذلك بأمرين: **أحَدُهما**: أَنْ يكون العملُ ـ في ظاهِره ـ على مُوافَقةِ السنَّة، وهذا هو الذي تَضمَّنَه حديثُ عائشة: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**» [أخرجه البخاريُّ في «الصلح» (٥/ ٣٠١) باب: إذا اصطلحوا على صُلحِ جَوْرٍ فالصلحُ مردودٌ (٢٦٩٧)، ومسلمٌ في «الأقضية» (١٢/ ١٦) بابُ نقضِ الأحكام الباطلة وردِّ مُحْدَثات الأمور، مِنْ حديثِ عائشة رضي الله عنها، وسيأتي بلفظٍ آخَر، انظر: (ص ٢٤٦)]، **والثاني**: أَنْ يكون العملُ في باطِنِه يُقْصَدُ به وجهُ الله عزَّ وجلَّ، كما تَضمَّنَهُ حديثُ عمر رضي الله عنه: «**الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الوحي» (١/ ٩) باب: كيف كان بدءُ الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ ومسلمٌ في «الإمارة» (١٣/ ٥٣) بابُ قولِه صلى الله عليه وسلم: **إنما الأعمال بالنيَّة** وأنه يدخل فيه الغزوُ وغيرُه مِنَ الأعمال، مِنْ حديثِ عمر بنِ الخطَّاب رضي الله عنه]، وقال الفُضَيْلُ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧؛ المُلك: ٢]، قال: «أَخْلصُه وأَصْوبُه»، وقال: «إنَّ العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقْبَلْ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقْبَلْ، حتَّى يكون خالصًا وصوابًا»، قال: «والخالصُ: إذا كان لله عزَّ وجلَّ، والصوابُ: إذا كان على السنَّة»». =

= ولهذا كان الدعاءُ لجلبِ الخير والنفع أو لكشفِ الضرِّ أو دفعِ السوء والأذى إنما هو مُوجَّهٌ للمعبود الحقِّ دون غيره؛ قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ۝٥٦﴾ [الإسراء]، وقد فسَّر ابنُ باديس رحمه الله هذه الآيةَ في [«مجالس التذكير مِنْ كلام الحكيم الخبير» (٤٦٨)] بقوله: «فمَنْ دَعَا غيرَ اللهِ فقَدْ عَبَده، ومَنْ دَعَا مخلوقًا مع الخالق فقَدْ أشرك، فإذا دَعَوْتَ فادْعُ ربَّك ولا تَدْعُ معه أحَدًا، وكيف تدعو مَنْ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا؟! وإذا توسَّلْتَ فتوَسَّلْ بأعمالك: بإيمانك وتوحيدِك، وباتِّباعك لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وآلِه وسلَّم، ومحبَّتِك فيه، واعتقادِك ما له عند الله مِنْ عظيمِ المنزلة وسُمُوِّ المَقام عليه وعلى آله الصلاةُ والسلامُ»، ولقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ [يونس: ٤٩]، قال محمَّد صدِّيق حسن خان رحمه الله في حكم التوجُّه إلى الرسول بالدعاء والاستغاثة به في [«فتح البيان» (٤/ ٢٢٥)] ما نصُّه: «وفي هذا أعظمُ واعظٍ وأبلغُ زاجرٍ لِمَنْ صار دَيْدنُه وهِجِّيراهُ المناداةَ لرسول الله ﷺ والاستغاثةَ به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعِها إلَّا اللهُ سبحانه، وذلك مَنْ صار يطلب مِنَ الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلَّا اللهُ سبحانه؛ فإنَّ هذا مَقامُ ربِّ العالَمِين الذي خلَق الأنبياءَ والصالحين وجميعَ المخلوقين: رَزَقهم وأحياهم ويُميتُهم؛ فكيف يطلب مِنْ نبيٍّ مِنَ الأنبياء أو مَلَكٍ مِنَ الملائكة أو صالحٍ مِنَ الصالحين ما هو عاجزٌ عنه غيرُ قادرٍ عليه، ويترك الطلبَ لربِّ الأرباب، القادرِ على كُلِّ شيءٍ، الخالقِ=

= الرازق المعطي المانع؟ وحَسْبُكَ ـ في هذه الآيةِ ـ موعظةً! فإنَّ هذا سيِّدُ ولدِ آدَمَ وخاتمُ الرُّسُلِ يأمره اللهُ بأَنْ يقول لعباده: ﴿لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرًّا وَلَا نَفۡعًا﴾؛ فكيف يملكه لغيره؟ وكيف يملكه غيرُه ـ ممَّنْ رتبتُه دون رتبته، ومنزلتُه لا تبلغ إلى منزلته ـ لنفسه فضلًا عن أَنْ يملكه لغيره؟ فيا عجبًا لقومٍ يعكفون على قبور الأموات الذين قد صاروا تحت أطباق الثرى، ويطلبون منهم مِنَ الحوائج ما لا يقدر عليه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ: كيف لا يتيقَّظون لِمَا وقعوا به مِنَ الشرك، ولا ينتبهون لِمَا حلَّ بهم مِنَ المخالفة لمعنى: «لا إلهَ إلَّا اللهُ» ومدلولِ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص]؟! وأعجبُ مِنْ هذا اطِّلاعُ أهلِ العلم على ما يقع مِنْ هؤلاء، ولا يُنْكِرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى، بل إلى ما هو أَشَدُّ منها!! فإنَّ أولئك يعترفون بأنَّ الله ـ سبحانه ـ هو الخالقُ الرازق المُحيي المُميتُ الضارُّ النافع، وإنما يجعلون أصنامَهم شُفَعاءَ لهم عند الله ومقرِّبين إليه، وهؤلاء يجعلون لهم قدرةً على الضرِّ والنفع، ويُنادونهم ـ تارةً ـ على الاستقلال وتارةً مع ذي الجلال، وكفاكَ مِنْ شرٍّ سماعُه! واللهُ ناصِرُ دِينِه ومُظهِرُ شريعته مِنْ أوضار الشرك وأدناسِ الكفر، ولقد تَوسَّلَ الشيطانُ ـ أخزاهُ اللهُ ـ بهذه الذريعةِ إلى ما تَقَرُّ به عَيْنُه ويَنثلِجُ به صدرُه مِنْ كفرِ كثيرٍ مِنْ هذه الأُمَّةِ المُبارَكة وهُمْ يحسبون أنهم يُحْسِنون صنعًا، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون».

هذا، والقرآنُ الكريم تَضمَّنَ العديدَ مِنَ الآيات الناهية عن الدعاء بجلب الخير، والسؤالِ لكشفِ الضرِّ أو تحويلِه، إلَّا مِنَ الله تعالى الذي دَعَانا إلى طلبِه منه والتوجُّهِ إليه مُباشَرةً دون واسطةٍ؛ قال تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [غافر: ٦٠]،=

....

= وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وعليه، فلا وساطةَ للرُّسُل والأنبياء عليهم السلام في شيءٍ بين الله تعالى وعبادِه مِنْ طلبِ الحوائج مِنَ الله تعالى، وإنما وساطتُهم تتجلَّى في تبليغِ شرعِ الله ودِينِه لعباده. وفي بيانِ هذه الوساطةِ وإثباتِها قال عبدُ العزيز المحمَّد السلمان رحمه الله في [«الكواشف الجليَّة» (٧٣)] ما نصُّه: «إنها على قسمين:

ـ واسطةٌ مِنْ تمام الدِّينِ والإيمانِ إثباتُها: وهي أنَّ الرسول ﷺ وغيرَه مِنَ الرُّسُل وسائطُ بين الله وبين عباده في تبليغِ دِينِه وشرعِه.

ـ وواسطةٌ شركيةٌ: وهي التقرُّبُ إلى أحَدٍ مِنَ الخَلْق ليُقرِّبَه إلى الله، وليَجلِبَ له المنافعَ التي لا يقدر عليها إلَّا اللهُ، أو يدفع عنه المَضارَّ؛ فهذا النوعُ مِنَ الشرك الأكبر الذي لا يغفره اللهُ.

فالخَلْق مُضطرُّون إلى وساطة الرُّسُل في تبليغِ الدِّين، وليس بهم حاجةٌ إلى وساطةِ أحَدٍ في طلبِ الحوائج مِنَ الله؛ فليس بين العبد وبين الله حجابٌ ولا واسطةٌ».

ومنه يُعْلَمُ أنَّ الله تعالى لم يجعل وساطةَ الرُّسُل والأنبياء عليهم السلام ولا مكانتَهم وجاهَهم ـ فضلًا عن الصالحين ـ طريقًا للتقرُّب منه، أو وسيلةً مُوصِلةً إليه، ولا سببًا للزُّلفى لدَيْه. وإنما جَعَل القُرْبَ منه والوسيلةَ إليه في تصديقهم فيما أخبروا به، واتِّباعِ النور الذي جاءوا به مِنْ عبادته وطاعتِه وامتثالِ أوامره ونواهيه، والْتزامِ مَحابِّه واجتنابِ مَكارهِه، والعملِ على تقريرِ شرعِه ونَشْرِه وتثبيتِه وإقامتِه بين الخَلْق. =

....

= ومِنْ هنا يظهر ـ جليًّا ـ أنَّ حياةَ أنبياءِ اللهِ ورُسُله ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ لم تكن مبنيَّةً على تغييبِ حقيقتهم البشرية، أو رفعِ أَنْفُسهم إلى مَقامِ الربوبية، أو ادِّعاءِ خصائص الألوهية، أو إرادةِ تلبيسٍ بين حقِّ الله الخالص وحقِّ أنبيائه الكرام عليهم السلام، كلَّا، إنما كانَتْ حياتُهم مليئةً بالصِّلَة بالله، وعامرةً بالعلم النافع والعملِ الصالح، والقوَّةِ في العبادة، والمُسارَعةِ في الخيرات، والبصيرةِ النافذة في الدِّين؛ حتَّى بلغوا الغايةَ في العبودية والسُّمُوَّ الروحيَّ، يَهْدُون الناسَ إلى الله، ويبلِّغون دِينَه وشَرْعَه، ويَدْعُون إلى الهدى ودِينِ الحقِّ، ويتنافسون في القُرْبِ مِنْ ربِّهم، ويبذلون ما في وُسْعِهم مِنَ الأعمال الصالحة المقرِّبةِ إلى الله بجِدٍّ واجتهادٍ، يَرْجُون رحمتَه ويخافون عذابَه، ويخشَوْن عقوبتَه وانتقامه؛ لعلمِهم بقوَّة الله وعظيمِ سلطانه، وأنَّ عذابه أليمٌ شديدٌ، شأنُه أَنْ يُتَّقى ويُحْذَرَ؛ قال الله تعالى عن أهل اصطفائه واجتبائه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء].

فهؤلاء الرُّسُلُ والأنبياء صلواتُ الله عليهم وسلامُه:

ـ منهم مَنْ جَمَعَ اللهُ له بين الصدِّيقية والنبوَّة مثل: إبراهيم عليه السلام الذي جَعَل اللهُ في ذرِّيَّته النبوَّةَ والكتاب، ودَعَا الخَلْقَ القريبَ والبعيد إلى الله، وصَبَر على ما نالهُ مِنَ الأذى كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم]، =

....

= وإدريس عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ ﴾ [مريم].

- ومنهم مَنِ اجتباهُ اللهُ وعلَّمه كما هو حالُ يوسفَ الصدِّيقِ عليه السلام الذي مَنَّ اللهُ عليه بالأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة، وعلَّمه مِنْ تعبير الرؤيا ومِنْ تأويل الأحاديث الصادقة كالكُتُب السماوية ونحوِها، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [يوسف].

- ومنهم مَنِ اصطنعه اللهُ لنَفْسِه، كما هو شأنُ موسى عليه السلام الذي تَربَّى على نظرِ الله وحُسْنِ كفالتِه وجميلِ حِفْظه؛ فاصطفاهُ مِنْ خَلْقه بما أجرى عليه اللهُ مِنْ كريم صنائعه ونِعَمِه الدينية والدنيوية؛ فأراده اللهُ لنفسه ليؤدِّيَ مَهمَّةَ الرسالةِ بالتبليغ والدعوة إلى ربِّه، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ﴾ [طه].

- ومنهم مَنْ نوَّه اللهُ بذِكْرِهم كما هو حالُ داود وسليمان عليهما السلام؛ فقَدْ خصَّهما بالحُكْم والعلم الواسع، ومَدَحهما اللهُ في كتابه مدحًا عظيمًا؛ فهُما مِنْ خواصِّ الأنبياء، لكِنْ دون درجةِ أُولي العزم، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النمل]، وقال تعالى: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩].

- ومنهم مَنْ خَلَقَهُ اللهُ بكلمته وجَعَله عَبْدَه ورسوله؛ فقَدْ كان عيسى عليه السلام وجيهًا في الدنيا والآخرة ومِنَ المقرَّبين الصالحين؛ قال تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ =

....

= ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران].

ـ ومنهم مَنْ هو بعين الله ورؤيته وحِفْظه، محمَّدٌ ﷺ، جعَله اللهُ أفضلَ الخليلَيْنِ وخاتمَ الأنبياء والمُرْسَلِينَ، واختصَّه ربُّنا عن غيره مِنَ الأنبياء والرُّسُل بخصائصَ جمَّةٍ ومَكارِمَ عِدَّةٍ ومراتِبَ عاليةٍ، نال بذلك التفضيلَ المطلق على العالَمِين مِنَ الجِنَّة والناسِ أجمعين [للوقوف على النصوص الكثيرة المُثْبِتة لهذه الأفضليةِ المُطْلَقة والمكانةِ العالية للنبيِّ ﷺ ورتبتِه المرموقة على سائر الخلائق في الدنيا والآخرة، يمكن مُراجَعةُ رسالةٍ لطيفةٍ للعزِّ ابنِ عبد السلام، وهي الموسومة بـ: «بداية السول في تفضيل الرسول» تحقيق: محمَّد ناصر الدين الألباني، وانظر ـ أيضًا ـ: «لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/ ٢٩٤ وما بعدها)]، قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء]، وقال ﷺ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ» [أخرجه مسلمٌ في «المساجد ومواضع الصلاة» (٥/ ٥)، والترمذيُّ في «السِّيَر» (٤/ ١٢٣) بابُ ما جاء في الغنيمة، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤١١ ـ ٤١٢)، كُلُّهم مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

فتلك هي العبوديةُ الحقَّةُ التي كان الرُّسُلُ والأنبياء عليهم السلام عليها، والمعلومُ أنَّ العبد كلَّما ازداد في تحقيق العبودية الخالصةِ ازداد كمالُه وسَمَتْ روحُه وعَلَتْ=

= درجتُه، وكلّما نَقَصَتْ عبوديتُه ازداد بُعْدًا وهبوطًا وانحدارًا، والرُّسُلُ والأنبياء عليهم السلام - وإنْ تَفاوَتوا في الفضل والدرجة - إلَّا أنهم كانوا يَتنافَسون في القُرْب مِنْ ربِّهم، ويَتسابَقون في تحقيق العبودية، ويُسارِعون في الخيرات كما تَقدَّمَتْ به الآياتُ؛ ولهذا وَصَفهم اللهُ تعالى في كتابه بوصف العبودية التي أساسُها المحبَّةُ والخوفُ والرجاء؛ فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص]، وقال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، وذَكَر نبيَّنا محمَّدًا ﷺ بوصف العبودية في أَسْمَى أحوالِه وأشرفِ مَقاماته: كالإسراء في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، وفي مَقامِ الإيحاء والتحدِّي بالذي أُنْزِلَ عليه، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم]، وقولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مَقامِ القيام بالدعوة كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وغيرِها مِنَ الآيات المُخْبِرة عن فضائلِ عبادِه المُرْسَلين وأنبيائه العابدين، المُجتهِدين في تحقيقِ العبودية الخالصةِ لله ربِّ العالَمين.

والواجب علينا أَنْ نقتديَ بهم في سعيهم لتحقيقِ هذه العبودية الخالصةِ لله تعالى ونهتديَ بهَدْيِهم، مع احترام حقِّهم ومنزلتهم في التوقير والتبجيل والمحبَّة والنصرة، مِنْ غيرِ غُلُوٍّ في تعظيمهم ولا إطراءٍ مُفْضٍ بمَحبَّتهم إلى امتزاجِ حقِّهم بما لله تعالى مِنْ حقٍّ خالصٍ في العبودية.

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢](١)، وَلِقَوْلِهِ(٢): ﴿رَبِّ(٣) إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص]، وَلِقَوْلِهِ(٤): ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ

---

(١) قال السعديُّ رحمه الله في [«تفسيره» (٢٣٧)]: «لمَّا ذَكَرَ تعالى غُلُوَّ النصارى في عيسى عليه السلام، وذَكَرَ أنه عَبْدُه ورسولُه؛ ذَكَرَ ـ هنا ـ أنه لا يَستنكِفُ عن عبادةِ ربِّه، أي: لا يَمتنِعُ عنها رغبةً عنها، لا هو ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾؛ فنزَّههم عن الاستنكاف، وتنزيهُهم عن الاستكبار مِنْ بابٍ أَوْلى، ونفيُ الشيءِ فيه إثباتُ ضِدِّه، أي: فعيسى والملائكةُ المقرَّبون قد رَغِبوا في عبادةِ ربِّهم وأحَبُّوها وسَعَوْا فيها بما يَليقُ بأحوالهم؛ فأَوْجَبَ لهم ذلك الشرفَ العظيمَ والفوزَ العظيم؛ فلم يَستنكِفوا أَنْ يكونوا عبيدًا لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرَوْن افتقارَهم لذلك فوق كُلِّ افتقارٍ.

ولا يُظَنَّ أنَّ رَفْعَ عيسى أو غيرِه مِنَ الخَلْق فوق مرتبته التي أنزله اللهُ فيها وترفُّعَه عن العبادة كمالٌ، بل هو النقصُ بعينه، وهو مَحَلُّ الذمِّ والعقاب؛ ولهذا قال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء] أي: فسيحشر الخَلْق كُلَّهم إليه، المُستنكِفين والمُستكبِرين وعبادَه المؤمنين؛ فيحكم بينهم بحُكْمِه العدلِ وجزائه الفصل».

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.أ».

(٤) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

مُّبِينٌ ﴿٩﴾ ﴾ [الأحقاف]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨](٢)، وَلِقَوْلِهِ(٣): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًاۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ [المؤمنون]، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى](٤): ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ(٥) ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الإسراء](٦).

❁❁❁

---

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) وتمامُ الآية: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾.

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٤) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ»، و«تعالى» ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٥) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.أ، م.ر.ب».

(٦) قال الشيخ عبد الحميد بنُ باديس رحمه الله في [تفسيره: «مجالس التذكير» (١٥٧)] فيما تُفيدُه هذه الآيةُ مِنْ أحكامٍ ما نصُّه: «أفادَتِ الآيةُ: أنَّ العبادة لا تنفع صاحِبَها إلَّا إذا كانَتْ على الوجه الحقِّ، وإلَّا فإنه لا يحصل منها إلَّا على الخيبة والوبال، وأنَّ المكلَّفَ لا يحمل شيئًا مِنْ إثمِ عملِ غيره إذا لم يكن راضيًا به، ولو كان ذلك العملُ مُتسبَّبًا عنه إذا لم يكن متسبِّبًا هو فيه، وأنَّ المكلَّفَ مُطالَبٌ بأَنْ يطلب أسبابَ القرب إلى الله بجِدٍّ واجتهادٍ، وأَنْ يكون جامعًا بين الرجاء والخوف في سلوكه».

[فصل: تأدُّبنا معهم فيما عُوتِبوا عليه واستغفروا منه][(١)]

هُمْ عِبَادُ اللهِ يُخَاطِبُهُمْ بِمَا شَاءَ وَيُعَاتِبُهُمْ بِمَا أَرَادَ، فَيَعْتَرِفُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ، وَلَيْسَ[(٢)] لَنَا فِيمَا عُوتِبُوا عَلَيْهِ وَاسْتَغْفَرُوا مِنْهُ إِلَّا حِكَايَةُ لَفْظِهِ كَمَا ثَبَتَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَعَ اعْتِقَادِ احْتِرَامِهِمْ [وَإِكْبَارِ جَانِبِهِمْ][(٣)]، وَأَنَّ اللهَ يُعَاتِبُهُمْ عَلَى قَدْرِ عُلُوِّ مَنْزِلَتِهِمْ، وَأَنَّهُمْ ـ لِكَمَالِ مَعْرِفَتِهِمْ بِرَبِّهِمْ وَعَظِيمِ حَقِّهِ عَلَيْهِمْ ـ يَرَوْنَ مَا لَا يُعَدُّ تَقْصِيرًا ـ بِالنِّسْبَةِ لِغَيْرِهِمْ ـ تَقْصِيرًا بِالنِّسْبَةِ لَهُمْ[(٤)]؛ ....

---

(١) «م.ف»: «ترجمة: الرُّسُل: تأدُّبنا معهم فيما عُوتِبوا عليه واستغفروا منه».

(٢) الواو ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٣) «م.ر»: «وَإِكْبَارِهِمْ».

(٤) القرآن الكريم نصَّ في آياتٍ متعدِّدةٍ على أنَّ النبوَّةَ نعمةٌ ربَّانيةٌ ومِنْحةٌ إلهيةٌ خاصَّةٌ، كما قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ﴾ [مريم: ٥٨]، فليس ـ في الأنبياء والرُّسُل ـ شيءٌ مِنْ خصائص الربوبية ولا صفاتِ الألوهية، بل هم يتبرَّأون مِنَ الحول والطَّوْل، ويعتصمون بالله الواحد الأحَد، حَبَاهم اللهُ بالكمال في صُوَرِهم الظاهرة، وأخلاقِهم الباطنة، وعقولِهم الراجحة، وغيرِها ممَّا أنعم اللهُ عليهم به مِنَ المواهب والقدرات والسجايا، ووفَّقهم بها لتحقيق العبودية لله ربِّ العالَمين، وقد خصَّهم اللهُ=

....

= تعالى بميزة الوحي والعصمةِ وغيرِهما دون سائر البشر، غيرَ أنَّ موضوعَ عصمةِ الرُّسُل والأنبياء عليهم السلام يدور في محورين مُتداخِلَيْن:

الأوَّل: بين تعظيم الأنبياء والرُّسُل وتوقيرهم وتعزيرهم مع إثباتِ العصمة لهم وهو موقفُ الأمَّة الإسلامية، وبين مَطاعنِ اليهود والنصارى فيهم ورميِهم بالكبائر والفواحش والعظائم.

الثاني: بين عصمةٍ قاصرةٍ على التبليغ وعصمةٍ مِنَ الكبائر دون الصغائر، وبين عصمةٍ عامَّةٍ شاملةٍ وعوارضَ بشريةٍ لا تقدح في العصمة.

وقد بيَّن المصنِّف رحمه الله مُعتقَدَ أهلِ السنَّة والجماعة تُجاهَ الأنبياء والمُرْسَلين صلواتُ اللهِ عليهم ـ في باب العصمة ـ بأنه يجب علينا الإيمانُ بأنهم معصومون مِنَ الكبائر [انظر: (ص ١٣٧)]، وأمَّا الصغائرُ فقَدْ تقع منهم بمقتضى بشريَّتِهم، والكتابُ والسنَّةُ يدلَّان على ذلك ـ كما سيأتي تفصيلُه، [انظر: (ص ٢٠١، ٢٠٩)] ـ علمًا أنه إذا لم يعصمهم اللهُ مِنْ صغائر الذنوب فقَدْ عَصَمهم مِنَ الإصرار عليها؛ فإنهم لا يُقَرُّون عليها، بل يُوفَّقون للتوبة والإنابة والاستغفار، وهُمْ ـ بعدها ـ أكملُ ممَّا كانوا عليه قبلها. واللهُ تعالى يُعاتِبُ أنبياءَه ورُسُلَه على قَدْرِ عُلُوِّ منزلتهم، وما عاتَبَهم عليه اعترفوا به وتابوا منه واستغفروا؛ فغَفَرَ اللهُ لهم وتَجاوَزَ عنهم وطهَّرهم منه؛ فإنَّ مقتضى الأدبِ الواجبِ مع الأنبياء والمُرْسَلين أَنْ لا تُتَّخَذَ صغائرُ الذنوب التي تصدر منهم ذريعةً للطعن فيهم، وسبيلًا للإزراء عليهم وانتقاصِ مكانتهم والحطِّ مِنْ عُلُوِّ مرتبتهم؛ فإنَّ ذلك أذيَّةٌ لله ورُسُلِه متوعَّدٌ فاعلُها بعذابٍ مُهينٍ. =

= وتفصيلُ ذلك:

• أوَّلًا: العصمة ثابتةٌ في تحمُّلِ الرسالة والتبليغ:

وهذا محلُّ اتِّفاقٍ بين العلماء؛ فكما أنَّ الله عَصَمهم في تحمُّل الرسالة فلا ينسَوْن شيئًا ولا ينقصون شيئًا فقَدْ تكفَّل اللهُ تعالى لرسوله بأَنْ يُقْرِئه الوحيَ ويجمعه في صدره؛ فلا ينسى ممَّا أوحى إليه شيئًا إلَّا ما شاء الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم]، وقال تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ [الأعلى]، وقال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ [القيامة]، فكذلك عَصَم اللهُ تعالى الرُّسُلَ والأنبياء في التبليغ؛ فهُم أُمَناءُ صادقون كما جاء ـ حكايةً عنهم ـ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشُّعَراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣، ١٦٢، ١٧٨؛ الدخان: ١٨]، لا تحملهم رغبةٌ أو رهبةٌ على أَنْ يكتموا بعضًا ممَّا أوحى اللهُ إليهم فأُمِرُوا بإبلاغه إلى الناس؛ فالكتمانُ للوحي الإلهيِّ خيانةٌ تستحيل في حقِّهم ولا تَتأتَّى لهم؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد بيَّن اللهُ تعالى الوعيدَ اللاحق بالكاتم المغيِّر لِمَا أوحى اللهُ في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقَّة]، فمتى وُجِدَ الكتمانُ ضاعَتِ الأمانةُ وبَطَلَتِ النبوَّةُ وانتفَتِ الرسالةُ.

وهذه العصمةُ فيما يُبلِّغونه عن الله ثابتةٌ للأنبياء والرُّسُل، وهي التي يحصل بها مقصودُ النبوَّة والرسالة؛ فلا يجوز أَنْ يَستقِرَّ في شيءٍ مِنَ الشريعةِ خطأٌ باتِّفاقٍ=

= المسلمين [انظر: «منهاج السنَّة» لابن تيمية (٣/ ٣٧٢)]، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٨٩)]: «إنَّ الأنبياءَ صلواتُ الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله ـ سبحانه ـ وفي تبليغِ رسالاته باتِّفاق الأمَّة؛ ولهذا وَجَبَ الإيمانُ بكُلِّ ما أُوتُوهُ كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة]».

• **ثانيًا: العصمة مِنْ كبائر الذنوب:**

نَقَل القرطبيُّ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ٣٠٨)] الإجماعَ على أنَّ الأنبياء والرُّسُلَ عليهم السلام معصومون مِنْ كبائر الذنوب ومِنْ كُلِّ رذيلةٍ فيها شَيْنٌ ونقصٌ، [انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٣١٩)]، لكِنْ يأبى اليهودُ والنصارى إلَّا أَنْ يطعنوا في خِيرةِ خَلْقِ الله وأصفيائه، ويَجْرَحوهم بالعظائم، وينسبوا إليهم ما نزَّههم اللهُ عنه وصانَهم منه، بل إنَّ كُتُبَهم المحرَّفة مِنَ التوراة والإنجيل عاجَّةٌ بالقبائح، ترمي رُسُلَ اللهِ وأنبياءَه بالمخازي والكبائر والإثم والفواحش ـ تعالى اللهُ عمَّا يقولون عُلُوًّا كبيرًا ـ.

وممَّا ينسبه اليهودُ للأنبياء والرُّسُل مِنْ أوصافٍ وأعمالٍ قبيحةٍ:

ـ أنَّ إبراهيم عليه السلام قدَّم سارَةَ إلى فرعون حتَّى يَنال الخيرَ بسببها.

ـ وأنَّ لوطًا عليه السلام شَرِبَ خمرًا حتَّى سَكِر، ثمَّ قام على ابنتَيْه فزَنَى بهما واحدةً بعد الأخرى. =

....

= - وأنَّ يعقوب عليه السلام سَرَق مواشيَ مِنْ حَمِيه، وخَرَجَ بأهله خِلْسةً دون أَنْ يُعْلِمه.
- وأنَّ هارون عليه السلام صَنَع عجلًا وعَبَده مع بني إسرائيل.
- وأنَّ داود عليه السلام زَنَى بزوجةِ رجلٍ مِنْ قُوَّادِ جيشه، ثمَّ دبَّر حيلةً لقتلِ الرجل فقُتِل، وبعد ذلك أخَذَ داودُ الزوجةَ وضمَّها إلى نسائه، فولَدَتْ له سليمانَ عليه السلام.
- وأنَّ سليمان عليه السلام ارتدَّ في آخِرِ عمرِه وعَبَدَ الأصنامَ وبنى لها المَعابدَ.
- وأنهم افترَوْا على مريم عليها السلام وعلى ابنها عيسى عليه السلام بهتانًا عظيمًا.

وأمَّا النصارى فنسبوا الألوهيةَ لعيسى ابنِ مريم عليهما السلام، وأنه جاء ليُخلِّصَ الناسَ مِنْ خطيئةِ أبيه آدمَ ويَفْدِيَ البشرَ بنفسه، وأنَّ عيسى عليه السلام مِنْ نسلِ سليمان ابنِ داود، وأنَّ جدَّهم: فارض الذي هو مِنْ نسلِ الزِّنا مِنْ يهوذا بنِ يعقوب، وأنَّ عيسى عليه السلام أهانَ أُمَّه وسط جمعٍ مِنَ الناس، وشَهِدَ عيسى على جميع الأنبياء الذين قاموا في بني إسرائيل أنهم سُرَّاقٌ ولصوصٌ، وغير ذلك مِنَ الأوصاف القبيحة المُخْزِية، [انظر: «الرُّسُل والرسالات» للأشقر (١٠٤ - ١٠٦)].

ولا يخفى أنَّ أنبياءَ اللهِ ورُسُلَه الأطهارَ بريئون كُلَّ البراءة ممَّا نُسِبَ إليهم؛ فهُمْ أزكى الناسِ وأفضلُهم وأكملُهم، يستحيل وقوعُهم في كبائر الذنوب والآثام بحالٍ مِنَ الأحوال؛ لأنهم معصومون مِنْ ذلك بإجماع الأمَّة - كما تَقدَّم، [انظر: (ص ٢٠١)] -.

• **ثالثًا: عوارضُ بشريةٌ لا تَقْدَحُ في العصمة ولا تُناقِضُ النبوَّةَ والرسالة:**
ذكَرَتْ نصوصُ الكتاب والسنَّة ما انتابَ بعضَ الأنبياء والرُّسُلِ مِنْ عوارضَ إنسانيةٍ عاديَّةٍ كالخوف والغضب والنسيان والخطإ، تُوهِمُ - بظاهِرِها - أنهم ارتكبوا=

= ما يُخِلُّ بعصمتهم، وليس الأمرُ كذلك، بل هي عوارضُ بشريةٌ طبيعيةٌ وأمورٌ فطريةٌ جِبلِّيةٌ لا تَتنافى مع العصمة بحالٍ.

ومِنْ أمثلةِ ذلك:

١) **عارِضُ الخوف**: كالذي حَدَث لإبراهيم عليه السلام مع ضيوفه الذين لم يعلم بأنهم ملائكةٌ تَشكَّلوا على هيئةٍ بشريةٍ، فلمَّا رأى أيدِيَهم لا تمتدُّ إلى الطعام المقدَّمِ لهم خاف منهم، وظنَّ أنهم أتَوْهُ بِشَرٍّ ومكروهٍ، وذلك قبل أَنْ يعرف أَمْرَهم؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾﴾ [هود].

وكذلك موسى عليه السلام لمَّا أمَرَه ربُّه أَنْ يُلْقِيَ عصاهُ حين كلَّمه، فألقاها فإذا هي حيَّةٌ تهتزُّ وتسعى سعيًا شديدًا ولها صورةٌ مَهيلةٌ؛ استولى على موسى عليه السلام الروعُ في قلبه وولَّى هاربًا خائفًا؛ فقال اللهُ له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْآمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص].

وفي حادثةِ يومِ الزينة مع السحرة عندما ألقَوْا حبالَهُم وعِصِيَّهم خُيِّلَ إلى موسى عليه السلام ـ مِنْ سحرِهم البليغ ـ أنها تسعى؛ ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [طه]؛ فالخوفُ الطبيعيُّ هو مِنْ مقتضى الخِلْقة البشرية، فضلًا عن خوفه ـ أيضًا ـ على الناس أَنْ يفتنهم السحرةُ بسحرهم ويغترُّوا به قبل أَنْ يُلْقِيَ ما في يده، وإلَّا فموسى جازمٌ بوعد اللهِ ونصرِه.

٢) **عارِضُ الغضب**: ويدلُّ على هذا العارضِ الفطريِّ ما حدَثَ لموسى عليه السلام بعد أَنْ تمَّ ميقاتُ ربِّه: رجَعَ إلى قومه فوجَدَهم قد ضلُّوا باتِّخاذِهم العِجْلَ إلهًا=

= فعَبَدوه مِنْ دون الله؛ فامتلأ موسى عليه السلام غضبًا وغيظًا عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف].

ومِنْ ذلك عتابُ اللهِ لنبيٍّ مِنَ الأنبياء تَفاعَلَ غضبًا مع نملةٍ قرَصَتْه، فأمَرَ بقريةِ النمل فأُحْرِقَتْ؛ ففي حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً» [أخرجه البخاريُّ في «الجهاد» (٦/ ١٥٤) باب: إذا حرَّق المشركُ المسلمَ هل يُحَرَّقُ؟ وفي «بدء الخَلْق» (٦/ ٣٥٦) باب: إذا وَقَع الذُّبابُ في شراب أحَدِكم، ومسلمٌ في «السلام» (١٤/ ٢٣٨، ٢٢٩) باب النهي عن قتلِ النمل، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

٣) عارِضُ النسيان والسهوِ والجحود والخطإ: ويدلُّ عليه ما رواهُ أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَجَعَلَ بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ وَبِيصًا مِنْ نُورٍ، ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى آدَمَ فَقَالَ: «أَيْ رَبِّ، مَنْ هَؤُلَاءِ؟» قَالَ: «هَؤُلَاءِ ذُرِّيَّتُكَ»، فَرَأَى رَجُلًا مِنْهُمْ فَأَعْجَبَهُ وَبِيصُ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ، فَقَالَ: «أَيْ رَبِّ، مَنْ هَذَا؟» فَقَالَ: «هَذَا رَجُلٌ مِنْ آخِرِ الأُمَمِ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ يُقَالُ لَهُ: دَاوُدُ»، فَقَالَ: «رَبِّ، كَمْ جَعَلْتَ عُمْرَهُ؟» قَالَ: «سِتِّينَ سَنَةً»، قَالَ: «أَيْ رَبِّ، زِدْهُ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعِينَ سَنَةً»، فَلَمَّا قُضِيَ عُمْرُ آدَمَ جَاءَهُ مَلَكُ المَوْتِ، فَقَالَ: «أَوَلَمْ يَبْقَ مِنْ عُمْرِي أَرْبَعُونَ سَنَةً؟» قَالَ: «أَوَلَمْ تُعْطِهَا ابْنَكَ دَاوُدَ؟»» قَالَ: «فَجَحَدَ آدَمُ فَجَحَدَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَنَسِيَ=

....

= آدَمُ فَنُسِّيَتْ ذُرِّيَّتُهُ، وَخَطِئَ آدَمُ فَخَطِئَتْ ذُرِّيَّتُهُ» [أخرجه الترمذيُّ في «تفسير القرآن» (٥/ ٢٦٧) باب: ومِنْ سورة الأعراف، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٥١، ٢٩٩، ٣٧١)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (٣٢٤)، مِنْ طُرُقٍ عن أبي هريرة رضي الله عنه. قال الترمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ»، وصحَّحه الألبانيُّ في «ظِلال الجنَّة» رقم: (٢٠٤، ٢٠٥) وفي «صحيح الجامع» (٥/ ٤٨)].

وقد كان النبيُّ ﷺ يسهو في صلاته وينسى لتَقتدِيَ أمَّتُه به في التشريع، كما يَطْرَأُ عليه النسيانُ ـ بمقتضى بشريَّته ـ في غيرِ أمور التبليغ، وقد صرَّح النبيُّ ﷺ بطروء النسيان عليه على ما يجري مِنْ عادة البشر عامَّةً، وذلك بعد نسيانه في إحدى الصلوات حيث قال: «وَلَكِنْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» [أخرجه البخاريُّ في «الصلاة» (١/ ٥٠٣) باب التوجُّه نحو القِبلة حيث كان، ومسلمٌ في «المساجد ومواضع الصلاة» (٥/ ٦١) باب السهو في الصلاة والسجودِ له، مِنْ حديثِ عبد الله ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه]، قال النوويُّ رحمه الله في [«شرح مسلم» (٥/ ٦١)]: «فيه دليلٌ على جواز النسيان عليه ﷺ في أحكام الشرع، وهو مذهبُ جمهورِ العلماء، وهو ظاهرُ القرآنِ والحديث، اتَّفقوا على أنه ﷺ لا يُقَرُّ عليه، بل يُعْلِمُه اللهُ تعالى به، ثمَّ قال الأكثرون: شرطُه تنبُّهُه ﷺ على الفور متَّصِلًا بالحادثة ولا يقع فيه تأخيرٌ، وجوَّزَتْ طائفةٌ تأخيرَه مدَّةَ حياتِه ﷺ، واختاره إمامُ الحرمين، ومنعَتْ طائفةٌ مِنَ العلماء السهوَ عليه ﷺ في الأفعال البلاغية والعبادات، كما أجمعوا على منعِه واستحالته عليه ﷺ في الأقوال البلاغية، وأجابوا عن الظواهر الواردة في ذلك، وإليه مالَ الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائينيُّ، والصحيحُ الأوَّلُ؛ فإنَّ السهو لا يُناقِضُ النبوَّةَ، وإذا لم يُقَرَّ عليه لم يحصل منه مفسدةٌ، بل تحصل فيه فائدةٌ، وهو بيانُ أحكام الناسي وتقريرُ الأحكام»، وقال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري»=

= (١/ ٥٠٤)]: «وفيه دليلٌ على جوازِ وقوع السهو مِنَ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الأفعال، قال ابنُ دقيق العيد: وهو قولُ عامَّةِ العلماء والنُّظَّار، وشذَّتْ طائفةٌ فقالوا: لا يجوز على النبيِّ السهوُ، وهذا الحديث يردُّ عليهم؛ لقوله ﷺ فيه: «**أنسى كما تنسَوْن**»، ولقوله: «**فإذا نسِيتُ فذكِّرُوني**» أي: بالتسبيح ونحوِه».

قلتُ: ويدلُّ عليه ـ أيضًا ـ:

ـ حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه في قصَّةِ ذي اليدين قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إِحْدَى صَلَاتَيِ العَشِيِّ، إِمَّا الظُّهْرَ وَإِمَّا العَصْرَ، فَسَلَّمَ فِي رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ أَتَى جِذْعًا فِي قِبْلَةِ المَسْجِدِ فَاسْتَنَدَ إِلَيْهَا مُغْضَبًا، وَفِي القَوْمِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَهَابَا أَنْ يَتَكَلَّمَا، وَخَرَجَ سَرَعَانُ النَّاسِ: قُصِرَتِ الصَّلَاةُ، فَقَامَ ذُو اليَدَيْنِ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَقُصِرَتِ الصَّلَاةُ أَمْ نَسِيتَ؟» فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقَالَ: «**مَا يَقُولُ ذُو اليَدَيْنِ؟**» قَالُوا: «صَدَقَ، لَمْ تُصَلِّ إِلَّا رَكْعَتَيْنِ»، فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ كَبَّرَ، ثُمَّ سَجَدَ، ثُمَّ كَبَّرَ فَرَفَعَ، ثُمَّ كَبَّرَ وَسَجَدَ، ثُمَّ كَبَّرَ وَرَفَعَ» [أخرجه البخاريُّ في «السهو» (٣/ ٩٩) بابُ مَنْ يُكبِّرُ في سجدَتَيِ السهو، ومسلمٌ في «المساجد ومواضع الصلاة» (٥/ ٦٧) باب السهو في الصلاة والسجودِ له].

ـ وحديثُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى الظُّهْرَ خَمْسًا، فَلَمَّا سَلَّمَ قِيلَ لَهُ: «أَزِيدَ فِي الصَّلَاةِ؟» قَالَ: «**وَمَا ذَاكَ؟**» قَالُوا: «صَلَّيْتَ خَمْسًا»، فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ» [أخرجه البخاريُّ في «السهو» (٣/ ٩٣ ـ ٩٤) باب: إذا صلَّى خمسًا، ومسلمٌ في «المساجد ومواضع الصلاة» (٥/ ٦٤) باب السهو في الصلاة والسجودِ له].

٤) عارِضُ الخطإ في الاجتهاد في المصالح الدنيوية وأمورِ الحروب والقضاء:

لا يقدح في الأنبياء والرُّسُلِ عليهم السلام ما كان صادرًا منهم بمقتضى الخبرة البشرية=

= المُستفادة مِنَ التجارب الخاصَّة في الحياة كالزراعة والتجارة والصناعة ووصفِ الدواء، ونحوِ ذلك ممَّا يتعلَّق بالمصالح الدنيوية وتدبيرِ الحروب، وقد ذَكَر ابنُ حزمٍ والشوكانيُّ وغيرُهما الإجماعَ على جوازِ اجتهاد الأنبياء فيها، [انظر: «إحكام الأحكام» لابن حزم (٥/ ٩١٧)، «شرح الكوكب المنير» للفتوحي (٤/ ٤٧٤)، «إرشاد الفحول» للشوكاني (٢٥٥)]، بدليلِ وقوعه مِنَ النبيِّ ﷺ، حيث صالَحَ غَطَفانَ مُقابِلَ ثُلُثِ ثمارِ المدينة، ولم تَتِمَّ هذه المُصالَحَةُ بسببِ موقفِ أهلِ المدينة، [انظر: «الكامل» لابن الأثير (٢/ ١٨٠)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٤/ ١٠٤)، «مختصر سيرة الرسول» لابن عبد الوهَّاب (٢٨٥)].

كما يدلُّ على الاجتهاد في الأمور الدنيوية: حديثُ أنسٍ وعائشةَ رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقَالَ: «**لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ**»، قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: «**مَا لِنَخْلِكُمْ؟**» قَالُوا: «قُلْتَ: كَذَا وَكَذَا»، قَالَ: «**أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ**» [أخرجه مسلمٌ في «الفضائل» (١٥/ ١١٧) بابُ وجوبِ امتثالِ ما قالَهُ شرعًا دون ما ذَكَره ﷺ مِنْ مَعايشِ الدنيا على سبيل الرأي، وابنُ ماجه في «الرهون» (٢/ ٨٢٥) بابُ تلقيحِ النخل].

أمَّا الخطأ في إصابة الحقِّ في الاجتهاد القضائيِّ فمِنْ ذلك: ما حدَثَ في قصَّة الحرث التي حَكَم فيها داودُ عليه السلام: أنه لمَّا اعتدَتْ غنمُ قومٍ على زرعِ آخَرين فذَهَب صاحبُ الزرعِ والغنمِ يتخاصمان إلى داود عليه السلام ليحكم بينهما، فقضى بينهما في تلك القضيَّةِ بعينها ولم يُصِبْ فيها الحقَّ، بل وفَّق اللهُ ابنَه سليمان عليه السلام إلى الحكم الموافِقِ للصواب؛ قال تعالى: ﴿**وَدَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ إِذۡ يَحۡكُمَانِ فِي ٱلۡحَرۡثِ إِذۡ نَفَشَتۡ فِيهِ غَنَمُ ٱلۡقَوۡمِ وَكُنَّا لِحُكۡمِهِمۡ شَٰهِدِينَ ٧٨ فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗا**﴾ [الأنبياء: ٧٨ـ٧٩]؛ ففي الآيةِ دليلٌ على أنَّ الحاكم مطلقًا، نبيًّا كان أو=

= غيرَه، قد يُصيبُ ـ في حكمه ـ الحقَّ والصواب وقد يخطئ في ذلك، وهو ـ في ذلك ـ ليس بمَلوم إذا أخطأ، بل مأجورٌ على اجتهاده في دَرْكِ الحقِّ فيما طُرِحَ عليه مِنَ القضايا والمسائل.

ويدلُّ عليه ـ أيضًا ـ: ما حَكَم به كُلٌّ مِنْ داودَ وسليمانَ عليهما السلام فيما رواهُ أبو هريرة رضي الله عنه: أنه سَمِعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «**كَانَتِ امْرَأَتَانِ مَعَهُمَا ابْنَاهُمَا، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بِابْنِ إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ لِصَاحِبَتِهَا: «إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ»، وَقَالَتِ الأُخْرَى: «إِنَّمَا ذَهَبَ بِابْنِكِ»، فَتَحَاكَمَتَا إِلَى دَاوُدَ عليه السلام فَقَضَى بِهِ لِلْكُبْرَى، فَخَرَجَتَا عَلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عليهما السلام فَأَخْبَرَتَاهُ، فَقَالَ: «ائْتُونِي بِالسِّكِّينِ أَشُقُّهُ بَيْنَهُمَا»، فَقَالَتِ الصُّغْرَى: «لَا تَفْعَلْ، يَرْحَمُكَ اللهُ، هُوَ ابْنُهَا»، فَقَضَى بِهِ لِلصُّغْرَى**» [أخرجه البخاريُّ في «أحاديث الأنبياء» (٦/ ٤٥٨) بابُ قولِ الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص]، وفي «الفرائض» (١٢/ ٥٥) باب: إذا ادَّعَتِ المرأةُ ابنًا، ومسلمٌ في «الأقضية» (١٢/ ١٨) بابُ بيانِ اختلاف المجتهدين]، قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (٦/ ٤٦٥)]: «وفيه أنَّ الحقَّ في جهةٍ واحدةٍ، وأنَّ الأنبياء يَسُوغُ لهم الحكمُ بالاجتهاد وإنْ كان وجودُ النصِّ ممكنًا لديهم بالوحي، لكِنَّ في ذلك زيادةً في أجورهم، ولعصمتِهم مِنَ الخطإ في ذلك؛ إذْ لا يُقَرُّون ـ لعصمتِهم ـ على الباطل».

وقد بيَّن النبيُّ صلى الله عليه وسلم هذا المعنى حقَّ البيانِ في حديثِ أمِّ سَلَمةَ رضي الله عنها زوجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم عَنْ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أَنَّهُ سَمِعَ خُصُومَةً بِبَابِ حُجْرَتِهِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: «**إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي الخَصْمُ، فَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَبْلَغَ مِنْ بَعْضٍ، فَأَحْسِبُ أَنَّهُ صَدَقَ، فَأَقْضِي لَهُ بِذَلِكَ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ مُسْلِمٍ فَإِنَّمَا هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ النَّارِ، فَلْيَأْخُذْهَا أَوْ فَلْيَتْرُكْهَا**» [أخرجه البخاريُّ في «المظالم» (٥/ ١٠٧) بابُ إثمِ مَنْ=

= خاصَمَ في باطلٍ وهو يعلمه، وفي «الشهادات» (٥/ ٢٨٨) بابُ مَنْ أقام البيِّنةَ بعد اليمين، وفي «الحِيَل» (١٢/ ٣٣٩)، وفي «الأحكام» (١٣/ ١٥٧) بابُ موعظةِ الإمام للخصوم، و(١٣/ ١٧٢) بابُ مَنْ قُضِيَ له بحقِّ أخيه فلا يأخُذْه، و(١٣/ ١٧٨) باب: القضاءُ في قليلِ المال وكثيرِه سواءٌ، ومسلمٌ في «الأقضية» (١٢/ ٤) باب الحكم بالظاهر واللحنِ بالحجَّة]، قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (١٣/ ١٧٤)]: «وفيه أنَّ المجتهد قد يخطئ؛ فيُرَدُّ به على مَنْ زَعَم أنَّ كُلَّ مجتهدٍ مُصيبٌ، وفيه أنَّ المجتهد إذا أخطأ لا يلحقه إثمٌ، بل يُؤْجَر .. وفيه أنه ﷺ كان يقضي بالاجتهاد فيما لم يُنْزَلْ عليه فيه شيءٌ، وخالف في ذلك قومٌ، وهذا الحديثُ مِنْ أصرحِ ما يُحتجُّ به عليهم، وفيه أنه ربَّما أدَّاهُ اجتهادُه إلى أمرٍ فيحكم به، ويكون ـ في الباطن ـ بخلافِ ذلك، لكنَّ مِثْلَ ذلك لو وَقَع لم يُقَرَّ عليه ﷺ لثبوتِ عصمته».

٥) عُرْضةُ الأنبياء والرُّسُل لارتكاب الصغائر مع العصمة مِنَ الإصرار عليها:
تَقدَّمَ أنَّ الأنبياء والرُّسُل عليهم السلام معصومون في تحمُّل الرسالة وتبليغِها ومِنِ ارتكاب الكبائر، لكنَّ العصمةَ المُطلَقةَ غيرُ مُلازِمةٍ لهم في كُلِّ شئونهم وأعمالِهم وأقوالهم وأحوالهم؛ فهُمْ عُرْضةٌ للمُخالَفاتِ الصغيرة بوصفهم بشرًا، غيرَ أنهم يَفْضُلون سائرَ البشر ويمتازون عليهم بعدمِ إقرار الله تعالى لهم على مُخالَفاتهم وأخطائهم بعد صدورها منهم، بل يُنبِّهُهم إليها، وقد يُعاتِبهم عليها تارةً، ويعصمهم ـ في كُلِّ الأحوال ـ مِنَ الإصرار على صغائر الذنوب، ويوفِّقهم للتوبة منها والأَوْبة والاستغفار، وهذا هو مذهبُ جماهيرِ العلماء، ويكون الاقتداءُ بهم في التوبة منها، علمًا أنه لم يُنْقَلْ عن السلف مِنَ الصحابة والتابعين والأئمَّة المهديِّين خلافُه، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (٤/ ٣١٩)]: «القول بأنَّ الأنبياء معصومون=

= عن الكبائر دون الصغائر هو قولُ أكثرِ علماء الإسلام وجميعِ الطوائف، حتَّى إنه قولُ أكثرِ أهل الكلام، كما ذَكَر أبو الحسن الآمديُّ أنَّ هذا قولُ أكثر الأشعرية، وهو ـ أيضًا ـ قولُ أكثرِ أهل التفسير والحديثِ والفقهاء، بل هو لم ينقل عن السلف والأئمَّة والصحابة والتابعين وتابِعِيهم إلَّا ما يُوافِقُ هذا القولَ».

وعُمْدةُ جماهيرِ العلماء على صحَّةِ مذهبهم ما يأتي:

ـ معصيةُ آدمَ عليه السلام ربَّه وغوايتُه بمخالَفتِه لأمرِه، واستجابتُه لدعوة الشيطان بأكله مِنَ الشجرة التي نَهاهُ الله تعالى عن الأكل منها، فكان ذلك زلَّةً وَقَع فيها؛ قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾ [طه]، وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦]، ويُؤكِّد معصيةَ آدمَ عليه السلام ربَّه: حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «حَاجَّ مُوسَى آدَمَ فَقَالَ لَهُ: «أَنْتَ الَّذِي أَخْرَجْتَ النَّاسَ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبِكَ وَأَشْقَيْتَهُمْ»»، قَالَ: «قَالَ آدَمُ: «يَا مُوسَى، أَنْتَ الَّذِي اصْطَفَاكَ اللهُ بِرِسَالَتِهِ وَبِكَلَامِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي ـ أَوْ قَدَّرَهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي ـ؟»»، قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥) بابُ قولِه: ﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ ١١٧﴾ [طه]، ومسلمٌ في «القَدَر» (١٦/ ٢٠٠) بابُ حِجاجِ آدمَ وموسى عليهما السلام].

والمعلوم أنَّ معصيةَ آدمَ عليه السلام لم تكن عن عزمٍ أو قَصْد تعمُّدِ ارتكابِ ما نَهاهُ اللهُ عن فعله، وإنما وقعَتْ نسيانًا منه لوصايةِ الله له وعهدِه إليه؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾ [طه]، لكنَّ الله تعالى أَلْهَمَ آدمَ عليه السلام كلماتٍ يقولها وهي: ﴿رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ =

= [الأعراف]؛ فاعترف آدمُ عليه السلام بذنبه وسألَ اللهَ أَنْ يغفر له فتابَ عليه ورَحِمَه؛ قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧﴾ [البقرة]، وهذا مِنْ رحمة الله بعباده أَنْ وفَّقهم للتوبة وعَفَا عنهم وصَفَح؛ فليس لنا فيما عُوتِبُوا عليه واستغفروا منه إلَّا حكايةُ لفظِه في الكتاب والسنَّة، مع إجلالهم وتقديرهم والاعترافِ بمكانتهم عند الله تعالى.

ـ سؤال نوحٍ عليه السلام ربَّه في شأنِ ابنه الكافر الهالك في الطوفان، مع وعدِ الله بنجاته ونجاةِ أهله؛ ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود]، وعاتَبه ربُّه على دُعائه ولامَهُ على سؤاله، وأَعْلَمه بأنَّ نسبَ ابنِه انقطع بكفره وإعراضِه عن دعوة الله، مُبيِّنًا له أنَّ الصِّلَة الدينيةَ أقوى مِنَ الصِّلَة الطينية، وأنه إذا انقطع النسبُ الروحيُّ لم يُسْرِع به النسبُ الرَّحِميُّ؛ ولهذا قال تعالى ـ مُعْلِمًا نوحًا عليه السلام ـ: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود]، ثمَّ تاب نوحٌ عليه السلام إلى الله واستغفر مِنْ عثرته التي لا عِلْمَ له بأنها ذنبٌ ولم يكن ليقصدها، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٤٧﴾ [هود].

ـ نصرة موسى عليه السلام للذي مِنْ شيعته وقومِه على خصمِه القبطيِّ الذي ضَرَبه موسى عليه السلام؛ فأصابَتْ ضربتُه منه مَقْتَلًا، ولـم يتعمَّدْ موسى عليه السلام قَتْلَه، وإنما قَصَد صَدَّ عدوانِه، واعترف موسى عليه السلام بظُلْمِه لنفسه، ورَجَع إلى الله تعالى ذاكرًا خطأَه، سائلًا اللهَ العفوَ والغفران؛ فغَفَر اللهُ تعالى له؛ قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ =

= عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦)﴾ [القَصص].

ـ تعجُّل داودَ عليه السلام في الحُكم بين الخصمين، فقضى بينهما بعد أنْ سَمِع مِنْ أحَدِهما ولم يسمع مِنَ الطرف الآخَر، والتعجيلُ بالحكم قبل الاستماع مِنَ الطرفين يُعَدُّ ـ في نظر الفقهاء ـ مُخالَفةً، فعَلِم داودُ عليه السلام أنَّ ما وَقَع له اختبارٌ ليَنتبهَ إلى ما صَدَر منه؛ ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)﴾ [ص].

ـ فتنة سليمان عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤)﴾ [ص]، وكانَتْ فتنتُه عليه السلام بسببِ تركِ قوله: «إنْ شاء اللهُ» على ما جاء في الصحيحين، [انظر: «تحفة الأنيس» للمؤلِّف (١١٤)]، فعند ذلك دَعَا سليمانُ عليه السلام ربَّه أنْ يغفر له ما حَدَث منه مِنْ تقصيرٍ في شكرِ الله، وسأله أنْ يَهَبَه مُلْكًا يَستأثِرُ به دون غيره، فاستجاب اللهُ له؛ قال تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥)﴾ [ص].

ـ مُغاضَبةُ يونس عليه السلام وخروجُه مِنْ قومه مُستعجِلًا قبل أنْ يأذن اللهُ له؛ فاستحقَّ اللومَ والعتابَ والتأديبَ الربَّانيَّ؛ فالْتقمه الحوتُ بأمر الله، وسارَ به في الظلمات في حفظِ الله وهو في عُبابِ البحر ـ حيًّا ـ يسبِّحُ اللهَ ويستغفره ويتوب إليه؛ فأنجاهُ اللهُ تعالى وتاب عليه؛ قال تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ =

= عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء].

ـ عتاب اللهِ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ في مَواطِنَ مِنَ القرآن منها:

• معاتبةُ اللهِ نبيَّه ﷺ في عبوسه في وجه الأعمى: ابنِ أمِّ مكتوم رضي الله عنه، وانشغالِه عنه طمعًا في إسلامِ بعضِ صناديدِ قريشٍ الذين أقبل عليهم ﷺ يدعوهم إلى الله تعالى؛ قال تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس].

• نهيُ الله تعالى نبيَّه ﷺ أنْ يقول: «سأُخبِرُكم غدًا» أي: سيفعل شيئًا في المُستقبَلِ إلَّا معلَّقًا ذلك بمشيئة الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤].

• معاتبةُ اللهِ نبيَّه ﷺ في اجتهاده في أسرى بدرٍ وقَبولِه الفداءَ كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال].

• معاتبةُ اللهِ نبيَّه ﷺ في قَبوله أعذارَ المتخلِّفين عن الغزو دون تمحيصِ هذه الأعذار، قَصْدَ تمييز الصادق مِنَ الكاذب؛ قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة].

• معاتبةُ اللهِ نبيَّه ﷺ في تحريمه على نفسِه سُرِّيَّتَه ماريةَ أو شُرْبَ العسلِ مراعاةً=

= لخاطرِ بعضِ أزواجه؛ وذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ [التحريم].

وكان ﷺ يتوب ويَستغفِرُ مِنْ كُلِّ ما عُوتِبَ فيه، واللهُ تعالى عَفَا عنه وغَفَر له ما تَقدَّم مِنْ ذنبه وما تَأَخَّر؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣﴾ [الفتح].

فهذه صُوَرٌ وأمثلةٌ مِنَ الصغائر منسوبةٌ للأنبياء والرُّسُل نصَّ القرآنُ الكريم على وقوعها منهم، مع مُسارَعتِهم ـ بعدها ـ إلى التوبة والأوبة والاستغفار، كما سَبَق ذِكْرُه في الآيات التي تشهد على صحَّةِ مذهبِ جماهير العلماء.

هذا، وقد أجمعَتِ الروافضُ مِنَ الشيعة الإمامية الاثنا عشرية على أنَّ الأنبياء وكذا أئمَّتَهم الاثني عشر معصومون مِنَ الوقوع في صغائر الذنوب وكبائرها، [انظر: «عقائد الإمامية» لمحمَّد رضا المظفَّر (٥٣)، «عقائد الإمامية الاثنا عشرية» لإبراهيم الموسوي الزنجاني (١/ ٤٠)]، كما ذهبَتْ طائفةٌ مِنْ أهل العلم إلى أنَّ خصوصَ الأنبياءِ والرُّسُل معصومون مِنَ الكبائر والصغائر جميعًا، وتَمسَّك الفريقان ـ في تقريرِ مذهبهم ـ بشبهتين مُتهافِتَتَيْن وهما:

الشبهة الأولى: ما ذَكَره القرطبيُّ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ٣٠٨)] بقوله: «لأنَّا أُمِرْنا باتِّباعهم في أفعالهم وآثارهم وسِيَرهم أمرًا مطلقًا مِنْ غيرِ الْتزامِ قرينةٍ؛ فلو جوَّزْنا عليهم الصغائرَ لم يمكن الاقتداءُ بهم؛ إذ ليس كُلُّ فعلٍ مِنْ أفعالهم يتميَّزُ مَقْصِدُه مِنَ القُرْبة والإباحة أو الحظر أو المعصية، ولا يصحُّ أَنْ يُؤمَرَ المرءُ بامتثالِ=

....

= أمرٍ لعلَّهُ معصيةٌ، لا سيَّما على مَنْ يرى تقديمَ الفعلِ على القول إذا تَعارَضَا مِنَ الأصوليِّين»، هذا مِنْ جهةٍ، ولأنَّ الإجماع ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ معصومٌ مِنَ الخطإ فالرسولُ أَوْلى بالعصمة لعُلُوِّ مرتبته.

وفنَّد ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٩٣)] جزئيَةَ الشبهة الأولى بقوله: «ومعلومٌ أنَّ التأسِّيَ بهم إنما هو مشروعٌ فيما أُقِرُّوا عليه دون ما نُهُوا عنه ورجعوا عنه، كما أنَّ الأمر والنهي إنما تجب طاعتُهم فيها لم يُنْسَخْ منه، فأمَّا ما نُسِخَ مِنَ الأمر والنهي فلا يجوز جعلُه مأمورًا به ولا منهيًّا عنه، فضلًا عن وجوبِ اتِّباعه والطاعةِ فيه».

هذا، وقد ردَّ ابنُ حجرٍ رحمه الله على احتجاجهم بأنه لو جاز وقوعُ الخطإ في حُكمِه لَلَزِمَ أمرُ المكلَّفين بالخطإ لثبوت الأمر باتِّباعه في جميعِ أحكامه بقوله: «إنَّ الأمر إذا استلزم إيقاعَ الخطإ لا محذورَ فيه؛ لأنه موجودٌ في حقِّ المقلِّدين؛ فإنهم مأمورون باتِّباع المفتي والحاكم ولو جاز عليه الخطأُ» [«فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ١٧٤)].

وأمَّا الجزئيةُ الثانيةُ لهذه الشبهةِ المتمثِّلةُ في استدلالهم بأولويةِ عصمةِ الرسول ﷺ مِنَ الإجماع المعصومِ فجوابُه أنَّ «الإجماع إذا فُرِضَ وجودُه دلَّ على أنَّ مُستنَدَهم ما جاء عن الرسول؛ فرَجَع الاتِّباعُ إلى الرسول لا إلى نفس الإجماع» [المصدر السابق، الجزء والصفحة نفسُها].

الشبهة الثانية: أنَّ الذنوب تُنافي الكمالَ، وتُعَدُّ نقصًا مُخِلًّا بمَناصِبِ الأنبياء والرُّسُل، وقدحًا في رتبتهم، وتُوجِبُ التنفيرَ مهما تاب التائبُ منها. =

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

= وقد أبطل ابنُ تيمية رحمه الله ـ أيضًا ـ في [«مجموع الفتاوى» (١٠/ ٢٩٣)] هذه الشبهةَ بقوله: «فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدمِ الرجوع، وإلَّا فالتوبةُ النَّصوحُ التي يقبلها اللهُ يرفع بها صاحِبَها إلى أعظمَ ممَّا كان عليه، كما قال بعضُ السلف: «كان داودُ عليه السلام بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة»، وقال آخَرُ: «لو لم تكن التوبةُ أحَبَّ الأشياءِ إليه لَمَا ابتلى بالذنب أكرمَ الخَلْقِ عليه»، وقد ثَبَت في الصحاحِ حديثُ التوبة: «لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا» إلخ [أخرجه البخاريُّ في «الدعوات» (١١/ ١٠٢) باب التوبة، ومسلمٌ في «التوبة» (١٧/ ٦١)، مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه]. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان: ٧٠] .. واللهُ تعالى لم يذكر في القرآن شيئًا مِنْ ذلك عن نبيٍّ مِنَ الأنبياء إلَّا مقرونًا بالتوبة والاستغفار» كما تَقدَّمَ مِنَ الآيات التي تَناوَلَتْ توبةَ آدَمَ ونوحٍ وموسى وداود وسليمان ويونس عليهم السلام.

فالحاصل: أنَّ النصوص شاهدةٌ بوقوعِ صغائر الذنوب والمُخالَفاتِ اليسيرة مِنَ الأنبياء والرُّسُل في مواضعَ كثيرةٍ لا تقبل التأويلَ في جملتها، وقد أخبرهم اللهُ بها وعاتَبَهم عليها؛ فاعترفوا بها وتَنصَّلوا منها مُشْفِقين منها تائبين إلى الله تعالى، مِنْ غيرِ تأخيرٍ للتوبة، وهُمْ بعدها أكملُ منهم قَبْلَها.

وكُلُّ ذلك لا يُخِلُّ بمكانتهم ولا يُزْري بمَناصِبِهم ولا يقدح في أقدارهم ورُتَبِهم،=

....

= بل اصطفاهم اللهُ وهداهم ومَدَحهم وفضَّلهم على عباده؛ فهُمْ أنبياءُ اللهِ ورُسُلُه الأصفياءُ الأبرارُ الأطهار؛ فمَنْ رَمَاهم ـ زورًا وبهتانًا ـ بالقبائح، أو طَعَن في أعراضهم بالعظائم، أو وَصَفهم بما لا يَليقُ بهم تنقُّصًا لرُتَبِهم وأقدارِهم، أو نَسَبَ إليهم الرزايا والرذائلَ ممَّا هم بريئون منه، ونحو ذلك مِنْ أَذِيَّةِ الله ورُسُلِه؛ فقَدْ تَوعَّدَه اللهُ باللعن في الدنيا والآخرة، وأعدَّ له العذابَ المُهينَ في الآخرة، كما أخبر به تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧﴾ [الأحزاب]، بل الواجبُ علينا التأسِّي بالرُّسُل والأنبياء الكرام في المسارعة إلى التوبة إلى الله تعالى، والإنابةِ إليه، وكثرة استغفاره، والتوجُّه إليه، وإرضائه ـ سبحانه ـ باستباق العبادات وفعلِ الخيرات.

[فصل: ختم الرسالة وعمومها][(١)]

خَتَمَ اللهُ الرِّسَالَةَ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَجَعَلَ رِسَالَتَهُ الرِّسَالَةَ العَامَّةَ لِلْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالمَلَائِكَةِ، وَجَعَلَ شَرِيعَتَهُ الشَّرِيعَةَ الجَامِعَةَ لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ البَشَرُ فِيمَا بَقِيَ [مِنْ آخِرِ][(٢)] أَطْوَارِهِمْ فِي وُجُودِهِمْ، وَهُوَ طَوْرُ رُقِيِّهِمُ العَقْلِيِّ وَالعِلْمِيِّ وَالعُمْرَانِيِّ؛ فَأَغْنَتْ عَمَّا قَبْلَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ فَكَانَتْ نَاسِخَةً لَهَا؛ [وَلِهَذَا جَعَلَ][(٣)] آيَتَهُ ـ القُرْآنَ العَظِيمَ[(٤)] ـ آيَةً عَقْلِيَّةً عِلْمِيَّةً خَالِدَةً، يَخْضَعُ لَهَا وَيَهْتَدِي بِهَا كُلُّ مَنْ سَمِعَهَا وَفَهِمَهَا[(٥)]؛ ....

(١) في «م.ر.أ»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «**عموم الرسالة المحمَّديَّة**»، وفي «م.ر.ب»: بزيادةِ: «**الرسالة المحمَّديَّة**».

(٢) «م.ر.ش»: «آخِرَ».

(٣) «م.ف»: «وَجَعَلَ».

(٤) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.ش».

(٥) الأنبياء والرُّسُل صلواتُ الله عليهم هم النموذجُ المثاليُّ للكمال البشريِّ في الطهر والنزاهة والقداسة ـ كما تَقدَّم ذِكْرُه [انظر: (ص ١٥٩)] ـ وهُمُ الأُمَناءُ الصادقون الذين بلَّغوا وحيَ اللهِ البلاغَ المبين، وهُمْ حجَّتُه على خَلْقِه، وشُهَداؤُه عليهم يومَ القيامة؛ فهُمْ ـ دومًا ـ أئمَّةُ الإصلاحِ ودُعَاةُ الخير، وحَمَلةُ مَشاعلِ الهدى في الدنيا المُظلِمة، ومُنقِذو الناسِ ومُخرِجوهم مِنَ الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم؛ فكان كُلُّ =

= واحدٍ منهم يعقب الآخَرَ، ويزيد ـ في الإصلاح ـ لَبِنةً ليُتِمَّ ما بَنَاهُ مَنْ قبله، حتَّى استكمل البناءُ ـ وهو دِينُ الله الحقُّ ـ بخاتمهم محمَّدٍ صلواتُ الله وسلامُه عليه، الذي قال: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا، فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ؛ فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ» [أخرجه البخاريُّ في «المناقب» (٦/ ٥٥٨) بابُ خاتمِ النبيِّين ﷺ، ومسلمٌ في «الفضائل» (١٥/ ٥١) بابُ ذِكْرِ كونه ﷺ خاتمَ النبيِّين، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

ففي هذا الحديثِ: بيانُ فضلِ النبيِّ ﷺ على سائر النبيِّين، وبه أكمل اللهُ شرائعَ الدِّين: نعمةَ الله على خَلْقِه، بما أنزل في شريعته مِنَ الهداية؛ فكان دِينُه الإسلامُ خُلاصةَ الأديان السابقة وأكملَها؛ فقَدْ أتمَّه اللهُ فلا ينقصه أبدًا، ورضِيَه فلا يسخطه أبدًا، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: ٣].

وقد كانَتْ شريعتُه هي الشريعةَ الإلهية الجامعة لِمَا تحتاج إليه البشريةُ مِنَ التشريعات، والجديرةَ بالبقاء والاستمرار، لا تفتقر إلى شريعةٍ سابقةٍ عليها ولا إلى شريعةٍ لاحقةٍ لها؛ لكمالها ولِمَا فيها مِنْ عناصرِ الحياة ودعائمِ الإصلاح وأُسُسِ مَطالِبِ العباد التشريعية، وهي كُلُّها محفوظةٌ مع بقاءِ سيرة النبيِّ ﷺ وسنَّتِه: المقرِّرةِ لحُكْمِ القرآن والمبيِّنةِ لَمعانيه والمُستقِلَّةِ بشرعٍ ابتدائيٍّ، وجملةُ هذا الموروثِ ـ بمُختلَفِ عناصره الحيوية ـ هي بمَثابةِ وجود الرسول ﷺ بين أَظْهُرِنا على قيد الحياة، كُلُّ ذلك ممَّا تستغني به الشريعةُ عن زيادات المُبْتدِعين واستدراكاتِ المُستدرِكين. =

= وفي الحديث ـ أيضًا ـ أنَّ الله خَتَم بالنبيِّ ﷺ المُرْسَلين، فانقطعَتِ النبوَّةُ بآخِرِ نبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وخُتِمَتْ به الرسالةُ؛ فلم يَبْقَ لأحَدٍ مَطْمَعٌ في أَنْ يَدَّعِيَ النبوَّةَ أو يُؤْتاها بعد نبوَّةِ محمَّدٍ النبيِّ الأمِّيِّ أبدًا؛ فمَنْ رام ادِّعاءَ النبوَّة فقَدْ أَعْظَمَ الفِرْيَةَ على اللهِ والكذبَ على خَلْقه، ومهما أتى بالأحوال والأقوالِ الفاسدة وأنواعِ الإفك والتضليل والخداع فإنَّ الله يفضحه شرَّ فضيحةٍ، كما حَصَل لجملةٍ مِنَ الكذَّابين والدجَّالين: مِثْلَ مُسَيلِمَةَ الكذَّابِ في الأوَّلين، وأحمد مِرْزَا غلام القادياني في الآخِرين، وقد أخبر النبيُّ ﷺ بهم في قوله: «**إِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي**» [أخرجه أبو داود في «الفِتَن» (٤/ ٤٥٠) بابُ ذِكرِ الفِتَن ودلائلها، والترمذيُّ في «الفِتَن» (٤/ ٤٩٩) بابُ ما جاء: لا تقوم الساعةُ حتَّى يخرج كذَّابون، مِنْ حديثِ ثوبان ﷺ. وأصلُه في الصحيحين بلفظ: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَّالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ**»: أخرجه البخاريُّ في «المناقب» (٦/ ٦١٦) بابُ علاماتِ النبوَّة في الإسلام، ومسلمٌ في «الفِتَن وأشراط الساعة» (١٨/ ٤٥)، مِنْ حديثِ أبي هريرة ﷺ].

قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (٦/ ٦١٧) بتصرُّف] عَقِبَ هذا الحديث: «وقد ظَهَر مِصْداقُ ذلك في آخِرِ زمن النبيِّ ﷺ: فخَرَج مُسَيْلِمةُ باليمامة، والأسودُ العَنْسيُّ باليمن، ثمَّ خَرَج ـ في خلافةِ أبي بكرٍ ـ طُلَيْحةُ بنُ خُوَيْلِدٍ في بني أَسَدِ بنِ خُزَيْمةَ وسَجَاحُ التميميةُ في بني تميمٍ، وفيها يقول شبيبُ بنُ رِبْعيٍّ ـ وكان مُؤذِّنَها ـ:

أَضْحَتْ نَبِيَّتُنَا أُنْثَى نُطِيفُ بِهَا ... وَأَصْبَحَتْ أَنْبِيَاءُ النَّاسِ ذُكْرَانَا

وقُتِل الأسودُ قبل أَنْ يموت النبيُّ ﷺ، وقُتِل مُسَيلِمةُ في خلافةِ أبي بكرٍ، وتاب=

= طُلَيْحةُ ومات على الإسلام ـ على الصحيح ـ في خلافةِ عمر، ونُقِل أنَّ سَجَاحَ ـ أيضًا ـ تابَتْ، وأخبارُ هؤلاءِ مشهورةٌ عند الإخباريِّين، ثمَّ كان أوَّلُ مَنْ خَرَج منهم: المختارَ بنَ أبي عُبَيْدٍ الثَّقَفيَّ: غَلَب على الكوفة في أوَّلِ خلافةِ ابنِ الزبير، فأَظْهَرَ محبَّةَ أهلِ البيت، ودَعَا الناسَ إلى طلبِ قَتَلةِ الحسين، فتَبِعهم فقَتَل كثيرًا ممَّنْ باشَرَ ذلك أو أعان عليه؛ فأَحَبَّه الناسُ، ثمَّ إنه زَيَّنَ له الشيطانُ أنِ ادَّعى النبوَّةَ وزعَمَ أنَّ جبريلَ يأتيه .. وقُتِل المختارُ سنةَ بضعٍ وستِّين، ومنهم: الحارث الكذَّابُ: خَرَج في خلافةِ عبد الملك بنِ مروان فقُتِل، وخَرَج في خلافةِ بني العبَّاسِ جماعةٌ، وليس المرادُ بالحديث: مَنِ ادَّعى النبوَّةَ مُطْلَقًا؛ فإنهم لا يُحْصَوْن كثرةً لكونِ غالبِهم ينشأ لهم ذلك عن جنونٍ أو سوداء، وإنما المرادُ: مَنْ قامَتْ له شوكةٌ وبدَتْ له شبهةٌ كمَنْ وصَفْنا، وقد أهلك اللهُ تعالى مَنْ وقع له ذلك منهم، وبقي منهم مَنْ يُلْحِقُه بأصحابه، وآخِرُهم الدجَّالُ الأكبر».

وأكَّد هذه الحقيقةَ ابنُ باديس رحمه الله في [«مجالس التذكير مِنْ حديثِ البشير النذير» (٩٦)] بقوله: «قد ضلَّتْ وهلَكَتْ ـ باتِّباعِ أشخاصٍ ادَّعَوُا النبوَّةَ ـ مِنْ هذه الأمَّةِ طوائفُ كثيرةٌ، وقد كان منهم ـ أوَّلَ الإسلام ـ: مُسَيْلِمةُ الكذَّابُ والأسود العنسيُّ، ثمَّ كان المختار بنُ [أبي] عُبَيْدٍ الثَّقَفيُّ، ثمَّ كان منهم في عصرنا قُبَيْلَهُ: البابُ وإليه تُنْسَبُ البابيَّةُ، والبهاءُ وإليه تُنْسَبُ البهائيَّةُ، وغلام القادياني وإليه تُنْسَبُ القاديانية، وقد كادَتْ هذه القاديانيةُ تدخل الجزائرَ على يدِ طائفةِ الحلول وشيخِها، لولا أَنْ قام ـ في وجوههم ـ العلماءُ المُصْلِحون وفَضَحوهم على صفحاتِ «الشهاب» أيَّامَ كان أسبوعيًّا؛ فردَّ اللهُ كيدَهم، ووقى اللهُ الجزائرَ=

....

= شرًّا عظيمًا. وقد أخبر النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عن هؤلاء الكذَّابين بأنهم ثلاثون؛ فلا بُدَّ أَنْ يَصِلوا إلى هذا العدد، وقد تكون بقيَّتُهم في أحشاء الأيَّام. وقد أخبر ﷺ أنهم كذَّابون، وأنه لا نبيَّ بعده، وقد صَدَق قولُه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم؛ فما مِنْ واحدٍ منهم إلَّا وقد ظَهَر مِنْ كَذِبه ما عَسُرَ تأويلُه على أصحابه، ومِنْ غلطِه وخَلْطِه ما يدلُّ على أنه لا مُستَنَدَ له مِنَ اليقين؛ فصلَّى اللهُ على خاتم الأنبياء وإمامِ المُرْسَلين».

وقد أخبر اللهُ تعالى بختم النبوَّات بنبوَّةِ محمَّدٍ ﷺ؛ فلا نبوَّةَ ولا رسالةَ بعد نبوَّةِ خاتمِ رُسُلِ الله؛ فمَنْ جَهِلَ هذه الحقيقةَ أو تَجاهَلها تضليلًا وخداعًا فقَدْ ضلَّ سواءَ السبيل؛ قال الله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]؛ «فهذه الآيةُ نصٌّ في أنه لا نبيَّ بعده، وإذا كان لا نبيَّ بعده فلا رسولَ بعده بالطريق الأَوْلى والأحرى؛ لأنَّ مَقامَ الرسالةِ أَخَصُّ مِنْ مَقامِ النبوَّة؛ فإنَّ كُلَّ رسولٍ نبيٌّ ولا ينعكس، وبذلك ورَدَتِ الأحاديثُ المُتواتِرةُ عن رسول الله ﷺ مِنْ حديثِ جماعةٍ مِنَ الصحابة رضي الله عنهم .. فمِنْ رحمةِ الله تعالى بالعباد: إرسالُ محمَّدٍ ـ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ـ إليهم، ثمَّ مِنْ تشريفه له: خَتْمُ الأنبياءِ والمُرْسَلين به وإكمالُ الدِّينِ الحنيفِ له، وقد أخبر اللهُ ـ تَبارَكَ وتعالى ـ في كتابه ورسولُه ﷺ في السنَّة المُتواتِرة عنه أنه لا نبيَّ بعده؛ ليعلموا أنَّ كُلَّ مَنِ ادَّعى هذا المَقامَ بعده فهو كذَّابٌ وأفَّاكٌ دجَّالٌ ضالٌّ مُضِلٌّ، ولو تَخرَّقَ وشَعْبَذَ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات، فكُلُّها مُحالٌ وضلالٌ عند أولي الألباب، كما أجرى اللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ على يد الأَسْوَدِ=

= العنسيِّ باليمن ومُسَيْلِمةَ الكذَّابِ باليمامة مِنَ الأحوال الفاسدة والأقوالِ الباردة ما عَلِمَ كُلُّ ذي لُبٍّ وفهمٍ وحِجًى أنهما كاذبان ضالَّان لَعَنَهما اللهُ، وكذلك كُلُّ مُدَّعٍ لذلك إلى يومِ القيامة حتَّى يُخْتَموا بالمسيح الدجَّال؛ فكُلُّ واحدٍ مِنْ هؤلاء الكذَّابين يخلق اللهُ تعالى معه مِنَ الأمور ما يشهد العلماءُ والمؤمنون بكذِبِ مَنْ جاء بها، وهذا مِنْ تمامِ لُطفِ الله تعالى بخَلْقه؛ فإنهم ـ بضرورة الواقع ـ لا يأمرون بمعروفٍ ولا يَنْهَوْن عن مُنْكَرٍ إلَّا على سبيل الاتِّفاق، أو لِمَا لهم فيه مِنَ المقاصد إلى غيره، ويكون في غايةِ الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشُّعَراء] الآية. وهذا بخلافِ حالِ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ فإنهم في غايةِ البِرِّ والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه، ويأمرون به وينهَوْن عنه، مع ما يُؤيَّدُون به مِنَ الخوارق للعادات والأدلَّةِ الواضحات والبراهين الباهرات؛ فصلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم دائمًا مُستمِرًّا ما دامَتِ الأرضُ والسمواتُ» [«تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤) بتصرُّف].

هذا، وقد اختُصَّ نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ دون غيره مِنَ الأنبياء والرُّسُل بجملةٍ مِنَ الخصائص المتميِّزة، كما حَبَاهُ اللهُ تعالى بمَكارِمَ كثيرةٍ، ومراتبَ عاليةٍ، نال بها الرفعةَ السامية والتفضيلَ المُطْلَقَ على العالَمين، ومنها أنه أُرْسِلَ دون سائر الأنبياء والرُّسُل إلى الثَّقَلين مِنَ الجنِّ والإنس أجمعين، وهذه الفضيلةُ التي حَظِيَ بها النبيُّ ﷺ معلومةٌ مِنَ الدِّين بالضرورة، قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«الفتح» (٦/ ٣٤٤) بتصرُّف]: «قال [ابنُ حزم]: «ولم يُبْعَثْ إلى الجنِّ مِنَ الإنس نبيٌّ إلَّا=

....

= نبيِّنا ﷺ لعمومِ بعثتِه إلى الجنِّ والإنس باتِّفاقٍ»، انتهى. وقال ابنُ عبد البرِّ رحمه الله: «لا يختلفون أنه ﷺ بُعِثَ إلى الإنس والجنِّ»، وهذا ممَّا فُضِّل به على الأنبياء .. وقال ابنُ تيمية رحمه الله: «اتَّفق على ذلك علماءُ السلفِ مِنَ الصحابة والتابعين وأئمَّةِ المسلمين»، قلت: وثَبَتَ التصريحُ بذلك في حديث: «وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ، وَبُعِثْتُ إِلَى الإِنْسِ وَالجِنِّ» [أخرجه البيهقيُّ (٢/ ٤٣٣) مِنْ حديثِ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما. وانظر: «سلسلة الآثار الصحيحة» للداني (١/ ٧٦)] [انظر تقريرَ الإجماع ـ أيضًا ـ في: «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ٣٢١)، «لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/ ٢٧٩)].

ومُستنَدُ الإجماعِ نصوصُ الشرعِ الكثيرةُ الدالَّةُ على خصيصة الرسالة الخاتمة بأنها:

ـ عامَّةٌ للبشرية كُلِّها، فلم تأتِ لطائفةٍ مُعيَّنةٍ منهم أو لجنسٍ خاصٍّ مِنْ أجناسهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، ولقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان]، ولقوله ﷺ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ» [سبق تخريجه، انظر: (ص ١٩٤)].

ـ وأنَّ رسالته الخاتمةَ عامَّةٌ للجنِّ ـ أيضًا ـ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ =

....

= ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾ [الأحقاف]، وهذا المَقامُ شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا ٦ وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا ٧ وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا ١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعۡجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَن نُّعۡجِزَهُۥ هَرَبٗا ١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعۡنَا ٱلۡهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤۡمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا ١٣ وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ وَمِنَّا ٱلۡقَٰسِطُونَۖ فَمَنۡ أَسۡلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلۡقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ [الجنّ]؛ فإنَّ هذه الآيةَ والتي قبلها تدلُّ على أنَّ الجنَّ استمعوا القرآنَ فآمَنُوا به وصدَّقوه وانقادوا له، كما تدلَّان «على أنه تعالى أَرْسَلَ محمَّدًا ـ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ـ إلى الثَّقَلين: الإنسِ والجنِّ؛ حيث دَعَاهم إلى الله، وقَرَأ عليهم السورةَ التي فيها خطابُ الفريقين وتكليفُهم، ووَعْدُهم ووعيدهم، وهي سورةُ الرحمن» [«تفسير ابن كثير» (٤/ ١٧٠)].

ولا يخفى أنَّ الله تعالى لم يبعث مِنَ الجنِّ رسولًا إلى الإنس، ولكنَّ العلماءَ اختلفوا: هل كان في الجنِّ نبيٌّ منهم؟ ومذهبُ الجمهورِ أنه كان فيهم نُذُرٌ لا أنبياءُ، كما تَقدَّم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ [الأحقاف]، ولحصرِ الرسالة في الإنس لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ =

= ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقد جَعَل اللهُ تعالى مِنْ ذرِّيَّة إبراهيمَ الخليلِ عليه السلام وسلالتِه كُلَّ نبيٍّ بَعَثه اللهُ بعده؛ قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

أمَّا الاستدلالُ بقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، «فالمرادُ: مِنْ مجموع الجنسين؛ فيصدق على أحَدِهما وهو الإنسُ، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢﴾ [الرحمن] أي: أحَدِهما، ثمَّ إنه تعالى فسَّر إنذارَ الجنِّ لقومهم فقال مُخْبِرًا عنهم: ﴿قَالُوا يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٣٠]» [«تفسير ابنِ كثير» (٤/ ١٧٠)]؛ فكان معنى الآية ـ كما ذَهَب إليه الجمهورُ ـ: «أنَّ رُسُلَ الإنسِ رُسُلٌ مِنْ قِبَلِ الله إليهم، ورُسُلَ الجنِّ بثَّهم اللهُ في الأرض؛ فسَمِعوا كلامَ الرُّسُلِ مِنَ الإنس وبلَّغوا قومَهم» [«فتح الباري» لابن حجر (٦/ ٣٤٤)].

هذا، ونصَّ المصنِّف رحمه الله على أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مبعوثٌ ـ أيضًا ـ إلى الملائكة الكرام، وهو أحَدُ أقوالِ أهل العلم، رجَّحه السبكيُّ ووافقه عليه السيوطيُّ ـ رحمهما الله ـ في [«الخصائص الكبرى» (٢/ ٣٢١)]، «وزاد أنه صلى الله عليه وسلم مُرْسَلٌ إلى جميع الأنبياء والأُمَمِ السابقة، وزَعَم أنَّ قولَه صلى الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ للناس كافَّةً» [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ١٩٤)] شاملٌ لهم مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلى قيام الساعة، ورجَّح هذا القولَ البارزيُّ، وزاد أنه مُرْسَلٌ إلى جميع الحيوانات، واستدلَّ على ذلك بشهادة الضبِّ له بالرسالة وبشهادة الحجر والشجر له ـ أيضًا ـ بذلك، قال الحافظ السيوطيُّ: وأَزِيدُ إلى ذلك أنه مُرْسَلٌ إلى نفسه» [«لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/ ٢٧٩)]. =

....

= هذا، وحريٌّ بالتنبيه والتحقيق أنَّ حديث الضبِّ حَكَم عليه أهلُ الاختصاص بأنه خبرٌ باطلٌ لِمَا فيه مِنَ النكارة والغرابة، [انظر: «البداية والنهاية» (٦/ ١٤٩)، «لسان الميزان» لابن حجر (٥/ ٢٩٢)].

وقد تَقدَّم في «باب الإيمان بالملائكة» [انظر: (ص ٦٧، ٧٥)] أنَّ الله تعالى أَكْرَمهم وكلَّفهم بعباداتٍ كثيرةٍ ومتنوِّعةٍ مِنْ عباداتٍ قلبيةٍ وقوليةٍ وفعليةٍ، وقد تتَّفِقُ مع العبادات التي كُلِّفَ بها الإنسُ ـ وإنِ اختلفَتْ في الصفة والعدد ـ لكِنْ لا يَلْزَمُ أنهم مُساوُونَ للبشر في نوع العبادة في شريعة الإسلام، وقد نَقَل ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«الفتح» (٢/ ٤)] عن ابنِ العربيِّ المالكيِّ رحمه الله وغيرِه «أنَّ الملائكة ليسوا مكلَّفين بمِثْلِ ما كُلِّفَ به الإنسُ»، علمًا أنَّ الله كلَّفهم بأعمالٍ خاصَّةٍ بهم تتَّفِقُ مع أجسامهم وخِلْقتهم، وقد وَصَفهم اللهُ تعالى بالعبودية بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۝٢٦﴾ [الأنبياء]، وبيَّن أنهم يُؤْمَرون ويُطِيعون في قوله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم]، وقولِه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ۝٥٠﴾ [النحل].

كما بيَّن اللهُ تعالى أنَّ جميعَ أعمالِهم وعباداتِهم إنما هي امتثالٌ وطاعةٌ خالصةٌ لأوامر الله وبإذنٍ منه في مِثْلِ قوله تعالى: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]، ويدلُّ عليه سببُ نزولِ هذه الآية، فقَدْ أخرج البخاريُّ رحمه الله حديثَ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِجِبْرِيلَ: «مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورُنَا؟» فَنَزَلَتْ: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا﴾ [مريم: ٦٤]» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣٠٥) بابُ ذِكْرِ الملائكة، وفي «التفسير» (٨/ ٤٢٨) باب: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]]. =

= قال السفارينيُّ رحمه الله في [«لوامع الأنوار» (٢/ ٢٨٩)]: «والحاصل أنَّ نبيَّنا محمَّدًا ﷺ مبعوثٌ إلى الثَّقَلين بالإجماع، ورسالتُه مُطبِّقةٌ جميعَ الأكوان، ولا الْتفاتَ لزعمِ بعضِ مُلْحِدي أهلِ الكتاب مِنْ خصوصِ رسالته للعرب؛ لأنَّ هذا مُكابَرةٌ باطلةٌ ومُغالَطةٌ عاطلةٌ؛ لوجوهٍ بديهيةِ البرهان، منها: أنَّ النبيَّ ﷺ لا يكذب، وقد أُنزِلَ عليه في مُحكَمِ القرآن: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]».

هذا، وقد جَعَل اللهُ تعالى لنبيِّه محمَّدٍ ﷺ آيةً علميةً وحجَّةً عقليةً خالدةً، وهي القرآنُ الكريم الذي أنزله آخِرَ الكُتُبِ وخاتمَها، وأشملَها وأعظمَها وأكملَها؛ فهي مُعجزةٌ مُستمِرَّةٌ دائمةٌ، يخضع لها ويهتدي بها كُلُّ مَنْ سَمِعها وفَهِمها؛ فهو مُعْجِزٌ في لفظه ومعناه، لا يُشْبِهُ شيئًا مِنْ كلام المربوبين، ولا يقدر على مِثْلِه أحَدٌ مِنَ المخلوقين؛ ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء]؛ فالقرآنُ وحيُ اللهِ تعالى، أنزله على أكملِ صورةٍ مِنْ صُوَرِ الوحي، ضمَّنَ فيه محاسِنَ ما قبله، وزادهُ مِنَ الكمالات ما ليس في غيره، منها: جمعُه لِحِكَمٍ وأحكامٍ، ولعلومٍ ومَعارفَ لا تنقضي عجائبُها ولا تنتهي فوائدُها، وضَّح النبيُّ ﷺ ما فيه مِنَ الحلال والحرام، وأصَّل الأصولَ وفصَّلها حتَّى استتمَّ هذا الدِّينُ واستقام، كما اشتمل هذا القرآنُ على الدعوة والحجَّة والإخبار بما سيكون؛ فعمَّ نفعُه مَنْ حَضَر ومَنْ غاب، ومَنْ وُجِد ومَنْ لم يُوجَدْ؛ فكان مُعجِزةً علميةً كبرى اختُصَّ بها نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ دون سائر الأنبياء، وليس معنَى ذلك أنه ﷺ لم يُؤْتَ مِنَ المُعجِزات ما أُوتِيَ مَنْ تَقدَّمه، =

= بل ظَهَر له منها الكثيرُ: كانشقاق القمر، ونبعِ الماء مِنْ بين أصابعه ﷺ، وتسبيحِ الحصى، وحنينِ الجذع، ورجفِ الجبل، وإخبارِ ذراع الشاة أنها مسمومةٌ، ونحوِ ذلك ممَّا يقتضي أنَّ حَصْرَ مُعجِزاته ﷺ في القرآن الكريم غيرُ مُرادٍ، «بل المرادُ: أنه المُعجِزةُ العُظْمى التي اختُصَّ بها دون غيره؛ لأنَّ كُلَّ نبيٍّ أُعْطِيَ مُعجِزةً خاصَّةً به لم يُعْطَها ـ بعينها ـ غيرُه تَحدَّى بها قومَه، وكانَتْ مُعجِزةُ كُلِّ نبيٍّ تقع مُناسِبةً لحالِ قومه: كما كان السحرُ فاشيًا عند فرعون؛ فجاءه موسى بالعصا على صورةِ ما يصنع السَّحَرةُ، لكنَّها تَلقَّفَتْ ما صنعوا، ولم يقع ذلك ـ بعينه ـ لغيره، وكذلك إحياءُ عيسى الموتى وإبراءُ الأكمهِ والأبرص؛ لكونِ الأَطِبَّاءِ والحُكَماءِ كانوا ـ في ذلك الزمان ـ في غاية الظهور؛ فأتاهم مِنْ جنسِ عملِهم بما لم تَصِلْ قدرتُهم إليه؛ ولهذا لمَّا كان العربُ الذين بُعِثَ فيهم النبيُّ ﷺ في الغاية مِنَ البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تَحدَّاهم أَنْ يأتوا بسورةٍ مِثْلِه فلم يقدروا على ذلك» [«فتح الباري» لابن حجر (٩/ ٦)].

فمُعجِزاتُ الأنبياء السابقين قد انقرَضَتْ بانقراضِ أعصارهم؛ لكونها حِسِّيَّةً تُشاهَدُ بالبصر، ولم يُشاهِدْها إلَّا مَنْ حَضَرها: كعدمِ حَرْقِ النار لإبراهيم عليه السلام، وناقةِ صالحٍ عليه السلام، وتحويلِ عَصَا موسى عليه السلام أفعَى وانفلاقِ البحر له، وما ظَهَر على يدَيْ عيسى عليه السلام مِنْ إحياء الموتى، وغيرها مِنَ الآيات الحِسِّيَّة البصرية، ولا يخفى أنَّ الذي يُشاهَدُ بعين الرأس ينقرض بانقراضِ مُشاهِده.

في حينِ أنَّ مُعجِزةَ القرآنِ خالدةٌ ومُستمِرَّةٌ إلى قيام الساعة؛ فلا يمرُّ عصرٌ مِنَ الأعصار إلَّا ويظهر فيه شيءٌ ممَّا أخبر به أنه سيكون يدلُّ على صدقِ دعواه؛ ذلك=

= لأنَّ مُعجِزةَ القرآنِ علميةٌ عقليةٌ، وما يُشاهَدُ بعين العقل باقٍ يُشاهِدُه كُلُّ مَنْ جاء بعد الأوَّلِ مُستمِرًّا، [انظر: «فتح الباري» لابن حجر(٩/ ٧)].

وقد أفصح المصنِّف رحمه الله عن هذا المعنى في [«مجالس التذكير مِنْ كلام البشير النذير» (٣٤)] بقوله: «آياتُ الرُّسُلِ صلواتُ اللهِ عليهم كانَتْ مُعجِزاتٍ كونيةً لا يشهدها إلَّا مَنْ حَضَرها، ثمَّ تبقى أخبارًا يمكن للجاحد إنكارُها، ويتأتَّى للمُشاغِبِ أَنْ يصنع مِنَ الخُزَعْبَلاتِ والمَخارِقِ ما يُموِّهُ به على ضَعَفةِ العقول ويدَّعي مُماثلتَها. وآيةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ـ وهي القرآنُ العظيمُ ـ مُعجِزةٌ علميةٌ عقليةٌ يخضع لسلطانها كُلُّ مَنْ يسمعها ويفهمها، ولا يستطيع مُعارَضتَها، لا في لفظها وأسلوبها وبيانها الذي عَجَزَتْ عن مُعارَضةِ أقصرِ سُوَرِه العربُ ـ على ما كان مِنْ حَمِيَّتِها وأَنَفتِها وشدَّةِ رغبتها في إبطالها ـ لو وَجَدَتْ سبيلًا إليها فقط، بل لا تُستطاعُ مُعارَضتُها فيما اشتملَتْ عليه مِنْ أصول العلوم التي يحتاج إليها البشرُ في كمالهم وسعادتهم أفرادًا وجماعاتٍ وأُمَمًا، وما اشتملَتْ عليه مِنَ الأدلَّة القاطعة والحِكَمِ الباهرة في كُلِّ ما دَعَتْ إليه، إلى ما اشتملَتْ عليه مِنْ حقائقَ كونيةٍ كانَتْ مجهولةً عند البشر حتَّى كَشَفها العلمُ في هذا العصر، مِثْلِ انبناءِ الخَلْقِ كُلِّه على أساس الزوجية في أشياءَ كثيرةٍ؛ مِصْداقَ قولِه تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ [فُصِّلَت: ٥٣]؛ فبهذا كانَتْ آيةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم أعظمَ الآياتِ وأبقاها، وكانت مُغْنِيَةً عن غيرها كافيةً عمَّا عَدَاها، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]». =

= وتفريعًا لِمَا تَقدَّمَ فإنه لم يُعْرَفْ لكتابٍ مِنَ الكُتُبِ - قديمًا وحديثًا - توجيهُ عنايةِ العلماء بمَضامينه بجميعِ جوانبِه وتفاصيله - دراسةً وبحثًا - مِثْلَ ما لهذا القرآن الكريم، بالنظر إلى كثرةِ فوائدِه وعمومِ نفعه وسُمُوِّ موضوعاته وسِحْرِ بيانه وجودةِ بلاغته وقوَّةِ تأثيره؛ الأمرُ الذي دَفَعَ بالعلماء إلى أَنْ وجَّهوا عنايتَهم الفائقةَ لدراسةِ عقائده وتشريعاته وأحكامه وآدابه، وشرحِ ألفاظه، وتفسيرِ معانيه، وبيانِ تراكيبه؛ فتكوَّنَتْ - بهذه الدراساتِ والبحوث - ثروةٌ ضخمةٌ مِنَ العلم والأدب تزخر بها أمَّةُ الإسلام، وتبقى مادَّتُها صالحةً لحياة البشر وسعادتِهم الدنيوية والأخروية، ومُصْلِحةً لهم في كُلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ لذلك كانَتْ رَجَاةُ النبيِّ ﷺ قد تَحقَّقَتْ؛ فإنه ﷺ أكثرُ الأنبياءِ تَبَعًا يومَ القيامة.

قال المصنِّف رحمه الله في [«مجالس التذكير مِنْ حديثِ البشير النذير» (٣٥)] - مؤكِّدًا هذه الرَّجَاةَ بكثرة الأتباع - ما نصُّه: «لمَّا بَقِيَتْ هذه الآيةُ الكبرى على العصور، وانبنَتْ على الاحتجاج بالعلم والعقل؛ كان لها - في كُلِّ عصرٍ - أتباعُها الكثيرون عن اقتناعٍ واطمئنانٍ، ويزداد ويكثر عددُهم بتوالي الأزمان، ويكثر الداخلون فيهم بقَدْرِ ما يزداد تقدُّمُ البشرِ في العلم والعرفان، وقد شُوهِدَ هذا اليومَ وقبل اليوم، ونحن نرى - في هذا العصر - كيف ينتشر الإسلامُ - تِباعًا لهذه الآيةِ - بين الأُمَم وفي علمائها، دون نشرٍ للدعوة مِنَ المسلمين تُبيِّنُها، ولا قوَّةٍ لهم تؤيِّدُها، وإنما بما فيه مِنْ علمٍ وحجَّةٍ وأدبٍ وحكمةٍ تُخْضِعُ العقولَ وتَجذب القلوبَ؛ ولهذا فرَّع النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم - على كونِ آيتِه وحيًا - رجاءَ أَنْ يكون أكثرَ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ عليهم أتباعًا يومَ القيامة، الذي تظهر فيه التابعيةُ الصادقة؛=

....

= فقال: «فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ» [سيأتي تخريجه، انظر: (ص ٢٣٧)]».
هذا، وقد تعهَّدَ اللهُ بحفظِ كتابه إلى أَنْ يرفعه إليه ـ كما تَقدَّم [انظر: (ص ١٠٦)] ـ فقيَّض له رجالًا أُمَناءَ حَفِظوه في صدورهم وسطورهم؛ فصانَهُ مِنْ أَنْ تمتدَّ إليه يدُ التحريف والتصحيف والتبديل والتغيير؛ فبقي «في أمَّتِه محفوظًا لم تَجْرِ عليه زيادةٌ ولا نقصانٌ كما وَعَدَ اللهُ بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحِجر]، وهو كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فُصِّلَت]» [«الاعتقاد» للبيهقي (١١٧)].
وجَعَل اللهُ القرآنَ الكريم شاهدًا وأمينًا وحاكمًا ومصدِّقًا لِمَا تَقدَّمه مِنَ الكُتُب السماوية، مؤيِّدًا للحقِّ الذي فيها مِنْ: توحيد الله في عبادته، والإيمانِ برُسُله، والتصديقِ باليوم الآخِرِ وما يقع فيه مِنَ الجزاء، ورعايةِ الحقِّ والعدل، والتخلُّقِ بالأخلاق الفاضلة، ومُهَيْمِنًا عليه ورقيبًا ومبيِّنًا لِمَا وَقَع فيها مِنْ تحريفٍ وتبديلٍ، وأَمَر اللهُ تعالى أَنْ يحكم بالقرآن بين الناس كافَّةً على اختلافِ أجناسهم ولُغاتِهم ودياناتهم؛ فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المائدة: ٤٨].
فعُلِم بذلك أنَّ القرآن الكريم نَسَخ كُلَّ ما سَبَقه مِنْ كُتُبِ الله تعالى لفظًا وحكمًا؛ فلا يُعْمَلُ بما فيها مِنْ شرائعَ وأحكامٍ، ولا يُتعبَّدُ بتلاوتها؛ لأنَّ الكُتُبَ السماوية الأولى فَقَدَتِ الهدى والنورَ والرحمة والموعظة التي حملَتْها لأجيالها الأوَّلين، ولم تَعُدْ تُمثِّلُ ـ بعد التحريف والتبديل ـ حقيقةَ كُتُبَ اللهِ تعالى، ولا باستطاعتها الإصلاحُ، ولا هي قادرةٌ على الهداية لأهلها، فضلًا عن سائر الخَلْق؛ لِمَا تَطرَّقَ=

= إليها مِنْ زيادةٍ ونقصٍ وتحريفٍ وتبديلٍ، ولخصوص أحكامها وتشريعاتها ببني إسرائيل؛ فهي مُعيَّنةُ الأجيال ومحدَّدةُ الأوقات؛ فجاء البيانُ مِنَ الله تعالى بأنَّ الدِّينَ الإسلاميَّ نَسَخَ سائرَ الأديانِ السابقة، وأنَّ القرآن نَسَخ غيرَه مِنَ الكُتُب السماوية؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران].

وهكذا أكمل اللهُ دِينَهُ الحقَّ بخاتمة الرُّسُل محمَّدٍ الأمين ﷺ الذي بلَّغ الرسالةَ وأدَّى الأمانةَ ونَصَح الأمَّةَ وجاهَدَ في الله حقَّ جهادِه؛ مُمْتثِلًا لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقام ﷺ ـ طيلةَ حياتِه الدعوية ـ بأعمالٍ كبرى تُبلْوِرُ نجاحَه في مَهَمَّته الرسالية، تمثَّلَتْ في إحداثِ تغييرٍ جذريٍّ وشاملٍ على الأوضاع والعقول والقلوب، وعلى نظام الحياة الذي دَرَج عليه أهلُ الجاهلية: فقضى على الوثنية ومَظاهِرِها، وأحلَّ محَلَّها التوحيدَ الخالص والإيمانَ بالله واليوم الآخِر، وأزال رذائلَ الجاهليةِ وقبائحَها وعيوبَها ونقائصها، واستبدل مكانَها الفضائلَ والمكارم والآداب والكمالات، وحارَبَ الخرافاتِ التي لوَّثَتِ العقولَ والسلوكاتِ المُنْحرِفةَ التي شوَّهَتِ الفِطَرَ؛ فمَحَا ـ بفضل الله ـ مَعالِمَ الشرِّ وألوانَ الفساد، واستبدل بدلَها الحقائقَ التي تنير العقولَ وتُوقِدُ الضمائر، وتزكِّي النفوسَ وتسمو بالأخلاق، وتُقِيمُ الأعمالَ وتُصْلِحُ الأحوالَ، وتنظِّم الاجتماعَ البشريَّ على أكملِ نظامٍ؛ فوحَّد ﷺ الأمَّةَ الإسلامية، وأقام دولةً كبرى تحت راية القرآن الذي حَفِظه اللهُ مِنَ الضياع وصانَهُ مِنَ التحريف والتبديل؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ =

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وَلِقَوْلِهِ[1]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

= لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر].

فاكتمل بناءُ الإصلاح الدينيِّ؛ فتمَّتْ نعمةُ الله على الناس جميعًا بدِينِه الحقِّ؛ ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ فخُتِمَتِ الرسالةُ ـ بهذا ـ وانقطعَتِ النبوَّةُ، وبقِيَتِ الشريعةُ المحمَّديةُ شريعةً جامعةً لِمَا سَبَقَ مِنَ التشريعات، واستمرَّ القرآنُ الكريم روحًا محفوظًا بحفظ اللهِ تَحْيَا به القلوبُ، وتسمو به النفوسُ والأرواحُ، وتُنارُ به العقولُ، وتحيا به مَصالِحُ الدنيا والدِّين؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى].

هذا، والمتأمِّل في مُعجِزةِ القرآن التي أيَّد اللهُ بها نبيَّه الأمِّيَّ، وما وفَّقه إليه مِنَ القيام بواجبِ تبليغ الرسالة وأداءِ الأمانة خيرَ قيامٍ، وما حقَّقه ﷺ مِنَ الأعمال الكبرى السالفةِ البيان: مِنْ تغيير القلوب والعقول وإحيائها، وإنارةِ البصائر، وتربية الأمَّة، وتكوين الدولة في زمنٍ يسيرٍ جدًّا؛ يتَّضِحُ له ـ بجلاءٍ ـ أنَّ سِرَّ المُعْجِزةِ القرآنية وآياتِها العلمية الخالدة تفوق ـ على الإطلاق ـ المُعْجِزاتِ الكونيةَ والخوارقَ الحسِّيَّةَ التي أيَّد اللهُ بها أنبياءَه الكرام؛ ذلك لأنَّ إحياءَ أمَّةٍ أُمِّيَّةٍ غارقةٍ في الجهل والضلال والفساد والرذيلة، ثمَّ تحويلَها ـ في ظرفٍ زمنيٍّ قصيرٍ ـ إلى أمَّةِ هدايةٍ ومصدرِ يقينٍ ومَنْبَعِ إشعاعٍ لَهُوَ الأمرُ الخارق الذي لا يُضاهيهِ خارقٌ، بل تَتضاءَلُ ـ في جانِبِه ـ جميعُ المُعْجِزاتِ والخوارق.

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وَلِقَوْلِهِ[١]: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩]، وَلِقَوْلِهِ[١]: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، وَلِقَوْلِهِ[١]: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، وَلِقَوْلِهِ[١]: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت: ٥١]، [وَلِقَوْلِهِ[٢]: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا ﴾ [الجاثية: ١٨]][٣]، وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ[٤] رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ[٥]: «مَا مِنَ

---

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.ش».

(٣) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ، م.ر.ب».

(٤) هو الصحابيُّ الجليل الحافظ عبدُ الرحمن بنُ صخرٍ الدوسيُّ اليمنيُّ المعروف بكنيته، فهو أوَّلُ المكثرين مِنْ رواية الحديث على الإطلاق، حدَّث عنه خَلْقٌ كثيرٌ مِنَ الصحابة والتابعين، وَلِيَ إمرةَ المدينة، وناب عن مروانَ في إمرتها، وله فضائلُ ومناقبُ. تُوُفِّيَ سنة: (٥٧هـ).

انظر ترجمته في: «التاريخ الصغير» للبخاري (١/ ١٢٥)، «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢/ ٣٦٢، ٤/ ٣٢٥)، «المعارف» لابن قتيبة (٢٧٧)، «الاستيعاب» لابن عبد البرِّ (٤/ ١٧٦٨)، «أُسْد الغابة» لابن الأثير (٥/ ٣١٥)، «سِيَر أعلام النُّبَلاء» (٢/ ٥٧٨) و«طبقات القُرَّاء» للذهبي (١/ ٤٣)، «البداية والنهاية» لابن كثير (٨/ ١٠٣)، «شذرات الذهب» لابن العماد (١/ ٦٣)، ومؤلَّفي: «الإعلام» (١٩٨).

(٥) «م.ر.ش، م.ف»: «صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ».

الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ(١) وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ؛ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا [يَوْمَ القِيَامَةِ](٢)» رَوَاهُ البُخَارِيُّ(٣)

---

(١) «م.ر.أ، م.ر.ب، م.ف»: «أُوتِيتُهُ».

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ف».

(٣) هو أبو عبد الله محمَّد بنُ إسماعيل بنِ إبراهيم بنِ المغيرة البخاريُّ الجُعْفيُّ مولاهم، أمير المؤمنين في الحديث، شَهِد له الأئمَّةُ بعُلُوِّ مَنْزلته وعظيمِ قدره، فأخبارُه مع شيوخه وأهلِ العلم وأخبارُ حِفْظِه وإتقانه كثيرةٌ، له رحلتان، روى عن الإمام أحمد وغيرِه، وروى عنه مسلمٌ ـ في غير الصحيح ـ والترمذيُّ والنسائيُّ وسِواهُم، شهرتُه تقوم على كتابه: «الجامع الصحيح»، وقد اتَّفقَتِ الأمَّةُ على أنه أصحُّ كُتُب الدين بعد المصحف الكريم، وللبخاريِّ تصانيفُ أخرى منها: «التاريخ الكبير» و«التاريخ الأوسط» و«التاريخ الصغير» و«الأدب المفرد» و«الكُنى». تُوُفِّيَ رحمه الله سنة: (٢٥٦هـ)، وله (٦٢) سنةً.

انظر ترجمته في: «الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٧/ ١٩١)، «تاريخ بغداد» للخطيب البغدادي (٢/ ٤)، «اللباب» لابن الأثير (١/ ١٢٥)، «وفيات الأعيان» لابن خِلِّكان (٤/ ١٨٨)، «دُوَل الإسلام» (١/ ١٥٥) و«سِيَر أعلام النُّبَلاء» (١٢/ ٣٩١) كلاهما للذهبي، «مرآة الجنان» لليافعي (٢/ ١٦٧)، «البداية والنهاية» لابن كثير (١١/ ٢٤)، «التهذيب» لابن حجر (٩/ ٤٧)، «طبقات المفسِّرين» للداودي (٢/ ١٠٤)، «شذرات الذهب» لابن العماد (٢/ ١٣٤)، «الأعلام» للزركلي (٦/ ٢٥٨)، «معجم المؤلِّفين» لكحالة (٣/ ١٣٠)، «الفضل المبين» للقاسمي (١١٩)، «الفكر السامي» للحجوي (٢/ ٨٠)، «التراث العربي» لسزكين=

وَمُسْلِمٌ(١).

= (١/ ١٧٣)، ومؤلَّفي: «الإعلام» (٣٤٣).

(١) أخرجه البخاريُّ في «فضائل القرآن» (٩/ ٣) باب: كيف نَزَلَ الوحيُ؟ وأوَّلِ ما نَزَلَ، وفي «الاعتصام بالكتاب والسنَّة» (١٣/ ٢٤٧) بابُ قولِ النبيِّ ﷺ: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ**»، ومسلمٌ في «الإيمان» (٢/ ١٨٦) بابُ وجوبِ الإيمان برسالةِ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ إلى جميع الناس، ونسخِ المِلَلِ بمِلَّتِه، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه.
قال الشيخ عبد الحميد بنُ باديس رحمه الله في شرحِه لهذا الحديثِ في [«مجالس التذكير مِنْ حديثِ البشير النذير» (٣٤)] ما نصُّه: «فما مِنْ نبيٍّ مِنَ الأنبياء إلَّا وقد أعطاهُ اللهُ مِنَ الآيات والمُعْجِزاتِ ما مِثْلُه ـ في وضوحه وظهوره والعجزِ عن مُعارَضته ـ ما يُؤْمِنُ عليه العبادُ ويتَّفِقون عليه، لولا ما يصدُّهم عنه مِنَ العناد، وهو معنَى قولِه صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: «**مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ**»، والنبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم قد أُوتِيَ مِثْلَ هذه الآياتِ، وقد نَقَل الكثيرَ منها كثيرٌ مِنْ أصحابه رضي الله عنهم، واشتهرَتْ عند أئمَّةِ الحديث والنقل، غيرَ أنَّ آيتَه الخالدةَ الدائمةَ ـ كعمومِ رسالتِه ودوامِها ـ هي: القرآنُ العظيم، وهو الوحيُ الذي أَوْحاهُ اللهُ إليه؛ فهي المعوَّلُ عليها في دوامِ الحجَّةِ على تَعاقُبِ العصور والأجيال؛ إذ لا يقوم غيرُها مَقامَها في بقائها مُشاهَدةً لجميع الناس؛ ولذا حَصَر آيتَه فيها فقال: «**وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ**»».
ثمَّ تابَعَ رحمه الله في سياق الدعوة إلى الائتساء بسُنَنِه ﷺ ونشرِ هدايته وتبليغِ حجَّتِه فقال في [(٣٦)]: «وقد رَجَا النبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كثرةَ أتباعِه لدوامِ وظهورِ آيتِه الخالدة وهي القرآنُ العظيم، فعلى الناشرين لهدايته والمبلِّغين لدعوته=

....

= أَنْ يجعلوا القرآنَ إمامَهم وحجَّتَهم ومَرْجِعَهم؛ فإنه هو كتابُ الدعوةِ ومنشورُ الهدايةِ ومُظْهِرُ الحجَّة، وأتباعُ النبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم هم أتباعُ القرآن وخُلَفاؤه في التبليغ، ووَرَثتُه في العلم هم الذين يبلِّغون القرآنَ ويَتْلُون القرآنَ ويُنْذِرون بالقرآن، كما كان هو صلَّى الله عليه وآله وسلَّم كذلك، وكما قال الله فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النمل: ٩١-٩٢]. جَعَلنا اللهُ ممَّن اتَّبعوا سنَّتَه ونشروا هدايتَه وبلَّغوا حجَّتَه، غيرَ مُبدِّلين ولا مُغيِّرين».

وأخيرًا، فقَدْ رأيتُ مِنَ المُفيد أَنْ ألخِّص - في هذا الباب - جملةً مِنَ الواجبات على الأمَّة تُجاهَ النبيِّين - عامَّةً - وخاتمِ المُرْسَلين - خاصَّةً - ممَّا سَلَف ذِكْرُه، وأُضِيفَ إليها واجباتٍ أخرى على النحو التالي:

١ - وجوب الإيمان بالأنبياء والمُرْسَلين عليهم السلام؛ فإنه جزءٌ مِنْ عقيدة المؤمن وأصلٌ مِنْ أصول الإيمان لا يقبل التجزئةَ؛ إذ لا يصحُّ إيمانُ العبد ولا تكمل عقيدتُه إلَّا بالإيمان بالأنبياء والرُّسُل عليهم السلام، بل الإيمانُ بالله يستلزم الإيمانَ بكُلِّ ما أمَرَ اللهُ بالإيمان به مِنَ: الملائكة والكُتُبِ والرُّسُل واليوم الآخِرِ والقضاء والقَدَر وغيرِ ذلك، وقد جاء أمرُ اللهِ تعالى بالإيمان بالرُّسُل صريحًا ومؤكَّدًا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦]، وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ =

= ﴿مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وعليه، فيجب على العبد أنْ يؤمن بكُلِّ مَنْ عَرَف نبوَّتَه ورسالتَه عن طريق الوحي الإلهيِّ إيمانًا تفصيليًّا، فيؤمن بهم جميعًا مِنْ غيرِ تفريقٍ؛ فلا يصحُّ الإيمانُ برسالةِ بعضٍ والكفرُ برسالةِ بعضِهم الآخَرِ: كما هو صنيعُ اليهود الذين آمَنوا بأنبياءِ بني إسرائيل وكفروا بعيسى ابنِ مريم ومحمَّدٍ صلَّى الله عليهما وسلَّم، والنصارى الذين آمَنوا بكافَّةِ الأنبياء، وكفروا بخاتمهم محمَّدٍ ﷺ.

لذلك يُعَدُّ الكفرُ بواحدٍ منهم كفرًا بجميعهم، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٤/ ٢٢٣)]: «ومَنْ كذَّب رسولًا فكأنَّما كذَّب جميعَ الرُّسُلِ كقوله جلَّ وعَلَا: ﴿كَذَّبَتۡ قَوۡمُ نُوحٍ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشُّعَراء]، وإنَّما جاءهم رسولٌ واحدٌ؛ فهُمْ ـ في نفسِ الأمر ـ لو جاءهم جميعُ الرُّسُلِ كذَّبوهم». والمكذِّبُ بالرُّسُل متوعَّدٌ بالعذاب المُهين كما جاء التبيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٍ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقًّاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ١٥١﴾ [النساء]، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ٥٧٢) بتصرُّف]: «يتوعَّدُ ـ تَبارَكَ وتعالى ـ الكافرين به وبرُسُله مِنَ اليهود والنصارى، حيث فرَّقوا بين الله ورُسُله في الإيمان: فآمَنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعضٍ بمجرَّد التشهِّي والعادة وما أَلْفَوْا عليه آباءَهم، لا عن دليلٍ قادَهم إلى ذلك فإنه لا سبيلَ لهم إلى ذلك، بل بمجرَّد الهوى والعصبية: فاليهودُ ـ عليهم لعائنُ الله ـ آمَنوا بالأنبياء إلَّا عيسى ومحمَّد عليهما الصلاة والسلام، والنصارى آمَنوا بالأنبياء وكفروا=

= بخاتمهم وأشرفِهم محمَّدٍ ﷺ .. والمقصودُ أنَّ مَنْ كَفَرَ بنبيٍّ مِنَ الأنبياء فقَدْ كَفَر بسائر الأنبياء؛ فإنَّ الإيمان واجبٌ بكُلِّ نبيٍّ بَعَثه اللهُ إلى أهل الأرض؛ فمَنْ ردَّ نبوَّتَه للحسد أو العصبية أو التشهِّي تبيَّنَ أنَّ إيمانه بمَنْ آمَنَ به مِنَ الأنبياء ليس إيمانًا شرعيًّا، إنما هو عن غرضٍ وهوًى وعصبيةٍ».

٢ ـ وجوب الاعتقاد بأنَّ الرسالة أو النبوَّةَ مِنحةٌ إلهيةٌ لا تُنالُ بمُجرَّدِ التشهِّي والرغبة، ولا بالكسب والمجاهَدة والمعاناة، وإنما هي لله وَحْدَه يَهَبُها مَنْ أهَّلَه لها مِنْ عباده المؤمنين، فإذا اختار اللهُ رسولًا واصطفاهُ لنَفْسِه فلا بُدَّ أَنْ يختار أَطْهَرَ البشرِ قلبًا، وأكملَهم علمًا وعملًا، وأصدقَهم وأبرَّهم أخلاقًا، وأزكاهم فضلًا وأقواهم كمالًا وأشرفَهم نَسَبًا؛ لا يلحقهم ـ في تلك الصفاتِ ـ أحَدٌ؛ لذلك يجب محبَّتُهم وتعظيمهم، ومع ذلك يَحْرُمُ الغُلُوُّ فيهم ورفعُهم فوق منزلتهم؛ فهُمْ بشرٌ مِمَّنْ خَلَق، يجوز في حقِّهم ـ شرعًا وعقلًا ـ ما يجوز على البشر مِنَ الأكل والشرب والنوم والمشي والجلوس والنكاح والبيع والشراء وسائرِ الأعراض والأغراض البشرية التي لا تُفْضي إلى عيبٍ في مراتبهم أو نقصٍ في كمالاتهم العليَّة؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥]، كما أنهم بشرٌ تَمتدُّ إليهم أيدي العدوان والظلم، وينالُهُم الاضطهاد، وقد يَصِلُ إلى حدِّ قتلِهم، كما أخبر اللهُ تعالى ـ عن بني إسرائيل ـ بقوله: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: ١١٢]، ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾ [آل عمران: ١٨١]؛ فيعتري الأنبياءَ والرُّسُلَ =

= ما يعتري سائرَ البشر فيما لا علاقةَ له بتبليغ الشرع والأحكام عن الله تعالى.
كما يجب الإيمانُ بأنَّ الأنبياء والرُّسُلَ معصومون فيما يخبرون عن الله تعالى وفي تبليغ رسالاته، والعصمةُ في ذلك معلومةٌ بدليل الشرع والعقل والإجماع؛ فهي التي يحصل بها مقصودُ الرسالة والنبوَّة، وهُمْ ـ أيضًا ـ معصومون مِنَ الكبائر، مع جواز وقوع الصغائر منهم، لكِنْ لا يُصِرُّون ولا يُقَرُّون عليها، بل يُوفَّقون للتوبة منها، ويكون الاقتداءُ بهم في التوبة منها.
٣ ـ وجوب تصديقهم فيما أيَّدَهم اللهُ به مِنَ البيِّنات والآيات، واعتقادُ أنهم بلَّغوا جميعَ ما أُرْسِلوا به على ما أَمَرهم اللهُ به، وأنهم بيَّنوه بيانًا واضحًا شافيًا كافيًا، لا يَسَعُ أحدًا ممَّنْ أُرْسِلوا إليه جهلُه ولا يَحِلُّ خلافُه، [انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العزّ (٣٤٩)، «لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/ ٢٦٩)، «شُعَب الإيمان» للبيهقي (١/ ١٤٥)].
علمًا أنَّ الإيمان بالنبيِّ محمَّدٍ ﷺ ومُقتضَياتِ رسالته ـ عملًا واتِّباعًا ودعوةً ـ ضروريٌّ للنجاة مِنْ عذاب الله والفوزِ بنعيمه المُقيم؛ إذ لا نجاةَ للعبد مِنْ عذابِ الله إلَّا بتوحيدِ المُرْسِل وتوحيدِ مُتابَعةِ الرسول ﷺ والسيرِ على نهجه؛ ذلك لأنَّ جميعَ السُّبُل غيرَ سبيله مسدودةٌ، وكُلَّ الأعمال على غيرِ هديه مردودةٌ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران].
٤ ـ وجوب محبَّة النبيِّ ﷺ ـ وسائرِ الأنبياء والرُّسُل ـ وطاعته والانقياد له، والاهتداء بهديِه والائتمار بأمره، والكفِّ عمَّا نهى عنه، والتسليم المُطْلَق والرِّضا التامِّ بما جاء به وأخبر عنه، دون حرجٍ أو جدالٍ أو تعقيبٍ أو أخذِ بعضٍ وتركِ=

....

= بعضٍ؛ فإنَّ التوقُّف والتطاولَ والمِراء والضيقَ ونحوَ ذلك مِنَ الاعتراضات تُناقِضُ مقتضى الإيمان به ﷺ نبيًا ورسولًا، وقد جاءَتِ النصوصُ القرآنية تُؤكِّدُ هذا المعنى في مثلِ قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور]، قال ابنُ القيِّم رحمه الله في [«زاد المَعاد» لابن القيِّم (١/ ٣٨)]: «فلا يجب على أحَدٍ اتِّباعُ قولِ أحَدٍ سِواهُ، بل غايتُه أنه يسوغ له اتِّباعُه، ولو تَرَكَ الأَخْذَ بقولِ غيرِه لم يكن عاصيًا لله ورسوله؛ فأين هذا ممَّنْ يجب على جميعِ المكلَّفين اتِّباعُه ويَحْرُمُ عليهم مخالَفتُه، ويجب عليهم تركُ كُلِّ قولٍ لقوله؟ فلا حُكْمَ لأحَدٍ معه، ولا قولَ لأحَدٍ معه، كما لا تشريعَ لأحَدٍ معه، وكُلُّ مَنْ سِواهُ فإنما يجب اتِّباعُه على قوله إذا أَمَرَ بما أَمَرَ به ونهى عمَّا نهى عنه؛ فكان مبلِّغًا محضًا ومُخْبِرًا، لا مُنْشِئًا ومؤسِّسًا؛ فمَنْ أنشأ أقوالًا وأسَّس قواعِدَ بحسَبِ فهمِه وتأويلِه؛ لم يجب على الأمَّةِ اتِّباعُها ولا التحاكمُ إليها حتَّى تُعْرَضَ على ما جاء به الرسولُ، فإِنْ طابَقَتْهُ ووافقَتْه وشَهِدَ لها بالصحَّة قُبِلَتْ حينئذٍ، وإِنْ خالَفَتْه وَجَبَ ردُّها واطِّراحُها، فإِنْ لم يتبيَّنْ فيها أحَدُ الأمرين جُعِلَتْ موقوفةً، وكان أحسنُ أحوالها أَنْ يجوز الحكمُ والإفتاءُ بها وتركُه، وأمَّا أنه يجب ويتعيَّنُ فكَلَّا ولمَّا». =

....

= هذا، وصِدقُ المحبَّة إنما يكون بخلوص المُتابَعة له ﷺ، والمُبادَرةِ إلى ما يُرْضي اللهَ ورسوله، وهما مِنْ لوازم المحبَّة الصادقة؛ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [التوبة]؛ وقال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران]؛ لأنَّ المؤمن لا يُقدِّمُ شيئًا على رِضا ربِّه ورسولِه؛ فالرِّضا بنبوَّة الرسول ورسالتِه واتِّباعُه مِنْ أعظمِ ما يُثْمِرُ الإيمانَ ويذوق به العبدُ حلاوتَه؛ قال ﷺ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٢/ ٢) باب الدليل على أنَّ مَنْ رضي بالله ربًّا وبالإسلام دِينًا وبمحمَّدٍ ﷺ رسولًا فهو مؤمنٌ وإنِ ارتكب المعاصيَ الكبائر، مِنْ حديثِ العبَّاس بنِ عبد المطَّلب رضي الله عنه].

وعليه، فلا يَتمُّ إيمانُ عبدٍ حتَّى يُقدِّمَ محبَّةَ النبيِّ ﷺ على محبَّةِ أحَبِّ الخَلْق إليه؛ لقوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» [سبق تخريجه، انظر: (ص ١٨٧)]، ومِنْ علامات الحبِّ المذكور: «نصرةُ سنَّتِه والذبُّ عن شريعته وقمعُ مُخالِفيها، ويدخل فيه بابُ الأمر بالمعروف والنهيِ عن المُنْكَر» [«فتح الباري» لابن حجر (١/ ٥٩)]، وقد بيَّن ابنُ حجرٍ رحمه الله أنَّ في هذا الحديثِ إيماءً إلى فضيلة التفكُّر؛ فإنَّ الأَحَبِّيَّة المذكورةَ تُعْرَفُ به؛ فقال رحمه الله في [«فتح الباري» (١/ ٥٩)]: «فإذا تأمَّلَ النفعَ الحاصل له مِنْ جهة الرسول ﷺ الذي أخرجه مِنْ ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ـ إمَّا بالمباشَرة وإمَّا بالسبب ـ عَلِم أنه سببُ بقاءِ نَفْسِه البقاءَ الأبديَّ في النعيم السرمديِّ، وعَلِم أنَّ نَفْعَه بذلك أعظمُ مِنْ جميعِ وجوه الانتفاعات؛ فاستحقَّ لذلك أَنْ يكون حظُّه مِنْ محبَّتِه=

= أوفرَ مِنْ غيره؛ لأنَّ النفع الذي يُثيرُ المحبَّةَ حاصلٌ منه أكثرَ مِنْ غيره، ولكنَّ الناس يتفاوتون في ذلك بحسَبِ استحضارِ ذلك والغفلةِ عنه».

٥ ـ وجوب التأدُّب مع النبيِّ ﷺ بتعظيمِ حقِّه على الأمَّة وتشريفِه واحترامِه، وتقديرِ شمائله وفضائله، وإجلالِه، والصلاة عليه إذا ذُكِرَ اسمُه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب]، وتوقيرِه حتَّى في النداء؛ فيناديه أو يذكره بالنبوَّة أو الرسالة في حياته وبعد مماته؛ ذلك لأنَّ النبيَّ ﷺ رسولُ الله وليس كواحدٍ مِنَ الناس؛ قال تعالى: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]، قال السعديُّ رحمه الله شارحًا الآيةَ في [«تفسيره» (٦٧٤)]: «لا تجعلوا دُعاءَ الرسولِ إيَّاكم ودعاءَكم للرسول كدُعاءِ بعضِكم بعضًا: فإذا دعاكم فأَجيبوهُ وجوبًا، حتَّى إنه تجب إجابةُ الرسول ﷺ في حالِ الصلاة، وليس أحَدٌ إذا قال قولًا يجب على الأمَّةِ قَبولُ قولِه والعملُ به إلَّا الرسولَ؛ لعصمتِه وكونِنا مُخاطَبين باتِّباعه؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ﴾ [الأنفال: ٢٤]. وكذلك لا تجعلوا دُعاءَكم للرسول كدُعاءِ بعضِكم بعضًا؛ فلا تقولوا: «يا محمَّدُ» عند ندائكم، أو «يا محمَّدُ بنَ عبد الله» كما يقول ذلك بعضُكم لبعضٍ، بل مِنْ شرفِه وفضلِه وتميُّزِه ﷺ عن غيره: أَنْ يقال: «يا رسولَ الله، يا نبيَّ الله»».

ومِنْ مظاهرِ استعظام النبيِّ ﷺ: عدمُ تقديمِ قولِ غيره على قوله، بل الواجبُ متى استبانَتْ سنَّةُ رسول الله ﷺ وَجَبَ اتِّباعُها وتقديمُها على غيرها كائنًا ما كان، وعدمُ سبقِه بالقول أو رفعِ الصوت عند كلامه في حياته، ويستمِرُّ التوقيرُ=

....

= والاحترام بعد وفاته بخفض الصوت في مسجده وعند قبره؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾ [الحُجرات]، ويبقى هذا التأدُّبُ مُستمِرًّا ـ أيضًا ـ عند سماع حديثه الشريف وسنَّتِه المطهَّرة والإصغاءِ لها، والرِّضا بها، والعمل بمقتضاها، وعدم الخروج عنها أو مُعارَضتها بالآراء الفاسدة. ومِنْ مظاهرِ توقير النبيِّ ﷺ: نصرتُه بإحياءِ سنَّتِه، والاقتداءِ بها دون ابتداعٍ أو استدراكٍ، وإظهارِ شريعته، وإبلاغِ دعوته، وإنفاذِ وصاياه، وموالاةِ مَنْ كان يُوالي ومعاداةِ مَنْ كان يُعادي؛ قال تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف]، والمسلمُ ـ في ذلك كُلِّه ـ مأمورٌ بالطاعة والاتِّباع ـ نصرةً للنبيِّ ﷺ ولشَرْعِه ـ لا بالابتداع؛ لكمال الدِّين الإسلاميِّ واغتنائه بما شَرَعه اللهُ ورسولُه ﷺ مِنَ العبادات والقُرُبات؛ فلا يزيد على ما شَرَعه اللهُ ورسولُه ﷺ شيئًا؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١١٢﴾ [البقرة]؛ فالآيةُ تدلُّ على أنه لا نجاةَ إلَّا لأهل الإخلاص ومُتابَعةِ الرسول ﷺ، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (١/ ١٥٤) بتصرُّف]: «﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مَنْ أخلص العملَ لله وَحْدَه لا شريكَ له، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ﴾ الآية [آل عمران: ٢٠] ... =

= فإنَّ للعمل المُتقبَّل شرطين: أحَدُهما: أَنْ يكون خالصًا لله وَحْدَه، والآخَرُ: أَنْ يكون صوابًا مُوافِقًا للشريعة؛ فمتى كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُتقبَّلْ؛ ولهذا قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» رواهُ مسلمٌ مِنْ حديثِ عائشة عنه ﷺ [في «الأقضية» (١٢/ ١٦) باب نقضِ الأحكام الباطلة وردِّ مُحْدَثات الأمور، وتقدَّم بلفظٍ آخَرَ، انظر: (ص ١٨٨)]؛ فعملُ الرُّهبانِ ومَنْ شابَهَهم ـ وإنْ فُرِضَ أنهم مُخْلِصون فيه لله ـ فإنه لا يُتقبَّلُ منهم حتَّى يكون ذلك مُتابِعًا للرسول محمَّدٍ ﷺ المبعوثِ إليهم وإلى الناس كافَّةً... وأمَّا إِنْ كان العملُ مُوافِقًا للشريعة في الصورة الظاهرة ولكِنْ لم يُخْلِصْ عامِلُه القصدَ لله فهو ـ أيضًا ـ مردودٌ على فاعِلِه، وهذا حالُ المنافقين والمرائين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء]... ولهذا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف]».

٦ ـ ويتفرَّع على وجوب التأدُّب مع النبيِّ ﷺ ونصرتِه: لزومُ الابتعاد التامِّ عن أيِّ إيذاءٍ له ﷺ وبأيِّ قدرٍ منه؛ فإيذاؤه محرَّمٌ مهما اختلفَتْ أنواعُ الإساءةِ وأشكالُ الإيذاء، سواءٌ في حياته أو بعد موته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة]، يدخل في ذلك: **الإيذاءُ القوليُّ**: كالسبِّ والشتم واللمز والاستهزاء والسخرية والتعيير والاحتقار والكذب والافتراء عليه وغيرِها، **والإيذاءُ العمليُّ**: كالغدر والخيانة والتضييق والمنع والإيذاء الجسديِّ ونحوِ ذلك؛ قال=

= تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ [الممتحنة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧]، وغيرها مِنَ الآيات الدالَّة على أساليب الإساءة القولية والعملية الممتدَّة إلى شخصه ﷺ أو إلى عِرْضِه أو إلى رسالته المتضمِّنةِ لدِينِ الله وشرعِه.

ويدخل في حيِّز إيذائه المحرَّم والإساءةِ إلى عِرْضه: إيذاؤُه بالطعن في زوجاته الكريمات الطاهرات، والإساءةِ إليهنَّ بسبِّهنَّ وتحقيرهنَّ والسخريةِ بهنَّ وعداوتهنَّ كما هو معلومٌ عند الرافضة الأنجاس وأضرابِهم، ولا يخفى أنَّ زوجاتِ النبيِّ ﷺ هنَّ زوجاتُه في الدنيا والآخرة وأمَّهاتُ المؤمنين بنصِّ القرآن الكريم: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

كما يدخل في ذلك الحيِّز ـ أيضًا ـ: الإساءةُ إليه بالقدح في آل بيته الأطهار، والطعنِ في صحابته الأبرار رضي الله عنهم، وفي إخوانه التابعين الأخيار، أنصارِ السنَّة مِنْ حَمَلةِ الآثار وفُقَهاء الأمصار، ومَنْ تَبِعهم بإحسانٍ إلى يومِ القرار، وقد جاءَتْ نصوصٌ شرعيةٌ كثيرةٌ تَصِفُ الصحابةَ رضي الله عنهم بالخيرية والإيمان والنصرة ورِضا=

....

= اللهِ عنهم، منها: قولُه تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠)﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٢ ـ ٧٤]، وقد وَرَدَ ـ في آياتٍ كثيرةٍ ـ تحريمُ أذيّةِ الصحابة رضي الله عنهم بقولٍ أو فعلٍ، منها: قولُه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا (٥٨)﴾ [الأحزاب]، وجاء النهيُ صريحًا عن سَبِّ الصحابة رضي الله عنهم بخصوصهم في قوله صلى الله عليه وسلم: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» [أخرجه مسلمٌ في «فضائل الصحابة» (١٢/ ٩٢) بابُ تحريمِ سبِّ الصحابة، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه البخاريُّ في «أصحاب النبيِّ» (٧/ ٢١) بابُ قولِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «لو كنتُ متَّخِذًا خليلًا»، ومسلمٌ (١٢/ ٩٢)، مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه]، وقولِه صلى الله عليه وسلم: «مَنْ سَبَّ أَصْحَابِي فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا» [أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (٨)، وأبو بكرٍ الخلَّال في «السنَّة» (٨٣٣)، مِنْ حديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه. وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح =

....

= الجامع» (٦٢٨٥)]، والحديثُ عامٌّ شاملٌ لَمَنْ لابَسَ الفِتَنَ منهم متأوِّلًا أو مجتهدًا ولغيرِه، قال النوويُّ رحمه الله في [«شرحه على مسلم» (١٦/ ٩٣)]: «واعْلَمْ أنَّ سبَّ الصحابةِ رضي الله عنهم حرامٌ مِنْ فواحشِ المحرَّمات، سواءٌ مَنْ لابَسَ الفِتَنَ منهم وغيره؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروبِ متأوِّلون».

باب
عقائد الإيمان باليومِ الآخِر

ويشتمل على ستَّة فصول.

- [فصل: انتهاء الوجود الدنيوي وحدوثُ الوجود الأخروي]
- [فصل: المعاد والبعث]
- [فصل: وزن الأعمالِ والجزاءُ عليها]
- [فصل: الصراط]
- [فصل: دار العذاب]
- [فصل: دار النعيم]

[فصل: انتهاء الوجود الدنيوي وحدوثُ الوجود الأخروي][1]

نُؤْمِنُ بِانْتِهَاءِ وُجُودِ هَذَا العَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ عِنْدَ انْتِهَاءِ أَجَلِ وُجُودِهِ فِي عِلْمِ اللهِ: فَيَنْحَلُّ نِظَامُ هَذَا الكَوْنِ، فَيَخْرَبُ الكَوْنُ العُلْوِيُّ كَمَا يَخْرَبُ الكَوْنُ السُّفْلِيُّ؛ لِيَكُونَ وُجُودُ العَالَمِ الأُخْرَوِيِّ فِي كَوْنٍ آخَرَ وَنِظَامٍ آخَرَ؛ إِذِ الَّذِي قَدَرَ عَلَى خَلْقِهِ وَنِظَامِهِ قَادِرٌ عَلَى إِعْدَامِهِ وَإِبْطَالِ نِظَامِهِ، وَعَلَى خَلْقِ مِثْلِهِ وَنِظَامِهِ[2]؛.........

---

(١) «م.ر.أ»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «الإيمان بانتهاءِ وجودِ هذا العالَمِ الدنيوي».

(٢) أراد المصنِّف رحمه الله مِنْ لفظ اليوم الآخِرِ معنيين:

أحَدُهما: انتهاءُ الوجود الدنيويِّ، وفَناءُ الحياة كُلِّيَّةً بجميع عوالمها.

والثاني: حدوث الوجود الأخرويِّ، المتمثِّلِ في الإقبال على الحياة الآخرة وابتدائها، باستثناءِ ما خَلَقه اللهُ قبل حدوثِ الوجود الأخرويِّ كالجنَّة والنار والبرزخِ ونحوِ ذلك، [انظر: (ص ٣٢٦)].

فكانت دلالةُ اللفظِ تعمُّ المعنيَيْن، وهو يومٌ واحدٌ لا ثانيَ له.

والمصنِّف رحمه الله تَناوَل قضيَّةَ الساعةِ والبعث في الدار الآخرة، التي يقوم عليها بناءُ العقيدةِ بعد الإيمان بوحدانية الله تعالى. ولا يخفى أنَّ الإيمان بما أخبر به اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ ممَّا في اليوم الآخِرِ معدودٌ مِنَ الإيمان بالغيب الذي لا يُدْرِكُه العقلُ، ولا سبيلَ لمعرفته إلَّا بالنصِّ الشرعيِّ الثابت.

وما وَرَد مِنْ نصوصٍ شرعيةٍ ثابتةٍ يخبر فيها اللهُ ورسولُه ﷺ بفَناءِ الدنيا وما=

= يسبقه مِنْ أمارات الساعة وأشراطِها، وما يتمُّ بعدها مِنْ أحوالٍ وأهوالٍ فإنه يجب الإيمانُ به وتصديقُه والجزمُ بوقوعه، وكذلك يجب الإيمانُ بأخبار الآخرة وما يجري فيها مِنْ حقائقِ أمورٍ عظامٍ، مثل: بعثِ الخلائق وحشرِهم، وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية وأفعالهم الاختيارية، وما هيَّأ لهم ـ بحسَبِ عملهم ـ مِنْ نعيمٍ أو عذابٍ.

والمصنِّفُ رحمه الله ـ في تَناوُله لقضيَّةِ الساعة ـ لم يتعرَّضْ لأشراطها وعلاماتِها التي تسبق القيامةَ العظمى، سواءٌ **أشراط الساعة الصغرى**، التي تَتقدَّمُ الساعةَ بأزمانٍ طويلةٍ، وهي معتادةُ الوقوعِ: كقبض العلم وظهورِ الجهل، وانتشارِ الرِّبا وفُشُوِّ الزِّنا، والتطاولِ في البنيان، وكثرةِ الهرج والمرج واللغط، وظهورِ الفتن وانتشارها، وغيرُها كثيرٌ، ومنها ما ظَهَر وانقضى، ومنها ما زال يتتابع ويكثر.

أو **أشراط الساعة الكبرى**، وهي حوادثُ عِظامٌ غيرُ معتادةِ الوقوع، تقترب مِنْ قيام الساعة في الظهور: كخروج الدجَّال، ونزولِ عيسى عليه السلام، وظهورِ يأجوجَ ومأجوجَ، وطلوعِ الشمس مِنْ مغربها، وهذه أشراطٌ لم تظهر بعد.

ولعلَّ المصنِّف رحمه الله لم يَتناوَلْ بالذِّكْر أشراطَ الساعةِ؛ لأنه يريد أَنْ يتكلَّم عن الأصل الإيمانيِّ السادس وهو الإيمانُ باليوم الآخِر؛ فلا يرى للأشراط تعلُّقًا في قضية الإيمان باليوم الآخِر؛ لأنَّ أشراط الساعة ـ في حقيقة الأمر ـ ما هي إلَّا إنذاراتٌ وعلاماتٌ غيبيةٌ أشار إليها القرآنُ، وفصَّلها النبيُّ ﷺ، تدلُّ على قُرْبِ قيام الساعة؛ ليكون العبدُ بها على بصيرةٍ؛ فيَستعِدَّ لها بالطاعة والانقياد ـ واللهُ أعلمُ ـ. =

....

= والإيمانُ باليوم الآخِرِ هو أحَدُ الأركان الأساسية للإيمان، التي لا تتمُّ عقيدةُ المسلم صحيحةً إلَّا به، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقد ذَكَر اللهُ تعالى اليومَ الآخِرَ في آياتٍ كثيرةٍ، وعُنِيَ به القرآنُ الكريم في مواضعَ متعدِّدةٍ عنايةً كبيرةً:

ـ فتارةً بذكر أسماء اليوم الآخِرِ المختلفة، لكُلٍّ منها دلالتُه الخاصَّةُ به، مثل: يوم الدِّين، ويوم الحسرة، والدار الآخرة، ويوم البعث، ويوم القيامة، والساعة، والحاقَّة، والطامَّة الكبرى، والصاخَّة، والآزفة، والقارعة، والواقعة، ويوم الخروج، ويوم الخلود، ويوم الحساب، ويوم الجمع، ويوم الوعيد، ودار القرار، ويوم الفصل، ويوم التَّنَادِ.

ـ وتارةً بوصف اليوم الآخِرِ بحقائق الأمور الهائلة والحوادثِ المُدْهِشة التي تقع بين يدَيْ يوم القيامة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ =

= بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة].

ـ وتأتي ـ تارةً ـ عباراتُ القرآنِ الكريم مؤكِّدةً لمجيء اليوم الآخِر حتمًا، مثل: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣]، وقولِه تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾ [الحج].

ـ ويعلِّق اللهُ ـ تارةً أخرى ـ الاستقامةَ على الإيمان باليوم الآخِر، مثل: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، وقولِه: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ـ كما يُثْبِتُ اللهُ الهدايةَ والفلاحَ للمُوقِنين باليوم الآخِر، مثل قوله تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ [البقرة].

وممَّا يُؤكِّد أهمِّيةَ هذا المعتقَدِ الإيمانيِّ في حياة المؤمن وآثارَه في استقامةِ الفرد وصلاحِه: أنْ جَعَله الله تعالى مقرونًا بالإيمان به سبحانه في آياتٍ كثيرةٍ، وقد تَقدَّم بعضُها، ومنها ـ أيضًا ـ: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة]، وقولُه تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء]، وغيرها=

....

= مِنَ الآيات الدالَّة على أنَّ معتقَدَ الإيمان بالله واليوم الآخِرِ هو أساسُ كُلِّ إيمانٍ، ورأسُ كُلِّ عقيدةٍ، وينبوعُ كُلِّ فضيلةٍ، وعليه مَدارُ استقامةِ العبد وطهارةِ روحه وصلاحِ خُلُقه.

هذا، ويُؤْخَذُ مِنْ مجموع استدلالات المصنِّف رحمه الله وغيرِها مِنَ الآيات القرآنية في مسألة الإيمان بانتهاء الوجود الدنيويِّ وانبعاثِ الوجود الأخرويِّ: أنَّ انقضاء أجَلِ الحياةِ الدنيا ومنتهاها عند الله تعالى، الذي لا يُظْهِرُ ساعةَ انقضاءِ الدنيا لوقتها الذي قدَّر أَنْ تقوم فيه إلَّا هو ـ سبحانه وتعالى ـ؛ فـ ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [فُصِّلَت: ٤٧]، دون أهل السماوات والأرض، و﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]؛ فقَدْ خَفِيَ ـ على الناس ـ علمُها، واشتدَّ ـ على المتَّقين ـ أمرُها، ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ۝٤٩﴾ [الأنبياء]، قال الألوسيُّ رحمه الله في [«روح المعاني» (٥/ ١٢٥)]: «وإنما أَخْفى ـ سبحانه ـ أَمْرَ الساعةِ لاقتضاء الحكمة التشريعيةِ ذلك؛ فإنه أَدْعَى إلى الطاعةِ وأَزْجَرُ عن المعصية، كما أنَّ إخفاء الأَجَلِ الخاصِّ للإنسان كذلك، ولو قِيلَ بأنَّ الحكمة التكوينية تقتضي ذلك ـ أيضًا ـ لم يبعد، وظاهِرُ الآياتِ أنه عليه الصلاةُ والسلامُ لم يعلم وقتَ قيامها. نعم، عَلِم عليه الصلاةُ والسلامُ قُرْبَها على الإجمالِ وأخبر صلى الله عليه وسلم به؛ فقَدْ أخرج الترمذيُّ ـ وصحَّحه ـ عن أنسٍ مرفوعًا: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ» وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى» [أخرجه الترمذيُّ في «الفِتَن» (٤/ ٤٩٦) بابُ ما جاء في قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، وصحَّحه، وأصلُه في الصحيحين: البخاري في «الرِّقاق» (١١/ ٣٤٧) بابُ قولِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ»، ومسلم في «الفِتَن» (١٨/ ٨٩) بابُ قُرْبِ الساعة، مِنْ حديثِ أنسٍ رضي الله عنه. وهو واردٌ في =

= البخاريِّ ـ أيضًا ـ مِنْ حديثِ أبي هريرة وسهل بنِ سعدٍ رضي الله عنهما، وفي مسلمٍ مِنْ حديثِ جابرِ ابنِ عبد الله وسهلٍ رضي الله عنهما]».

ويبدأ اليومُ الآخِرُ بانتهاءِ وجود العالَـمِ الدنيويِّ، وذلك حين يأذن اللهُ بقيام الساعة، فيأمر مَلَكًا مِنَ الملائكة ـ وهو «صاحبُ القرن» أو «صاحبُ الصور» كما وصَفه النبيُّ ﷺ بذلك في أحاديثَ صحيحةٍ ـ لينفخ في الصور؛ فيَصْعَقُ مَنْ في السماوات ومَنْ في الأرض إلَّا مَنْ شاء اللهُ، وقد اشتهر بأنَّ صاحِبَ الصورِ هو «إسرافيلُ» عليه السلام، ونَقَل القرطبيُّ رحمه الله في [«تفسيره» (٧/ ٢٠)] الإجماعَ على ذلك بقوله: «الأُمَمُ مُجْمِعةٌ على أنَّ الذي ينفخ في الصور: إسرافيلُ عليه السلام، قال أبو الهيثم: مَنْ أنكر أَنْ يكون الصورُ قرنًا فهو كمَنْ ينكر العرشَ والميزان والصراط، وطَلَب لها تأويلاتٍ» [انظر ـ أيضًا ـ: «الفتح» لابن حجر (١١/ ٣٦٨)]، والمؤكَّدُ أنه لا يُوجَدُ حديثٌ صحيحٌ ينصُّ على تعيينِ اسْمِ المَلَكِ الموكَّلِ بالنفخ في الصور، إلَّا ما تَقدَّم مِنْ وصف النبيِّ ﷺ له.

هذا، وقد وَرَد ذِكْرُ الصورِ في آياتٍ كثيرةٍ منها: قولُه تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ١٠١﴾ [المؤمنون]، وقولُه: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۚ وَكُلٌّ أَتَوۡهُ دَٰخِرِينَ ٨٧﴾ [النمل]، وقولُه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠﴾ [ق].

وقد اختلف العلماءُ في النفخِ في الصور: أهُوَ ثلاثُ نفخاتٍ: نفخةُ الفزع أوَّلًا، ونفخةُ الصعق والموتِ لِمَنْ لم يَمُتْ ثانيًا، ونفخةُ القيام لربِّ العالَمِين ثالثًا، أم هما نفختان فقط؟ وقد رجَّح العلماءُ المحقِّقون أنهما نفختان؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي =

= ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزُّمَر]، وما ثبَتَ مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟»، قَالَ: «أَبَيْتُ»، قَالَ: «أَرْبَعُونَ سَنَةً؟»، قَالَ: «أَبَيْتُ»، قَالَ: «أَرْبَعُونَ شَهْرًا؟»، قَالَ: «أَبَيْتُ، وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الإِنْسَانِ، إِلَّا عَجْبَ ذَنَبِهِ، فِيهِ يُرَكَّبُ الخَلْقُ» [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٥٥١) باب: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزُّمَر: ٦٨] الآية، (٨/ ٦٨٩) باب: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا ﴿١٨﴾ ﴾ [النبأ]: زُمَرًا، ومسلمٌ في «الفتن» (١٨/ ٩١، ٩٢) بابُ ما بين النفختين، وأخرجه ـ أيضًا ـ أبو داود في «السنَّة» (٥/ ١٠٨) بابٌ في ذِكرِ البعث والصُّور، والنسائيُّ في «الجنائز» (٤/ ١١١) باب أرواح المؤمنين. مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، وحديثِ عبد الله ابنِ عمرٍو رضي الله عنهما ـ أيضًا ـ ولفظُه في أثناءِ حديثٍ مرفوعٍ: «ثُمَّ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَلَا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إِلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا [واللِّيتُ: صفحةُ العنق. انظر: «النهاية» لابن الأثير (٤/ ٢٨٤)]»، قَالَ: «وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ»، قَالَ: «فَيَصْعَقُ وَيَصْعَقُ النَّاسُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللهُ ـ أَوْ قَالَ: يُنْزِلُ اللهُ ـ مَطَرًا كَأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ ـ نُعْمَانُ الشَّاكُّ ـ فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» [أخرجه مسلمٌ في «الفِتَن وأشراط الساعة» (١٨/ ٧٦) بابُ ذِكرِ الدجّال]، وأحاديثَ أخرى ترجِّحُ أنهما نفختان، ذَكَرها ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (١١/ ٣٦٩)]، وابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٣/ ٣٧٧)]، وغيرُهما.

وخاتمة الحياة الدنيا وبدايةُ الحياة الأخرى يظهر وقعُها العظيمُ بإحداثِ تغييرٍ عامٍّ في هذا الكونِ وتخريبٍ لكُلِّ ما عُرِفَ في الوجود؛ فيُدَمَّرُ عن آخِره: فتَتَشقَّقُ السماءُ، وتَتناثرُ النجومُ، وتَتساقَطُ عن أفلاكها، وتَتصادَمُ الكواكبُ، وتُجْمَعُ=

= الشمسُ بعضُها على بعضٍ وتُكوَّرُ كالعِمامة، ثمَّ تُلَفُّ، ثمَّ يُرْمى بها مجموعةً مع القمر في النار؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ [القيامة]، ولقوله ﷺ: «الشَّمْسُ وَالقَمَرُ ثَوْرَانِ مُكَوَّرَانِ فِي النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ» [أخرجه الطحاويُّ في «مُشْكِل الآثار» (١/ ٤٧) مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه. قال الألبانيُّ في «الصحيحة» (١/ ٣٢) رقم: (١٢٤): «وهذا إسنادٌ صحيحٌ على شرط البخاريِّ»]، وذلك تبكيتًا لعُبَّادهما في الدنيا؛ حتَّى يعلموا أنَّ عبادتهم لهما كانَتْ باطلًا، وتُنْسَفُ الجبالُ فتكون كالهَباء المنثور؛ فلا يبقى لها أثرٌ، والأرضُ تَتزلزَلُ وتَرْجُفُ وتَرْتجُّ وتَضطرِبُ حركةً، حتَّى يسقط ما عليها مِنْ بناءٍ وعَلَمٍ؛ فتَنْدكُّ جبالُها وتُسوَّى تلالُها حتَّى تكون ﴿قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه]، وتُحرَّكُ القبورُ فيخرج ما فيها مِنَ الأموات.

هذا، وحريٌّ بالبيان والتنبيه أنه خلافًا لِمَا ذَهَب إليه المصنِّف رحمه الله مِنْ أنَّ وجود العالَمِ الأخرويِّ يكون في كونٍ آخَرَ ونظامٍ آخَرَ، فإنَّ الصحيح مِنْ قولَيِ العلماء أنَّ تبديل الأرض هو تبديلُ صفةٍ لا تبديلُ ذاتٍ، أي: أنه تُبدَّلُ الأرضُ على غير الصفة التي كانَتْ عليها؛ فتُسوَّى ويمدُّها اللهُ مدَّ الأديم، ليس فيها جبلٌ ولا أوديةٌ ولا مُرْتفَعاتٌ ولا مُنْخفَضاتٌ ولا مَعْلَمٌ لأحَدٍ، تَتَّسِعُ أرضُها البيضاءُ العَفْراءُ لجميع الخلائق، فيحشر اللهُ الناسَ فيها؛ لقوله ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ»، قَالَ سَهْلٌ أَوْ غَيْرُهُ: «لَيْسَ فِيهَا مَعْلَمٌ لِأَحَدٍ» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٣٧٢) باب: يقبض اللهُ الأرضَ يومَ القيامة، ومسلمٌ في «صفة القيامة والجنَّة والنار» (١٧/ ١٣٤) بابٌ في البعث والنشور وصِفةِ الأرضِ يومَ القيامة، مِنْ حديثِ سهل بنِ سعدٍ الساعديِّ رضي الله عنه]. =

= ذلك اليومُ هو الذي أُقِّتَتْ فيه الرُّسُلُ، وأُجِّلَتْ فيه للحكم بينها وبين أُمَمِها؛ فيُجْرِي اللهُ عليهم أحكامَه الجزائيةَ كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامَه الشرعية.

قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«الفتح» (١١/ ٣٧٥)] في مَعْرِضِ شرح الحديث السابق وبيانِ فوائده وحِكَمِه: «قال أبو محمَّدِ بنُ أبي جمرةَ: فيه دليلٌ على عظيمِ القدرة، والإعلامُ بجزئياتِ يومِ القيامة؛ ليكون السامعُ على بصيرةٍ فيُخلِّصَ نَفْسَه مِنْ ذلك الهول؛ لأنَّ في معرفةِ جزئياتِ الشيء قبل وقوعِه رياضةَ النفسِ وحَمْلَها على ما فيه خلاصُها، بخلاف مجيءِ الأمرِ بغتةً، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ أرض الموقفِ أكبرُ مِنْ هذه الأرضِ الموجودةِ جدًّا، والحكمةُ في الصفةِ المذكورة أنَّ ذلك اليومَ يومُ عدلٍ وظهورِ حقٍّ؛ فاقتضَتِ الحكمةُ أَنْ يكون المَحَلُّ الذي يقع فيه ذلك طاهرًا عن عملِ المعصيةِ والظلم، وليكون تجلِّيهِ ـ سبحانه ـ على عباده المؤمنين على أرضٍ تَليقُ بعظمته؛ ولأنَّ الحُكْمَ فيه إنما يكون لله وَحْدَه؛ فناسَبَ أَنْ يكون المَحَلُّ خالصًا له وَحْدَه».

هذا، وإذا كانَتِ الأهوالُ والأحوالُ التي وَصَفها اللهُ يومَ القيامةِ ممَّا تَنزعِجُ لها القلوبُ، وتَشتدُّ مِنْ أَجْلِها الكروبُ، وترتعد الفرائصُ، وتعمُّ المخاوفُ؛ فلِمَ يحصل التغييرُ العامُّ بالتخريب الشامل للكون والتدميرِ الكلِّيِّ لِمَا عَرَفه الناسُ في هذا الكون؟ وقد أجاب عن هذا التساؤل أبو الوفاء بنُ عقيلٍ رحمه الله فيما نَقَله عنه ابنُ القيِّم رحمه الله في [«بدائع الفوائد» (٣/ ١٨٢)]: «فقال: إنما بنى لهم الدارَ للسكنى والتمتُّع، وجَعَلها وجَعَل ما فيها للاعتبار والتفكُّر، والاستدلالِ عليه بحُسْنِ التأمُّل والتذكُّر؛ فلمَّا انقضَتْ مدَّةُ السكنى، وأَجْلاهم مِنَ الدار؛ خرَّبها=

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَٰلِكَ[(١)] يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود]، وَلِقَوْلِهِ[(٢)]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وَلِقَوْلِهِ[(٢)]: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ [الانفطار]، وَلِقَوْلِهِ[(٢)]: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات]، وَلِقَوْلِهِ[(٢)]: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة]، وَلِقَوْلِهِ[(٢)]: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾

= لانتقال الساكن منها؛ فأراد أَنْ يُعْلِمَهم بأنَّ الكونين كانَتْ معمورةً بهم، وفي إحالةِ الأحوال وإظهارِ تلك الأهوال وبيان المقدرة بعد بيان العزَّةِ وتكذيب لأهل الإلحاد وزنادقةِ المنجِّمين وعُبَّاد الكواكب والشمس والقمر والأوثان؛ فيعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين؛ فإذا رأَوْا آلهتَهم قد انهدمَتْ، وأنَّ معبوداتِهم قد انتثَرَتْ وانفطرَتْ، ومحالَّها قد تَشقَّقَتْ؛ ظهرَتْ فضائحُهم وتَبيَّنَ كَذِبُهم، وظَهَر أنَّ العالَمَ مربوبٌ مُحْدَثٌ مُدبَّرٌ، له ربٌّ يصرِّفه كيف يشاء؛ تكذيبًا لملاحِدةِ الفلاسفةِ القائلين بالقِدَم؛ فكم لله تعالى مِنْ حكمةٍ في هدمِ هذه الدار!! ودلالةٍ على عِظَمِ عزَّتِه وقدرته وسلطانه وانفرادِه بالربوبية وانقيادِ المخلوقات ـ بأسرها ـ لقهرِه، وإذعانها لمشيئته!! فتَبارَكَ اللهُ ربُّ العالَمِين».

(١) «م.ر.أ، م.ر.ب»: «ذلك» بدون واو، وهو خطأٌ في الآية.

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

[إبراهيم: ٤٨]، وَلِقَوْلِهِ[١]: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس].

---

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

[فصل: المَعَادُ(١) والبعث](٢)

نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يُحْيِينَا بَعْدَ المَوْتِ، وَيُعِيدُنَا بَأَرْوَاحِنَا وَأَجْسَادِنَا: فَيَبْعَثُنَا(٣) - مِنْ قُبُورِنَا وَمِنْ حَيْثُ كُنَّا - إِلَى المَوْقِفِ الأَعْظَمِ لِلْمُحَاسَبَةِ عَلَى الأَعْمَالِ وَالجَزَاءِ عَلَيْهَا(٤)؛ ....

---

(١) «م.ر.أ»: «الميعاد».

(٢) «م.ر»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «البعثُ».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر.ش».

(٤) بعد أَنْ بيَّن المصنِّف رحمه الله وجوبَ الإيمانِ بانتهاء الوجود الدنيويِّ عند انتهاءِ أجَلِ وجوده في علمِ الله وانقضاءِ الخليقة، تَناوَل - في هذا الفصل - حدوثَ الوجود الأخرويِّ الذي يبدأ بالبعث والمَعاد الجسمانيِّ، وهو: إعادةُ العبدِ روحًا وجسدًا كما كان في الحياة الدنيا، ويكون إحياءُ الأبدان بعد موتها بجمع أجزائها بعد التفرقة كما سيأتي؛ فيجب الإيمانُ بأنَّ الله يبعث - مِنْ جديدٍ - جميعَ العباد - مقدَّمِهم ومؤخَّرِهم - في نشأةٍ أخرى، يُعيدُهم بعد إيجادهم بجميع أجزائهم الأصلية، ويجمعهم لميقاتِ يومٍ معلومٍ قدَّره اللهُ لعباده؛ فيسوقهم إلى مَحْشَرِهم لفصلِ القضاء، فيُجازيهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝٥٠﴾ [الواقعة].

هذا، والأدلَّةُ مِنَ القرآن الكريم كثيرةٌ في إثبات البعث والردِّ على المُنْكِرين له=

= بمخاطبةِ عقولهم، ونكتفي بالاستدلال عليه مِنْ هذه الوجوه:

- إمَّا بالاستدلال بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة، وبالقدرة الكافية التي بها خَلَق آدَمَ مِنْ ترابٍ وذرِّيَّته مِنْ نطفةٍ على إمكان المَعاد والبعث، أي: إذا كان اللهُ تعالى قادرًا على ابتداءِ خَلْقِ العباد بعد أَنْ لم يكونوا شيئًا مذكورًا فهو قادرٌ - بالأحروية - على إعادتهم وتبديلِ خَلْقِهم - يومَ القيامة - وأَنْ يُنْشِئهم في صفاتٍ وأحوالٍ هو - سبحانه - أعلمُ بها، قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [الواقعة]، قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللهُ في [«تفسيره» (٤/ ٢٩٥)]: «أي: قد علمتم أنَّ الله أنشأكم بعد أَنْ لم تكونوا شيئًا مذكورًا، فخَلَقكم وجعَل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدة؛ فهلَّا تتذكَّرون وتعرفون أنَّ الذي قَدَر على هذه النشأةِ - وهي البداءةُ - قادرٌ على النشأة الأخرى - وهي الإعادة - بطريقِ الأَوْلى والأحرى، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة]».

قلت: ومِنْ ذلك قولُه تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا =

....

= فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [الأنبياء]، وقولُه تعالى: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الإسراء: ٥١]، وقولُه تعالى: ﴿ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ [ق]، والآياتُ بمثلِ هذا كثيرةٌ جدًّا، وقد ذَكَر جزءًا منها المصنِّفُ رحمه الله.

ـ وإمَّا بالاستدلال بتحويل الإنسان مِنْ حالٍ إلى حالٍ وتطوُّرِه في الخَلْق، وما تُخْرِجُه الأرضُ مِنَ الزرع والنبات، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحج]، وهذه الآية تتضمَّنُ دليلَيْن عقليَّيْن يُقْطَعُ بهما التكذيبُ بوقوع البعث والشكُّ فيه:

الدليل الأوَّل: أنَّ الله خَلَق الإنسانَ مِنْ طَوْرٍ إلى طورٍ، خَلْقًا بعد خلقٍ؛ ليبيِّنَ ـ بهذا النقل ـ كمالَ قدرتِه على بعثِ الناس بعد الموت، وأنه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ؛ «لأنَّ مَنْ قَدَرَ على خَلْقِ البشر مِنْ ترابٍ أوَّلًا، ثمَّ مِنْ نطفةٍ ثانيًا، مع ما بين النطفة والتراب مِنَ المنافاة والمغايرة، وقَدَر على أنْ يجعل النطفةَ عَلَقةً مع ما بينهما مِنَ التباين والتغاير، وقَدَر على أنْ يجعل العَلَقةَ مُضْغةً، والمُضْغةَ عظامًا؛ فهو قادرٌ ـ بلا شكٍّ ـ على إعادةِ ما بَدَأه مِنَ الخَلْق» [«أضواء البيان» للشنقيطي (٥/ ٢٥)]. وفي الصحيحين مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: حَدَّثَنا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم=

....

= وَهُوَ الصَّادِقُ المَصْدُوقُ، قَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ» الحديث [تقدَّم تخريجه. انظر: (ص ٨٠)]، قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (١١/ ٤٨٨)] في شرحه للحديث ما نصُّه: «وفيه التنبيهُ على صدقِ البعث بعد الموت؛ لأنَّ مَنْ قَدَر على خَلْقِ الشخص مِنْ ماءٍ مَهينٍ ثمَّ نقلِه إلى العَلَقة ثمَّ إلى المُضْغة ثمَّ ينفخ الروحَ فيه؛ قادرٌ على نفخِ الروح بعد أَنْ يصير ترابًا ويجمعَ أجزاءَه بعد أَنْ يفرِّقها، ولقد كان قادرًا على أَنْ يخلقه دفعةً واحدةً، ولكِنِ اقتضَتِ الحكمةُ بنقله في الأطوار رفقًا بالأمِّ؛ لأنها لم تكن معتادةً فكانَتِ المَشَقَّةُ تَعْظُمُ عليها؛ فهيَّأه في بطنها بالتدريج إلى أَنْ تكامَل، ومَنْ تَأَمَّلَ أصلَ خَلْقِه مِنْ نطفةٍ وتنقُّلِه في تلك الأطوار إلى أَنْ صار إنسانًا جميلَ الصورةِ مفضَّلًا بالعقل والفهم والنطق؛ كان حقًّا عليه أَنْ يشكر مَنْ أنشأه وهيَّأه، ويعبدَه حقَّ عبادتِه، ويطيعَه ولا يَعصِيَه».

الدليل الثاني: قدرتُه تعالى على إحياء الموتى كما يحيي الأرضَ المَيْتةَ الخاشعةَ التي لا نباتَ فيها؛ فإنه إذا أَنْزَل اللهُ عليها المطرَ تحرَّكَتْ بالنبات وحَيِيَتْ بعد موتها وارتفعَتْ ثمَّ أنبتَتْ ما فيها مِنَ الزروع والثمار والنباتات على اختلافِ أشكالها وأنواعِها وألوانِها وطعومِها وروائحِها ومنافعِها؛ فإنَّ الذي أحياها لَمُحيي الموتى؛ فكما أنه هو الذي أوجدهم بعد العدم فكذلك يُعيدهم بعد أَنْ صاروا في قبورهم رُفاتًا ورِمَمًا، فيبعثُهم مِنْ جديدٍ. =

= وفي تقريرِ ذلك كثيرٌ مِنَ الآيات في القرآن الكريم دالَّةٌ على البعث مثل: قولِه تعالى: ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ١٩﴾ [الروم] أي: مِنْ قبوركم أحياءً بعد الموت، وقولِه تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ١١﴾ [ق] أي: خروجُكم مِنَ القبور أحياءً بعد الموت، وقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٥٧﴾ [الأعراف]، وقولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ٥٠﴾ [الروم]، وغيرِها مِنَ الآيات.

ـ وإمَّا بالاستدلال بالاستيقاظ بعد الوفاة الصغرى ـ وهي نومُ الإنسان، ثمَّ إرسال اللهِ روحَه إلى بدنه ـ على إمكان المَعاد والبعث بعد الوفاة الكبرى، حيث يُمْسِكُ اللهُ رُوحَه عنده إلى أَنْ يبعثها مِنْ جديدٍ؛ ولهذا جاء الاستدلالُ به في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزُّمَر]؛ فاللهُ ـ وحده ـ المتفرِّدُ بتدبير عباده في يقظتهم ومَنامِهم إلى أجَلٍ مسمًّى، وهو أجَلُ الحياة، وأجَلٌ آخَرُ بعد الوفاة الكبرى، وهو البعثُ والمَعاد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّىۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٦٠﴾ [الأنعام].

ـ وإمَّا بالاستدلال بكمال عِلْمِه وقدرته على خَلْقِ العوالم على أنه لا يُعْجِزُه=

....

= إعادةُ الأجسام لنفوذِ قدرته، ولا يضيع منها شيءٌ لكمالِ عِلْمه، وأنَّ الإعادة أهونُ عليه مِنَ الابتداء وأسهلُ، وإذا كان اللهُ لم يَعْيَ بخَلْقِ السماوات والأرض ـ وهُما أعظمُ مِنْ خَلْق الناس ـ كان أحرى بقدرته أَنْ يُعيدَ الخَلْقَ مرَّةً أخرى، قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]، قال السعديُّ رحمه الله في [«تفسيره» (٨٧١)] ما نصُّه: «يخبر تعالى بما تَقرَّر في العقول: أنَّ خَلْقَ السماواتِ والأرض ـ على عِظَمِهما وسَعَتِهما ـ أعظمُ وأكبرُ مِنْ خَلْقِ الناس؛ فإنَّ الناس بالنسبة إلى خَلْقِ السماوات والأرض مِنْ أصغرِ ما يكون؛ فالذي خَلَق الأجرامَ العظيمةَ وأَتْقَنَها قادرٌ على إعادة الناس بعد موتهم مِنْ بابِ أَوْلى وأحرى. وهذا أَحَدُ الأدلَّةِ العقلية الدالَّةِ على البعث دلالةً قاطعةً، بمُجرَّدِ نظرِ العاقل إليها يَستدِلُّ بها استدلالًا لا يقبل الشكَّ والشبهةَ بوقوعِ ما أخبرَتْ به الرُّسُلُ مِنَ البعث.

وليس كُلُّ أحَدٍ يجعل فِكْرَهُ لذلك ويُقْبِلُ بتدبُّره؛ ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾؛ ولذلك لا يَعتبِرُون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بالٍ».

وشبهةُ مُنْكِري البعثِ قديمةٌ وعقولُهُم لا تكاد تصدِّقُ إعادةَ الحياةِ إلى الأجسام بعد تفرُّقها وتَداخُلِ بعضها في بعضٍ: وذلك بتحلُّلها إلى ترابٍ، ثمَّ يتحوَّل الترابُ إلى نباتٍ، ولا يَلْبَثُ مَنْ يتغذَّى على النبات أَنْ يموت، وهكذا يَستمِرُّ هذا التداخلُ؛ لذلك زعموا أنَّ أَمْرَ البعثِ مُخالِفٌ لِمَا عَهِدوه مِنَ السنن المألوفةِ في الحياة؛ فاستعظموا أَمْرَه واستبعدوه وأنكروا وقوعَه. =

= والقرآنُ نصَّ على هذه الشبهة وعالَجَها بالأدلَّةِ العقلية السالفةِ البيان في قوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية].

ومُنْكِرو البعثِ مِنْ كُفَّارِ الدهرية ومُشْرِكي العرب المُنْكِرين للمَعاد، وكذا الفلاسفة الدهريون والطبائعيون والإلهيون منهم الذين يُنْكِرون البداءةَ والرجعةَ يعتمدون - في إنكارهم - على ظنونٍ وتوهُّماتٍ لا سَنَدَ لها، بل يذهب الفلاسفةُ الدهرية الدوريَّةُ المُنْكِرون للصانع إلى أنَّ في كُلِّ ستَّةٍ وثلاثين ألفَ سنةٍ يعود كُلُّ شيءٍ إلى ما كان عليه، وزعموا أنَّ هذا قد تَكرَّرَ مرَّاتٍ لا تتناهى، وبهذه الخيالاتِ والاستبعادات الخاليةِ عن الحقيقة كابَرُوا المعقولَ، وردُّوا المنقولَ، وخالفوا الفطرةَ السليمة، وكذَّبوا الرُّسُلَ الصادقين، مِنْ غيرِ دليلٍ دلَّهُم على ذلك ولا برهانٍ، [انظر: «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٥٠)، «معارج القَبول» للحكمي (٢/ ٧٧٦)].

والمصنِّفُ رحمه الله اقتصر على ذِكْرِ الآيات القرآنية للاستدلال على البعث والمَعاد، ويمكن - في هذا المَقام - إضافةُ أدلَّةٍ أخرى مِنَ السنَّة النبوية - وهي كثيرةٌ - تؤكِّدُ هذا الأصلَ الإيمانيَّ، وقد تَقدَّم حديثُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه في مراحلِ تطوُّرِ الجنين، [انظر: (ص ٨٠)]، وثَبَت في الصحيحين مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ، فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي=

= لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ، فَغَفَرَ لَهُ» [أخرجه البخاريُّ في «أحاديث الأنبياء» (٦/ ٥١٤) باب، ومسلمٌ في «التوبة» (١٧/ ٧١) بابُ سَعَةِ رحمةِ الله تعالى وأنها تغلب غَضَبَه]، ففي الحديثِ عِظَمُ قدرةِ الله تعالى أَنْ جَمَعَ جَسَدَ المذكورِ بعد أَنْ تَفرَّقَ ذلك التفرُّقَ الشديد، كما ثَبَتَ عن مُعاذ بنِ جبلٍ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يُوقِنُ بِثَلَاثٍ: أَنَّ اللهَ حَقٌّ، وَأَنَّ السَّاعَةَ قَائِمَةٌ، وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي القُبُورِ..»، وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: «فَأَنَا نَسِيتُ: إِمَّا قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ»، وَإِمَّا قَالَ: «نَجَا مِنَ النَّارِ»» [أخرجه الطبرانيُّ في «المُعْجَم الكبير» (٢٠/ ١٦٩)، وابنُ خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٨٢٤)، وابنُ أبي عاصمٍ في «السنَّة» (٢/ ٤١٧). وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (٨٨٨)].

فالحاصل: أنَّ الإيمان بالبعث والمَعاد ليس واجبًا فحَسْبُ، بل هو أَحَدُ أصولِ الإيمانِ وأركانِه الأساسيةِ التي تنبني عليها عقيدةُ المؤمن؛ فلا تصحُّ عقيدتُه ولا تتمُّ إلَّا بالإيمان به.

وأنَّ المَعاد الجسمانيَّ حقٌّ واقعٌ بعد الموت، والنشورُ مِنَ القبور والحشرُ ـ لا ريبَ فيهما ـ لأجل الجزاء وفصلِ القضاء، وذلك كُلُّه بعد نفخةِ البعث في الصُّور نفخةً واحدةً؛ فتخرج الأرواحُ فتدخُلُ كُلُّ روحٍ في جسدها، فإذا الناسُ قيامٌ لله ربِّ العالَمين، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٤)] ما نصُّه: «فلْيُعْلَمْ أنَّ مذهب سلفِ الأمَّة وأئمَّتِها: أنَّ الميِّتَ إذا مات يكون في نعيمٍ أو عذابٍ، وأنَّ ذلك يحصل لرُوحِه ولبدنه، وأنَّ الروح تبقى بعد مفارَقةِ البدن=

....

= منعَّمةً أو معذَّبةً، وأنها تتَّصِل بالبدن ـ أحيانًا ـ فيحصل له معها النعيمُ والعذابُ، ثمَّ إذا كان يومُ القيامةِ الكبرى أُعيدَتِ الأرواحُ إلى أجسادها وقاموا مِنْ قبورهم لربِّ العالَمِين، ومَعادُ الأبدانِ متَّفَقٌ عليه عند المسلمين واليهود والنصارى، وهذا كُلُّه متَّفَقٌ عليه عند عُلَماءِ الحديث والسنَّة»، ونَقَل الإجماعَ غيرُ واحدٍ مِنَ العلماء عن أهل السنَّة أنَّ الأجساد الدنيوية تُعادُ بأعيانها وأعراضها، أي: بأشخاصها التي كانَتْ قائمةً بالجسم حالَ الحياة، [انظر: «لوامع الأنوار» للسفاريني (٢/ ١٦١)].

هذا، و«الإيمان بالمَعاد ممَّا دلَّ عليه الكتابُ والسنَّة، والعقلُ والفطرةُ السليمة، فأخبر اللهُ ـ سبحانه ـ عنه في كتابه العزيز، وأقام الدليلَ عليه، وردَّ على مُنْكِرِيه في غالبِ سُوَرِ القرآن؛ وذلك أنَّ الأنبياء عليهم السلام كُلَّهم متَّفِقون على الإيمان بالله؛ فإنَّ الإقرار بالربِّ عامٌّ في بني آدَمَ وهو فطريٌّ، كُلُّهم يُقِرُّ بالربِّ إلَّا مَنْ عانَدَ كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخِر فإنَّ مُنْكِرِيهِ كثيرون، ومحمَّدٌ ﷺ لمَّا كان خاتمَ الأنبياء، وكان قد بُعِث هو والساعةَ كهاتين، وكان هو الحاشرَ المقفِّيَ؛ بيَّن تفصيلَ الآخرةِ بيانًا لا يُوجَدُ في شيءٍ مِنْ كُتُبِ الأنبياء» [«شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٤٥٦)].

والله تعالى يُعيدُ الخَلْقَ بعدما استحالَتْ أجسامُهم إلى غيرها، فيُعيدُها مِنْ تلك الأجزاءِ التي انقلبَتْ واستحالَتْ إليها خِلْقةً كاملةً ونشأةً أخرى مخلوقةً للبقاء، بينما النشأةُ الأولى فهي خِلْقةُ فسادٍ وفَناءٍ، وهو المشهورُ عند أهل السنَّة، قال ابنُ أبي العزِّ في [«شرح العقيدة الطحاوية» (٤٦٣)]: «والقول الذي عليه السلفُ وجمهورُ العقلاء: أنَّ الأجسام تنقلب مِنْ حالٍ إلى حالٍ، فتَستحيلُ ترابًا، ثمَّ يُنْشِئُها=

....

= اللهُ نشأةً أخرى كما استحال في النشأةِ الأولى: فإنه كان نُطفةً، ثمَّ صار عَلَقةً، ثمَّ صار مُضْغةً، ثمَّ صار عظامًا ولحمًا، ثمَّ أنشأه خَلْقًا سويًّا؛ كذلك الإعادةُ: يُعيدُه اللهُ بعد أَنْ يبلى كُلُّه إلَّا عَجْبَ الذَّنَب، كما ثَبَتَ في الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**كُلُّ ابْنِ آدَمَ يَبْلَى إِلَّا عَجْبَ الذَّنَبِ، مِنْهُ خُلِقَ ابْنُ آدَمَ، وَمِنْهُ يُرَكَّبُ**» [متفقٌ عليه: سبق تخريجه، انظر: (ص ٢٥٩)]».

وعَجْبُ الذَّنَب: عظمٌ لطيفٌ في أصل الصلب وأسفلِه، أي: رأس العُصْعُص، وهو أوَّلُ ما يُخْلَقُ مِنَ الآدميِّ، وهو الذي لا يأكله الترابُ بل يبقى، أمَّا سائرُ بدنِه وجسمِه فإنه يستحيلُ فتزولُ صورتُه المعهودة، فيصير على صِفَةِ جسم التراب، ثمَّ يُعادُ تركيبُ الخَلْق عليه مِنَ المادَّةِ التي استحال إليها، والحديثُ السابقُ عامٌّ لكُلِّ آدميٍّ يأكله الترابُ، ويُخَصُّ منه ما نصَّ عليه الدليلُ كأجساد الأنبياء عليهم السلام، وألحق ابنُ عبد البرِّ رحمه الله الشُّهَداءَ، والقرطبيُّ رحمه الله المؤذِّنَ المُحْتَسِبَ، [انظر: «شرح النووي على مسلم» (١٨/ ٩٢)، «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٤٦٤)، «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٥٥٣)]، ونَقَل أحمد بنُ إبراهيم النجديُّ رحمه الله في [«توضيح المقاصد» (٢/ ١٦٤)] أنه قد يَقَعُ ذلك لبعضِ أتباع الرسول، أي: أنَّ الأرض لا تأكل لحمَه، وذلك بدليلِ رأي العين والمشاهدة.

هذا، والمصنِّف رحمه الله تَناوَل بالذِّكر الموقفَ الأعظم للمحاسَبةِ على الأعمال والجزاءِ عليها، وبيانُ ذلك: أنَّ الله تعالى بعد أَنْ يردَّ الحياةَ إلى الناس ويُعيدَهم مِنْ جديدٍ فإنه ـ سبحانه ـ يحشرهم إليه ويجمعهم لديه في الموقف الأعظم في ساحةٍ واحدةٍ تُدْعى عَرَصاتِ القيامة، وذلك لفصلِ القضاء، فيُحاسِبُ كُلَّ فردٍ=

....

= منهم على ما عَمِل مِنْ خيرٍ أو شرٍّ.

ولعَرَصاتِ القيامةِ أحداثٌ وأهوالٌ أذكر بعضَها ـ باختصارٍ ـ في النقاط التالية:

ـ أنَّ الله يجمعهم لديه ـ يومَ القيامة ـ في المَحْشَرِ على أرضٍ بيضاءَ عَفْراءَ مائلةٍ إلى الحمرة قليلًا، كقُرْصةِ النقيِّ أَشْبَهَ بالخبز الأبيض السالم مِنَ الغشِّ والنقيِّ مِنَ النُّخالة، ليس فيها عَلَمٌ لأحَدٍ ـ على ما تقدَّم به الحديثُ، [انظر: (ص ٢٦٠)] ـ كما يُحْشَرون في الموقف الصعبِ أحياءً حُفاةً عُراةً وغُرْلًا ـ أي: مَنْ لم يختتن ـ؛ قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء]، وقال ﷺ فيما روَتْه أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها: «**يُحْشَرُ النَّاسُ ـ يَوْمَ القِيَامَةِ ـ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»، قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ؟» قَالَ ﷺ: «**يَا عَائِشَةُ، الأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨) باب الحشر، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها» (١٧/ ١٩٣) بابُ فَناءِ الدنيا وبيانِ الحشر يومَ القيامة].

ـ وأنَّ الكُفَّار يحشرهم اللهُ تعالى على وجوهم كما أخبر به تعالى في قوله: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾﴾ [الإسراء]، وفي حديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رجلًا قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يُحْشَرُ الكَافِرُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟!» قَالَ: «**أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى رِجْلَيْهِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ؟**» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٣٧٧) باب الحشر، ومسلمٌ في «صفة القيامة والجنَّة والنار» (١٧/ ١٤٨) بابُ طلبِ الكافرِ الفداءَ بمِلْءِ الأرض ذهبًا]، «والحكمةُ في حشرِ الكافر على وجهه: أنه=

= عُوقِبَ على عدمِ السجود لله في الدنيا بأَنْ يُسْحَبَ على وجهه في القيامة؛ إظهارًا لهوانه بحيث صار وجهُه مكانَ يَدِه ورِجْلِه في التوقِّي عن المُؤْذِيات» [«فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٣٨٢)].

ـ تشتدُّ الحرارةُ ويعرق الناسُ عرقًا مَهيلًا في ذلك الموقف لدُنُوِّ الشمس ـ في ذلك اليوم ـ مِنْ رؤوس الخلائق كمقدار مِيلٍ، كما أخبر به النبيُّ ﷺ بقوله: «تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ»، قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: «فَوَاللهِ مَا أَدْرِي: مَا يَعْنِي بِالمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الأَرْضِ، أَمِ المِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ العَيْنُ»، قَالَ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي العَرَقِ: فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلْجَامًا»، قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ، [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٩٦) بابٌ في صفةِ يوم القيامة ـ أعاننا اللهُ على أهواله ـ مِنْ حديثِ المقداد بنِ الأسود رضي الله عنه].

وهكذا يطول موقفُهم ـ في فصل القضاء ـ ويعظم كربُهم ويشتدُّ عناؤهم حتَّى يبلغ مبلغًا عظيمًا؛ فيرغب الناسُ في أَنْ يحكم اللهُ فيهم ليُريحَهم مِنْ شدَّةِ الهول وعناءِ الموقف وصعوبته، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾ [المُرسَلات]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٣٧ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٨ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ۝٣٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝٤٠﴾ [المُرسَلات]، ثمَّ تكون الشفاعةُ العظمى للنبيِّ ﷺ في أهل الموقف التي يتأخَّر عنها أولو العزم=

= مِنَ الرُّسُل، فيسألُ نبيُّنا ﷺ اللهَ تعالى أَنْ يقضيَ بين الخَلْق ليستريحوا مِنْ هول الموقف؛ فيستجيبُ اللهُ له ويُظْهِرُ فَضْلَه على العالَمِين؛ فهي أوَّلُ الشفاعاتِ، وهي المَقامُ المحمودُ الموعودُ به في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء]، فعن أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُونَ: «لَوِ اسْتَشْفَعْنَا عَلَى رَبِّنَا حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا»، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: «أَنْتَ الَّذِي خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّنَا»، فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ» وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ وَيَقُولُ: «ائْتُوا نُوحًا، أَوَّلَ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ»، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ» وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، «ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا»، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ» وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، «ائْتُوا مُوسَى الَّذِي كَلَّمَهُ اللهُ»، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ» فَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، «ائْتُوا عِيسَى»، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: «لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّدًا ﷺ؛ فَقَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ»، فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي»، وفي لفظٍ للبخاريِّ ومسلم: «فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤١٧) بابُ صفةِ الجنَّة والنار، وفي «التوحيد» (١٣/ ٤٧٣) بابُ كلامِ الربِّ تعالى ـ يومَ القيامة ـ مع الأنبياء وغيرِهم، وفي مواضِعَ أُخَر، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٥٣، ٦١) بابُ إثبات الشفاعة وإخراج الموحِّدين مِنَ النار].

ـ يُظْهِرُ اللهُ تعالى حوضَ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ تكرمةً لعباد الله المؤمنين، بعد أَنْ عَظُمَ الخطبُ بالناس واشتدَّ عليهم العطشُ مِنْ طول انتظار الحساب، فيشربُ منه مَنْ يَرِدُه مِنْ أُمَّته لا يظمأ بعدها أبدًا، ويُذادُ عنه مَنْ بدَّل وغيَّر، ويدلُّ عليه قولُه ﷺ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، مَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ،=

....

= وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا فَلَا يَظْمَأُ أَبَدًا» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤٦٣) بابٌ في الحوض وقولِ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر]، ومسلمٌ في «الفضائل» (١٥/ ٥٥) بابُ إثباتِ حوضِ نبيِّنا ﷺ وصِفاته، مِنْ حديثِ عبد الله بنِ عمرو ابنِ العاص رضي الله عنهما]، وعن سهل بنِ سعدٍ الساعديِّ رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، مَنْ مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، وَمَنْ شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ»، وفي حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه بزيادةٍ: فَيَقُولُ: «إِنَّهُمْ مِنِّي»، فَيُقَالُ: «إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا عَمِلُوا بَعْدَكَ»، فَأَقُولُ: «سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي»، وفي رواية البخاريِّ: «لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤٦٤) بابٌ في الحوض وقولِ الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١﴾ [الكوثر]، ومسلمٌ في «الفضائل» (١٥/ ٥٣) بابُ إثباتِ حوضِ نبيِّنا ﷺ وصِفاته]، قال ابنُ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح الطحاوية» (٢٥١)] في بيانِ صفةِ الحوض ما نصُّه: «والذي يتلخَّص مِنَ الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوضٌ عظيمٌ، وموردٌ كريمٌ، يمدُّ مِنْ شراب الجنَّة، مِنْ نهر الكوثر، الذي هو أشدُّ بياضًا مِنَ اللبن، وأبردُ مِنَ الثلج، وأحلى مِنَ العسل، وأطيبُ ريحًا مِنَ المِسْك، وهو في غاية الاتِّساع، عرضُه وطوله سواءٌ، كُلُّ زاويةٍ مِنْ زواياه مسيرةُ شهرٍ»، «قال القاضي عياضٌ رحمه الله: أحاديث الحوض صحيحةٌ، والإيمانُ به فرضٌ، والتصديق به مِنَ الإيمان، وهو على ظاهره عند أهل السنَّة والجماعة، لا يُتأوَّل ولا يُختلَفُ فيه» [«شرح مسلم» للنووي (١٥/ ٥٣)]، «وأجمع على إثباته السلفُ وأهلُ السنَّة مِنَ الخلف، وأنكرَتْ ذلك طائفةٌ مِنَ المُبْتدِعة (الخوارج وبعض المعتزلة)، وأحالوه على ظاهِره وغلَوْا في تأويله، مِنْ غير استحالةٍ عقليةٍ ولا عاديةٍ تَلْزَمُ مِنْ حمله على ظاهره وحقيقتِه،=

= ولا حاجةِ تدعو إلى تأويله؛ فخرَق مَنْ حرَّفه إجماعَ السلف، وفارق مذهبَ أئمَّةِ الخلف» [«فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٤٦٧)].

ـ مجيء اللهِ تعالى ـ يومَ القيامة ـ في ظُلَلٍ مِنَ الغمام ـ كما يشاء ـ إلى فصلِ القضاء بين خَلْقه؛ لمحاسَبةِ الخلائق على ما فعلوه واقترفوه، والملائكةُ يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا؛ قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر]، فيأخذ كُلُّ واحدٍ جزاءَ ما عَمِل مِنْ خيرٍ أو شرٍّ بالقسط والعدل، سواءٌ مارَس عملًا بالفعل أو نواهُ وأصرَّ عليه؛ ﴿لِيَجْزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾﴾ [إبراهيم]، علمًا أنَّ الله تعالى هو الذي يُحاسِبُ عبادَه جميعًا بنفسه بدون واسطةٍ على كُلِّ ما اكتسبوه في الدنيا مِنْ خيرٍ أو شرٍّ، فيُثيبُ الطائعين المُحْسنين، ويُعاقِب المسيئين المجرمين، قال ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ؛ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ؛ فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ»، وزاد بعضُ الرُّواةِ فيه: «وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» [أخرجه البخاريُّ في «التوحيد» (١٣/ ٤٧٤) بابُ كلامِ الربِّ تعالى ـ يومَ القيامة ـ مع الأنبياء وغيرهم، ومسلمٌ في «الزكاة» (٧/ ١٠١) باب الحثِّ على الصدقة ولو بشِقِّ تمرةٍ، مِنْ حديثِ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ رضي الله عنه]، وهو ـ سبحانه ـ لا يُناقِش المؤمنين الحسابَ؛ رحمةً بالمؤمن وشفقةً عليه؛ لأنَّ مَنْ نُوقِشَ الحسابَ عُذِّب، بل إنَّ الله تعالى يُناجي عبدَه المؤمن في الآخرة فيَعرِضُ عليه ذنوبَه ويُعْلِمه بأخطائه التي ارتكبها في الدنيا وسَتَرها عليه فيها، ويغفرها له في الآخرة؛ قَالَ رَجُلٌ لِابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟» قَالَ: «سَمِعْتُهُ يَقُولُ: =

....

= «يُدْنَى المُؤْمِنُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ فَيَقُولُ: «هَلْ تَعْرِفُ؟» فَيَقُولُ: «أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ»، قَالَ: «فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ»، فَيُعْطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الكُفَّارُ وَالمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللهِ» [أخرجه البخاريُّ في «المظالم» (٥/ ٩٦) باب: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٨﴾ [هود]، ومسلمٌ في «التوبة» (١٧/ ٨٦) بابُ سَعَةِ رحمةِ الله تعالى على المؤمنين]، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ» قَالَتْ: قُلْتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ ـ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ ـ أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق]؟» قَالَ: «ذَاكَ العَرْضُ يُعْرَضُونَ، وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ»» [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٦٩٧) باب: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق]، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ٢٠٨) بابُ إثباتِ الحساب].

ولا يُستثنى مِنَ الحساب إلَّا ما ثَبَت استثناؤه مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٨٨) باب الدليل على دخول طوائفَ مِنَ المسلمين الجنَّةَ بغير حسابٍ ولا عذابٍ]، وفي حديثِ أبي أمامةَ الباهليِّ رضي الله عنه: «مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَزَادَنِي ثَلَاثَ حَثَيَاتٍ» [أخرجه الترمذيُّ في «صفة القيامة» (٤/ ٦٢٦) باب (١٢)، وابنُ ماجه في «الزهد» (٢/ ١٤٣٣) بابُ صفةِ أمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وهذا اللفظ لأحمد (٥/ ٢٥٠). وصحَّحه الألبانيُّ في «ظلال الجنَّة» (١/ ٢٦١)]، «ومَنْ شاء اللهُ أَنْ يُلْحِقَه بهم، وهم الذين يمرُّون على الصراط كالبرق الخاطف وكالريح وكأجاويد الخيل» [«فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٥٣٨)].

وفي الحساب يُستنطَقُ الفردُ ويُسألُ عن كُلِّ عملٍ كبيرٍ أو صغيرٍ فَعَله، فإنْ حاول=

....

= الكذبَ أو الكتمان فإنه يُختَمُ على فَمِه وتُستنطَقُ جوارحُه، فتنطق بما اقترفه في دُنْياهُ ولا تخفي شيئًا؛ قال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النور]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [فصِّلَت].

ـ تطايُرُ الصُّحُفِ ونشرُ الكُتُب التي دُوِّنَتْ فيها الأعمالُ، فليس فيها شيءٌ ضائعٌ، ولا يمكن لشيءٍ منها أَنْ يزول؛ فهي كُتُبٌ يُعطاها كُلُّ فردٍ ـ في ساحةِ فصلِ الحساب ـ لتُعْرَضَ على أصحابها ويقرأَها كُلُّ واحدٍ مِنْ أهل الموقف؛ قال تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]، وقال تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [الكهف].

ويختلف مَصيرُ كُلِّ صنفٍ باختلاف تَلقِّيهِ لكتابه: فصنفٌ يأخذ صحيفةَ عملِه بيمينه ومِنْ أمامه، ويكون له البشرى السارَّةُ والسرورُ والفرح، وصنفٌ يأخذ صحيفةَ عملِه بشماله وراءَ ظهرِه؛ فيكون ذلك علامةً على سُوءِ الحساب وخيبةِ=

= صاحبِه وخسرانِه، وقد أشار القرآنُ إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق]، وفي قوله تعالى ـ أيضًا ـ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقّة]، وغيرها مِنَ الآيات.

ـ فبعد أنْ يأخذَ القضاءُ الإلهيُّ مجراهُ وتُعْطى كُتُبُ الأعمالِ ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال فتُوضَعُ ـ عند ذلك ـ الموازينُ بالقسط والعدل، وبحسَبِ نتيجةِ الوزن تكون السعادةُ أو الشقاوة ـ كما سيأتي تفصيلُه في الفصل اللاحق، [انظر: (ص ٢٨٦)] ـ.

ويجدر التنبيه إلى أنَّ العلماء اختلفوا في الحوض والميزان: أيُّهما قبل الآخر، وقد رجَّح القرطبيُّ رحمه الله سابقيةَ الحوض على الميزان في [«التذكرة» (٣٦٢)] بقوله: « والمعنى يقتضيه؛ فإنَّ الناس يخرجون عطاشًا مِنْ قبورهم .. فيُقدَّمُ قبل الصراط والميزان، واللهُ أعلمُ » بتصرُّف، [وانظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٤٧٥)].

هذا، وقد رتَّب السفارينيُّ رحمه الله المَعادَ على المراتب التالية: البعث والنشور، ثمَّ المحشر، ثمَّ القيام لربِّ العالَمين، ثمَّ العرض، ثمَّ تطايُرُ الصحف وأخذُها باليمين=

إِذْ ذَلِكَ(١) جَائِزٌ فِي قُدْرَتِهِ، وَوَاجِبٌ فِي عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ(٢)؛ ....

= أو الشِّمال، ثمَّ السؤال والحساب، ثمَّ الميزان، [انظر: «لوامع الأنوار البهيَّة» (٢/ ١٨٤)].

(١) «م.ر.ش، م.ف»: «ذَاكَ».

(٢) والذي تَقرَّر ـ عند أهل السنَّة ـ أنه لا واجِبَ على الله ولا تحريمَ عليه، لا بحكم الأمر ولا بحكم العقل؛ لأنَّ الله هو الربُّ والسيِّدُ المطلقُ والمالكُ لكُلِّ شيءٍ؛ فإنَّ مقتضى السيادة والربوبية والمُلْك المطلق لكُلِّ شيءٍ لا يخوِّل لأحَدٍ أَنْ يُوجِبَ على المتَّصِف بها ـ تَبارَك وتعالى ـ شيئًا أو يحرِّمَه، ولا أَنْ يُلْزِمَه بشيءٍ، إلَّا ما حرَّمه اللهُ على نفسه كقوله ﷺ في الحديث القدسيِّ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي» [أخرجه مسلمٌ في «البرِّ والصِّلَةِ والآداب» (١٦/ ١٣٢) بابُ تحريم الظلم، مِنْ حديثِ أبي ذرٍّ ﵁]، أو أَوْجَبَه تفضُّلًا منه وتكرُّمًا، وعدلًا ورحمةً كما سيأتي.

وتأكيدًا لانتفاءِ الوجوب والتحريم على مَنْ له الخَلْقُ والأمرُ ولا يُسْأَلُ عمَّا يفعل، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٣١٠)]: «وأمَّا الإيجاب عليه ـ سبحانه وتعالى ـ والتحريمُ بالقياس على خَلْقه فهذا قولُ القدرية، وهو قولٌ مبتدَعٌ مُخالِفٌ لصحيح المنقول وصريحِ المعقول، وأهلُ السنَّةِ متَّفِقون على أنه ـ سبحانه ـ خالقُ كُلِّ شيءٍ ومليكُه، وأنَّ ما شاء كان وما لم يَشَأْ لم يكن، وأنَّ العباد لا يُوجِبون عليه شيئًا؛ ولهذا كان مَنْ قال مِنْ أهل السنَّة بالوجوب قال: إنه كَتَبَ على نفسه وحرَّم على نفسه، لا أنَّ العبد نَفْسَه يستحِقُّ على الله شيئًا كما يكون للمخلوق على المخلوق؛ فإنَّ الله هو المُنعِمُ على العباد بكُلِّ خيرٍ؛ فهو الخالقُ لهم وهو المُرْسِلُ إليهم الرُّسُلَ، وهو الميسِّرُ لهم الإيمانَ والعملَ الصالحَ»

[انظر تقريرَ هذه المسألة ـ أيضًا ـ في: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٨/ ٧٢، ١٨/ ١٣٧)، «مفتاح دار =

= السعادة» لابن القيِّم (٢/ ٤٢٧ وما بعدها)، «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (١/ ٣٢٠، ٢/ ٢٥٦)].

ومعنى إيجابه على نفسه إنما يكون بحكمِ قولِه الحقِّ ووعدِه الصدقِ أنه ـ سبحانه ـ لا يفعل إلَّا مُوجَبه ولا يفعل خلافَه؛ ففي مَقامِ البعث والحساب والجزاء فإنَّ الله لا يعذِّب إلَّا من بَعَث إليه رسولًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء]، وأنه ـ سبحانه ـ لا يحمِّل الإنسانَ سيِّئاتٍ لم يعملها، ولا يضيِّع له أَجْرَ حسناتٍ عَمِلها؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه]، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فُصِّلَتْ]، وأنه كَتَب على نفسه الرحمةَ؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وأنه ـ سبحانه ـ حرَّم الجنَّةَ على مَنْ مات مُشْرِكًا وأنه لا يغفر له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢]، وغيرها ممَّا أوجبه اللهُ على نفسه، منها ما هو عدلٌ ومنها ما هو تفضُّلٌ منه ورحمةٌ؛ فلا الخَلْقُ أوجبوه عليه ولا هم حرَّموه عليه، ولا أنه استحقاقٌ للمطيعين ـ كما يزعم المعتزلةُ ـ لأنَّ طاعتهم وقعَتْ بتوفيقٍ منه سبحانه وهدايةٍ، وأنَّ النِّعَمَ التي أعطاهم إيَّاها لا تُوَفِّي عباداتُهم حقَّه ـ سبحانه ـ عليهم في شُكْرِها؛ فإنَّ كُلَّ نعمةٍ منه فضلٌ وكُلَّ نقمةٍ منه عدلٌ، قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (١١/ ٣٣٩)] ناقلًا كلامَ القرطبيِّ رحمه الله بما نصُّه: «حقُّ العبادِ على الله ما وَعَدهم به مِنَ الثواب والجزاء؛ فحَقَّ ذلك ووَجَب بحكم وَعْدِه الصدقِ وقولِه الحقِّ الذي لا يجوز عليه الكذبُ في الخبر ولا الخُلْفُ في الوعد؛ فاللهُ=

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾ [المؤمنون]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ [القمر: ٧]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ [ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ](٢)﴾ [التغابن: ٩]، وَلِقَوْلِهِ(٣): ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين]، وَلِقَوْلِهِ(٣): ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية]، وَلِقَوْلِهِ(٣): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ

= ـ سبحانه وتعالى ـ لا يجب عليه شيءٌ بحكم الأمرِ إذ لا آمِرَ فوقه، ولا حُكْمِ العقلِ لأنه كاشفٌ لا مُوجِبٌ».

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ۝٧ ﴾ [الحج]، وَلِقَوْلِهِ(١): ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ(٢) عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ۝١١٦ ﴾ [المؤمنون].

---

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) «م.ر.أ»: «خلقاكم»، وهو خطأٌ في الآية.

[فصل: وزنُ الأعمال والجزاءُ عليها][(١)]

نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَنْصِبُ المِيزَانَ ـ يَوْمَ القِيَامَةِ ـ فَتُوزَنُ أَعْمَالُ العِبَادِ لِيُجَازَوْا عَلَيْهَا[(٢)] وَيقْتَصَّ مِنْ بَعْضِهِمُ البَعْض، فَمَنْ رَجَحَتْ حَسَنَاتُهُ نَجَا،

---

(١) «م.ر»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «الميزانُ».

(٢) بيّن المصنِّف رحمه الله أنَّ الله تعالى بعد أَنْ يبعث عِبادَه ـ يومَ القيامة ـ إلى الموقف الأعظم حيث يجري القضاءُ الإلهيُّ، وتُعْطى الكُتُبُ التي يدور الحسابُ على محتوياتها، فيأخذُها المؤمن بيمينه والكافرُ بشماله وراءَ ظهره، فيقع ـ عند ذلك ـ أمرٌ عظيمٌ آخَرُ وهو نَصْبُ الموازين بالقسط بالغةِ الدقَّةِ في الحساب إلى منتهى ما يمكن أَنْ يُتصوَّر، وتُحصى الأعمالُ جميعُها، فلا يُترَكُ منها عملُ خيرٍ أو شرٍّ ـ وإِنْ قلَّ أو دقَّ ـ إلَّا وخضع لموازين العدل ذاتِ الدِّقَّة المُتناهِية؛ ليُجازى بها صاحبُ الأعمالِ بالقسط؛ تحقيقًا للعدل الإلهيِّ بأكمل وجهه، فلا تُظْلَمُ نفسٌ مسلمةٌ أو كافرةٌ شيئًا لا بنقصانٍ مِنْ حسناتها ولا بزيادةٍ في سيِّئاتها تحت قضاء الله وحُكمِه، العالمِ بأعمال العباد، الحافظِ لها، والمُثْبِتِ لها في كتابٍ مُبينٍ، لا يضيع منها شيءٌ، ولا يمكن أَنْ يزول منها شيءٌ؛ فالله عالمٌ بمَقاديرِها ومقاديرِ ثوابها وعقابها، في كتابٍ يستحضر جميعَ الأعمال مِنْ غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ؛ فـ: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًاۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف]، قال تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية].=

....

= وبحسَبِ نتيجةِ الوزن في رجحان الميزان بالعمل الصالح أو نقصانِه أو فقدانِه تظهر عاقبةُ أهل السعادة مِنْ أهل الشقاء، وقد بيَّن اللهُ تعالى هذه الحقيقةَ بقوله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأعراف]، وقولِه تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [المؤمنون]، وقولِه تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]؛ فأخبر الله تعالى «أنه يضع الموازينَ القِسْطَ ليوم القيامة، فتُوزَنُ أعمالُهم وزنًا في غاية العدالة والإنصاف، فلا يظلم اللهُ أحدًا شيئًا، وأنَّ عمله مِنَ الخير والشر ـ وإنْ كان في غاية القلَّة والدقَّة كمثقالِ حبَّةٍ مِنْ خردلٍ ـ فإنَّ الله يأتي به؛ لأنه لا يخفى عليه شيءٌ، وكفى به ـ جلَّ وعلَا ـ حاسبًا؛ لإحاطةِ علمِه بكُلِّ شيءٍ» [«أضواء البيان» للشنقيطي (٤/ ٥٨٣)].

فما يقتضيه العدلُ الإلهيُّ في هذه الدار والدارِ الآخرة أنه لا مُساواةَ بين الأبرار الذين قاموا بحقوق ربِّهم، واجتنبوا مَساخِطَه، ولم يزالوا مُؤْثِرين رِضاهُ على هوَى أنفُسِهم، وبين الفُجَّار المُكْثِرين مِنَ الذنوب، المُقصِّرين في حقوق ربِّهم؛ فالأبرارُ المؤمنون العاملون للصالحات لهم النصرُ والتمكين والفلاح والثواب والسعادةُ في الدارين، كُلٌّ على قَدْرِ إحسانه.

وأمَّا الفُجَّار العاملون للسيِّئات فلهم السخطُ والغضب والمقت واللعنة والإهانة=

....

= والخزي والعذاب والشقاءُ في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الجاثية].

• وما تقدَّم مِنَ الآيات الكثيرة تُثْبِتُ الميزانَ على حقيقته بلا تأويلٍ، ويدلُّ عليه مِنَ السنَّة النبويةِ الصحيحة: قولُه ﷺ: «كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ» [أخرجه البخاريُّ في «الدعوات» (١١/ ٢٠٦) بابُ فضلِ التسبيح، وفي «الأيمان والنذور» (١١/ ٥٦٦) باب: إذا قال: واللهِ لا أتكلَّمُ اليومَ، فصلَّى أو قرأ أو سبَّح أو كبَّر أو حَمِد أو هلَّل: فهو على نيَّته، وفي «التوحيد» (١٣/ ٥٣٧) باب قول الله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ومسلمٌ في «الذِّكْر والدعاء والتوبة والاستغفار» (١٧/ ١٩) بابُ فضلِ التهليل والتسبيح والدعاء، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، وغيرُه مِنَ الأحاديث المُثْبِتة للميزان، والتي بلَغَتْ مَبْلَغَ التواتر، وانعقد إجماعُ أهل الحقِّ مِنَ المسلمين عليه، [انظر: «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (٢/ ١٨٥)، «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٥٣٨)].

هذا، وقد أنكرَتِ المعتزلةُ ومَنْ وافقهم الميزانَ بعقولهم، وتأوَّلوه بالعدل حملًا على المجاز، وقالوا: إنَّ الله لا يحتاج إلى الميزان لتقويم الأعمال مِنْ جهةٍ، وإنَّ الأعراض يستحيل وزنُها إذ لا تقوم بنفسها مِنْ جهةٍ أخرى؛ فخالفوا ـ بذلك ـ صريحَ الكتاب والسنَّة.

وأهل الحقِّ مِنْ أهل السنَّة إذ يُثْبِتون الميزانَ فهُمْ لا يُثْبِتونه مِنْ مُنطلَقِ حاجة الله إليه ـ سبحانه ـ فاللهُ هو الغنيُّ الحميد، وهو أعلمُ بعباده وما يعملونه مِنْ خيرٍ=

....

= أو شرٍّ، ولكنَّه ـ سبحانه ـ أخبر أنه يضع الموازينَ لوزنِ الأعمال ـ حقيقةً ـ ليرى العبادُ أعمالَهُم ممثَّلةً ليكونوا على أَنْفُسهم شاهدين، واللهُ تعالى قادرٌ على جعلِ الأعراض ـ بحدِّ ذاتها ـ تقبل الوزنَ، كما هو قادرٌ على قلب الأعراض أجسامًا فيَزِنُها، وليس في قلبِ العَرَضِ إلى جسمٍ إحالةٌ عقليةٌ؛ فاللهُ لا يُعْجِزه شيءٌ، وقدرتُه ـ سبحانه ـ أعظمُ مِنْ كُلِّ شيءٍ، ولا يجوز أَنْ تُجْعَلَ السننُ الكونية المشاهَدةُ في الحياة الدنيا مقياسًا في كُلِّ شيءٍ، وقد صحَّتْ عِدَّةُ أحاديثَ تدلُّ على قلب المعاني إلى محسوساتٍ والأعراضِ إلى أجسامٍ.

فمِنْ نظائرِ ذلك:

ـ مجيء العمل الصالح في صورةِ رجلٍ حَسَنِ الوجه، كما في حديثِ البراء ابنِ عازبٍ رضي الله عنه مرفوعًا: «وَيَأْتِيهِ ـ أي: المؤمنَ ـ رَجُلٌ حَسَنُ الوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: «أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ»، فَيَقُولُ لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الوَجْهُ يَجِيءُ بِالخَيْرِ»، فَيَقُولُ: «أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ»»، وذَكَر عَكْسَه في شأن الكافر والمنافق، [أخرجه أبو داود في «الجنائز» (٣/ ٥٤٦)، والحاكم (١/ ٤٦٩)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٥، ٢٩٦) والسياقُ له. وصحَّحه الألبانيُّ في «أحكام الجنائز» (١٥٩)].

ـ مجيء القرآن في صورة شابٍّ شاحبٍ، ويدلُّ عليه قولُه صلى الله عليه وسلم: «يَجِيءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ كَالرَّجُلِ الشَّاحِبِ فَيَقُولُ: أَنَا الَّذِي أَسْهَرْتُ لَيْلَكَ، وَأَظْمَأْتُ نَهَارَكَ» [أخرجه ابنُ ماجه في «الأدب» (٢/ ١٢٤٢) بابُ ثواب القرآن، مِنْ حديثِ بُرَيْدةَ رضي الله عنه. وحسَّنه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٦/ ٢/ ٧٩٢) رقم: (٢٨٢٩) و«صحيح ابن ماجه» (٣/ ٢٣٩)].

ـ مجيء البقرة وآل عمران كأنَّهما غمامتان، ويدلُّ عليه قولُه صلى الله عليه وسلم: «اقْرَءُوا=

....

= القُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ القِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا» [أخرجه مسلمٌ في «صلاة المسافرين» (٦/ ٩٠) بابُ فضلِ قراءة القرآن وسورةِ البقرة، مِنْ حديثِ أبي أمامة الباهليِّ رضي الله عنه].

- الموت في ذاته - وهو معنًى وليس بجسمٍ - يصيِّره اللهُ تعالى بقدرته - يومَ القيامة - جسمًا يُشاهَدُ ويُرى؛ فقَدْ صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «يُجَاءُ بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ - زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ: فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الحَدِيثِ - فَيُقَالُ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟» فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: «نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ»»، قَالَ: «وَيُقَالُ: «يَا أَهْلَ النَّارِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟»» قَالَ: «فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: «نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ»»، قَالَ: «فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ»، قَالَ: «ثُمَّ يُقَالُ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم] [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٤٢٨) باب: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم: ٣٩]، ومسلمٌ في «الجنَّة وصفة نعيمها» (١٧/ ١٨٤) بابُ جهنَّم - أعاذنا الله منها - مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه].

ويجدر التنبيهُ إلى أنَّ مجيء القرآن في هذه الصورة إنما المقصودُ منه الإخبارُ عن قراءة القارئ التي هي عملُه، وذلك هو ثوابُ قارئِ القرآن، وليس المرادُ أنَّ كلامَ اللهِ نَفْسَه هو الذي يتصوَّرُ في صورةِ شابٍّ أو صورةِ غمامتين، قال الحَكَميُّ رحمه الله في [«معارج القَبول» (٢/ ٨٤٦)]: «لا مانعَ مِنْ كون الآتي هو العملَ=

= نَفْسَه كما هو ظاهرُ الحديث، فأمَّا أَنْ يقال: إنَّ الآتيَ هو كلامُ اللهِ نفسُه فحاشا وكلَّا ومَعاذَ الله؛ لأنَّ كلامه تعالى صفتُه ليس بمخلوقٍ، والذي يُوضَعُ في الميزان هو فعلُ العبدِ وعملُه، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات]»، هذا مِنْ جهةٍ. وتدلُّ الأحاديث السابقة ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ على قدرة الله تعالى على قلب الأعراض والمعاني إلى أجسامٍ ومحسوساتٍ تُشاهَدُ وتَقْبَلُ الوزنَ، وقد أفصح ابنُ حجرٍ رحمه الله عن ذلك في [«فتح الباري» (١٣/ ٥٣٩)] بقوله: «والحقُّ عند أهل السنَّة: أنَّ الأعمال ـ حينئذٍ ـ تُجسَّدُ أو تُجعَلُ في أجسامٍ فتصيرُ أعمالُ الطائعين في صورةٍ حسنةٍ، وأعمالُ المسيئين في صورةٍ قبيحةٍ، ثمَّ تُوزَن».

لذلك كان قولُ المعتزلة غيرَ مُعتبَرٍ لا يُلتفَتُ إليه، وأختم الجوابَ عنهم بقولِ ابنِ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح الطحاوية» (٤٧٥)]: «ولو لم يكن مِنَ الحكمة في وزن الأعمال إلَّا ظهورُ عدله ـ سبحانه ـ لجميع عباده؛ فإنه لا أحَدَ أحبُّ إليه العذرُ مِنَ الله؛ مِنْ أجلِ ذلك أرسل الرُّسُلَ مبشِّرين ومُنْذِرين؛ فكيف ووراء ذلك مِنَ الحِكَم ما لا اطِّلاعَ لنا عليه؟!».

• وإذا ثَبَت أنَّ الميزان حقيقةٌ لا مجازٌ، فقَدِ اختلف العلماءُ في لفظ الجمع المذكور في الآيات القرآنية السابقة: هل المُرادُ: أنَّ لكُلِّ شخصٍ عاملٍ موازينَ يُوزَنُ بكُلٍّ منها صنفٌ مِنْ أعماله فيكون الجمعُ حقيقةً، وهو ظاهرُ قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وإلى هذا القول ذَهَب بعضُ أهل العلم، أم ليس هناك إلَّا ميزانٌ واحدٌ، والجمعُ باعتبارِ تعدُّد الأشخاص والأعمال، وبهذا قال الجمهورُ، [انظر: «تفسير القرطبي» (١١/ ٢٩٣)، «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٥٣٧)، وانظر: «الفتاوى» =

= الكبرى» لابن تيمية (٦/ ٥٧٥)]. ورجَّح الشنقيطيُّ رحمه الله مذهبَ الأقلِّين حملًا على الحقيقة وهي ظاهرُ القرآن، وهو أنَّ للعامل الواحدِ موازينَ يُوزَنُ بكُلِّ واحدٍ منها صنفٌ مِنْ أعماله، حيث قال رحمه الله في [«أضواء البيان» (٤/ ٥٨٥)]: «والقاعدة المقرَّرةُ في الأصول: أنَّ ظاهِرَ القرآنِ لا يجوز العدولُ عنه إلَّا بدليلٍ يجب الرجوعُ إليه. وقال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمة: الأكثرُ على أنه إنما هو ميزانٌ واحدٌ، وإنما جُمِع باعتبارِ تعدُّدِ الأعمال الموزونةِ فيه» [انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٨٠)].

قلت: وافق ابنُ حجرٍ رحمه الله مذهبَ الجمهورِ في [«فتح الباري» (١٣/ ٥٣٨)] فقال: «والذي يترجَّح أنه ميزانٌ واحدٌ، ولا يُشْكل بكثرةِ مَنْ يُوزَنُ عملُه؛ لأنَّ أحوال القيامة لا تُكيَّفُ بأحوال الدنيا»، ويشهد له دليلٌ مِنَ السنَّة في قوله ﷺ مِنْ حديثِ سلمان رضي الله عنه: «**يُوضَعُ المِيزَانُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَلَوْ وُزِنَ فِيهِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ لَوَسِعَتْ، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: «يَا رَبِّ لِمَنْ يَزِنُ هَذَا؟» فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: «لِمَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي»، فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»، وَيُوضَعُ الصِّرَاطُ مِثْلَ حَدِّ المُوسَى فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: «مَنْ تُجِيزُ عَلَى هَذَا؟» فَيَقُولُ: «مَنْ شِئْتُ مِنْ خَلْقِي»، فَيَقُولُ: «سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ»**» [أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٨٦). وصحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٦١٩)]، وإلى هذا الترجيحِ ذَهَب ـ أيضًا ـ ابنُ العثيمين رحمه الله حيث يقول في [«شرح العقيدة الواسطية» (٢/ ١٣٩)]: «ولكنَّ الذي يظهر ـ والله أعلمُ ـ أنَّ الميزان واحد، وأنه جُمِع باعتبار الموزون؛ بدليلِ قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الأعراف: ٨؛ المؤمنون: ١٠٢]، لكِنْ يتوقَّف=

....

= الإنسانُ: هل يكون ميزانًا واحدًا لجميع الأُمَمِ أو لكُلِّ أمّةٍ ميزانٌ؟ لأنَّ الأُمَمَ ـ كما دلَّتْ عليه النصوصُ ـ تختلف باعتبارِ أجرِها».

هذا، وقد دلَّتِ الآثارُ الصحيحة على أنَّ الميزان حقيقيٌّ لا مجرَّدُ العدل، وله كِفَّتان حسِّيَّتان مُشاهَدتان تميلان بالأعمال، وهو مُجْمَعٌ عليه عند أهل السنَّة، وأنَّ الوزن يجري على ظاهره، وهو أنَّ الثقيل الراجح مِنَ الكِفَّتين هو الذي ينزل، ويدلُّ عليه حديثُ البطاقة الذي سيأتي، [انظر: (ص ٢٩٤)]؛ فإنَّ السِّجِلَّات تطيش وتثقل البطاقة؛ فظَهَر أنَّ الرجحان يكون بالنزول، قال السفارينيُّ رحمه الله في [«لوامع الأنوار البهيَّة» (٢/ ١٨٨)]: «ظواهر الآثار وأقوال العلماء: أنَّ كيفية الوزن في الآخرة ـ خفَّةً وثِقَلًا ـ مثلُ كيفيته في الدنيا، ما ثَقُلَ نَزَل إلى أسفلَ ثمَّ يُرْفَعُ إلى عِلِّيِّينَ، وما خفَّ طاشَ إلى أعلى ثمَّ نَزَل إلى سِجِّينٍ، وبه صرَّح جموعٌ منهم القرطبيُّ».

• وأمَّا **الموزون** فقدِ اختلفَتْ فيه آراءُ أهل العلم على ثلاثةِ وجوهٍ:

الأوَّل: أنَّ الموزون هو العمل نفسُه، بحيث تُحالُ مِنْ أعراضٍ إلى أجسامٍ فتُوزَنُ، ويدلُّ عليه:

ـ قولُه ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**» [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٢٨٨)].

ـ وقولُه ﷺ: «**الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ، وَالحَمْدُ للهِ تَمْلَأُ المِيزَانَ**..» [أخرجه مسلمٌ في «الطهارة» (٣/ ٩٩ ـ ١٠٠) بابُ فضلِ الوضوء، مِنْ حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ رضي الله عنه].

ـ وقولُه ﷺ: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ**» [أخرجه أبو داود في=

= «الأدب» (٥/ ١٥٠) باب [في] حُسْنِ الخُلُق، والترمذيُّ في «البرِّ والصِّلة» (٤/ ٣٦٢) بابُ ما جاء في حُسْنِ الخُلُق، مِنْ حديثِ أبي الدرداء رضي الله عنه. قال الترمذيُّ: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، وصحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» برقم: (٨٧٦)].

كما يشهد له ـ أيضًا ـ ما تقدَّم ذِكْرُه مِنْ مجيءِ القرآن ـ يومَ القيامة ـ في صورةِ شابٍّ شاحبِ اللون، وأنَّ البقرةَ وآلَ عمران تأتيان كأنهما غمامتان، [انظر: (ص ٢٨٩)].

فهذه الأحاديث تدلُّ على أنَّ الموزون هو فعلُ العبد وعملُه، وهو ما رجَّحه ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«الفتح» (١٣/ ٥٣٩)] بقوله: «والصحيح أنَّ الأعمال هي التي تُوزَن».

الثاني: أنَّ الموزون هو صحائف الأعمال: ويدلُّ عليه حديثُ عبد الله بنِ عمرو ابنِ العاص رضي الله عنهما قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: «أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟» فَيَقُولُ: «لَا يَا رَبِّ»، فَيَقُولُ: «أَفَلَكَ عُذْرٌ؟» فَيَقُولُ: «لَا يَا رَبِّ»، فَيَقُولُ: «بَلَى إِنَّ لَكَ ـ عِنْدَنَا ـ حَسَنَةً؛ فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ»، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ»، فَيَقُولُ: «احْضُرْ وَزْنَكَ»، فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ؟!» فَقَالَ: «إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ»»، قَالَ: «فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ؛ فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ؛ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ» [أخرجه الترمذيُّ في «الإيمان» (٥/ ٢٤) بابُ ما جاء فيمَنْ يموت وهو يشهد أنْ لا إلهَ إلَّا الله، والحاكم في «المستدرَك» (١/ ٦)، ورواه أحمد (٢/ ٢١٣)،=

= وابنُ ماجه (٢/ ١٤٣٧) بلفظٍ متقاربٍ. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٥٢) رقم: (١٣٥)].

وظاهرُ الحديث: أنَّ الذي يُوزَنُ صحائفُ الأعمال، وهو ما رجَّحه القرطبيُّ رحمه الله في [«التذكرة» (٣٧٧)] والسفارينيُّ رحمه الله في [«لوامع الأنوار البهيَّة» (٢/ ١٨٧)] وقال: «والحقُّ ما قدَّمْناه: أنَّ الموزون صُحُفُ الأعمال، وصحَّحه ابنُ عبد البرِّ والقرطبيُّ وغيرُهما»، والحديثُ يدلُّ ـ أيضًا ـ أنَّ الميزان له كِفَّتان حسِّيَّتان مُشاهَدتان، وأنه يميل بإحدى الكِفَّتَيْن رجحانًا بالنزول، «أمَّا كيفيةُ تلك الموازينِ فهو بمنزلةِ كيفيةِ سائرِ ما أخبرنا به مِنَ الغيب» [«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٣٠٢)].

الثالث: أنَّ الموزون هو العامل نفسُه: ويدلُّ عليه حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ ـ يَوْمَ القِيَامَةِ ـ لَا يَزِنُ ـ عِنْدَ اللهِ ـ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**»، وَقَالَ: «**اقْرَءُوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ۝١٠٥﴾** [الكهف]» [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٤٢٦) باب: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ [الكهف: ١٠٥]، ومسلمٌ في «صفة القيامة والجنَّة والنار» (١٧/ ١٢٩)].

وما روى أحمد عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه **أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ القَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟» قَالُوا: «يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ»، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي المِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ»** [أخرجه أحمد في «مسنده» (١/ ٤٢٠) وفي «فضائل الصحابة» (٢/ ٨٤٣). وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (٦/ ٣٩) رقم: (٣٩٩١)، والألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٧/ ١/ ٥٨٢) برقم: (٣١٩٢)]. =

....

= هذا، والمتأمِّلُ في الأدلَّة الشرعية المتقدِّمة التي استدلَّ بها العلماءُ على مذهبهم يُدْرِكُ ـ مِنْ جهةٍ ـ أنَّ كُلًّا مِنَ: العمل والعامل وصحائفِ العملِ تُوزَنُ في ميزان الله تعالى، وأنه لا سبيلَ إلى معرفةِ ما وراء ذلك مِنْ هذه الكيفيات، فاللهُ أعلمُ بها، [انظر: «شرح الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٤٧٥)].

والظاهر أنَّ النصوص الشرعية المتقدِّمة لا منافاةَ بينها ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ لإمكانيةِ الجمع بين الأدلَّة التي ظاهرُها التعارضُ: إمَّا بالجمع باعتبار الأشخاص؛ إذ يمكن أَنْ يقال: إنَّ مِنَ الناس مَنْ يُوزَنُ عملُه، ومنهم مَنْ يُوزَن هو بنفسه في حدِّ ذاته، ومنهم مَنْ تُوزَنُ صحائفُ عملِه.

وإمَّا أن يكون الجمعُ باعتبار الأحوال، وهو ما ذَهَب إليه ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٢/ ٢٠٢)] بقوله: «وقد يمكن الجمعُ بين هذه الآثار بأَنْ يكون ذلك كُلُّه صحيحًا: فتارةً تُوزَنُ الأعمالُ، وتارةً تُوزَنُ محالُّها، وتارةً يُوزَنُ فاعلُها».

وإمَّا أَنْ يكون الجمعُ بضمِّ العمل والعامل وصحائفِ العمل كُلِّها في الميزان، أي: بجمعِ ما تَفرَّق ذِكْرُه في سائر أحاديث الوزن، وهو ما ذَكَره الحَكَميُّ رحمه الله في [«معارج القَبول» (٢/ ٨٤٩)] بقوله: «ويدلُّ لذلك ما رواهُ أحمد رحمه الله تعالى عن عبد الله بنِ عمرٍو في قصَّةِ صاحبِ البطاقة بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: «تُوضَعُ المَوَازِينُ ـ يَوْمَ القِيَامَةِ ـ فَيُؤْتَى بِالرَّجُلِ فَيُوضَعُ فِي كِفَّةٍ وَيُوضَعُ مَا أُحْصِيَ عَلَيْهِ فيمايل بِهِ المِيزَانُ»، قال: «فَيُبْعَثُ بِهِ إِلَى النَّارِ»، قال: «فَإِذَا أَدْبَرَ إِذَا صَائِحٌ ـ مِنْ عِنْدِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَقُولُ: «لَا تَعْجَلُوا؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَقِيَ لَهُ»، فَيُؤْتَى بِبِطَاقَةٍ فِيهَا: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»، فَتُوضَعُ مَعَ الرَّجُلِ فِي كِفَّةٍ حَتَّى يَمِيلَ بِهِ المِيزَانُ» [أخرجه=

....

= أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٢١). والحديث صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (١٢/ ٢٣)، وقوّاه الأرناؤوط في تخريجه لـ: «المسند» (١١/ ٦٣٧)]؛ فهذا الحديث يدلُّ على أنَّ العبد يُوضَعُ هو وحسناتُه وصحيفتُها في كِفَّةٍ، وسيئاتُه مع صحيفتها في الكِفَّة الأخرى، وهذا غايةُ الجمع بين ما تَفرَّق ذِكْرُه في سائر أحاديث الوزن».

وفي هذه المسألةِ أقوالٌ أخرى.

وتَرِدُ ـ في هذا الباب أيضًا ـ مسألةُ عمل الكافر: هل يُوزَنُ أم لا؟

فقَدْ ذَهَب فريقٌ مِنْ أهل العلم إلى أنَّ في ظواهر الآيات القرآنية إخبارًا بوزن أعمال الكُفَّار؛ لدخولهم في عموم المعنيِّين بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝١٠٣﴾ [المؤمنون]، وغيرِها مِنَ الآيات الدالَّة على أنَّ عمل الكافر يُوزَنُ مع خِفَّتِه، وذلك لفقدانه الحسناتِ كُلِّيَّةً، ومآلُ ذلك إلى خسران نفسِه وأهله ومالِه؛ فلم يَستفِدْ مِنْ وجوده في الدنيا إلَّا الضررَ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزُّمَر: ١٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٥٤].

وذَهَب فريقٌ آخَرُ إلى القول بأنَّ الكافر لا ثوابَ له؛ فليس له حسناتٌ تُوزَنُ في الكِفَّة الأخرى في مُقابَلةِ سيِّئاته، بل لم يكن له إلَّا السيِّئاتُ، ومَنْ لا حسنةَ له فهو في النار؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا =

= نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ [الكهف]؛ ذلك لأنَّ فائدة الوزن: مقابَلةُ الحسنات بالسيِّئات، والنظرُ في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسناتِ لهم لانعدامِ شرطِها وهو الإيمانُ؛ لذلك كان جزاؤهم بطلانَ أعمالهم، ولا يُقامُ لهم يومَ القيامة وزنٌ لحقارتهم وخِسَّتهم بكفرهم بآياتِ الله واتِّخاذِهم آياتِ الله ورُسُلَه سخريةً وهُزُوًا، [انظر: «التذكرة» للقرطبي (٣٧٤)، «فتح الباري» لابن حجر (١٣/ ٥٣٨)، «أضواء البيان» للشنقيطي (٤/ ١٩٤)].

والذي يظهر أنَّ سبب الخلاف بين الفريقين مبنيٌّ على مسألةِ: هل الكُفَّارُ مخاطَبون بفروع الشريعة ومحاسَبون بها ومجزيُّون على الإخلال بها أم لا؟

قال القرطبيُّ رحمه الله في [«التذكرة» (٣٧٣)]: «ثَبَت أنَّ الكُفَّار يُسألون عمَّا خالفوا فيه الحقَّ مِنْ أصل الدِّين وفروعِه إذ لم يُسألوا عمَّا خالفوا فيه أصلَ دِينهم مِنْ ضروبِ تَعاطيهم ولم يُحاسَبوا به ولم يُعْتَدَّ بها في الوزن أيضًا، فإذا كانَتْ موزونةً دلَّ على أنهم يُحاسَبون بها وقتَ الحساب، وفي القرآن ما يدلُّ على أنهم مخاطَبون بها مسؤولون عنها محاسبون بها مجزيُّون على الإخلال بها؛ لأنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [فُصِّلت: ٦-٧]؛ فتوعَّدهم على منعِهم الزكاةَ، وأخبر عن المجرمين أنهم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدَّثِّر] الآية؛ فبان بهذا أنَّ المشركين مخاطَبون بالإيمان والبعثِ وإقامِ الصلاة وإيتاء الزكاة، وأنهم مسؤولون عنها محاسَبون بها مجزيُّون على الإخلال بها».

والراجح: أنَّ أعمال الكافر تُعَدُّ عليه فتُحْصى فيُوقَفُ عليها ويُخْبَرُ بها فيُقِرُّ بها؛ فلا يُحاسَبُ محاسَبةَ مَنْ تُوزَنُ حسناتُه وسيِّئاتُه، فإِنْ وُزِنَتْ فإنها تُوزَنُ قطعًا للحجَّة=

وَمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُ عُذِّبَ(١)؛........................

= وتحقيرًا له وتبكيتًا على فراغه وخُلُوِّه مِنْ كُلِّ خيرٍ، ويُخْزى بها على رؤوس الأشهاد ثمَّ يُعذَّبُ عليها؛ لأنَّ الكافر لا تنفعه حسناتُه فلا يقدر منها على شيءٍ لعدم بقائها، كما أخبر اللهُ تعالى عن أعمال الكُفَّار في قوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾ [إبراهيم]، وقولِه تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [النور]، وقولِه تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفرقان]، [وانظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٣٠٥)].

فالحاصل: وجوبُ الإيمان بالميزان حقيقةً لا مجازًا لثبوته بالكتاب والسنَّة والإجماع ـ كما تقدَّم، [انظر: (ص ٢٨٨)] ـ وأنَّ أعمال العباد تُوزَنُ ـ يومَ القيامة ـ ليُجازَوْا عليها، وأنَّ ميزانَ الأعمال له كِفَّتان حسِّيَّتان مشاهَدتان تميلان بالأعمال، وتَثْقُلُ موازينُ العبدِ برجحانِ كِفَّةِ حسناته مِنَ الإيمان والعمل الصالح، وتَخِفُّ موازينُه برجحانِ كِفَّةِ السيِّئات على الحسنات أو فقدان الحسنات وانعدامها كُلِّيَّةً على قولٍ، وبحسَبِ نتيجةِ الوزن يظهرُ أهلُ السعادة وأهل الشقاوة.

(١) والظاهر أنَّ القصاص يندرج ضِمْنَ القضاء الإلهيِّ والمحاسَبة؛ ذلك لأنَّ أوَّل قضايا القضاءِ والمحاسَبة فيما يتعلَّق بعبادة الخالق: الصلاةُ، وأوَّلَ قضايا القضاءِ والمحاسَبة في معامَلات الخَلْق: الدماءُ ثمَّ غيرُها مِنَ المظالم، فيَقتصُّ المظلومُ مِنَ الظالم، ولا ذَهَبَ ـ يومَئذٍ ـ ولا فضَّةَ فيَرُدَّ بعضُهم على بعضٍ، فيُؤْخَذُ مِنْ حسنات الظالم، فإِنْ لم تكن له حسناتٌ أُخِذَ مِنْ سيِّئات المظلوم فرُدَّتْ على الظالم ـ كما=

إِذْ ذَاكَ وَاجِبٌ فِي عَدْلِ اللهِ(١)؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء]، وَلِقَوْلِهِ(٢): ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة]، وَلِقَوْلِهِ(٣): ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ [القارعة]، وَلِقَوْلِهِ(٤): ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً(٥) مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

= سيأتي في الحديث، [انظر: (ص ٣٠١)] ـ.

وعليه فالذي يظهر أنَّ المحاسَبة تسبق الوزنَ وتتقدَّم عليه؛ لأنَّ الوزن للجزاء، فينبغي أَنْ يكون بعد المحاسَبة، وما تَقرَّر ـ عند العلماء ـ أنَّ المحاسَبة لتقدير الأعمال، والوزنَ لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاءُ بحسَبِها، [انظر: «التذكرة» للقرطبي (٣٧٣)، «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (٢/ ١٨٤)].

(١) فقَدْ تقدَّم التنبيه أنه لا يجب شيءٌ على الله تعالى إلَّا ما أوجبه على نفسه تكرُّمًا وتفضُّلًا، وأنَّ العباد لا يُوجِبون عليه شيئًا، لا بحكم الأمر إذ لا آمِرَ فوقه، ولا بحكم العقل لأنَّ العقل كاشفٌ لا مُوجِبٌ، [انظر: (ص ٢٨٢)].

(٢) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٣) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٤) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٥) «م.ر.ب، م.ر.ش»: «سَوَآءٌ»، وهي قراءةُ نافعٍ.

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الجاثية]، وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ[(١)] رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ[(٢)]؟» قَالُوا: «الْمُفْلِسُ[(٢)] فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ»، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ[(٢)] مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي[(٣)] يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ[(٤)] شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا؛ فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ[(٥)] فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[(٦)]

---

(١) تقدَّمَتْ ترجمته، انظر: (ص ٢٣٥).

(٢) «م.ر.ب»: «المفلَّس».

(٣) «م.ر.أ، م.ر.ب، م.ف»: بزيادةِ: «مَنْ» قبلها.

(٤) «م.ر.ب، م.ر.ش، م.ف»: «وَقَدْ».

(٥) «م.ف»: «فَإِذَا».

(٦) قال النوويُّ رحمه الله في [«شرح مسلم» (١٦/ ١٣٥)] ما نصُّه: «معناه: أنَّ هذا - حقيقةً - المفلسُ، وأمَّا مَنْ ليس له مالٌ ومَنْ قلَّ مالُه فالناسُ يُسمُّونه: مفلسًا، وليس هو - حقيقةً - المفلسَ؛ لأنَّ هذا أمرٌ يزول وينقطع بموته، وربما ينقطع بيَسارٍ يحصل له بعد ذلك في حياته، وإنما حقيقة المفلس هذا المذكورُ في الحديث؛ فهو الهالكُ الهلاكَ التامَّ والمعدومُ الإعدامَ المقطع؛ فتُؤخَذُ حسناتُه لغُرَمائه، فإذا فرَغَتْ حسناتُه أُخِذَ مِنْ سيِّئاتهم فوُضِعَ عليه ثمَّ أُلْقِيَ في النار؛ فتمَّتْ خسارتُه وهلاكُه وإفلاسُه»، وقال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (١١/ ٣٩٧)]:=

رَوَاهُ مُسْلِمٌ(١)(٢).

= «وقد استُشْكِل إعطاءُ الثوابِ وهو لا يتناهى في مقابَلةِ العقاب وهو مُتناهٍ، وأُجيبَ بأنه محمولٌ على أنَّ الذي يُعطاهُ صاحبُ الحقِّ مِنْ أصل الثواب ما يُوازي العقوبةَ عن السيِّئة، وأمَّا ما زاد على ذلك ـ بفضل الله ـ فإنه يبقى لصاحِبه، قال البيهقيُّ: سيِّئاتُ المؤمن ـ على أصول أهل السنَّة ـ مُتناهِيةُ الجزاء، وحسناتُه غيرُ متناهِيةِ الجزاء؛ لأنَّ مِنْ ثوابها الخلودَ في الجنَّة؛ فوجهُ الحديثِ ـ عندي والله أعلمُ ـ: أنه يُعطى خُصَماءُ المؤمنِ المسيءِ مِنْ أجر حسناته ما يُوازي عقوبةَ سيِّئاته؛ فإِنْ فَنِيَتْ حسناتُه أُخِذَ مِنْ خطايا خصومه فطُرِحَتْ عليه، ثمَّ يُعذَّبُ إِنْ لم يُعْفَ عنه، فإذا انتهَتْ عقوبةُ تلك الخطايا أُدْخِلَ الجنَّةَ بما كُتِبَ له مِنَ الخلود فيها بإيمانه، ولا يُعْطى خُصَماؤُه ما زاد مِنْ أجر حسناته على ما قابل عقوبةَ سيِّئاته ـ يعني: مِنَ المضاعفة ـ لأنَّ ذلك مِنْ فضل الله يختصُّ به مَنْ وافى يومَ القيامة مؤمنًا، والله أعلمُ».

(١) تقدَّمَتْ ترجمته، انظر: (ص ٨٦).

(٢) أخرجه مسلمٌ في «البرِّ والصِّلَة والآداب» (١٦/ ١٣٥) بابُ تحريم الظلم، والترمذيُّ في «صفة القيامة والرقائق والورع» (٤/ ٦١٣) بابُ ما جاء في شأن الحساب والقصاص، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧٢)، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٦/ ١٥٥) وفي «شُعَب الإيمان» (١/ ٥٢٢)، والبغويُّ في «شرح السنَّة» (١٤/ ٣٦٠)، مِنْ حديثِ أبي هريرة ﵁.

ولا تعارُضَ بين هذا الحديثِ وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤؛ الإسراء: ١٥؛ فاطر: ١٨؛ الزُّمَر: ٧]؛ لأنَّ العقاب إنما يقع بسببِ فعلِه وظلمِه، ولم=

[فصل: الصراط]

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى[1] يَضْرِبُ الصِّرَاطَ عَلَى ظَهْرِ جَهَنَّمَ فَيَمُرُّ عَلَيْهِ النَّاسُ أَجْمَعُونَ، فَيَنْتَهِي أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَيَسْقُطُ ـ مِنْهُ فِي النَّارِ ـ أَهْلُ النَّارِ[2]؛ ....

= يُعاقَبْ بغيرِ جنايةٍ منه بل بجنايته، فقُوبِلَتِ الحسناتُ بالسيِّئات على حسَبِ ما اقتضاه عدلُ الله تعالى في عباده وحكمتُه في خَلْقه، [انظر: «شرح مسلم» للنووي (١٦/ ١٣٦)، «فتح الباري» لابن حجر (٥/ ١٠٢)].

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ر».

(٢) مِنَ المسائل الغيبية التي تأتي بعد وزن الأعمال والفراغ منها: مسألةُ الصراط والإيمان به الذي تَعرَّض له المصنِّف رحمه الله بالبيان، والصراطُ هو: جسرٌ ممدودٌ على متن جهنَّمَ، منصوبٌ على ظهرها يعبره الخلائقُ ـ بقدر أعمالهم ـ إلى الجنَّة، وعرَّفه النوويُّ رحمه الله في [«شرح مسلم» (٣/ ٢٠)] بقوله: «وهو جسرٌ على متن جهنَّمَ يمرُّ عليه الناسُ كُلُّهم، فالمؤمنون يَنْجُون على حسَبِ حالِهم ـ أي: منازلهم ـ والآخَرون يسقطون فيها».

وقد بوَّب البخاريُّ رحمه الله في [«صحيحه» (١١/ ٤٤٤)]: «باب الصراط: جسر جهنَّمَ»، وشَرَح ابنُ حجرٍ رحمه الله ذلك في [«فتح الباري» (١١/ ٤٤٦)] بقوله: «أي: الجسر المنصوب على جهنَّمَ لعبور المسلمين عليه إلى الجنَّة». =

....

= ومِنْ مفهوم الأحاديث الصحيحة الآتية فإنَّ الصراط ممرٌّ رهيبٌ وخطيرٌ للغاية، يدلُّ على خطورته أنَّ النبيَّ ﷺ يقف على جَنَباته والناسُ يعبرونه وهو يدعو: «رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ» وكذا دعاء الرُّسُل يومئذٍ [سيأتي تخريجه، انظر: (ص ٣٠٥)]، وأنَّ جهنَّمَ تكون تحت الصراط المضروب على ظهرها والذي يمرُّ عليه الناسُ على قَدْرِ أعمالهم، وأنَّ الجسر عليه كلاليبُ وخطاطيفُ وحَسَكٌ مثلُ شوكِ السَّعْدان معلَّقةٌ به، تخطف الناسَ بأعمالهم: مَنْ أُمِرَتْ بخطفه منهم، فهو مَدْحَضةٌ مَزِلَّةٌ؛ ففضلًا عن دِقَّتِه فهو مُنْزَلَقٌ خطيرٌ لا تثبت عليه إلَّا قدمُ مَنْ كُتِب له الثباتُ مِنْ أهل السعادة؛ فالناجون مِنْ نار جهنَّمَ متفاوتون في سرعة النجاة، فمنهم مَنْ يمرُّ عليه بسرعةٍ خاطفةٍ مدهشةٍ، ومنهم دون ذلك، حتَّى ينجوَ مَنْ ينجو ولو حبوًا على يديه وركبتيه، ويسقط في النار الهالكون أثناءَ عبورهم إلى الجنَّة، أوبقتهم فيها أعمالُهم، وأكَّد هذا المعنى ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (١١/ ٣٩٩)] بقوله: «الصراط جسرٌ موضوعٌ على متن جهنَّمَ، وأنَّ الجنَّةَ وراءَ ذلك، فيمرُّ عليه الناسُ ـ بحسَبِ أعمالهم ـ فمنهم الناجي وهو مَنْ زادَتْ حسناتُه على سيِّئاته أو استوَيَا أو تجاوَزَ اللهُ عنه، ومنهم الساقط وهو مَنْ رَجَحَتْ سيِّئاتُه على حسناته إلَّا مَنْ تَجاوَزَ اللهُ عنه؛ فالساقطُ مِنَ الموحِّدين يُعذَّبُ ما شاء اللهُ ثمَّ يخرج بالشفاعة وغيرِها، والناجي قد يكون عليه تَبِعاتٌ وله حسناتٌ توازيها أو تزيد عليها؛ فيُؤخَذُ مِنْ حسناته ما يعدل تَبِعاتِه فيَخْلُصُ منها»، ويكون النبيُّ ﷺ وأمَّتُه هم أوَّلَ مَنْ يقطع الصراطَ ويمضون فيه تكريمًا وتشريفًا.

ففي مَعْرِض حديثِ النبيِّ ﷺ عن الشفاعة العُظْمى والمَقام المحمود وَصَف=

= ﷺ الصراطَ في حديثِ أبي هريرة وحُذَيْفة بنِ اليمان رضي الله عنهما بقوله: «فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ، فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنَبَتَيِ الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَيَمُرُّ أَوَّلُكُمْ كَالبَرْقِ»، قَالَ: قُلْتُ: «بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَيُّ شَيْءٍ كَمَرِّ البَرْقِ؟» قَالَ: «أَلَمْ تَرَوْا إِلَى البَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ؟ ثُمَّ كَمَرِّ الرِّيحِ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيْرِ وَشَدِّ الرِّجَالِ، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ: «رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ»، حَتَّى تَعْجِزَ أَعْمَالُ العِبَادِ، حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا»، قَالَ: «وَفِي حَافَتَيِ الصِّرَاطِ كَلَالِيبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أُمِرَتْ بِهِ: فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٧٠ ـ ٧٢) باب الشفاعة].

كما وَصَف النبيُّ ﷺ القيامةَ والصراط في حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه بقوله: «وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»، وَبِهِ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟» قَالُوا: «بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ»، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهَا لَا يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: مِنْهُمُ المُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ المُخَرْدَلُ ثُمَّ يَنْجُو»، وفي روايةِ مسلمٍ: «وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»، وَفِي جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، هَلْ رَأَيْتُمُ السَّعْدَانَ؟» قَالُوا: «نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ»، قَالَ: «فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مَا قَدْرُ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، تَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: فَمِنْهُمُ المُؤْمِنُ بَقِيَ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ المُجَازَى=

....

= حَتَّى يُنَجَّى » [أخرجه البخاريُّ في «الأذان» (٢/ ٢٩٢) بابُ فضلِ السجود، وفي «الرِّقاق» (١١/ ٤٤٤) باب الصراط: جسر جهنَّم، وفي «التوحيد» (١٣/ ٤١٩) بابُ قولِ الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ١٧ ـ ٢٢) بابُ إثباتِ رؤية المؤمنين في الآخرة لربِّهم سبحانه وتعالى].

وممَّا يدلُّ على صفة الصراط وأهواله: حديثُ أبي سعيدٍ رضي الله عنه، وفيه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: « ثُمَّ يُؤْتَى بِالجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ »، قُلْنَا: « يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الجَسْرُ؟ » قَالَ: « مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ، تَكُونُ بِنَجْدٍ، يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ، المُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الخَيْلِ وَالرِّكَابِ؛ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا » [أخرجه البخاريُّ في «التوحيد» (١٣/ ٤٢٠) بابُ قولِ الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٢٩) بابُ رؤيةِ الله سبحانه وتعالى في الآخرة].

ومِنَ الأدلَّة القرآنية الدالَّة على أنَّ الصراط جسرٌ مورودٌ يجوزه العبادُ: قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم]، ومعنى الورود في الآية ـ على الراجح مِنْ أقوال أهل العلم ـ هو المرورُ على الصراط، وهو مرويٌّ عن عبد الله بنِ مسعودٍ رضي الله عنه وقَتادةَ وغيرِهما مِنَ السلف، [انظر أقوالًا أخرى في: «التذكرة» للقرطبي (٤٠١)، «التخويف مِنَ النار» لابن رجب (٢٤٦)، «مَعارج القَبول» للحَكَمي (٢/ ٨٥٠)، «أضواء البيان» للشنقيطي (٤/ ٣٤٨)، والمصادر اللاحقة]، وبهذا القولِ تُجْمَعُ أدلَّةُ الكتاب والسنَّة، وقد اختاره المصنِّفُ رحمه الله ورجَّحه ابنُ حزمٍ رحمه الله في [«الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» (٤/ ٦٦)]، وابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى»=

....

= (٤/ ٢٧٩)]، وابنُ رجبٍ رحمه الله في [«التخويف مِنَ النار» (٢٤٦)]، والنوويُّ رحمه الله في [«شرح مسلم» (١٦/ ٥٨)]، قال الشوكانيُّ رحمه الله ـ مرجِّحًا هذا القولَ ـ في [«فتح القدير» (٣/ ٣٤٤)] ما نصُّه: «وقَدِ اختلف الناسُ في هذا الورود، فقِيلَ: الورودُ: الدخول، ويكون على المؤمنين بردًا وسلامًا كما كانَتْ على إبراهيمَ عليه السلام، وقالَتْ فرقةٌ: الورودُ هو المرور على الصراط، وقِيلَ: ليس الورودُ الدخولَ، إنما هو كما تقول: وَرَدْتُ البصرةَ ولم أدخلها، وقد تَوقَّف كثيرٌ مِنَ العلماء عن تحقيقِ هذا الورود وحَمَله على ظاهرِه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١﴾ [الأنبياء]، قالوا: فلا يدخل النارَ مَنْ ضَمِن اللهُ أَنْ يُبْعِده عنها، وممَّا يدلُّ على أنَّ الورود لا يَستلزِمُ الدخولَ: قولُه تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: ٢٣]؛ فإنَّ المراد: «أشرف عليه» لا أنه دَخَل فيه، ومنه قولُ زُهَيْرٍ:

فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ ... وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ

ولا يخفى أنَّ القول بأنَّ الورود هو المرورُ على الصراط أو الورودُ على جهنَّمَ وهي خامدةٌ: فيه جمعٌ بين الأدلَّة مِنَ الكتاب والسنَّة؛ فينبغي حملُ هذه الآيةِ على ذلك؛ لأنه قد حَصَل الجمعُ بحمل الورود على دخول النار مع كون الداخل مِنَ المؤمنين مُبْعَدًا مِنْ عذابها، أو بحمله على المُضِيِّ فوق الجسر المنصوب عليها وهو الصراطُ».

وقد رجَّح ابنُ أبي العزِّ رحمه الله ـ أيضًا ـ القولَ بأنَّ الورود يرادُ به: المرورُ على الصراط في [«شرح الطحاوية» (٤٧١)] بقوله: «واختلف المفسِّرون في المراد=

= بالورود المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]: ما هو؟ والأظهر والأقوى: أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم]، وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَا يَلِجُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ»، قالَتْ حفصةُ: فقلتُ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَيْسَ اللهُ يَقُولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟» فقال: «أَلَمْ تَسْمَعِيهِ قَالَ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم]» [أخرجه ابنُ ماجه في «الزهد» (٢/ ١٤٣١) بابُ ذِكرِ البعث، وأحمد (٦/ ٢٨٥). وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح ابنِ ماجه» (٤٢٨١)]: أشار ﷺ إلى أنَّ ورود النار لا يَستلزِمُ دخولَها، وأنَّ النجاة مِنَ الشرِّ لا تَستلزِمُ حصولَه، بل تَستلزِمُ انعقادَ سببه، فمَنْ طَلَبه عدوُّه ليُهْلِكوه ولم يتمكَّنوا منه يُقال: نجَّاه اللهُ منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا﴾ [هود: ٥٨]، ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا﴾ [هود: ٦٦]، و﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا﴾ [هود: ٩٤]، ولم يكن العذابُ أصابهم، ولكِنْ أصاب غيرَهم، ولولا ما خصَّهم اللهُ به مِنْ أسباب النجاة لَأصابهم ما أصاب أولئك.

وكذلك حالُ الوارد في النار، يمرُّون فوقها على الصراط، ثمَّ ينجِّي اللهُ الذين اتَّقَوْا ويَذَرُ الظالمين فيها جِثِيًّا؛ فقَدْ بيَّن ﷺ في حديثِ جابرٍ المذكور: أنَّ الورود هو الورودُ على الصراط».

وممَّا يدلُّ على ثبوت الصراط ـ أيضًا ـ بالدليل القرآنيِّ: الإشارةُ إليه في حديثِ عائشةَ رضي الله عنها قالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]: «فَأَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَئِذٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟» =

= فَقَالَ: «عَلَى الصِّرَاطِ» [أخرجه مسلمٌ في «صفة القيامة والجنَّة والنار» (١٧/ ١٣٤) بابٌ في البعث والنشور وصِفَةِ الأرض يومَ القيامة].

هذا، وأهلُ السنَّة مُجْمِعون على وجوب الإيمان بالصراط، وأنه حقيقيٌّ محمولٌ على ظاهره دون تأويلٍ؛ لثبوته بالقرآن الكريم والسنَّة النبوية الصحيحة الدالَّة على صفته، واعتقادِ أنَّ ما أثبتَتْه النصوصُ الشرعية يجب التسليمُ به على أنه حقٌّ لا مِراءَ فيه ولا جِدالَ، قال ابنُ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح الطحاوية» (٤٦٩)]: «ونؤمن بالصراط، وهو جسرٌ على جهنَّمَ، إذا انتهى الناسُ بعد مُفارَقتهم مكانَ الموقف إلى الظلمة التي دون الصراط، كما قالَتْ عائشةُ رضي الله عنها: «إنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ: «أَيْنَ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ؟» فَقَالَ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ»» [أخرجه مسلمٌ ـ بهذا اللفظ ـ في «الحيض» (٣/ ٢٢٦) بابُ بيانِ صِفَةِ منيِّ الرجل والمرأة، وأنَّ الولد مخلوقٌ مِنْ مائهما، لكنَّه مِنْ حديثِ ثوبان مولى رسول الله ﷺ. أمَّا حديثُ عائشةَ فقَدْ تَقدَّم لفظُه وتخريجُه، انظر: (ص ٣٠٨)]، وفي هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ويتخلَّفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون ويُحالُ بينهم بسورٍ يمنعهم مِنَ الوصول إليهم، وروى البيهقيُّ بسنده عن مسروقٍ عن عبد الله قال: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ»، إلى أَنْ قال: «فَيُعْطَوْنَ نُورَهُمْ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ»، قال: «فَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ الجَبَلِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ مِثْلَ النَّخْلَةِ بِيَمِينِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعْطَى دُونَ ذَلِكَ بِيَمِينِهِ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ مَنْ يُعْطَى نُورَهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، يُضِيءُ مَرَّةً وَيَطْفَأُ مَرَّةً، إِذَا أَضَاءَ قَدَّمَ قَدَمَهُ، وَإِذَا طَفِئَ قَامَ»، قال: «فَيَمُرُّ وَيَمُرُّونَ عَلَى الصِّرَاطِ، وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ، فَيُقَالُ لَهُمْ: امْضُوا عَلَى قَدْرِ نُورِكُمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَانْقِضَاضِ=

= الكَوْكَبِ، وَمِنْهُمْ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالطَّرْفِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ يَرْمُلُ رَمَلًا، فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي نُورُهُ عَلَى إِبْهَامِ قَدَمِهِ، تَخِرُّ يَدٌ وَتَعْلَقُ يَدٌ، وَتَخِرُّ رِجْلٌ وَتَعْلَقُ رِجْلٌ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ»، قال: «فَيَخْلُصُونَ، فَإِذَا خَلَصُوا قَالُوا: الحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنْكَ بَعْدَ أَنْ أَرَانَاكَ، لَقَدْ أَعْطَانَا اللهُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ»، الحديث [أورده ابنُ كثيرٍ في «البداية والنهاية» (٢/ ٨٤) مِنْ طريق البيهقيِّ عن شيخه الحاكم، وهو في «المستدرك» (٢/ ٣٧٦)، مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه. وصحَّحه الألبانيُّ في تخريجه على «شرح العقيدة الطحاوية» (٤٧٠)]».

وليس للمُنْكِرين للصراط مِنَ المعتزلة والإباضية ـ سواءٌ منهم مَنْ أنكره مطلقًا أو مَنْ أنكر صفاتِه الواردةَ في الشرع وأرجعها إلى مَعانٍ أخرى بتأويلاتٍ باطلةٍ ـ ليس لهم ما يتمسَّكون به لا العقلُ ولا النقلُ، [انظر: «شرح الأصول الخمسة» للقاضي عبد الجبَّار (٧٣٧، ٧٣٨)، «الإرشاد» للجويني (٣٧٩)، «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (٢/ ١٩٢)، «آراء الخوارج» لطالبي (١٨٠)]؛ فخالفوا الكتابَ والسنَّةَ والجماعة، وردُّوا الآياتِ والأحاديثَ الواردة في الورود وفي الشفاعة والمَقام المحمود، والأدلَّةُ السمعية والإجماعُ حجَّةٌ عليهم.

وفي سياقِ بيانِ إطباقِ أهل الحقِّ على إثبات الصراط، قال النوويُّ رحمه الله في [«شرح مسلم» (٣/ ٢٠)]: «وقد أجمع السلف على إثباته»، وقد نَقَل السفارينيُّ رحمه الله في [«لوامع الأنوار البهيَّة» (٢/ ١٩٢ ـ ١٩٣)] اتِّفاقَ كلمة أهل الحقِّ على إثبات الصراط في الجملة، ثمَّ قال: «والحقُّ أنَّ الصراط وَرَدَتْ به الأخبارُ الصحيحة، وهو محمولٌ على ظاهره بغير تأويلٍ كما ثَبَت في الصحيحين والمسانيد والسنن والصحاح ممَّا لا يُحْصى إلَّا بكلفةٍ مِنْ أنه جسرٌ مضروبٌ على متن جهنَّم يمرُّ=

= عليه جميعُ الخلائق، وهم في جوازه مُتفاوِتون».

وللصراط تفاصيلُ أخرى مُختلَفٌ فيها أذكر منها:

• الاختلاف في وصف الصراط وكيفيةِ المرور عليه.

• الاختلاف في مرور جميع الخَلْق على الصراط.

وأتعرَّض للمسألتين فيما يلي:

أوَّلًا: الاختلاف في وصفِ الصراط وكيفيةِ المرور عليه.

اختلف العلماء ـ في هذه المسألةِ ـ على قولين رئيسين وهما:

١ ـ ذَهَب الجمهورُ منهم إلى أنَّ الصراط ـ وبغضِّ النظر عن أنه مُنزَلَقٌ لا تثبت عليه قدمٌ ـ فهو ـ أيضًا ـ موصوفٌ بأنه أحَدُّ مِنَ السيف وأدَقُّ مِنَ الشعرة، واستدلُّوا على صِفَةِ الدِّقَّة والحِدَّةِ بأحاديثَ وآثارٍ صحيحةِ السند أو صحيحة المعنى منها:

ـ ما تَقدَّم عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه مرفوعًا: «**وَالصِّرَاطُ كَحَدِّ السَّيْفِ دَحْضٌ مَزِلَّةٌ**» [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٣٠٩)].

ـ ومنها حديثُ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**وَلِجَهَنَّمَ جِسْرٌ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرِ وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ، عَلَيْهِ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ يَأْخُذُونَ مَنْ شَاءَ اللهُ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٦/ ١١٠). وضعَّف إسنادَه شعيب الأرناؤوط في تحقيق «المسند» (٤١/ ٣٠٣)].

ـ وحديثُ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه أنه قال: «**بَلَغَنِي أَنَّ: الجِسْرَ أَدَقُّ مِنَ الشَّعْرَةِ، وَأَحَدُّ مِنَ السَّيْفِ**» [رواه مسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٣٤) بابُ رؤيةِ الله سبحانه وتعالى في الآخرة].

ـ وحديثُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال: «**يُوضَعُ الصِّرَاطُ عَلَى سَوَاءِ جَهَنَّمَ مِثْلَ حَدِّ السَّيْفِ المُرْهَفِ**» [أخرجه الطبرانيُّ في «المُعْجَم الكبير» (٩/ ٢٣٠) برقم: (٨٩٩٢). وصحَّحه الألبانيُّ في=

= «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٤٦)].

وهذه الأحاديث والآثار تفيد صحَّةَ وصفِ الصراط بالدقَّة والحِدَّة، وقد قوَّاها الجمهورُ واعتقدوا ثبوتَها وصِحَّتَها، ومِنْ أقوالهم:

- قول النوويِّ رحمه الله في [«شرح مسلم» (٣/ ٢٠)]: «وأصحابنا المتكلِّمون وغيرُهم مِنَ السلف يقولون: إنَّ الصراط أدَقُّ مِنَ الشعرة وأحَدُّ مِنَ السيف كما ذَكَره أبو سعيدٍ الخُدْريُّ رضي الله عنه».

- وقولُ السفارينيِّ رحمه الله في [«لوامع الأنوار» (٢/ ١٩٠)]: «قال العلماء: الصراطُ أدَقُّ مِنَ الشعرة، وأحَدُّ مِنَ السيف، وأَحْمى مِنَ الجمرة».

- وقولُ القرطبيِّ كما سيأتي قريبًا.

٢ - وذَهَب فريقٌ مِنْ أهل العلم إلى إنكارِ كون الصراطِ أدَقَّ مِنَ الشعرةِ وأحَدَّ مِنَ السيف، وبه قال الحَليميُّ، وتابعه في ذلك البيهقيُّ ونَقَله عنه، وهو قولُ العزِّ ابنِ عبد السلام وتلميذه القرافيِّ وجماعةٍ، قال السفارينيُّ في [«لوامع الأنوار البهيَّة» (٢/ ١٩٣)]: «وأنكر العلَّامةُ القرافيُّ كونَ الصراطِ أدَقَّ مِنَ الشعر وأحَدَّ مِنَ السيف، وسَبَقه إلى ذلك شيخُه العزُّ بنُ عبد السلام»، وعلَّل إنكارَه أنه يُحْمَلُ على غيرِ ظاهره لمُنافاته للأحاديث الأُخَرِ مِنْ قيام الملائكة على جَنْبَتَيْه، وكونِ الكلاليب والحَسَك فيه، وإعطاءِ كُلٍّ مِنَ المارِّين عليه مِنَ النور قَدْرَ موضعِ قدَمَيْه، ولأنَّ المدلول اللغويَّ للصراط يُفيد: الطريقَ العريض، ويُؤيِّد ذلك: إخبارُ النبي صلى الله عليه وسلم عنه بأنه: «دَحْضٌ مَزِلَّةٌ» [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٣٠٦، ٣٠٩)]، ولا يكون كذلك إلَّا في الطريقِ الواسع. =

= ونَقَل القرطبيُّ رحمه الله في [«التذكرة» (٢/ ٤٠٠)] تعليلاتِ هذا الفريقِ مِنْ أهل العلم وتأويلاتِه المجرَّدة عن الدليل ولم يوافق عليها؛ فقال رحمه الله ما نصُّه: «ذَهَب بعضُ مَنْ تَكلَّم على أحاديثِ هذا الباب في وصفِ الصراط بأنه أدَقُّ مِنَ الشعر وأحَدُّ مِنَ السيف: أنَّ ذلك راجعٌ إلى يُسْرِه وعُسْرِه على قَدْرِ الطاعات والمعاصي، ولا يعلم حدودَ ذلك إلَّا اللهُ تعالى لخفائها وغموضها، وقد جَرَتِ العادةُ بتسميةِ الغامض الخفيِّ: دقيقًا؛ فضُرِبَ المَثَلُ له بدِقَّةِ الشعر؛ فهذا ـ واللهُ أعلمُ ـ مِنْ هذا الباب.

ومعنى قوله: «وأحَدُّ مِنَ السيف»: أنَّ الأمر الدقيق الذي يصعد مِنْ عند الله تعالى إلى الملائكة في إجازة الناس على الصراط يكون في نفاذِ حدِّ السيف ومُضِيِّه؛ إسراعًا منهم إلى طاعته وامتثاله، ولا يكون له مَرَدٌّ كما أنَّ السيف إذا نَفَذَ بحِدَّةٍ وقوَّةٍ ضاربةٍ في شيءٍ لم يكن له بعد ذلك مَرَدٌّ.

وأمَّا أَنْ يقال: إنَّ الصراط نَفْسَه أحَدُّ مِنَ السيف وأدَقُّ مِنَ الشعر؛ فذلك مدفوعٌ بما وُصِف مِنْ أنَّ الملائكةَ يقومون بجنبَيْه، وأنَّ فيه كلاليبَ وحَسَكًا، أي: أنَّ مَنْ يمرُّ عليه يقع على بطنه، ومنهم مَنْ يَزِلُّ ثمَّ يقوم، وفيه أنَّ مِنَ الذين يمرُّون عليه مَنْ يُعْطى النورَ بقدر موضع قدميه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ للمارِّين عليه موطئَ الأقدام، ومعلومٌ أنَّ دِقَّةَ الشعر لا يحتمل هذا كُلَّه، وقال بعضُ الحُفَّاظ: إنَّ هذه اللفظةَ ليسَتْ بثابتةٍ».

هذا، ويتَّضِح ـ على ضوءِ ما تَقدَّم ـ أنه ليس لنُفاةِ صفةِ الحِدَّةِ والدِّقَّةِ عن الصراط مِنْ حجَّةٍ سوى الاستبعادِ العقليِّ لِأَنْ يمضيَ الناسُ عليه مرورًا بهذه الكيفية.=

= ولا يخفى أنه لا يَمتنِعُ على الله مِنْ شيءٍ؛ فهو ـ سبحانه ـ قادرٌ على استيعابِ الخَلْق وتمريرهم على الصراط وهو بهذه الصفة؛ فإنَّ قدرة الله لا يحدُّها حدٌّ، واللهُ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ، هذا مِنْ جهةٍ، ومِنْ جهةٍ أخرى فإنَّ الاستبعاد العقليَّ مبنيٌّ على قياسِ أمورِ الآخرة على أمور الدنيا، وهو ـ بلا شكٍّ ـ قياسٌ مع ظهور الفرق؛ للاختلاف الحاصل بين عالَمِ الغيب وعالَمِ الشهادة.

أمَّا استبعادُ صفةِ الصراط واستحالةُ المشي عليه ـ عقلًا ـ بحجَّةِ دِقَّتِه وحِدَّتِه فهو تأويلٌ بعيدٌ كما صرَّح به السفارينيُّ رحمه الله في [«لوامع الأنوار البهيَّة» (٢/ ١٩٣)]، وعدَّه مِنَ الخرافات؛ لوجوبِ حملِ النصوص على حقائقها، ثمَّ قال: «وليس العبورُ على الصراط بأعجبَ مِنَ المشي على الماء، أو الطيران في الهواء، أو الوقوف فيه» [انظر ـ أيضًا ـ: «الإرشاد» للجويني (٣٧٩ ـ ٣٨٠)].

وقد ردَّ القرطبيُّ رحمه الله في [«التذكرة» (٢/ ٤٠١)] مَزاعِمَ مَنِ استبعد ـ عقلًا ـ وَصْفَ الصراط بأنه دقيقٌ وحادٌّ لا يمكن أَنْ يَعْبُرَ الخَلْقُ عليه بقوله: «ما ذَكَره هذا القائلُ مردودٌ بما ذكَرْنا مِنَ الأخبار، وأنَّ الإيمان يجب بذلك، وأنَّ القادر على إمساك الطير في الهواء قادرٌ على أَنْ يمسك عليه المؤمنَ فيُجْرِيَه أو يُمْشِيَه، ولا يُعْدَلُ عن الحقيقةِ إلى المجاز إلَّا عند الاستحالة، ولا استحالةَ في ذلك للآثار الواردة في ذلك وثباتِها بنقلِ الأئمَّة العدول، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور]».

ثانيًا: الاختلاف في مرور جميع الخَلْق على الصراط.

وإذا كان الصراط منصوبًا لعبور الأُمَم عليه فهل عبورُ الناسِ له كافَّةً، أم يستثنى=

= بعضُ الخَلْق مِنَ المرور عليه؟ فقَدِ اختلف العلماءُ في ذلك على أقوالٍ، ولا يخفى أنَّ مَنْ حَمَل مسألةَ الورود المتقدِّمةَ على الورود على الصراط عمَّم حُكْمَ المرورِ على الجميع.

والصحيح الراجح: التفصيل، ووجهُه: أنَّ المعلوم أنَّ المؤمن والمنافق مِنْ هذه الأمَّةِ وغيرِها كُلُّهم يعبدون اللهَ وَحْدَه في الظاهر، غير أنَّ التمييز بين الصادق والمنافق الكاذب يومَ القيامة هو في امتناع المنافقين مِنَ السجود، كما يمتاز المؤمنون عنهم بالنور الذي يُقْسَمُ لهم يومَ القيامة، [انظر: «التخويف مِنَ النار» لابن رجب (٢٣٧)].

فهؤلاء ممَّنْ كان يعبد اللهَ تعالى في الظاهر يمرُّون على الصراط، غير أنَّ مَنْ عدا المؤمنين فلا يستمرُّون في عبورهم له، بل يتساقطون في النار، تخطفهم كلاليبُ معلَّقةٌ مأمورةٌ بأخذِ مَنْ أُمِرَتْ به، كُلٌّ واحدٍ في الموضع الذي شاء اللهُ له.

وحقيقٌ بالتنبيه والملاحظة أنَّ المصنِّف رحمه الله ذَكَر أنَّ الصراط الذي يُضْرَبُ على ظهرِ جهنَّمَ يمرُّ عليه الناسُ أجمعون، كذا بالعموم المؤكَّد مِنْ غيرِ استثناءٍ، والصحيحُ في ذلك أنه يُستثنى مِنْ هذا العمومِ: مَنْ يدخل الجنَّة بغير حسابٍ، والكُفَّارُ والمشركون، وبالأخصِّ جبابرتُهم وعُتاتُهم وغُلاتُهم المعاندون وغيرُهم؛ فإنَّ عُنُقَ النار يلتقطهم، فينطوي عليهم فيقذفهم في غَمَرات جهنَّمَ، وذلك قبل اجتياز الأمم على الصراط إهانةً لهم وتعذيبًا، ويدلُّ عليه: حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**تَخْرُجُ عُنُقٌ مِنَ النَّارِ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَهَا عَيْنَانِ تُبْصِرَانِ وَأُذُنَانِ تَسْمَعَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ، يَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ، بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ**=

....

= مَنْ دَعَا مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَبِالْمُصَوِّرِينَ» [أخرجه الترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧٠١) بابُ ما جاء في صفة النار. والحديثُ صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٣/ ٢٥) وفي «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٢٥) رقم: (٥١٢)، ثمَّ قال: «قد رواه فراسٌ ـ أيضًا ـ عن عطيَّةَ عن أبي سعيدٍ مِثْلَه، إلَّا أنه قال: «وَبِمَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ» مكانَ: «وَبِالْمُصَوِّرِينَ»، وزاد: «فَيَنْطَوِي عَلَيْهِمْ فَيَقْذِفُهُمْ فِي غَمَرَاتِ جَهَنَّمَ»، أخرجه أحمد (٣/ ٤٠) والبزَّار نحوَه، وقال: «فَتَنْطَلِقُ بِهِمْ قَبْلَ سَائِرِ النَّاسِ بِخَمْسِمِائَةِ عَامٍ» مكانَ زيادةِ أحمد كما في «الترغيب» (٣/ ٢٠٤)»].

قال ابنُ رجبٍ رحمه الله في [«التخويف مِنَ النار» (٢٣٥)]: «واعْلَمْ أنَّ الناس مُنْقسِمون إلى مؤمنٍ يعبد الله وَحْدَه ولا يُشْرِك به شيئًا، ومُشْرِكٍ يعبد مع الله غيرَه، فأمَّا المشركون فإنهم لا يمرُّون على الصراط، وإنما يَقَعون في النار قبل وضعِ الصراط».

وقد احتجَّ ابنُ رجبٍ رحمه الله على ذلك بحديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يَجْمَعُ اللهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: «مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْهُ»، فَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ الشَّمْسَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ القَمَرَ القَمَرَ، وَيَتَّبِعُ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الطَّوَاغِيتَ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ، فَيَقُولُ: «أَنَا رَبُّكُمْ»، فَيَقُولُونَ: «نَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ»، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ تَعَالَى فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فَيَقُولُ: «أَنَا رَبُّكُمْ»، فَيَقُولُونَ: «أَنْتَ رَبُّنَا»، فَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَنَا وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ إِلَّا الرُّسُلُ، وَدَعْوَى الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: «اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»» الحديث [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٣٠٥)]، وقد أشار الحافظ ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (١١/ ٤٥٢)] إلى أنَّ الكُفَّار=

= يُقْذَفون في النار قبل وضعِ الصراط فقال: «فينتظم مِنَ الحديثين أنهم إذا حُشِروا وَقَع ما في حديثِ الباب مِنْ تَساقُطِ الكُفَّار في النار، ويبقى مَنْ عداهم في كَرْبِ الموقف فيَستشفِعون، فيقع الإذنُ بنصب الصراط، فيقعُ الامتحانُ بالسجود ليتميَّزَ المنافقُ مِنَ المؤمن، ثمَّ يجوزون على الصراط».

كما استدلَّ ابنُ رجبٍ رحمه الله ـ أيضًا ـ بحديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه، وفيه قولُه ﷺ: «يُنَادِي مُنَادٍ: «لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ»، فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ، وَأَصْحَابُ الأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ، وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ، فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ: «مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟» قَالُوا: «كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللهِ»، فَيُقَالُ: «كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟» قَالُوا: «نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا»، فَيُقَالُ: «اشْرَبُوا»، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى: «مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟» فَيَقُولُونَ: «كُنَّا نَعْبُدُ المَسِيحَ ابْنَ اللهِ»، فَيُقَالُ: «كَذَبْتُمْ، لَمْ يَكُنْ للهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ، فَمَا تُرِيدُونَ؟» فَيَقُولُونَ: «نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا»، فَيُقَالُ: «اشْرَبُوا»، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ، حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ فَيُقَالُ لَهُمْ: «مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟» فَيَقُولُونَ: «فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ اليَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا»»، قَالَ: «فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَيَقُولُ: «أَنَا رَبُّكُمْ»، فَيَقُولُونَ: «أَنْتَ رَبُّنَا!»، فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: «هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟» فَيَقُولُونَ: «السَّاقُ»، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ=

= لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا، ثُمَّ يُؤْتَى بِالجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ»، قُلْنَا: «يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الجَسْرُ؟» قَالَ: «مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ، وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا: السَّعْدَانُ» الحديث [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٣٠٦)]. قال ابنُ رجبٍ رحمه الله عَقِبَ إيراد الحديث في [«التخويف مِنَ النار» (٢٣٧)]: «فهذا الحديث صريحٌ في أنَّ كُلَّ مَنْ أظهر عبادةَ شيءٍ سوى اللهِ كالمسيح وعُزَيْرٍ مِنْ أهل الكتاب، فإنه يلحق بالمشركين في الوقوع في النار قبل نَصْبِ الصراط، إلَّا أنَّ عُبَّادَ الأصنام والشمسِ والقمر وغيرِ ذلك مِنَ المشركين تتبع كُلُّ فرقةٍ منهم ما كانَتْ تعبد في الدنيا، فتَرِدُ النارَ مع معبودها أوَّلًا، وقد دلَّ القرآنُ على هذا المعنى في قوله تعالى في شأن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ۝٩٨﴾ [هود]، وأمَّا مَنْ عبد المسيح والعُزَيْرَ مِنْ أهل الكتاب فإنهم يتخلَّفون مع أهل المِلَل المُنْتسِبين إلى الأنبياء، ثمَّ يُرَدُّون في النار بعد ذلك، وقد وَرَد في حديثٍ آخَرَ أنَّ مَنْ كان يعبد المسيحَ يُمثَّلُ له شيطانُ المسيح فيتَّبِعونه، وكذلك مَنْ كان يعبد العُزَيْرَ، وفي حديث الصور أنه يُمثَّلُ لهم مَلَكٌ على صورة المسيح ومَلَكٌ على صورة العُزَيْر، ولا يبقى بعد ذلك إلَّا مَنْ كان يعبد اللهَ وَحْدَه في الظاهر، سواءٌ كان صادقًا أو منافقًا مِنْ هذه الأمَّةِ وغيرها، ثمَّ يتميَّز المنافقون على المؤمنين بامتناعهم مِنَ السجود، وكذلك يمتازون عنهم بالنور الذي يُقْسَمُ للمؤمنين».

هذا، ونظرًا لعلاقة الصراط العظيم بالقنطرة أحببتُ أَنْ أختم هذا الفصلَ بها، =

....

= وقد ثبتَتِ القنطرةُ بحديث أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا خَلَصَ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ بِمَسْكَنِهِ فِي الجَنَّةِ أَدَلُّ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» [أخرجه البخاريُّ في «المظالم والغصب» (٥/ ٩٦) بابُ قِصاصِ المظالم، وفي «الرِّقاق» (١١/ ٣٩٥) باب القِصاص يومَ القيامة].

والحديث دلَّ على ثبوت القنطرة بين الجنَّة والنار، وهي خاصَّةٌ بمسلك المؤمنين إلى الجنَّة، حيث يقفون عليها ليَقتصَّ بعضُهم مِنْ بعضٍ مظالمَ كانَتْ بينهم في الدنيا، وهذا القِصاصُ غيرُ القِصاص الأوَّل في عَرَصات القيامة، وإنما هو قِصاصٌ خاصٌّ بالمؤمنين متعلِّقٌ بنزعِ ما في صدورهم مِنْ غِلٍّ وحقدٍ وعداوةٍ وبغضاءَ على وجه التهذيب والتنقية والتطهير والتطييب؛ فهو أشبهُ ما يكون بتصفية الذهب وتنقيتِه مِنَ الشوائب العالقة به مهما دقَّتْ ليكون نقيًّا خالصًا، فإذا خَلَصوا مِنَ الآثام بمُقاصَّةِ بعضِها ببعضٍ وإسقاطها فإنه يُؤْذَنُ لهم ـ بعدها ـ بدخول الجنَّة، لا يحملون في صدورهم غِلًّا كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٧﴾ [الحِجر].

قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (٥/ ٩٦)]: «ويشهد لهذا الحديثِ قولُه في حديثِ جابرٍ رضي الله عنه الآتي ذِكْرُه في «التوحيد» [انظر: «الفتح» (١٣/ ٤٥٧)]: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ قِبَلَهُ مَظْلَمَةٌ» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٣/ ٤٩٥)، والبخاريُّ في «خَلْقِ أفعال العباد» (٤٠، ٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٧٤)، والبيهقيُّ في «الأسماء والصفات» (١/ ١٩٦)، وابنُ أبي عاصمٍ في «السنَّة» (٢٢٥).=

....

= وصحَّحه الألبانيُّ في «ظِلال الجنَّة» برقم: (٥١٤)] ».

ويشهد لذلك ـ أيضًا ـ ما ذكَره ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (١١/ ٣٩٩)] بقوله: « قلت: ولأصلِ الحديثِ شاهدٌ مِنْ مُرْسَلِ الحسن أخرجه ابنُ أبي حاتمٍ بسندٍ صحيحٍ عنه قال: بَلَغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: « **يُحْبَسُ أَهْلُ الجَنَّةِ بَعْدَ مَا يَجُوزُونَ الصِّرَاطَ حَتَّى يُؤْخَذَ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ظُلَامَاتُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَيْسَ فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ غِلٌّ** » ».

والقنطرة ثابتةٌ بالسنَّة النبوية، وهي واحدةٌ غيرُ متعدِّدةٍ؛ لأنَّ القول بتعدُّد القناطر يفتقر إلى دليلٍ صحيحٍ يُثْبِته، بل ظواهر النصوص على خلافه؛ فالثابتُ ـ إذَنْ ـ أنها قنطرةٌ واحدةٌ تكون بعد عبور الصراط العظيم، جَعَلها اللهُ للمؤمنين خاصَّةً الناجين مِنَ النار.

وإذا ثَبَت أنَّ القنطرة واحدةٌ لعبور أهل الجنَّة عليها إلَّا أنَّ العلماء اختلفوا في صفة القنطرة المذكورة في الحديث: هل هي جزءٌ مِنَ الصراط العظيم المنصوب على جسر جهنَّمَ وتتمَّةٌ له، وهي طرَفُه الذي يلي الجنَّةَ، أم أنَّ القنطرة جسرٌ صغيرٌ مُستقِلٌّ يكون بين الصراط الأوَّل والجنَّة، وهو خاصٌّ بالمؤمنين الذين كُتِبَتْ لهم السعادةُ؟

والظاهر أنَّ ابنَ حجرٍ رحمه الله مالَ إلى القول الأوَّل دون جزمٍ، حيث قال في [«فتح الباري» (٥/ ٩٦)]: « الذي يظهر أنها [أي: القنطرة] طرَفُ الصراط ممَّا يلي الجنَّةَ، ويحتمل أَنْ تكون مِنْ غيره بين الصراط والجنَّة »، وجَزَم السيوطيُّ رحمه الله في اختياره له فيما نَقَله عنه السفارينيُّ رحمه الله في [«لوامع الأنوار البهيَّة» (٢/ ١٩٠)]=

....

= بما نصُّه: « قال الحافظ جلال الدين السيوطيُّ في كتابه «البدور السافرة في علوم الآخرة»: والأوَّلُ ـ يعني: أنه طرَفُ الصراط الذي يلي الجنَّةَ ـ هو المختارُ الذي دلَّتْ عليه أحاديثُ القناطر والحساب على الصراط ».

أمَّا القرطبيُّ رحمه الله فقَدْ رجَّح القولَ الثانيَ: على أنه صراطٌ آخَرُ مُستقِلٌّ عن الأوَّل، فبوَّب على ذلك في [«التذكرة» (٢/ ٤٠٨)]: «بابُ ذِكْرِ الصراط الثاني وهو القنطرةُ التي بين الجنَّة والنار»، ثمَّ أردف قائلًا: « اعْلَمْ ـ رحمك الله ـ أنَّ في الآخرة صراطين: أَحَدُهما مَجازٌ لأهل المَحْشَر كُلِّهم ثقيلِهم وخفيفِهم إلَّا مَنْ دَخَل الجنَّةَ بغير حسابٍ، أو مَنْ يَلتقِطُه عُنُقُ النار، فإذا خَلَص مَنْ خَلَص مِنْ هذا الصراطِ الأكبر الذي ذَكَرناه ـ ولا يَخْلُصُ منه إلَّا المؤمنون الذين عَلِم اللهُ منهم أنَّ القِصاصَ لا يَستنفِدُ حسناتِهم ـ حُبِسُوا على صراطٍ آخَرَ خاصٍّ لهم، ولا يرجع إلى النار مِنْ هؤلاء أحَدٌ إِنْ شاء اللهُ؛ لأنهم قد عبروا الصراطَ الأوَّلَ المضروبَ على متن جهنَّمَ، الذي يسقط فيها مَنْ أوبقه ذنبُه، وأربى على الحسناتِ بالقِصاص جرمُه ».

واستدلَّ له بحديثِ أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه المتقدِّم [انظر: (ص ٣١٩)]، وما نَقَله عن مُقاتلٍ أنه قال: « إذا قطعوا جسرَ جهنَّمَ حُبِسوا على قنطرةٍ بين الجنَّة والنار، فيُقتصُّ لبعضهم مِنْ بعضٍ مَظالمُ كانَتْ بينهم في الدنيا، حتَّى إذا هُذِّبُوا وطُيِّبُوا قال لهم رضوانٌ وأصحابُه: « ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ ـ بمعنى التحية ـ ﴿طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزُّمَر] » ».

ويُؤيِّد هذا القولَ بأنَّ القنطرة جسرٌ مُستقِلٌّ قولُه صلى الله عليه وسلم ـ في حديثِ أبي سعيدٍ رضي الله عنه =

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا[1] ﴿٧٢﴾ ﴾ [مريم].

= المتقدَّم ـ وفيه: « حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ » [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٣١٩)]؛ فإنَّ ظاهر الحديثِ مُشْعِرٌ أنَّ القنطرة صراطٌ آخَرُ صغيرٌ ليس على متن جهنَّمَ ـ كما هو شأنُ الصراط العظيم ـ وإنما هو بين الجنَّة والنار، وهذا يدلُّ على أنَّ القنطرة مُنفصِلةٌ عن جهنَّم تبدأ حيث ينتهي الصراطُ المضروبُ على جهنَّمَ، هذا مِنْ جهةٍ، ولحصول الاختلافِ المتميِّزِ بين الصراط والقنطرة ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ سواءٌ مِنْ حيثُ الحكمة أو الاختصاص:

ـ أمَّا مِنْ الحيثية الأولى فإنَّ الحكمة مِنْ نَصْبِ الصراط: ليسقط منه الهالكون مَنْ عَدَا المؤمنين أثناءَ عبورهم إهانةً لهم وتعذيبًا، وإظهارًا لفضلِ الله تعالى على المؤمنين في النجاة مِنَ النار وتحسيرِ الكافرين بفوز المؤمنين ونجاتهم، بينما الحكمة مِنْ نَصْبِ القنطرة تختلف عن هذا المعنى؛ فهو لتنقيةِ ما في قلوب المؤمنين وتخليصهم مِنْ كُلِّ الشوائب وتطييبهم؛ ليدخلوا الجنَّةَ منزوعًا مِنْ صدورهم الغِلُّ ـ كما تقدَّم قريبًا [انظر: (ص ٣١٩)] ـ.

ـ وأمَّا مِنْ حيثية الاختصاص فإنَّ القنطرة خاصَّةٌ بالمؤمنين، يجري فيها قصاصٌ أخصُّ، لا شبيهٌ له، ويكون لاقتصاصِ مَظالمَ خاصَّةٍ بين أهل الجنَّة، لا يَستنفِدُ القصاصُ ـ فيما بينهم ـ حسناتِ أَحَدٍ منهم، وليس فيه سقوطٌ في النار، وهذا الاختصاصُ المميِّز غيرُ واردٍ في الصراط العظيم، والله أعلمُ.

(١) «م.ر.ب»: « جُثِيًّا »، وهي قراءةُ نافعٍ.

[فصل: دار العذاب]

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَ النَّارَ دَارَ عَذَابٍ وَخُلُودٍ لِمَنْ كَفَرَ، وَدَارَ عَذَابٍ إِلَى أَجَلٍ لِمَنْ رَجَحَتْ سَيِّئَاتُهُمْ عَلَى حَسَنَاتِهِمْ فَاسْتَحَقُّوا العَذَابَ، وَأَنَّ العَذَابَ فِيهَا(١) لِلْأَرْوَاحِ وَالأَجْسَادِ(٢)؛ ....

(١) ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٢) «م.ف»: «وَالأَجْسَامِ».

عَنَى المصنِّف رحمه الله بدار العذاب: عالَمَ الشقاء ذا الدركات، وهي دار البوار نارُ جهنَّم، مأوى الكافرين الفُجَّار، الذين دَعَتْهم الرُّسُلُ إلى إدراك الخيرات والنجاة مِنْ شرور الدنيا والآخرة، فبدَّلوا هذه النعمةَ بردِّها والكفرِ بها والصدِّ عنها؛ فعُوقِبوا بنار جهنَّمَ المحيطِ بهم حرُّها مِنْ جميع الجوانب جزاءً على ما اقترفوه مِنْ ضلالٍ وإضلالٍ ومُوبِقاتٍ وجرائمَ وكبائرِ الإثم والفواحش؛ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم].

ولدار العذاب دركاتٌ، واحدةٌ تحت الأخرى إلى نهايتها، مُتفاوِتةٌ في شدَّةِ عذابها، أخفُّها عذابًا أعلاها، وأشدُّها أسفلُها؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، ولجهنَّمَ سبعةُ أبوابٍ، كُلُّ واحدٍ مِنْ أهل النار يدخل مِنْ=

....

= بابٍ بحَسَبِ عملِه، ويَسْتقِرُّ في دَرَكٍ بقَدْرِ فعله؛ قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الحِجر].

وقد وردَتْ أسماءُ النارِ دارِ العذاب في القرآن الكريم مفرَّقةً في عِدَّةِ سُوَرٍ، وقد تقدَّم ذِكْرُ نارِ جهنَّم، والنارُ: أشهرُ أسمائها، وَرَد في القرآن أكثرَ مِنْ مائةِ مرَّةٍ، ومعناه: اللهبُ الذي تنبعث منه الحرارةُ، ويكون به الإحراقُ وإنضاجُ الشيء؛ قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ١٤].

ومِنْ أسمائها:

ـ لَظَى: وهي النارُ التي تتلظَّى فيشتدُّ لهبُها فتنزعُ ـ مِنْ شدَّةِ عذابها ـ جِلْدَ الرأسِ والأعضاء الظاهرة والباطنة، وتجذب إليها كُلَّ مَنْ أدبر عن اتِّباع الحقِّ ووَلَّى ظَهْرَه مُنصرِفًا عن طاعة الله، وجَمَع المالَ بعضَه مِنْ بعضٍ مِنْ غير أداءِ حقِّ الله فيه؛ لشدَّةِ حُبِّه له وافتتانِه بالدنيا؛ قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾ [المعارج].

ـ الحُطَمة: وهي النار التي وَقودُها الناسُ والحجارة، والتي مِنْ شِدَّتها تنفذ مِنْ أجسادِ أعداء الله إلى قلوبهم وتَطَّلِعُ عليها؛ قال تعالى: ﴿ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾ ﴾ [الهُمَزة]، وسُمِّيَتْ بذلك لأنَّها تَحطِم كُلَّ شيءٍ يُطْرَح فيها وتَهْشِمُه وتكسِره.

ـ السعير: وهو عذابُ النارِ المُوقَدُ المهيَّج الذي يُهانُ به أهلُه غايةَ الهوان والذلِّ،=

....

= وقد أعدَّه اللهُ تعالى لِمَنْ تمرَّد عليه فأضلَّ عِبادَه، وهُم مَنْ يَسترِقُون خبرَ السماءِ وأتباعُهم مِنَ الكُفَّار؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾ [الملك].

ـ سَقَرُ: وهي عذابُ النارِ الشديدُ الوقعِ، الذي يُؤْلِم الدِّماغَ بحرِّه، جزاءُ كُلِّ مَنْ عانَدَ الحقَّ ونابذه، وحارب اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ وشاقَّهما، في حقِّه العذابُ الشديد في سَقَرَ التي لا تُبْقي على شيءٍ مِمَّا يُطْرَح فيها إلَّا وقد بلَغَتْه مِنْ شدَّتِها؛ فلا تترك المعذَّبَ يخرج منها، بل تلوحه في عذابها وتسوِّدُ وجهَه وتشوِّهه، وتُقَلْقِلُه بشدَّةِ حرِّها وقُرِّها؛ قال تعالى عن الوليد بنِ المغيرة وأمثالِه مِنَ الكُفَّار المُعانِدين: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾ [المدَّثِّر].

ـ **الجحيم**: هو عذابُ النارِ المتأجِّجُ المتوقِّد، العظيمُ، المُضطرِبُ، الكثيرُ الجمرِ، الأليمُ، يصلاهُ الفُجَّارُ يومَ الجزاء بما قصَّروا في حقوق الله وحقوقِ عباده، ويبقَوْن مُلازِمين لعذاب الجحيم لا يخرجون منه؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾ [الانفطار].

ـ **الهاوية**: وهي المكان المُنخفِضُ كثيرًا مِنَ النار الذي لا يرجع مَنْ يسقط فيه، وهي الوهدةُ الغامضة السافلة التي لا يُدْرَك قعرُها، يُعَدُّ مأوَى مَنْ يسقط فيه إنْ خفَّتْ موازينُه ولم تكن له حسناتٌ تُقاوِمُ سيِّئاته، حيث يُكَبُّ في نارٍ حاميةٍ على أمِّ رأسه، وتبقى النارُ مَسْكَنَه ومختصَّةً له، بمَثابةِ الأمِّ المُلازِمة له؛ قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ =

= ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة].

هذا، وقد اتَّفق أهلُ السنَّةِ والجماعة على أنَّ الجنَّةَ والنارَ حقٌّ، وأنهما مخلوقتان قبل الخَلْق موجودتان الآنَ، وأنَّ الله تعالى خَلَق لهما أهلًا؛ فمَنْ شاء منهم فإلى الجنَّة فضلًا منه، ومَنْ شاء منهم فإلى النار عدلًا منه، والأدلَّةُ مِنَ الكتاب والسنَّة الصحيحة على أنَّ الجنَّة والنار مخلوقتان وموجودتان أكثرُ مِنْ أَنْ تُحْصى أو تُحْصَر، تدلُّ على أنَّ الله خَلَقهما وأعدَّ فيهما للفريقين مِنَ النعيم المقيم لأهل الجنَّة ومِنَ العذاب المُهين لأهل النار.

ويحسن ـ في هذا المَقامِ ـ أَنْ أُورِدَ بعضَ النصوص الشرعية على خَلْقِ الجنَّة والنار قبل خَلْق الخَلْق ووجودهما الآن؛ فأقتصر على ذِكْرِ طَرَفٍ مِنْ نصوص القرآن الكريم، ثمَّ أستتبعه ببعض النصوص مِنَ السنَّة النبوية الصحيحة، وأختمه بأقوالِ سلفِ الأمَّة على العرض التالي:

• مِنْ نصوص القرآن الكريم:

ـ قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝١٣٣﴾ [آل عمران]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ [النجم]، وقوله تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [الحديد: ٢١]، هذا في شأن الجنَّة.

ـ أمَّا بخصوص النار فقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝٢٤﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ۝١١﴾ [الفرقان]،=

= وقال تعالى: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾ [الفتح]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢﴾ [النبأ].

• مِنْ نصوص السنَّة النبوية الصحيحة ما يلي:

- حديث أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه مرفوعًا، وفيه: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا»، قَالُوا: «وَمَا رَأَيْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟» قَالَ: «رَأَيْتُ الجَنَّةَ وَالنَّارَ» [أخرجه مسلمٌ في «الصلاة» (٤/ ١٥٠ ـ ١٥١) بابُ تحريمِ سبقِ الإمام بركوعٍ أو سجودٍ ونحوِهما، والنسائيُّ في «الصلاة» (٣/ ٨٣) باب النهي عن مبادرة الإمام بالانصراف مِنَ الصلاة، والبيهقيُّ في «السنن الكبرى» (٢/ ١٣١)، وابنُ خزيمة في «صحيحه» (٣/ ٤٧)].

- حديث عِمْرانَ بنِ الحُصَيْن رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «اطَّلَعْتُ فِي الجَنَّةِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا الفُقَرَاءَ، وَاطَّلَعْتُ فِي النَّارِ فَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣١٨) بابُ ما جاء في صفة الجنَّة وأنها مخلوقةٌ، والترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧١٦) بابُ ما جاء أنَّ أكثرَ أهلِ النارِ النساءُ].

- حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الجَنَّةَ قَالَ لِجِبْرِيلَ: «اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا»، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: «أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»، ثُمَّ حَفَّهَا بِالمَكَارِهِ ثُمَّ قَالَ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا»، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: «أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ»»، قَالَ: «فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّارَ قَالَ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا»، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: «أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلُهَا»، فَحَفَّهَا بِالشَّهَوَاتِ ثُمَّ قَالَ: «يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ فَانْظُرْ إِلَيْهَا»، فَذَهَبَ فَنَظَرَ إِلَيْهَا ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: «أَيْ رَبِّ وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا»» [أخرجه أبو داود=

....

= في «السنَّة» (٥/ ١٠٨ ـ ١٠٩) بابٌ في خَلْق الجنَّة والنار، والترمذيُّ في «صفة الجنَّة» (٤/ ٦٩٣ ـ ٦٩٤) بابُ ما جاء: حُفَّتِ الجنَّةُ بالمكاره وحُفَّتِ النارُ بالشهوات، والنسائيُّ في «الأيمان والنذور» (٧/ ٣) باب الحلف بعزَّة الله تعالى. والحديث صحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تحقيقه لـ «مسند أحمد» (١٦/ ١٦٩)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح أبي داود» برقم: (٤٧٤٤) وفي «صحيح الترمذي» برقم: (٢٦٠٢)].

ـ حديث عائشة رضي الله عنها ـ في قصَّة خسوف الشمس ـ مرفوعًا، وفيه: «لَقَدْ رَأَيْتُ فِي مَقَامِي هَذَا كُلَّ شَيْءٍ وُعِدْتُهُ، حَتَّى لَقَدْ رَأَيْتُ أُرِيدُ أَنْ آخُذَ قِطْفًا مِنَ الجَنَّةِ حِينَ رَأَيْتُمُونِي جَعَلْتُ أَتَقَدَّمُ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ جَهَنَّمَ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ» الحديث [أخرجه البخاريُّ في «العمل في الصلاة» (٣/ ٨١) باب: إذا انفلتَتِ الدابَّةُ في الصلاة، ومسلمٌ في «الكسوف» (٦/ ٢٠١ ـ ٢٠٣)، والنسائيُّ في «الكسوف» (٣/ ١٣٠ ـ ١٣٢)]، وذَكَر ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«الفتح» (٣/ ٨٣)] أنَّ مِنْ فوائدِ هذا الحديثِ أنَّ الجنَّة والنارَ مخلوقتان موجودتان.

ونظائرُ ذلك في السنَّة كثيرةٌ.

• وإلى هذه الآياتِ والأحاديث الصحيحة وغيرِها ذَهَبَ أهلُ السنَّة والجماعة، ومِنْ أقوالهم:

ـ قول الإمام أحمد رحمه الله: «وأنَّ الله خَلَق الجنَّةَ قبل الخَلْق، وخَلَق لها أهلًا، ونعيمُها دائمٌ، ومَنْ زَعَم أنه يَبِيدُ مِنَ الجنَّة شيءٌ فهو كافرٌ، وخَلَق النارَ قبل خَلْق الخَلْق، وخَلَق لها أهلًا، وعذابُها دائمٌ» [مقطعٌ مِنْ رسالة الإمام أحمد لمسدَّد بنِ مُسَرْهَد بنِ مُسَرْبَلٍ البصريِّ أوردها ابنُ أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٣٤٢ ـ ٣٤٥)، ونصُّ المقطع المذكور (١/ ٣٤٣)].

ـ قول الآجُرِّيِّ رحمه الله في [«الشريعة» (٣٧٥)]: «اعلموا ـ رَحِمَنا اللهُ وإيَّاكم ـ =

....

= أنَّ القرآن شاهدٌ أنَّ الله عزَّ وجلَّ خَلَق الجنَّةَ والنار قبل أَنْ يُخْلَق آدمُ عليه الصلاةُ والسلام، وخَلَق للجنَّة أهلًا وللنار أهلًا قبل أَنْ يُخْرِجهم إلى الدنيا، لا يختلف في هذا مَنْ شَمِله الإسلامُ وذاق حلاوةَ طعمِ الإيمان؛ دلَّ على ذلك القرآنُ والسنَّةُ؛ فنعوذ بالله ممَّنْ يكذِّب بهذا».

- وحكى أبو الحسن الأشعريُّ رحمه الله عن أصحاب السنَّة والحديث في [«مقالات الإسلاميين» (٣٢٤)]: أنهم يُقِرُّون بأنَّ الجنَّة والنار مخلوقتان، وقد نَقَل ابنُ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح الطحاوية» (٤٧٦)] إجماعَ أهلِ السنَّة على ذلك حيث قال: «اتَّفق أهلُ السنَّة على أنَّ الجنَّة والنار مخلوقتان موجودتان الآن».

وخالفتِ المعتزلةُ وأتباعهم مِنَ النفاة المعطِّلين صريحَ القرآن الكريم والسنَّةِ الصحيحة، فأنكرَتْ أَنَّ الجنَّةَ والنار مخلوقتان موجودتان الآنَ فقالوا: بل يُنْشِئُهما اللهُ يومَ القيامة، قال شارحُ [«الطحاوية» (٤٧٦)]: «وحَمَلهم على ذلك أصلُهم الفاسد الذي وضعوا به شريعةً لِمَا يفعله اللهُ، وأنه ينبغي أَنْ يفعل كذا، ولا ينبغي له أَنْ يفعل كذا!! وقاسوهُ على خَلْقِه في أفعالهم، فهُمْ مشبِّهةٌ في الأفعال، ودَخَل التجهُّمُ فيهم فصاروا مع ذلك معطِّلةً! وقالوا: خَلْقُ الجنَّة قبل الجزاء عبثٌ؛ لأنها تصير معطَّلةً مُدَدًا مُتطاوِلةً!! فردُّوا مِنَ النصوص ما خالف هذه الشريعةَ الباطلة التي وضعوها للربِّ تعالى، وحرَّفوا النصوصَ عن مواضعها، وضلَّلوا وبدَّعوا مَنْ خالف شريعتَهم» [انظر - أيضًا -: «أصول الدين» للبغدادي (٢٣٧)، «الحجَّة في بيان المحجَّة» للأصفهاني (١/ ٥٠٨)، «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (٢/ ٢٣٠ وما بعدها)، «حادي الأرواح» لابن القيِّم (٤٦)].

وإذا كانَتِ الجنَّةُ مُعَدَّةً ثوابًا لأولياء الله تعالى المؤمنين، وهي مُستقَرٌّ دائمٌ لأحبابه=

= مِنَ المُتَّقِين، والنارُ مُعَدَّةٌ عقابًا لأهل معصيته إلَّا مَنْ رَحِم اللهُ، وهي مُستقَرٌّ خالدٌ لأعدائه مِنْ كُفَّارٍ ومنافقين ومشركين؛ فمُعتقَدُ أهلِ السنَّة والجماعة أنَّ الجنَّة والنار لا تَبيدان ولا تَفْنَيَان، بل هما دائمتان أبدًا بدوام السماوات والأرض، وأهلُهما فيهما خالدون.

أمَّا عُصاةُ الموحِّدين فإنهم لا يخلدون في النار ـ وإنْ دخلوها بما اقترفوا مِنَ الذنوب فاستحقُّوا العذابَ مِنْ أجلها ـ فإنهم يخرجون منها بعد تطهيرهم مِنَ الذنوب برحمةِ ربِّ العالَمِين وشفاعةِ الشافعين مِنْ أهل طاعته، ثمَّ يبعثهم إلى جنَّتِه؛ فدارُ عذابِهم تفنى ولا يبقى في جهنَّمَ مِنْ عُصاة الموحِّدين أحَدٌ، ولهم حكمٌ مختصٌّ بهم تدلُّ عليه السنَّةُ المستفيضة: مِنْ أنه يخرج مِنَ النار مَنْ قال: «لا إله إلَّا اللهُ»، وأحاديثُ الشفاعة تُبَلْوِرُ هذا المعنى، ومنها حديثُ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولًا الجَنَّةَ، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْوًا، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: «اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ»، فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى»، فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: «اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ»»، قَالَ: «فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلْأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ، وَجَدْتُهَا مَلْأَى»، فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: «اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ؛ فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا ـ أَوْ: إِنَّ لَكَ عَشَرَةَ أَمْثَالِ الدُّنْيَا ـ»»، قَالَ: «فَيَقُولُ: «أَتَسْخَرُ بِي ـ أَوْ: أَتَضْحَكُ بِي ـ وَأَنْتَ المَلِكُ؟»»، قَالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»، قَالَ: «فَكَانَ يُقَالُ: ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً» الحديث [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤١٨) بابُ صفةِ الجنَّة والنار،=

....

= ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٣٩) بابُ آخِرِ أهل النار خروجًا، والترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧١٢) باب (١٠)، وابنُ ماجه في «الزهد» (٢/ ١٤٥٢) بابُ صفةِ الجنَّة].

وغيرها مِنَ الأحاديث الصحيحة والصريحة في خروج الموحِّدين مِنَ النار.

وقد حرَّر ابنُ القيِّم رحمه الله في [«الوابل الصيِّب» (٢٠)] هذه الدُّورَ الثلاثَ وطبقاتِ أهلِها السابقة بقوله: «ولَمَّا كان الناسُ على ثلاث طبقاتٍ: طيِّبٍ لا يَشينُه خبثٌ، وخبيثٍ لا طِيبَ فيه، وآخَرُون فيهم خبثٌ وطِيبٌ؛ كانت دُورُهم ثلاثةً: دار الطيِّب المحض، ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان، ودارٌ لِمَنْ معه خبثٌ وطِيبٌ وهي الدار التي تفنى وهي دار العُصاة، فإنه لا يبقى في جهنَّمَ مِنْ عصاة الموحِّدين أحَدٌ، فإنهم إذا عُذِّبوا بقدر جزائهم أُخْرِجوا مِنَ النار فأُدْخِلوا الجنَّةَ، ولا يبقى إلَّا دارُ الطِّيب المحضِ ودارُ الخُبْثِ المحض».

هذا، وممَّا يدلُّ على أبدية الجنَّة والنار ودوامِهما وخلودِ أصحابهما فيهما نصوصٌ شرعيةٌ كثيرةٌ، وأُورِدُ طَرَفًا منها على الوجه التالي:

مِنْ نصوص الآيات القرآنية:

- قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ [البقرة].

- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾ [النساء].

- قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٣٧﴾ [المائدة]. =

....

= - قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة].

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف].

قال ابنُ أبي زمنين رحمه الله في [«أصول أهل السنَّة» (١٧١)]: «ولو لم يذكر اللهُ تبارك وتعالى الخلودَ إلَّا في آيةٍ واحدةٍ لَكانَتْ كافيةً لمَنْ شَرَح اللهُ صدرَه للإسلام، ولكِنْ ردَّد ذلك ليكون له الحجَّةُ البالغة».

ومِنْ نصوص السنَّة الصحيحة:

- قوله ﷺ: «يُجاءُ بِالمَوْتِ يَوْمَ القِيَامَةِ كَأَنَّهُ كَبْشٌ أَمْلَحُ - زَادَ أَبُو كُرَيْبٍ: فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَاتَّفَقَا فِي بَاقِي الحَدِيثِ - فَيُقَالُ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟» فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: «نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ»»، قَالَ: «وَيُقَالُ: «يَا أَهْلَ النَّارِ، هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟»» قَالَ: «فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَقُولُونَ: «نَعَمْ، هَذَا المَوْتُ»»، قَالَ: «فَيُؤْمَرُ بِهِ فَيُذْبَحُ»، قَالَ: «ثُمَّ يُقَالُ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»»، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [مريم] [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٢٩٠)].

- قوله ﷺ: «يُؤْتَى بِالمَوْتِ كَبْشًا أَغْثَرَ فَيُوقَفُ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَالُ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ»، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، وَيُقَالُ لِأَهْلِ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ وَيَرَوْنَ أَنْ قَدْ=

....

= جَاءَ الفَرَجُ، فَيُذْبَحُ فَيُقَالُ: «خُلُودٌ لَا مَوْتَ»» [أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٠) مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه. قال محقِّقو طبعة الرسالة (١٥/ ٢٦٦): «حديثٌ صحيحٌ، وهذا إسنادٌ حسنٌ»].

ـ قوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا صَارَ أَهْلُ الجَنَّةِ إِلَى الجَنَّةِ، وَأَهْلُ النَّارِ إِلَى النَّارِ؛ جِيءَ بِالمَوْتِ حَتَّى يُجْعَلَ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، ثُمَّ يُذْبَحُ، ثُمَّ يُنَادِي مُنَادٍ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ»، فَيَزْدَادُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحِهِمْ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنِهِمْ» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤١٥) بابُ صفةِ الجنَّة والنار، ومسلمٌ في «الجنَّة وصفةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٨٦) بابُ جهنَّم ـ أعاذنا الله منها ـ، مِنْ حديثِ عبد الله ابنِ عمر رضي الله عنهما، وفي الباب عن أبي سعيدٍ الخدريِّ وأبي هريرة رضي الله عنهما في الصحيحين وغيرهما].

ـ قوله صلى الله عليه وسلم: «يُدْخِلُ اللهُ أَهْلَ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، وَيُدْخِلُ أَهْلَ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُومُ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ فَيَقُولُ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ لَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ لَا مَوْتَ، كُلٌّ خَالِدٌ فِيمَا هُوَ فِيهِ»» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤٠٦) باب: يدخل الجنَّة سبعون ألفًا بغير حسابٍ، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٨٥) بابُ جهنَّم ـ أعاذنا الله منها ـ، مِنْ حديثِ عبد الله بنِ عمر رضي الله عنهما].

ـ قوله صلى الله عليه وسلم: «يُنَادِي مُنَادٍ: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَئِسُوا أَبَدًا»، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ [الأعراف]» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٥)، والترمذيُّ في «التفسير» (٥/ ٣٧٤) باب: ومِنْ سورة الزُّمَر، مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ وأبي هريرة رضي الله عنهما].

ـ قوله صلى الله عليه وسلم: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا ـ وفي روايةٍ: الَّذِينَ لَا يُرِيدُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِخْرَاجَهُمْ ـ فَإِنَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ فِيهَا وَلَا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ=

....

= بِذُنُوبِهِمْ - أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ - فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ»؛ فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٣٧) بابُ إثباتِ الشفاعة وإخراجِ الموحِّدين مِنَ النار، وابنُ ماجه في «الزهد» (٢/ ١٤٤١) بابُ ذِكْر الشفاعة، وأحمد (٣/ ٥، ١١، ٢٠، ٢٥)، والدارميُّ في «الرِّقاق» (٢/ ٣٣٢) بابُ ما يُخرِج اللهُ مِنَ النار برحمته، مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه].

- قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة الطويل، وفيه: «ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَقُولُ: «مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُودُ»» [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ١٦٠) بابُ قولِ الله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]، وفي «الرِّقاق» (١١/ ٤١٧) بابُ صِفَة الجنَّة والنار، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٥٣ - ٥٨)، مِنْ حديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه]. قال البخاريُّ رحمه الله: «إِلَّا مَنْ حَبَسه القرآنُ: يعني قولَ الله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [البقرة: ١٦٢، وغيرها]» [انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ١٦٠)].

فهذه الأدلَّة مِنَ الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة وغيرُها صريحةٌ في أبدية الجنَّة والنارِ ودوامِها، وخلودِ أهلهما فيهما، وهو مذهبُ أهلِ السنَّة والجماعة.

ومِنْ أقوالهم - في ذلك -:

- قول الإمام أحمد رحمه الله في [«السنَّة» (٤٧)]: «وقد خُلِقَتِ النارُ وما فيها، وخُلِقَتِ الجنَّةُ وما فيها، خَلَقهما اللهُ عزَّ وجلَّ ثمَّ خَلَق الخَلْقَ لهما، لا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدًا، فإنِ احتجَّ مُبتدِعٌ بقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]=

= ونحوِ هذا مِنْ مُتشابِهِ القرآن؛ قِيلَ له: كُلُّ شيءٍ ممَّا كَتَبَ اللهُ عزَّ وجلَّ عليه الفَناءَ والهلاكَ هالكٌ، والجنَّةُ والنارُ خَلَقهما اللهُ عزَّ وجلَّ للبقاء لا للفَناء والهلاك، وهما مِنَ الآخرة لا مِنَ الدنيا».

- قال ابنُ بطَّة رحمه الله في [«الشرح والإبانة» (٢٠٨-٢٠٩)]: «ونعيمُ الجنَّة لا يزول، دائمٌ أبدًا في النَّضْرة والنعيم، والأزواجِ مِنَ الحُورِ العِين لا يَمُتْنَ ولا ينقصن ولا يَهْرَمْن، ولا ينقطع ثمارُها ونعيمها، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، أمَّا عذاب النارِ فدائمٌ أبدًا بدوام الله، وأهلُها خالدون مَنْ خَرَج مِنَ الدنيا غيرَ مُعتقِدِ التوحيدَ ولا متمسِّكٍ بالسنَّة».

- وقال أبو جعفرٍ الطحاويُّ رحمه الله في [«العقيدة الطحاوية» (٤٧٦)]: «والجنَّة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان».

- وقال الصابونيُّ رحمه الله في [«عقيدة السلف» (٦٦)]: «ويشهد أهل السنَّة ويعتقدون أنَّ الجنَّة والنار مخلوقتان، وأنهما باقيتان لا تفنيان أبدًا وأنَّ أهل الجنَّة لا يخرجون منها أبدًا، وكذلك أهل النار الذين هم أهلُها خُلِقوا لها لا يخرجون أبدًا».

وقال ابنُ أبي زمنين رحمه الله في [«أصول السنَّة» (١٧٠)]: «وأهل السنَّة يؤمنون بأنَّ الجنَّة والنار لا يفنيان ولا يموت أهلوها».

وخالفَتْ طائفةٌ مِنْ أهل الكلام والتعطيل كجهم بنِ صفوانَ وأبي الهُذَيْلِ العلَّاف وقومٍ مِنَ الروافض، وقد ذَهَب جهمٌ إلى أنَّ الجنَّة والنار تفنيان ويفنى أهلُهما، أمَّا أبو الهذيل فذَهَب إلى أنَّ الجنَّة والنار لا تفنيان ولا يفنى أهلُهما، إلَّا أنَّ حركاتِهم=

= تفنى، ويبقَوْن بمنزلة الجماد لا يتحرَّكون وهُمْ ـ في ذلك ـ أحياءٌ متلذِّذون أو معذَّبون، [انظر: «الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» (٤/ ٨٣)، وانظر اختلاف الناس في أبدية النار في: «شرح الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٤٨٣)، «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (٢/ ٢٣٤)].

وأقوالُ هؤلاء المُخالِفين ـ في حقيقة الأمر ـ لا تقوى على النهوض لمصادمتها لصريح النصوص الشرعية المتكاثرة وإجماع السلف، قال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (١٨/ ٣٠٧)] ما نصُّه: «وقد اتَّفق سلفُ الأمَّة وأئمَّتُها وسائرُ أهل السنَّة والجماعة على أنَّ مِنَ المخلوقات ما لا يُعْدَم ولا يفنى بالكُلِّية كالجنَّة والنار والعرش وغيرِ ذلك، ولم يقل بفَناءِ جميع المخلوقات إلَّا طائفةٌ مِنْ أهل الكلام المُبتدِعين كالجهم بنِ صفوان ومَنْ وافقه مِنَ المعتزلة ونحوِهم، وهذا قولٌ باطلٌ يخالف كتابَ اللهِ وسنَّةَ رسوله وإجماعَ سلفِ الأمَّة وأئمَّتِها»، وقال رحمه الله أيضًا في [«بيان تلبيس الجهمية» (١/ ١٤٦)]: «ثمَّ أخبر [أي: ربُّنا عزَّ وجلَّ] ببقاء الجنَّة والنار بقاءً مطلقًا». وقال شارحُ [«الطحاوية» (٤٨٠)]: «وقال بفَناءِ الجنَّة والنارِ الجهمُ بنُ صفوانَ إمامُ المعطِّلة، وليس له سلفٌ قطُّ، لا مِنَ الصحابة ولا مِنَ التابعين لهم بإحسانٍ، ولا مِنْ أئمَّة المسلمين، ولا مِنْ أهل السنَّة، وأنكره عليه عامَّةُ أهل السنَّة وكفَّروه به، وصاحوا به وبأتباعه مِنْ أقطار الأرض، وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناعُ وجودِ ما لا يتناهى مِنَ الحوادث! وهو عمدةُ أهلِ الكلام المذموم التي استدلُّوا بها على حدوث الأجسام، وحدوثِ ما لم يَخْلُ مِنَ الحوادث، وجعلوا ذلك عُمْدتَهم في حدوث العالَم، فرأى الجهم أنَّ ما يمنع مِنْ حوادثَ لا أوَّلَ لها في الماضي، يمنعه=

....

= في المستقبل!! فدوامُ الفعلِ عنده على الربِّ في المستقبل ممتنِعٌ، كما هو ممتنِعٌ عنده عليه في الماضي!! وأبو الهُذَيْل العلَّافُ شيخُ المعتزلة وافقه على هذا الأصل، لكِنْ قال: إنَّ هذا يقتضي فَناءَ الحركات فقال بفَناءِ حركاتِ أهل الجنَّة والنار حتَّى يصيروا في سكونٍ دائمٍ، لا يقدر أحَدٌ منهم على حركةٍ!! وقد تقدَّم الإشارةُ إلى اختلافِ الناس في تسلسلِ الحوادث في الماضي والمُستقبَل، وهي مسألةُ دوامِ فاعلية الربِّ تعالى، وهو لم يَزَلْ ربًّا قادرًا فعَّالًا لِمَا يريد؛ فإنه لم يَزَلْ حيًّا عليمًا قديرًا، ومِنَ المُحال أَنْ يكون الفعلُ ممتنِعًا عليه لذاته ثمَّ ينقلب فيصيرَ ممكِنًا لذاته مِنْ غير تجدُّدِ شيءٍ، وليس للأوَّل حدٌّ محدودٌ حتَّى يصير الفعلُ ممكِنًا له عند ذلك الحدِّ ويكونَ قبله ممتنِعًا عليه؛ فهذا القولُ تصوُّرُه كافٍ في الجزم بفساده»، وقال رحمه الله في موضعٍ آخَرَ [(٤٨٦)]: «وقد دلَّتِ السنَّةُ المستفيضة أنه يخرج مِنَ النار مَنْ قال: «لا إله إلَّا الله»، وأحاديث الشفاعة صريحةٌ في خروج عُصاةِ الموحِّدين مِنَ النار، وأنَّ هذا حكمٌ مختصٌّ بهم، فلو خَرَج الكُفَّارُ منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختصَّ الخروجُ بأهل الإيمان، وبقاءُ الجنَّة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما».

تنبيهٌ مُهِمٌّ: لا يصحُّ إطلاقُ نسبةِ القول بفَناء النار إلى ابنِ تيمية رحمه الله، وما عُزِيَ إليه مِنْ قولٍ يخالف فيه إجماعَ أهلِ السنَّة والجماعةِ فهو مُحتمِلٌ غيرُ صريحٍ بالجزم والإقرار، وممَّا يُؤيِّدُ موافقتَه لإجماع أهل السنَّة بأبدية النار وعدمِ فَنائها ما يأتي:

ـ ورودُ عِدَّةِ نصوصٍ لابن تيمية رحمه الله فيها التصريحُ بعدمِ فَناءِ النار، ونَقَل فيها اتِّفاقَ السلف وأئمَّةِ السنَّة على ذلك، وقد سَبَق ذِكْرُ بعضِ نصوصه المصرَّح فيها=

= بأبدية النار وعدم فَنائها، [انظر: (ص ٣٣٦)].

ـ أنَّ قول المُخالِفين لإجماع سلفِ الأمّةِ وأئمّتِها مِنْ أهل الكلام حكَم عليه ابنُ تيمية رحمه الله بأنه باطلٌ ووَصَفه بالمخالف للكتاب والسنَّة والإجماع، ولا يخفى أنَّ الباطل مردودٌ لا يكون محَلًّا لاعتقاده والقولِ به.

ـ أنَّ ابنَ تيمية رحمه الله لم يتعقَّبِ ابنَ حزمٍ رحمه الله بنقدِ ما نَقَله مِنِ اتِّفاق العلماء على عدمِ فَناء النار؛ الأمرُ الذي يُؤكِّد صحَّةَ الإجماع ـ مِنْ جهةٍ ـ وموافقةَ ابنِ تيمية رحمه الله له مِنْ جهةٍ أخرى، قال ابنُ حزمٍ رحمه الله في [«مراتب الإجماع» (١٧٣)] ما نصُّه: «وأنَّ النار حقٌّ، وأنها دارُ عذابٍ أبدًا، لا تفنى ولا يفنى أهلُها أبدًا بلا نهايةٍ، وأنها أُعِدَّتْ لكُلِّ كافرٍ مُخالِفٍ لدين الإسلام، ولمَنْ خالف الأنبياءَ السالفين قبل مبعثِ رسول الله ﷺ وعليهم الصلاةُ والتسليمُ وبلوغِ خبرِه إليه».

هذا، ولدار العذاب صفاتٌ وأهوالٌ، ولأهلها هيئاتٌ وأحوالٌ، نُوجِزُها ـ مُختصَرةً ـ في النقاط التالية:

ـ يُؤْتى بجهنَّمَ تجرُّها الملائكةُ بالأَزِمَّة، لها تغيُّظٌ وزفيرٌ، تَقْلَقُ منها الأفئدةُ وتتصدَّع القلوبُ، وتبرز للناس في عَرَصاتِ القيامة وهي مُستعدَّةٌ بجميعِ ما فيها مِنَ العذاب لعقابِ الذين كذَّبوا رُسُلَ اللهِ وردُّوا ما جاءوهم به مِنَ الحقِّ، وتجرَّؤوا على محارمه ووقعوا في الذنوب والمعاصي؛ قال تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾﴾ [الفجر]، وقال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء]، =

....

= وقال ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمِها وأهلها» (١٧/ ١٧٨ ـ ١٧٩) بابُ جهنَّمَ ـ أعاذنا الله منها ـ، والترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧٠١) بابُ ما جاء في صفة النار، مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه].

ـ يُساقُ أهلُ النار إلى جهنَّمَ أفواجًا متتابعةً في ذلٍّ وخسرانٍ فوجًا بعد فوجٍ وزُمَرًا مُتدارِكةً في إهانةٍ وهلاكٍ زمرةً بعد زمرةٍ، وما إِنْ تراهم جهنَّمُ مِنْ مكانٍ بعيدٍ حتَّى يسمعوا لها تغيُّظَها المخيف وزفيرَها الرهيب، حتَّى إذا وصلوها وجدوا أبوابَها مُغْلَقةً فتفتحُ لهم وهُمْ في غاية الانحطاط والذلِّ والهوان، فتُؤنِّبُهم ملائكةُ العذاب الموكَّلون بهم على تكذيبهم وكُفْرِهم وعصيانهم، ثمَّ يُدْفَعون إلى النار دفعًا عنيفًا، وفيها يقع تلاوُمُ أهلِ النار وتشتدُّ حسرتُهم ويَدْعون على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، ولا يُجْدِي ذلك نفعًا ولا يُقْبَلُ رجاءٌ؛ قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزُّمَر]، وقال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ١٤ أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ ١٥ ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [الطور]. =

....

= وقد تقدَّم ذِكْرُ حديثٍ فيه: أنه يخرج مِنَ النار عُنُقٌ يلتهم مَنْ شاء اللهُ مِنْ أهل الموقف مِنَ الجبَّارين والمشركين والمصوِّرين وغيرِهم، [انظر: (ص ٣١٥)].

ويخبر اللهُ تعالى عن تلاوُمِ أهل النار في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سبأ]، وغيرِها مِنَ الآيات.

ـ العذاب الذي يصلاهُ أهلُ النار مِنَ المكذِّبين المُعْتَدين الآثمين على ثلاثة أنواعٍ، أعلاهُ عذابُ الحجاب عن ربِّ العالَمين المتضمِّن لسخطِه وغضبِه عليهم؛ فهو أشدُّ أنواعِ العذاب، ثمَّ يليه عذابُ الجحيم، ثمَّ عذابُ اللوم والتوبيخ، وهذه الأنواعُ جاءَتْ مُجتمِعةً في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾﴾ [المطفِّفين].

ـ وَصَفَ اللهُ تعالى النارَ وأهلَها وصفًا رهيبًا تشيب منه النواصي وتخشع منه القلوبُ وتنخلعُ منه الأفئدةُ، وأنَّ فيها مِنْ صنوف العذاب وضروبِ الشقاء ما=

= اللهُ به عليمٌ، وقد أخبر اللهُ تعالى ورسولُه عنها كي يستقيم المُنحرِفُ ويرجعَ الضالُّ ويرتدعَ الغاوي.

ومِمَّا ذَكَره اللهُ تعالى في وصف النار وصفًا ذاتيًا ـ باختصارٍ ـ:

١ ـ وقود النار الناسُ والحجارة، وأنها لا تشبع مِمَّا يُلْقى فيها، بل تطلب المزيدَ على المزيد؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]، قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «هِيَ حِجَارَةٌ مِنْ كِبْرِيتٍ، خَلَقَهَا اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا، يُعِدُّهَا لِلْكَافِرِينَ» [أخرجه الحاكم موقوفًا (٢/ ٢٦١، ٤٩٤)، وصحَّحه على شرط الشيخين، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٧٦)]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق].

٢ ـ النار عميقةٌ وواسعةٌ، وقعرُها بعيدٌ، ومَقامِعُها مِنْ حديدٍ، ولونُها أسودُ قاتمٌ شبيهٌ بالزفت، وحرُّها أعظمُ حرارةً مِنْ نار الدنيا بكثيرٍ؛ لحديثِ أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ مَا هَذَا؟» قَالَ: قُلْنَا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا؛ فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَة نعيمِها وأهلها» (١٧/ ١٧٩) بابُ جهنَّمَ ـ أعاذنا الله منها ـ، ورواه ابنُ أبي الدنيا في «صفة النار» (٢٣)، والحاكم (٤/ ٦٠٦)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

وقال ﷺ: «إِنَّ الصَّخْرَةَ العَظِيمَةَ لَتُلْقَى مِنْ شَفِيرِ جَهَنَّمَ فَتَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا وَمَا تُفْضِي إِلَى قَرَارِهَا» قَالَ: وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: «أَكْثِرُوا ذِكْرَ النَّارِ؛ فَإِنَّ حَرَّهَا شَدِيدٌ،=

= وَإِنَّ قَعْرَهَا بَعِيدٌ، وَإِنَّ مَقَامِعَهَا حَدِيدٌ» [أخرجه الترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧٠٢) بابٌ ما جاء في صفةِ قعرِ جهنَّم، مِنْ حديثِ عتبة بنِ غزوان رضي الله عنه. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٤٥)].

وقال ﷺ في بيانِ لونها: «أَتُرَوْنَهَا حَمْرَاءَ كَنَارِكُمْ هذِهِ؟ لَهِيَ أَسْوَدُ مِنَ القَارِ ـ وَالقَارُ: الزِّفْتُ ـ» [أخرجه مالكٌ في «الموطَّإ» في «ما جاء في صفةِ جهنَّم» (٣/ ١٥٦)، والبيهقيُّ في «البعث والنشور» (٢٨٦)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٧٣)].

وعن مجاهدٍ قال: «قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «أَتَدْرِي مَا سَعَةُ جَهَنَّمَ؟» قُلْتُ: «لَا»، قَالَ: «أَجَلْ، وَاللهِ مَا تَدْرِي، إِنَّ بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِ أَحَدِهِمْ وَبَيْنَ عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِينَ خَرِيفًا، تَجْرِي فِيهَا أَوْدِيَةُ القَيْحِ وَالدَّمِ»، قُلْتُ: «أَنْهَارًا؟» قَالَ: «لَا، بَلْ أَوْدِيَةٌ»» [أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ١١٦ ـ ١١٧)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٣٦)، وقال: «صحيح الإسناد»، ووافقه عليه الذهبي، وصحَّحه موقوفًا الألبانيُّ في «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٨٣)].

وقد بيَّن النبيُّ ﷺ نسبةَ درجةِ حرارةِ نارِ الدنيا إلى نار الآخرة بقوله: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ»، قَالُوا: «وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللهِ»، قَالَ: «فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمِها وأهلها» (١٧/ ١٧٩) باب جهنَّم ـ أعاذنا الله منها ـ، والترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧٠٩) بابُ ما جاء أنَّ ناركم هذه جزءٌ مِنْ سبعين جزءًا مِنْ نار جهنَّم، والبيهقيُّ في «البعث والنشور» (٢٨٥)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

٣ ـ حرُّ النار يُصْهَرُ به كُلُّ ما يُلْقى فيها لشِدَّته وازديادِ عذابه باستمرارٍ؛ قال تعالى: ﴿مَأْوَنٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا =

= ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝٩٨ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٧-٩٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ۝٨٨﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ [النبأ].

٤ ـ إحاطة النار بمَنْ يُلْقى فيها مِنْ كُلِّ جانبٍ، فهي للمعذَّبين غطاءٌ وفراشٌ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ۝١٦﴾ [الزمر].

٥ ـ لوازمُ عذابِ النار في دار الشقاء متنوِّعةٌ، وأنواع العذاب شتَّى:

فمِنْ لوازم العذاب: الأغلالُ والسلاسلُ والأنكالُ وغيرُها، ويدلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤﴾ [الإنسان]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣﴾ [المزّمّل]، وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٧٠ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ۝٧١ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ۝٧٢﴾ [غافر]، وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢﴾ [الحاقّة].

ومِنْ أنواع العذاب ـ أيضًا ـ: الحيَّاتُ الناهشة والعقاربُ اللاذعة التي يُعذَّبُ بلسعتِها ونهشِها أهلُ النار، يبقى حرُّها وحموتها السنينَ الطويلة، ويدلُّ عليه قولُه ﷺ: «إِنَّ فِي النَّارِ حَيَّاتٍ كَأَمْثَالِ أَعْنَاقِ البُخْتِ، تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ=

....

= حَمْوَتَهَا أَرْبَعِينَ خَرِيفًا، وَإِنَّ فِي النَّارِ عَقَارِبَ كَأَمْثَالِ الْبِغَالِ الْمُوكَفَةِ، تَلْسَعُ إِحْدَاهُنَّ اللَّسْعَةَ فَيَجِدُ حَمْوَتَهَا أَرْبَعِينَ سَنَةً» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٤/ ١٩١)، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٥٩٣)، والبيهقيُّ في «البعث والنشور» (٣١١)، مِنْ حديثِ عبد الله بنِ الحارث ابنِ جَزْءٍ الزُّبَيْدِيِّ رضي الله عنه. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٧/ ١٢٧٠) وفي «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٧٧)].

أمَّا ما ذَكَره اللهُ تعالى في وصفِ حالِ المعذَّبين في النار فيمكن اختصارُه فيما يلي:

١ ـ عذاب النار يقع للروح والبدن كما ذَكَره المصنِّف رحمه الله كما أنَّ نعيم الجنَّة يقع عليهما، فهو أمرٌ مسلَّمٌ عند أهل السنَّة، [انظر: «الآيات البيِّنات» للألوسي (٨٠)]، قال ابنُ تيمية رحمه الله في مَعْرِض الجواب عن عذاب القبر في [«مجموع الفتاوى» (٤/ ٢٨٢)]: «العذاب والنعيم على النفس والبدن جميعًا باتِّفاق أهل السنَّة والجماعة، تُنعَّمُ النفسُ وتُعذَّبُ مُنفرِدةً عن البدن، وتُعذَّبُ مُتَّصِلةً بالبدن، والبدنُ مُتَّصِلٌ بها؛ فيكون النعيمُ والعذاب عليهما في هذه الحال مُجتمِعَيْن كما يكون للروح مُنفرِدةً عن البدن»، ثمَّ قال في [(ص ٢٨٤)]: «فإذا عرَفْتَ هذه الأقوالَ الثلاثة الباطلة فلْيُعْلَمْ أنَّ مذهبَ سلفِ الأمَّة وأئمَّتِها: أنَّ الميِّت إذا مات يكون في نعيمٍ أو عذابٍ، وأنَّ ذلك يحصل لروحه ولبدنه، وأنَّ الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعَّمةً أو معذَّبةً وأنها تتَّصِل بالبدن أحيانًا، فيحصل له معها النعيمُ والعذاب، ثمَّ إذا كان يومُ القيامة الكبرى أُعِيدَتِ الأرواحُ إلى أجسادها وقاموا مِنْ قبورهم لربِّ العالَمين، ومَعادُ الأبدانِ متَّفَقٌ عليه عند المسلمين واليهود والنصارى، وهذا كُلُّه مُتَّفَقٌ عليه عند علماء الحديث والسنَّة».

قلت: وممَّا يدلُّ على أنَّ العذاب للأرواح والأجساد: الآياتُ القرآنية الواردة=

= في صبِّ الحميم على الرؤوس وصهرِ ما في البطون وتبديلِ الجلود كلّما نَضِجَتْ، ومطاعمِ أهل النار ومَشارِبهم، ونحوِ ذلك ـ كما سيأتي ـ.

٢ ـ يودُّ المجرمُ مِنْ أهل النار أَنْ يفديَ نَفْسَه بكُلِّ حبيبٍ لديه وعزيزٍ عليه مِنَ الأقارب والأصدقاء والأزواج والعشيرة وغيرِهم؛ مِنْ شدَّةِ الهول وقسوة العذاب، لكِنْ هيهاتَ هيهاتَ؛ فلا ينفعه فداءٌ ولا يُقْبَلُ منه رجاءٌ؛ فقَدْ حقَّتْ كلمةُ ربِّك على الذين فَسَقوا أنهم لا يؤمنون؛ قال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ﴾ [المعارج: ١١ ـ ١٥].

٣ ـ أهل النار الأشقياءُ الذين حقَّ عليهم العذابُ لا يموتون فيستريحون مِنْ عناء العذاب وشدائدِه، ولا يَحْيَوْن حياةً هنيئةً أبدًا، فيسألون التخفيفَ والموتَ فلا يُستجابُ لهم، بل يَصْلَوْن النارَ الكبرى التي لا موتَ فيها ولا راحةَ ولا استراحةَ ولا ارتفاق، وإنما فيها العذابُ العظيم الشاقُّ الذي لا يُفَتَّرُ عنهم ساعةً وهُمْ فيه مُبْلِسون، قد يَئِسوا مِنْ كُلِّ خيرٍ، ونَسِيهم الرحيم كما نَسُوه، فتُصْهَرُ بطونُهم وتُقطَّعُ أمعاؤهم وجلودُهم، ويجدِّد اللهُ أبدانهم كما كانَتْ، ويُعادُ عليهم العذابُ الأليمُ بلا انقطاعٍ ليذوقوه، ويَبقَوْن في الغمِّ والألم دائمين مِنْ غير مخرجٍ؛ قال تعالى: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى]، وقال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف]، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم =

= مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء]، وغيرها مِنَ الآيات.

٤ ـ تفاوُتُ عذابِ أهل النار في دار الشقاء لتَفاوُتِ أعمالهم وسيِّئاتهم، وهذا مِنْ عدلِ الله وحكمتِه، ويدلُّ عليه: قولُه ﷺ: «مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى حُجْزَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إِلَى تَرْقُوَتِهِ» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمِها وأهلها» (١٧/ ١٨٠) بابُ جهنَّمَ ـ أعاذنا الله منها ـ، وأحمد في «مسنده» (٥/ ١٠)، والبيهقيُّ في «شُعَب الإيمان» (١/ ٤٩٦) وفي «البعث والنشور» (٢٨١)، وابنُ أبي عاصم في «السنَّة» (٢/ ٣٩٧)، مِنْ حديثِ سَمُرةَ ابنِ جندبٍ ﷺ]، وقولُه ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤١٧) بابُ صفةِ الجنَّة والنار، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٨٦) بابُ أهونِ أهل النار عذابًا، مِنْ حديثِ النعمان بنِ بشيرٍ ﷺ]، وقولُه ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ: رَجُلٌ عَلَى أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِي المِرْجَلُ وَالقُمْقُمُ» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤١٧) بابُ صِفَةِ الجنَّة والنار، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٨٥ ـ ٨٦) بابُ أهونِ أهل النار عذابًا، مِنْ حديثِ النعمان بنِ بشيرٍ ﷺ].

٥ ـ طعام أهل النار متنوِّعٌ في القبح والمرارة والخِسَّة والنتن، وهو مِنْ لوازمِ حياة الشقاء التي لا يموتون فيها، ومِنْ طعامهم: =

....

= ـ الزقُّوم: وهو ثمرٌ شديدُ المرارةِ يخرج مِنْ شجرةٍ تُسمَّى الزقُّوم، وهي مِنْ أخبثِ أنواع الشجر المرِّ، النَّتِن الرائحة، تنبت في أصل الجحيم ووسطه، معدنها أشرُّ المعادن وأسوؤها، جَعَلها اللهُ محنةً للظالمين بإرغامهم على الأكل منها، فيَغَصُّ طعامُها في الحلق فلا يسوغ إلَّا بالماء الحميم؛ قال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان].

ـ الضريع: هو طعامٌ في غاية المرارة والنَّتَن والخسَّة يسيغه الآكلُ بالحميم، ليس فيه ما يُزيلُ عن آكلِه ألَمَه ولا ما يسدُّ عن صاحبِه جوعَه، ولا ما يُسْمِنُ بدنَه مِنَ الهُزال؛ قال تعالى: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾﴾ [الغاشية].

ـ الغِسْلين: وهو عُصارةُ أهلِ النار وصديدُهم الذي هو في غاية الحرارة ونَتَن الريح، وقبحِ الطعم ومرارتِه، وقد أعدَّ اللهُ هذا الطعامَ الذميم لمَنْ كسبوا السيِّئاتِ فأحاطَتْ بهم خطاياهم؛ فأخطأوا الصراطَ المستقيم وسلكوا سبيل الجحيم؛ فاستحقُّوا العذابَ الأليم؛ قال تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الحاقة].

٦ ـ شرابُ أهلِ النار متنوِّعٌ ـ أيضًا ـ في الحرارة وخُبثِ اللون والطعم والرائحة، فإذا كان الطعام لا يدفع عنهم شدَّةَ الجوعِ فالشرابُ ـ أيضًا ـ لا يدفع عنهم=

= غائلةَ العطش، بل يُطيلُ كَرْبَهم وعذابهم، ويزيد مِنْ محنتهم وشقائهم، ومِنْ شرابهم:

ـ الحميم: وهو ماءٌ شديدُ الحرِّ يجري مِنْ عينٍ آنيةٍ حارَّةٍ، مِنْ خصوصياته صهرُ ما في البطون وقطعُ الأمعاء، ثمَّ يُعادُ المعذَّبُ إلى ما كان عليه لِيذوقَ العذابَ؛ قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥﴾ [الغاشية]، وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ۝١٩ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ۝٢٠﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ۝١٥﴾ [محمد]، وقال ﷺ: «إِنَّ الحَمِيمَ لَيُصَبُّ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَيَنْفُذُ الحَمِيمُ حَتَّى يَخْلُصَ إِلَى جَوْفِهِ، فَيَسْلِتُ مَا فِي جَوْفِهِ حَتَّى يَمْرُقَ مِنْ قَدَمَيْهِ وَهُوَ الصَّهْرُ ثُمَّ يُعَادُ كَمَا كَانَ» [أخرجه الترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧٠٥) بابُ ما جاء في صفةِ شرابِ أهلِ النار، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٨٧)، وابنُ المبارك في «الزهد» (٢/ ٨٩)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٧/ ٣/ ١٣٨٢) وفي «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٧٩)].

ـ ماء المُهْل: وهو ماءٌ عَكِرٌ حار أشبهُ بالرصاص المُذاب أو عَكَرِ الزيت مِنْ شدَّةِ حرارته، فإذا قرَّبه إلى وجهه سقطَتْ فروةُ وجهِه فيه، يطلبه الظالمون لِيُطْفِئوا ما نَزَل بهم مِنَ العطش الشديد جرَّاءَ المِحَن والشدائد؛ فيُغاثون به فتُشوى وجوهُهم ويُصْهَرُ ما في بطونهم والجلودُ، بئس الشرابُ الذي يُرادُ ليطفئ العطشَ ويدفع بعضَ العذاب فيكون زيادةً في عذابهم وشدَّةِ عقابهم، لا راحةَ لهم في النار ولا ارتفاقَ، وإنما العذاب الشاقُّ الذي لا يُفَتَّرُ عنهم ساعةً؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا =

= ﴿لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف].

ـ **ماء الصديد**: وهو ماءٌ كَدِرٌ خبيثُ اللون والطعم والرائحة يتجرَّعه مِنْ شدَّةِ العطش مَنِ استعلى عن الحقِّ واستكبر في الأرض وعانَدَ الرُّسُلَ وشاقَّهم فيَغَصُّ به شاربُه حتَّى لا يكادُ يُسيغُه، فإذا قُرِّبَ إلى وجهه شواه مِنْ شدَّة حرارته، وإذا وَصَل إلى بطنِه قطَّع أمعاءه؛ فيبلغ مِنَ العذاب والألم إلى الموت، ولكنَّ الله قضى أَنْ لا يموتوا؛ قال تعالى: ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم].

ـ **طينة الخَبال**: وهي عُصارةُ أهلِ النار تُجْمَعُ فيها أنواعٌ مِنَ السوائل القبيحة والخبيثة مِنْ صديدٍ وقيحٍ وعرقٍ وما يخرج مِنْ لُعابِ شارِبِي الخمر وفروجِ الزُّناة وغيرِهم وما ذاب مِنْ حُراقةِ أجسادِ أهل النار، ويدلُّ على ذلك قولُه ﷺ في شأن شارب الخمر: «**فَإِنْ عَادَ الرَّابِعَةَ لَمْ يَقْبَلِ اللهُ لَهُ صَلَاةً أَرْبَعِينَ صَبَاحًا، فَإِنْ تَابَ لَمْ يَتُبِ اللهُ عَلَيْهِ، وَسَقَاهُ مِنْ نَهْرِ الخَبَالِ**»، قِيلَ: «يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، وَمَا نَهْرُ الخَبَالِ؟» قَالَ: «نَهْرٌ مِنْ صَدِيدِ أَهْلِ النَّارِ» [أخرجه الترمذيُّ في «الأشربة» (٤/ ٢٩٠) بابُ ما جاء في شارب الخمر، والبغويُّ في «شرح السنَّة» (١١/ ٣٥٧)، مِنْ حديثِ ابنِ عمر رضي الله عنهما. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٢٤). ومِنْ حديثِ عبد الله بنِ عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما. أخرجه ابنُ ماجه في «الأشربة» (٢/ ١١٢٠) باب: مَنْ شرب الخمرَ لم تُقْبَل له صلاةٌ بلفظ: «رَدَغَة الخَبال»، وصحَّحه الألبانيُّ ـ أيضًا ـ في «صحيح موارد الظمآن» (٢/ ١٩) وفي «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٧٩) والأرناؤوط في تحقيقه لـ «شرح السنَّة» (١١/ ٣٥٨)]. =

= وروى مسلمٌ في «الأشربة» (١٣/ ١٧١) بابُ بيانِ أنَّ كُلَّ مُسْكِرٍ خمرٌ وأنَّ كُلَّ خمرٍ حرامٌ، عن جابر بنِ عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إِنَّ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَهْدًا لِمَنْ يَشْرَبُ الْمُسْكِرَ أَنْ يَسْقِيَهُ مِنْ طِينَةِ الخَبَالِ**»، قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا طِينَةُ الخَبَالِ؟» قَالَ: «**عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ**» أَوْ «**عُصَارَةُ أَهْلِ النَّارِ**».

٧ ـ عِظَمُ أجسادِ أهل النار وفُحْشُ أطرافهم وقبحُ منظرهم، ويدلُّ عليه:

ـ قولُه ﷺ: «**مَا بَيْنَ مَنْكِبَيِ الكَافِرِ [فِي النَّارِ] مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ**» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤١٥) بابُ صِفَةِ الجنَّة والنار، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمِها وأهلها» (١٧/ ١٨٦) باب جهنَّم ـ أعاذنا الله منها ـ، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

ـ وقولُه ﷺ: «**ضِرْسُ الكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَفَخِذُهُ مِثْلُ البَيْضَاءِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ كَمَا بَيْنَ قُدَيْدٍ إِلَى مَكَّةَ، وَكَثَافَةُ جِلْدِهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا بِذِرَاعِ الجَبَّارِ**» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٣٣٤، ٥٣٧)، وابنُ أبي عاصمٍ في «السنَّة» (٢٧١)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه. وحسَّنه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٩٦) وفي «ظلال الجنَّة» (٢٧١)].

ـ وقولُه ﷺ: «**إِنَّ غِلَظَ جِلْدِ الكَافِرِ اثْنَتَانِ وَأَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، وَإِنَّ ضِرْسَهُ مِثْلُ أُحُدٍ، وَإِنَّ مَجْلِسَهُ مِنْ جَهَنَّمَ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ**» [أخرجه الترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧٠٣) بابُ ما جاء في عِظَمِ أهلِ النار، وابنُ أبي عاصمٍ في «السنَّة» (٢٧١)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه. والحديث صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٣/ ٢٧) وفي «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٨٢) وفي «الظلال» (٢٧١)].

٨ ـ بكاء أهل النار وشهيقُهم وصُراخُهم وصياحهم ونُواحهم وعويلهم، والدعاء على أنفسهم بالويل والثبور والحسرة والتأسُّف؛ فحزنُهم دائمٌ وعذابُهم لا ينقطع=

= ولا يخفُّ، وهم في معاناة الشدائد ومقاساة الأهوال في دار الشقاء والعذاب في دركات النار بدرجاتٍ متفاوتةٍ ـ كما تقدَّم، [انظر: (ص ٣٢٣)] ـ قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾﴾ [الفرقان]، وعن عبد الله بنِ عمرٍو رضي الله عنهما موقوفًا قال: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ يَدْعُونَ مَالِكًا فَلَا يُجِيبُهُمْ أَرْبَعِينَ عَامًا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف]، ثُمَّ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ فَيَقُولُونَ: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون]، فَلَا يُجِيبُهُمْ مِثْلَ الدُّنْيَا، ثُمَّ يَقُولُ: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾ [المؤمنون]، ثُمَّ يَيْأَسُ الْقَوْمُ فَمَا هُوَ إِلَّا الزَّفِيرُ وَالشَّهِيقُ، تُشْبِهُ أَصْوَاتُهُمْ أَصْوَاتَ الْحَمِيرِ، أَوَّلُهَا شَهِيقٌ، وَآخِرُهَا زَفِيرٌ» [رواه الطبرانيُّ موقوفًا (١٣/ ٣٥٢)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٩٥)، وابنُ المبارك في «الزهد» (٢/ ٩١)، والبغويُّ في «شرح السنَّة» (١٥/ ٢٥٤). وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب» (٣/ ٤٨٧)].

تلك هي ـ باختصارٍ ـ أوصافُ النارِ وصنوفُ العذابِ وأحوالُ المعذَّبين فيها، عياذًا بالله مِنْ ذلك، نسأل اللهَ تعالى بأسمائه الحسنى وصِفاتِه العُلى أَنْ يَقِينا عذابَ النار ويصرفه عنَّا، إنه قريبٌ سميعٌ مجيبٌ؛ ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان].

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ[1] ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [هود][2]، ......

---

(١) قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٢/ ٤٦٠)]: «قال ابنُ عبَّاسٍ: «الزفير في الحلق، والشهيقُ في الصدر»، أي: تنفُّسهم زفيرٌ، وأخذُهم النفسَ شهيقٌ؛ لِمَا هم فيه مِنَ العذاب ـ عياذًا بالله مِنْ ذلك ـ»، قال ابنُ فارسٍ رحمه الله في [«مقاييس اللغة» (٣/ ٢٢٢)]: «الشهيق: ضدُّ الزفير؛ لأنَّ الشهيق: ردُّ النفس، والزفير: إخراج النفس».

(٢) الاستثناء الوارد في هذه الآية الكريمة يُفْهَمُ منه أنَّ عذاب أهل النار غيرُ دائمٍ بل يفنى ولا يبقى، وهذا ـ بلا شكٍّ ـ مُعارِضٌ لظاهر الآيات القرآنية الدالَّة على أنَّ عذابهم باقٍ بقاءَ لا انقطاعَ له أبدًا، كما جاء التصريحُ بذلك في آياتٍ كثيرةٍ منها قولُه تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [النساء: ١٦٩، وغيرها]، وقولِه تعالى: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء]، وغيرِها مِنَ الأدلة السابقة.

وجوابه: أنَّ الاستثناء في الآية مُجْمَلٌ، وهو معدودٌ مِنَ المتشابه الذي لم يتَّضِحْ معناه، أمَّا الآيات والأحاديث الصحيحة المصرِّحة بأنهم خالدون فيها أبدًا فإنَّ ظاهِرَها أنه خلودٌ لا انقطاعَ له، والظاهر معدودٌ مِنَ المُحْكَم الذي اتَّضَحَتْ دلالتُه على المطلوب، والمعلومُ ـ أصوليًّا ـ أنَّ الظاهر مقدَّمٌ على المُجْمَل، وأنَّ المُحْكَم لا يُتْرَكُ للمتشابه، هذا مِنْ جهة.

ويمكن الجمع بين الدليلين المتعارضين ـ مِنْ جهةٍ ثانيةٍ ـ مِنْ وجهين:

الوجه الأوَّل: أنَّ الاستثناء ـ في الآية ـ يرجع إلى المدَّة التي شاء اللهُ أَنْ لا يكون=

....

= فيها، وهي الفترة التي ما بين بعثِهم مِنْ قبورهم إلى ما قبل دخولهم النارَ واستقرارِهم فيها، أي: هم خالدون فيها جميعَ الأزمان سوى الزمن الذي قبل الدخول في النار.

الوجه الثاني: وهو ما ذَهَب إليه المصنِّف رحمه الله وأيَّده بحديثِ أنسٍ رضي الله عنه، ووجهُه: أنَّ الاستثناء ـ في الآية ـ يرجع إلى مَنْ شاء اللهُ عدمَ خلوده في النار مِنْ أهل الكبائر مِنَ الموحِّدين، ومعظمُ أهلِ العلم على هذا المعنى في تفسير الآية، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٢/ ٤٦٠)]: «وقد اختلف المفسِّرون في المراد مِنْ هذا الاستثناء على أقوالٍ كثيرةٍ، حكاها الشيخ أبو الفرج بنُ الجوزيِّ في كتابه: «زاد المسير» وغيرُه مِنْ علماء التفسير، ونَقَل كثيرًا منها الإمام أبو جعفر ابنُ جريرٍ رحمه الله في كتابه، واختار هو ما نَقَله عن خالد بنِ معدان والضحَّاكِ وقتادةَ وأبي سنان، ورواه ابنُ أبي حاتمٍ عن ابنِ عبَّاسٍ والحسن ـ أيضًا ـ: أنَّ الاستثناء عائدٌ على العصاة مِنْ أهل التوحيد، ممَّنْ يُخرِجهم اللهُ مِنَ النار بشفاعة الشافعين مِنَ الملائكة والنبيِّين والمؤمنين حين يشفعون في أصحاب الكبائر، ثمَّ تأتي رحمةُ أرحمِ الراحمين فتُخْرِج مِنَ النار مَنْ لم يعمل خيرًا قطُّ وقال يومًا مِنَ الدهر: «لا إلهَ إلَّا الله» كما ورَدَتْ بذلك الأخبارُ الصحيحة المستفيضة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمضمونِ ذلك مِنْ حديثِ أنسٍ وجابرٍ وأبي سعيدٍ وأبي هريرة، وغيرهم مِنَ الصحابة، ولا يبقى بعد ذلك في النار إلَّا مَنْ وَجَب عليه الخلودُ فيها ولا محيدَ له عنها. وهذا الذي عليه كثيرٌ مِنَ العلماء قديمًا وحديثًا في تفسيرِ هذه الآيةِ الكريمة».

وَلِحَدِيثِ أَنَسٍ[١] رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: «يَخْرُجُ مِنَ[٢] النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ[٣] النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً»

---

(١) هو أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضر الأنصاريُّ الخزرجيُّ النجَّاريُّ المَدَنيُّ ثمَّ البصريُّ رضي الله عنه، خادمُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وأمُّه أمُّ سُلَيم بنتُ مِلْحانَ رضي الله عنها، جاءَتْ به وهو ابنُ عَشْرِ سنينَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم عند قدومه مِنْ مكَّةَ مُهاجِرًا إلى المدينة، فقَبِلَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم وكنَّاهُ: «أبا حمزة»، وكان صلى الله عليه وسلم يُداعِبُه ويُمازِحُه بقوله: «يَا ذَا الأُذُنَيْنِ»، وبقي في خدمته عَشْرَ سنين مُنْتَفِعًا بمُصاحَبته وبدعائه له قائلًا: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ»، وقد شَهِدَ معه صلى الله عليه وسلم الحديبيَةَ وعُمْرَتَه، والحجَّ والفتحَ وحُنَيْنًا والطائفَ، وبَعَثَهُ أبو بكرٍ رضي الله عنه - أثناءَ خلافته - إلى البحرين على السعاية. وتُوُفِّيَ سنة: (٩٣هـ) بالبصرة، وكان آخِرَ مَنْ تُوُفِّيَ بها مِنَ الصحابة رضي الله عنهم، وله مِنَ العُمُر ثلاثُ سنين ومائةٌ (١٠٣).

انظر ترجمته وأحاديثه في: «مسند أحمد» (٣/ ٩٨)، «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٧/ ١٧)، «مستدرك الحاكم» (٣/ ٥٧٣)، «الاستيعاب» لابن عبد البرِّ (١/ ١٠٩)، «أُسْد الغابة» لابن الأثير (١/ ١٢٧)، «سِيَر أعلام النُّبَلاء» للذهبي (٣/ ٣٩٥)، «الإصابة» لابن حجر (١/ ٧١)، ومؤلَّفي: «الإعلام» (٥٣).

(٢) «م.ف»: بزيادةِ: «فِي» بعدها، وهو خطأٌ.

(٣) «م.ف»: بزيادةِ: «فِي» بعدها، وهو خطأٌ.

رَوَاهُ مُسْلِمٌ[١]، ....

(١) اقتصر المصنِّف رحمه الله على عزوِ الحديث إلى مسلمٍ، والحديثُ ممَّا اتَّفق عليه الشيخان:

فقَدْ أخرجه البخاريُّ في «الإيمان» (١/ ١٠٣) بابُ زيادةِ الإيمان ونقصانه، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٥٩) بابُ أدنى أهل الجنَّة منزلةً فيها، والترمذيُّ في «صفة جهنَّم» (٤/ ٧١١) بابُ ما جاء أنَّ للنار نَفَسين، وما ذُكِر: مَنْ يخرج مِنَ النار مِنْ أهل التوحيد، وابنُ ماجه في «الزهد» (٢/ ١٤٤٢) بابُ ذِكْرِ الشفاعة، مِنْ حديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه.

هذا، وقد أجمع أهلُ السنَّة على أنَّ الله تعالى لا يُخلِّدُ في النار مَنْ كان في قلبه شيءٌ مِنَ الإيمان، وقد وَرَدَتِ الأحاديثُ الصحيحة بذلك، منها: هذا الحديثُ وما تَقدَّم مِنْ أحاديث الشفاعة، [انظر: (ص ٣٣٠، ٣٣٣)]، قال أبو جعفرٍ الطحاويُّ رحمه الله في [«العقيدة الطحاوية» (٣١٧)]: «وأهل الكبائر مِنْ أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم في النار لا يخلدون إذا ماتوا ـ وهُمْ موحِّدون ـ وإنْ لم يكونوا تائبين بعد أَنْ لَقُوا اللهَ عارفين مؤمنين، وهُم في مشيئته وحكمِه: إنْ شاء غَفَر لهم وعَفَا عنهم بفضله كما ذَكَر عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وإنْ شاء عذَّبهم في النار بعدله، ثمَّ يُخْرِجهم منها برحمته وشفاعةِ الشافعين مِنْ أهل طاعته، ثمَّ يبعثهم إلى جنَّته»، وقال ابنُ أبي زمنين رحمه الله في [«أصول السنَّة» (٢٢١)]: «وأهل السنَّة يؤمنون بأنَّ الله عزَّ وجلَّ يُدْخِل ناسًا الجنَّةَ مِنْ أهل التوحيد بعدما مسَّتْهم النارُ برحمته تبارك وتعالى اسمُه، وبشفاعة الشافعين»، وقال ابنُ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (٣/ ٣٧٥)]: «فيؤمن أهلُ السنَّة=

وَقَوْلِهِ(١) تَعَالَى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦](٢).

= والجماعة بأنَّ فُسَّاقَ المسلمين معهم بعضُ الإيمان وأصلُه، وليس معهم جميعُ الإيمان الواجب الذي يَستوجِبون به الجنَّةَ، وأنهم لا يخلدون في النار، بل يخرج منها مَنْ كان في قلبه مثقالُ حبَّةٍ مِنْ إيمانٍ أو مثقالُ خردلةٍ مِنْ إيمانٍ، وأنَّ النبيَّ ﷺ ادَّخر شفاعتَه لأهل الكبائر مِنْ أمَّته».

وخالف الخوارجُ والمعتزلة في ذلك، فذهبوا إلى أنَّ مرتكبَ الكبيرةِ مخلَّدٌ في النار تنفيذًا لوعيد الله لهم، غير أنه غابَتْ عنهم الموانعُ الشرعية التي تحول دون إنفاذِ هذا الوعيدِ مثل التوحيد ـ كما تَقدَّم، [انظر: (ص ٣٥٥)] ـ وكثرةِ الحسنات الماحية، وكثرة المصائب المكفِّرة، وإقامة الحدود في الدنيا، وغيرِها مِنَ الموانع المذكورة في نصوص الكتاب والسنَّة المطهَّرة، [وللمزيد مِنْ تفصيلِ مقالاتهم انظر: «مقالات الإسلاميِّين» للأشعري (١/ ١٥٦)، «الفصل في المِلَل والأهواء والنِّحَل» لابن حزم (٤/ ٤٤ ـ ٥٨)، «لوامع الأنوار البهيَّة» للسفاريني (١/ ٣٦٤ ـ ٣٧١)].

(١) «م.ف»: «وَلِقَوْلِهِ».

(٢) وتمامُ الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [النساء]. استدلَّ المصنِّفُ رحمه الله بهذه الآية مِنْ جهتين:

الأولى: أنَّ العذاب يقع على الأبدان والأرواح، وأنَّ النفس أو الروح تُحِسُّ بالألم وتعرف ذلك عند تعذيب البدن؛ فكان تبديلُ الجلود البدنية زيادةً في عذاب النفوس، وليس المرادُ به تعذيبَ الجلود في حدِّ ذاتها؛ إذ لو كان كذلك لَقال:=

[فصل: دارُ النعيم][(١)]

نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ خَلَقَ الجَنَّةَ دَارَ نَعِيمٍ وَخُلُودٍ لِلْمُؤْمِنِينَ[(٢)]، ....

= ليَذُقْنَ العذابَ، وإنما قال: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ فكان المقصودُ ـ إذَنْ ـ تعذيبَ الأبدان وإيلامَ الأرواح، [انظر: «تفسير القرطبي» (٥/ ٢٥٤)].

الثانية: أنَّ العذاب والألم في دار الخلود يَستمِرُّ بلا انقطاعٍ على الكافر بسببِ كفرِه وعنادِه ليبلغ العذابُ منه كُلَّ مبلغٍ؛ لأنه تكرَّر منه الكفرُ والعنادُ فصارَ وصفًا له وسجيَّةً؛ فكرَّر اللهُ عليه العذابَ جزاءً وفاقًا.

أمَّا المؤمن العاصي أو الفاسق مِنْ أهل التوحيد الذي رجَحَتْ سيِّئاتُه فإنه يَستحِقُّ دخولَ النارِ دون خلودٍ فيها، بل إلى أجلٍ معلومٍ عند الله تعالى، فيُعذَّبُ فيها بقدرِ ما ارتكب مِنَ الإثم، ثمَّ يخرج منها بعد أَنْ يتطهَّر، فيُوفِّيهِ اللهُ جزاءَه بمقتضى عدلِه وحكمتِه على ما دلَّتْ عليه الأحاديثُ الصحيحة.

(١) «م.ر.أ»: بزيادةِ عنوانٍ فرعيٍّ: «الجنَّة».

(٢) دار النعيم في الآخرة تُطْلَقُ على الجنَّة، ذاتِ النعمة والتنعيم وطِيب العيش؛ لِمَا تشتمل عليه مِنَ اللذَّة والبهجة والسرور، فيها «مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» [جزءٌ مِنْ حديثٍ مرفوعٍ أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٥١٦) باب: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٖ﴾ [السجدة: ١٧]، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها» (١٧/ ١٦٦)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ =

= ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [لقمان]، ودارُ النعيم سُمِّيَتْ جنَّةَ النعيم لِمَا فيها مِنَ الجنَّات المستورة عنَّا في الحياة الدنيا، [انظر: «المُفْرَدات» للراغب الأصفهاني (٩٦، ٥٢٠)، «زاد المسير» لابن الجوزي (١/ ٥٢)، «حادي الأرواح» لابن القيِّم (٩٢)].

وقد وَرَد لِدار النعيم - في القرآن الكريم - عدَّةُ تسمياتٍ أخرى، أذكر منها - باختصارٍ -:

- دار السلام: لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام]، وقولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس].

- دار المُقامة: لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر].

- دار الخلد [جنَّة الخلد]: لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٨٢؛ الأعراف: ٤٢؛ يونس: ٢٦؛ هود: ٢٣]، وقولِه تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾﴾ [ص]، وقولِه تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقولِه تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر]، وقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الفرقان].

- جنَّة المأوى: لقوله تعالى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النجم]، وقولِه تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات]. =

....

= ـ الفردوس: لقوله تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١) ﴾ [المؤمنون]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) ﴾ [الكهف].

ـ المَقام الأمين: لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (٥١) ﴾ [الدخان].

ـ مقعد الصدق: لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾ [القمر].

ـ طُوبَى: لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ﴾ [الرعد]، وهو قولُ كثيرٍ مِنْ أهل العلم: كابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما وعِكْرِمةَ ومجاهدٍ وغيرِهم، [انظر: «جامع البيان» للطبري (١٣/ ١٤٧)].

ـ الحسنى: لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٦) ﴾ [يونس]، وقوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ﴾ [الكهف: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) ﴾ [الأنبياء]، وقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ [النجم]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) ﴾ [الحديد]، وقوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [النساء: ٩٥]، وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الرعد: ١٨]. =

= ـ جنَّات عدنٍ: وهي: جنَّاتُ خلدٍ ونعيمٍ وإقامةٍ؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [مريم: ٦١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٍ﴾ [التوبة: ٧٢؛ الصف: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ٣٣﴾ [فاطر].

ـ دار الحيوان: وهي دارُ الحياةِ الدائمة الباقية الكاملة التي لا زوالَ فيها ولا انقطاعَ، بل هي حياةٌ مُستمِرَّةٌ إلى أبد الأبد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٦٤﴾ [العنكبوت] [انظر: «حادي الأرواح» لابن القيِّم (٨٨ ـ ٩٣)].

وأسماء الجنَّة مُترادِفةٌ تنطبق على ذاتٍ واحدةٍ، وهي الدارُ التي أعدَّها اللهُ تعالى لأوليائه الصالحين، فهي: جنَّةُ النعيم لِمَا فيها مِنَ الأنواع المُختلِفةِ مِنَ النِّعَم والتنعُّم واللَّذَّات والخيرات ما اللهُ به عليمٌ، وهي جنَّةُ الخلد لأنَّ أهلها لا يَظْعَنون عنها، وهُمْ مخلَّدون فيها لا يخرجون منها إلى أبد الأبد، وهي جنَّةُ المأوى لأنها مأوى الصالحين الأبرارِ ومسكنُ المُتَّقين الأخيار، وهي دارُ السلامة ففيها السلامةُ الحقيقيةُ؛ إذْ فيها بقاءٌ بلا فَناءٍ، وغنًى بلا فقرٍ، وعزٌّ بلا ذُلٍّ، وصحَّةٌ بلا سقمٍ، وسلامةٌ مِنَ الموت والهرمِ والهموم والأحزان والآفات والنقائص والنكبات، وهي دار المُقامة في جنَّات عدنٍ، وهي المَقامُ الأمين لِمَا فيها مِنَ الأمن والأمان والاطمئنان، وهي الحسنى مِنْ كُلِّ مُبْهِجٍ وسارٍّ مرغوبٍ فيه، وهي طُوبَى يُستطابُ فيها كُلُّ شيءٍ، وهي الفردوس: أعلى الجنَّةِ وأوسطُها وفوقه عرشُ الرحمن ومنه تَفجَّرُ الأنهارُ، وهكذا فأسماءُ الجنَّة مُترادِفةٌ في الذات ومُتبايِنةٌ في الصفات، ويقرِّر =

= هذا المعنى ابنُ القيِّم رحمه الله في [«حادي الأرواح» (٨٨)] عن أسماء الجنَّة بقوله: «ولها عدَّةُ أسماءٍ باعتبارِ صفاتها، ومُسمَّاها واحدٌ باعتبار الذات؛ فهي مترادِفةٌ مِنْ هذا الوجهِ وتختلف باعتبار الصفات؛ فهي مُتبايِنةٌ مِنْ هذا الوجه، وهكذا أسماء الربِّ سبحانه وتعالى، وأسماءُ كتابِه، وأسماءُ رُسُلِه، وأسماءُ اليومِ الآخِر، وأسماءُ النار».

ويُؤيِّد ذلك حديثُ أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه: «أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بِنْتَ البَرَاءِ ـ وَهِيَ أُمُّ حَارِثَةَ ابْنِ سُرَاقَةَ ـ أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ: «يَا نَبِيَّ اللهِ، أَلَا تُحَدِّثُنِي عَنْ حَارِثَةَ ـ وَكَانَ قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ: أَصَابَهُ سَهْمٌ غَرْبٌ ـ فَإِنْ كَانَ فِي الجَنَّةِ صَبَرْتُ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيْهِ فِي البُكَاءِ»، قَالَ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوْسَ الأَعْلَى» [أخرجه البخاريُّ في «الجهاد والسِّيَر» (٦/ ٢٥ ـ ٢٦) بابُ مَنْ أتاه سهمٌ غَرْبٌ فقتَله، وفي «الرِّقاق» (١١/ ٤١٨) بابُ صفةِ الجنَّة والنار]، قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في [«فتح الباري» (٦/ ٢٧)]: «وفي روايةِ سعيد بنِ أبي عَرُوبةَ: «إنها جنانٌ في جنَّةٍ»، وفي روايةِ أَبَانَ عند أحمد: «إنها جنانٌ كثيرةٌ في جنَّةٍ»، وفي رواية حُمَيْدٍ المذكورة: «إنها جنانٌ كثيرةٌ» فقط».

ويتَّضِح ـ مِنْ خلالِ هذه الرواياتِ الصحيحة ـ ترادُفُ أسماءِ الجنَّة في الذات وتبايُنُها في الصفة؛ فكُلُّ اسمٍ وإنِ اختلف مع غيره في الصفة إلَّا أنه يُقْصَدُ به ذاتٌ واحدةٌ وهي دارُ النعيم في الآخرة.

هذا، والإيمانُ بالجنَّة والنارِ أصلٌ مِنْ أصول الإيمان؛ لقوله ﷺ ـ عندما سُئِل عن الإيمان ـ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَاليَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ=

وَأَنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَى الكَافِرِينَ، وَأَنَّ النَّعِيمَ فِيهَا لِلْأَرْوَاحِ وَالأَجْسَادِ، وَأَنَّ أَعْظَمَ نَعِيمِهَا هُوَ رِضْوَانُ اللهِ(١)؛ ....

= بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٥١)]. ومِنْ مقتضى الإيمانِ باليوم الآخِرِ: الإيمانُ بالجنَّة والنار تصديقًا بالغيب، وما أخبر اللهُ به ورسولُه عنهما ممَّا يجب الإيمانُ به إيمانًا كاملًا، واليقينُ به يقينًا صادقًا.

(١) فالحاصل أنَّ المصنِّف رحمه الله ـ بعد أَنْ تَناوَل في الفصل السابق، [انظر: (ص ٣٢٣)] ـ دارَ العذابِ والبوار في عالَمِ الشقاء الأبديِّ، وهي نارُ جهنَّمَ التي أعدَّها اللهُ لأعدائه الفُجَّار الكافرين وللعُصاة مِنَ الموحِّدين؛ جزاءً لهم على تبديلِ نعمةِ الهداية وإدراكِ الخيرات والنجاة، بالكفر بها والصدِّ عنها؛ عرَّج ـ في هذا الفصلِ الأخير ـ على دار النعيم والسلام في عالَمِ السعادة الأبدية، وهي الجنَّةُ التي أعدَّها اللهُ لأوليائه المؤمنين المُتَّقين جزاءً لهم على إيمانهم الصادقِ وعمَلِهم الصالح؛ فدارُ النعيم لا يدخلها إلَّا مَنْ جَمَع بين الإيمان والتقوى، وبين الأعمال الباطنة والظاهرة، وبين فعلِ الواجبات وتركِ المحرَّمات؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الأعراف]، تلك الجنَّةُ التي وُعِد بها المؤمنون المُتَّقون، لا يُحوَّلون عنها ولا يبغون بها بدلًا؛ لأنهم يرَوْن فيها ما تشتهيهِ الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ مِنْ أنواع اللذَّات والمَسَرَّات والأفراح وأصنافِ المُشتهَيَات ما تقف عنده الغاياتُ بما قاموا به مِنْ جلائل الأعمال، واتَّصفوا به مِنْ كرائم الصفات؛ فحَفِظ اللهُ عليهم إيمانَهم وأعمالهم حتَّى أوصلهم إلى السعادة الأبدية والنعيمِ المُقيم ورؤيةِ الله ورضوانه الذي هو أكبرُ مِنْ نعيم الجنَّات؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم =

....

= بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ»، فَيَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ ـ رَبَّنَا ـ وَسَعْدَيْكَ»، فَيَقُولُ: «هَلْ رَضِيتُمْ؟» فَيَقُولُونَ: «وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟» فَيَقُولُ: «أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ»، قَالُوا: «يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟» فَيَقُولُ: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤١٥) باب صفةِ الجنَّة والنار، وفي «التوحيد» (١٣/ ٤٨٧) بابُ كلامِ الربِّ مع أهل الجنَّة، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَة نعيمِها وأهلِها» (١٧/ ١٦٨)، والترمذيُّ في «صفة الجنَّة» (٤/ ٦٨٩) باب (١٨)، مِنْ حديثِ أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه].

ففي الحديث أنَّ رِضاءَ اللهِ تعالى سببُ كُلِّ خيرٍ وفوزٍ وسعادةٍ واغتباطٍ، وكُلُّ ما عَداهُ ـ وإنِ اختلفَتْ أنواعُه ـ فهو مِنْ أثره، [انظر: «فتح الباري» (١١/ ٤٢٢، ١٣/ ٤٨٨)]؛ فمَنْ رضي الله عنه غَفَر له وقرَّبه إليه وأنجاهُ مِنَ العذاب وبيَّض وجهَه وأدخله=

= نعيمَه وأسعده برحمته، فأعطاهُ الحُسنى ـ وهي الجنَّةُ كما تَقدَّم بيانُه [انظر: (ص ٣٥٩)] ـ والزيادةَ ـ وهي النظرُ إلى وجهه الكريم ـ كما فسَّر النبيُّ ﷺ بذلك هذه الآيةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فقَدْ ثَبَت مِنْ حديثِ صُهَيْب ابنِ سِنان رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟» فَيَقُولُونَ: «أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟» قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»، وزاد في روايةٍ: «ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ١٦ ـ ١٧) بابُ إثباتِ رؤيةِ المؤمنين في الآخرةِ ربَّهم سبحانه وتعالى، والترمذيُّ في «صفة الجنَّة» (٤/ ٦٨٧) بابُ ما جاء في رؤية الربِّ تَبارَك وتعالى، وابنُ ماجه في «المقدِّمة» (١/ ٦٧) بابٌ فيما أنكرَتِ الجهميةُ، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٣٢)].

وفي مسألةِ رؤيةِ أهل مَرْضاتِه تعالى في الجنَّة ربَّهم ـ يومَ القيامة ـ عِدَّةُ آياتٍ قرآنيةٍ وأحاديثَ صحيحةٍ تُثْبِتها، «وقد تلقَّاها السلفُ والأئمَّةُ بالقَبول؛ واتَّفق عليها أهلُ السنَّة والجماعة؛ وإنما يكذِّب بها أو يحرِّفها «الجهميةُ» ومَنْ تَبِعهم مِنَ المعتزلة والرافضة ونحوِهم: الذين يكذِّبون بصفات الله تعالى وبرؤيته وغيرِ ذلك، وهُمُ المعطِّلةُ شِرارُ الخَلْق والخليقة، ودينُ اللهِ وسطٌ بين تكذيبِ هؤلاء بما أخبر به رسولُه ﷺ في الآخرة، وبين تصديق الغالية بأنه يُرى بالعيون في الدنيا، وكلاهما باطلٌ» [«مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣/ ٣٩١)].

وقد احتجَّ الشافعيُّ رحمه الله بقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين]، =

....

= على إثباتِ رؤيةِ أهلِ الجنَّةِ ربَّهم تعالى فقال رحمه الله: «لَمَّا أَنْ حُجِب هؤلاء في السخط كان في هذا دليلٌ على أنَّ أولياءه يرَوْنه في الرِّضى» [«تفسير القرطبي» [الجامع لأحكام القرآن] (١٩/ ٢٦١)، «تفسير ابن كثير» (٤/ ٤٨٥)، «شرح العقيدة الطحاوية» لابن أبي العزِّ (٢٠٦)].

ومِنْ خلالِ الآيةِ والحديث السابقَيْن وغيرِهما مِنَ الأدلَّة الأخرى يظهر أنَّ أعلى نعيمِ أهلِ الجنَّةِ وأعظمَه هو رؤيةُ الله تعالى، وهو نعيمٌ زائدٌ على الرضوان دالٌّ عليه، كما يظهر بالمُقابِل مع أهل النار؛ فإنَّ حَجْبَ اللهِ نَفْسَه عنهم ـ يومَ القيامة ـ لهو أشدُّ أنواعِ العذاب، وهو عذابٌ زائدٌ على السخط دالٌّ عليه.

وهذه الجنَّة التي أعدَّها اللهُ للمؤمنين المُتَّقين جزاءً على الإيمان والعملِ حرَّمها اللهُ على الكافرين جزاءً على كُفْرِهم بآيات الله وتسوِيَتِهم الخَلْقَ بالخالق، وصرفِهم ما خَلَقهم اللهُ تعالى له ـ وهو العبادةُ الخالصة ـ لغيرِ مَنْ هي له، واتِّخاذِهم دِينَهم الذي أُمِروا أَنْ يستقيموا عليه فبدَّلوه لهوًا ولعبًا، واغترارِهم بالحياة الدنيا بزخرفها وزينتِها وكثرةِ دُعَاتها؛ فأقبلوا عليها وفَرِحوا بها واطمأنُّوا إليها ورَضُوا بها، وأعرضوا عن الآخرة ونَسُوها؛ فكان جزاؤهم أَنْ حرَّم اللهُ عليهم الجنَّةَ وآواهم في النار وتَرَكهم في العذاب جزاءً وِفاقًا؛ قال تعالى ـ مخبرًا عن ذِلَّةِ أهل النار وسؤالِهم أهلَ الجنَّةِ مِنْ شرابها وطعامها فلا يُجابون إلى ذلك ـ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١﴾ [الأعراف]، =

....

= وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٖ ٧٢﴾ [المائدة]، وقال ﷺ: «إِنَّ الجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٣٧٨) باب الحشر. ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٩٦) بابُ كونِ هذه الأمَّةِ نصفَ أهلِ الجنَّة. والترمذيُّ في «صفة الجنَّة» (٤/ ٦٨٤) بابُ ما جاء في صفِّ أهل الجنَّة، وابنُ ماجه في «الزهد» (٢/ ١٤٣٢) بابُ صِفَةِ أُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ، وأحمد في «مسنده» (١/ ٣٨٦، ٤٣٧ ـ ٤٣٨، ٤٤٥)، مِنْ حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه]، قال النوويُّ رحمه الله في [«شرح مسلم» (٣/ ٩٦)]: «هذا نصٌّ صريحٌ في أنَّ مَنْ مات على الكفر لا يدخل الجنَّة أصلًا، وهذا النصُّ على عمومه بإجماع المسلمين».

وقد تقدَّم ـ في فصل دار العذاب، [انظر: (ص ٣٢٦)] ـ اعتقادُ أهلِ السنَّةِ: أنَّ الجنَّةَ والنارَ مخلوقتان بعد أَنْ لم تكونا، وموجودتان الآنَ، وسِيقَتِ الأدلَّةُ الشرعية على ذلك مِنْ إسكان آدمَ عليه السلام الجنَّة، وارتيادِ النبيِّ ﷺ الجنَّةَ وإخباره الأمَّةَ بما رأى فيها، وبشارةِ الله تعالى للمؤمنين بالجنَّة في آياتٍ كثيرةٍ، وعقدِ المُبايَعةِ بين الله تعالى وعِبادِه المؤمنين عليها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١]، فلا يُعقَل أَنْ يُبايِعَ اللهُ تعالى عِبادَه بثمنِ جنَّاتِ النعيم التي لا وجودَ لها، [انظر: «حادي الأرواح» لابن القيِّم (٨٩)].

وكما سَبَقَ ذِكرُه ـ أيضًا ـ [انظر: (ص ٣٢٩، ٣٣٦)] فإنَّ الجنَّة والنار أبديَّتان بعد خَلْقِهما وإيجادِهما، باقيتان لا تَفْنَيان أبدًا، وأهلُ كُلٍّ منهما مخلَّدون لا يخرجون منها أبدًا؛ فلا يُدْرِكهم الموتُ ولا يلحقهم الفَناءُ كما دلَّتْ على ذلك عدَّةُ نصوصٍ=

....

= شرعيةٍ سِيقَتْ في موضعها السابق، ومنها قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (١٠٣) وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ (١٠٤) يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥) فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ۖ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨)﴾ [هود].

ولعلَّ سِرَّ خلودِ أهل الجنَّة في الجنَّة إرادتُهم الإيمانَ ولزومُهم التقوى والطاعةَ دومًا مهما طالَتْ بهم الحياةُ وامتدَّ بهم العمرُ؛ خوفًا مِنَ الله تعالى ورجاءً فيه، وإقبالُهم على الآخرة وسعيُهم إلى الفوز بِرضاهُ، وسرَّ خلودِ أهل النار في النار إصرارُهم على الكفر ولزومُهم العصيانَ دومًا وإقبالُـهُم على الدنيا بمَلذَّاتِـها وزخرفها، وكأنهم لم يُخْلَقوا إلَّا لها؛ فكان جزاءُ الخلود للفريقين مبنيًّا على الإرادة والنيَّة في لزوم الإيمان أو الكفر لزومًا متمكِّنًا مِنَ النفس تمكُّنًا لا ينفكُّ عنها.

ولقد أخبر الله تعالى أنَّ الكُفَّار لو رجعوا إلى الدنيا بعد مشاهدة العذاب ومعاينتهم لشِدَّتِه وقسوته لَعادوا إلى الْتزامِ ما كانوا عليه مِنَ الكفر وسوءِ العمل؛ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)﴾ [الأنعام].

وقد مرَّ ـ أيضًا ـ أنَّ نعيم الجنَّة وعذابَ النار يَقَعان على الروح والبدن معًا باتِّفاقِ أهل السنَّة والجماعة، وهو ما صرَّح به المصنِّف رحمه الله بقوله: «وأنَّ العذاب فيها للأرواح والأجساد»، وقولِه: «وأنَّ النعيم فيها للأرواح والأجساد»، [انظر:=

....

= (ص ٣٢٣، ٣٦٢)]، وممَّا يدلُّ على هذا الأخير: الآياتُ القرآنيةُ الواردةُ في رزقِ أهل الجنَّة مِنَ الجَنَى والقطوف والفاكهة والطعام والشراب والتمتُّع بالحُلِيِّ واللباس والأرائك والسُّرُرِ والخيام والحُورِ العِينِ وغيرِها ـ كما سيأتي، [انظر: (ص ٣٨٠)] ـ.

والمصنِّف رحمه الله في ترتيب الفصلين الأخيرين قدَّم دارَ العذاب وما يبعث على الرهبة مِنْ عقابها وويلاتها؛ حرصًا للمرء على طلبِ النجاة مِنْ دار الشقاء والبوار؛ وذلك باجتنابِ الشرك وتركِ المعاصي والابتعادِ عن شرور الدنيا والآخرة، وأخَّر دارَ النعيم وما يبعث على الرغبة في الفوز بها ونيلِ درجاتها بالتوحيد الخالص والإيمان الصادق والعمل الصالح، ولعلَّ المصنِّفَ رحمه الله حين أنهى جميعَ فصوله بدار النعيم ثمَّ بالحمدلة جريًا على نسقِ الآيات الأخيرة مِنْ سورة الزُّمَر، حيث جاءَ سَوْقُ الكُفَّار ـ زُمَرًا ـ إلى جهنَّمَ ابتداءً ثمَّ أُرْدِفَ بسَوْقِ الذين اتَّقَوْا ـ زُمَرًا ـ إلى الجنَّة انتهاءً، وذُيِّلَ بالحمدلة، وهو ما يجري ـ أيضًا ـ في الترتيب القرآنيِّ بذكر أهل الشقاء ـ أوَّلًا ـ ثمَّ أهل السعادة ـ ثانيًا ـ كما في سورة هودٍ، وأواخرِ الآيات مِنْ سورة الكهف وغيرِهما؛ فكان ترتيبُه تبعًا لنَسَقِ الآيات وسياقِها، هذا مِنْ جهةٍ، ولعلَّه ـ مِنْ جهةٍ أخرى ـ خَتَم هذه الفصولَ بدار النعيم تفاؤلًا بحُسْنِ الخاتمة ورجاءً لعفو الله ورِضاهُ والفوزِ بالنعيم المُقيمِ في الجنَّة وما أعدَّه اللهُ فيها للأبرار مِنْ خيراتٍ حسانٍ أعظمُها رؤيةُ اللهِ تعالى الذي هو أسمى غاياتِ المسلم وأقصى أمانيِّه، وقد يكون مقصودُه المعنيَيْن معًا.

هذا، وبعد أَنْ سَبَق ذِكْرُ أسماءِ الجنَّةِ ـ دارِ النعيم ـ في الآخرة [انظر: (ص ٣٥٨)]،=

= وَصَفها اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ وصفًا ذاتيًّا وأخبرًا عن رِزْقِ الجنَّة وتنوُّعِ نعيمها، وعن حالِ أهل الجنَّة؛ الأمرُ الذي يمكن أَنْ أتعرَّض له ـ باختصارٍ ـ في المحاور الثلاثة الآتية:

المحور الأوَّل: صفة الجنَّة ومكوِّناتها:

يمكن أَنْ أُجْمِلَ صفةَ الجنَّةِ ومكوِّناتِها ـ باختصارٍ ـ في النقاط التالية:

أوَّلًا: سَعَة الجنَّة وطِيبُ ريحها وعِظَمُ أبوابِها وشجرِها:

• أمَّا سَعَة الجنَّة فقَدْ قال تعالى: ﴿**وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣**﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿**سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ٢١**﴾ [الحديد]، وقال ﷺ: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**» [أخرجه مسلمٌ في «الإمارة» (١٣/ ٤٤ ـ ٤٦) بابُ ثبوتِ الجنَّة للشهيد، مِنْ حديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه]، فالخطاب الإلهيُّ موجَّهٌ للعباد بما يعقلونه، فشبَّه اللهُ تعالى عَرْضَ الجنَّةِ بأوسعِ ما يراه الناسُ ويعلمونه مِنْ خَلْقِ الله تعالى، والغرضُ مِنْ هذا التشبيهِ هو بيانُ سَعَةِ الجنَّة وعِظَمِها، ومِنْ خلاله تتبلور عظمةُ اللهِ وجلالُ قدرتِه الواسعة، وأنه ـ سبحانه ـ على كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

• وأمَّا **ريحُها الطَّيِّبُ** فإنه يُوجَدُ مِنْ مسيرةٍ بعيدةٍ كما أخبر بذلك النبيُّ ﷺ بقوله: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**» [أخرجه البخاريُّ في «الجزية والموادعة» (٦/ ٢٦٩) بابُ إثمِ مَنْ قَتَل معاهدًا بغيرِ جرمٍ، والنسائيُّ في «القَسامة» (٨/ ٢٥) بابُ تعظيمِ قتلِ المعاهد، وابنُ ماجه في «الديات» (٢/ ٨٩٦) بابُ=

....

= مَنْ قَتَل معاهدًا، وأحمد في «مسنده» (٢/ ١٨٦)، مِنْ حديثِ عبد الله بنِ عمرِو بنِ العاص رضي الله عنهما].

• وأمَّا أبواب الجنَّة فقَدْ وَرَد ذِكْرُها مُطْلَقةً في ثلاثِ آياتٍ قرآنيةٍ، وهي: قولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾ [الرعد]، وقولُه تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ٥٠﴾ [ص]، وقولُه تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾ [الزُّمَر]، ولم يَرِدْ في هذه الآياتِ تحديدٌ لعددِ أبوابها إلَّا ما صرَّحَتِ السنَّةُ المُطهَّرةُ به في الأحاديث الصحيحة مِنْ أنها ثمانية أبوابٍ، منها ما يلي: قولُه ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ ـ أَوْ فَيُسْبِغُ ـ الوَضُوءَ ثُمَّ يَقُولُ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ» إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ، يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ» [أخرجه مسلمٌ في «الطهارة» (٣/ ١١٨) بابُ الذكر المُستحَبِّ عَقِبَ الوضوء، مِنْ حديثِ عمر بنِ الخطَّاب رضي الله عنه].

ـ وقولُه ﷺ: «مَنْ قَالَ: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَابْنُ أَمَتِهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَأَنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَأَنَّ النَّارَ حَقٌّ»؛ أَدْخَلَهُ اللهُ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ شَاءَ» [أخرجه البخاريُّ في «الأنبياء» (٦/ ٤٧٤) بابُ قولِه: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١؛ المائدة: ٧٧]، ومسلمٌ في «الإيمان» (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧) باب الدليل على أنَّ مَنْ مات على التوحيد دَخَل الجنَّة قطعًا، مِنْ حديثِ عُبادةَ بنِ الصامت رضي الله عنه].

ـ وقولُه ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الحِنْثَ، إِلَّا تَلَقَّوْهُ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ، مِنْ أَيِّهَا شَاءَ دَخَلَ» [أخرجه ابنُ ماجه في «الجنائز» =

....

= (١/ ٥١٢) بابُ ما جاء في ثوابِ مَنْ أُصيبَ بولده، وأحمد في «المسند» (٤/ ١٨٣، ١٨٤)، مِنْ حديثِ عتبة بنِ عبدٍ السُّلَميِّ رضي الله عنه. والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح ابن ماجه» (٢/ ٤٦)].

وقد وَرَد في بعض الأحاديث النبوية الصحيحةِ ذِكْرُ تسميةِ بعضِ أبواب الجنَّة، منها: بابُ «الريَّانِ» الخاصُّ بالصائمين و«البابُ الأيمن» الخاصُّ بالذين لا يُحاسَبون مِنْ أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لَهُ: الرَّيَّانُ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائِمُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، لَا يَدْخُلُ مَعَهُمْ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ، يُقَالُ: «أَيْنَ الصَّائِمُونَ؟» فَيَدْخُلُونَ مِنْهُ، فَإِذَا دَخَلَ آخِرُهُمْ أُغْلِقَ فَلَمْ يَدْخُلْ مِنْهُ أَحَدٌ**» [أخرجه البخاريُّ في «الصوم» (٤/ ١١١) باب: الريَّانُ للصائمين، ومسلمٌ في «الصيام» (٨/ ٣٢) بابُ فضلِ الصيام، مِنْ حديثِ سهل بنِ سعدٍ الساعديِّ رضي الله عنه].

ـ وفي حديث الشفاعة الطويل وفيه: «**يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ**» [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٣٩٥ ـ ٣٩٦) باب: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء]، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٦٥ ـ ٦٩) بابُ أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً فيها، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه].

وأبواب الجنَّة في غاية السَّعَة والكِبَر، ومع ذلك تكتظُّ بأفواج الداخلين منها وتزدحم، وممَّا يدلُّ على سَعَتِها: حديثُ عتبة بنِ غزوان رضي الله عنه قال: «**وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ**» [أخرجه مسلمٌ في «الزهد» (١٨/ ١٠١ ـ ١٠٣)، وأحمد في «مسنده» (٤/ ١٧٤)، والبغويُّ في «شرح السنَّة» (١٤/ ٢٨١)].

وقد جاء في السنَّة ـ أيضًا ـ أنَّ باب الجنَّة له حلقةٌ حسِّيةٌ تُحرَّك وتُقعْقَع؛ فقد=

....

= ثَبَت مِنْ حديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «أَنَا أَكْثَرُ الأَنْبِيَاءِ تَبَعًا يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الجَنَّةِ» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٧٣) بابٌ في قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «أنا أوَّلُ الناسِ يشفع في الجنَّة، وأنا أكثرُ الأنبياء تبعًا»]، وفي حديث الشفاعة عن أنسٍ رضي الله عنه: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «فَآخُذُ بِحَلْقَةِ بَابِ الجَنَّةِ فَأُقَعْقِعُهَا»» [أخرجه الترمذيُّ في «التفسير» (٥/ ٣٠٨) باب: ومِنْ سورة بني إسرائيل. قال الترمذيُّ: «هذا حديثٌ حسنٌ». وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٣/ ٢٧٣)].

• وأمَّا شجرُ الجنَّة فقَدْ قال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَشَجَرَةً، يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٤١٥) بابُ صفةِ الجنَّة والنار، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمِها وأهلِها» (١٧/ ١٦٧) باب: إنَّ في الجنة شجرةً ... مِنْ حديثِ سهل ابنِ سعدٍ الساعديِّ رضي الله عنهما].

ثانيًا: مساكن الجنَّة:

وَصَف اللهُ تعالى مساكنَ الجنَّة دارِ النعيم بأنها طيِّبةُ القرارِ حسنةُ البناءِ، يطيب لساكِنِها بها المُقامُ؛ لاشتمالها على كُلِّ ما تشتهيه الأنفسُ مِنَ المرافق والأثاث والزينة والرزق الذي تتمُّ به راحةُ المُقيم وغبطتُه، ويدلُّ على هذه المساكنِ الطيِّبة في جنَّاتِ عدنٍ ـ وهي جناتُ خلدٍ ونعيمٍ وإقامةٍ دائمةٍ ـ: قولُه تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة]، وقولُه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف]. =

= ثالثًا: غُرَف الجنَّة:

وهي بناءٌ مرتفعٌ عالٍ في دار النعيم، وقد وَصَفَ اللهُ بناءَها بأنها طِباقٌ فوق طِباقٍ، مبنيَّاتٌ مُحْكَماتٌ عالياتٌ، بالغةُ الغايةِ في النوع، يعلو بعضُها على بعضٍ، وتجري مِنْ تحتها الأنهارُ، وقد وَعَد اللهُ بها عِبادَه المُتَّقين، واللهُ ـ سبحانه وتعالى ـ لا يُخْلِف وَعْدَه؛ قال تعالى عن عِباد الرحمن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ۝٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٧٦﴾ [الفرقان]، وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ۝٢٠﴾ [الزُّمَر]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾ [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ۝٣٧﴾ [سبأ]، وقال ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ مِنَ الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ؛ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ»، قَالُوا: «يَا رَسُولَ اللهِ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ»، قَالَ: «بَلَى، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣٢٠) بابُ ما جاء في صفةِ الجنَّة وأنها مخلوقةٌ، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٦٩) بابُ ترائي أهلِ الجنَّة أهلَ الغُرَف كما يُرى الكوكبُ في السماء، مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، واللفظُ لمسلم]، وقال ﷺ: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَغُرَفًا تُرَى ظُهُورُهَا مِنْ بُطُونِهَا وَبُطُونُهَا مِنْ ظُهُورِهَا»، فَقَامَ إِلَيْهِ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: «لِمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟»، قَالَ: «هِيَ لِمَنْ أَطَابَ الكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ،=

= وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى للهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» [أخرجه الترمذيُّ في «صفة الجنَّة» (٤/ ٦٧٣) بابُ ما جاء في صفةِ غُرَفِ الجنَّة، وأحمد في «مسنده» (١/ ١٥٥ ـ ١٥٦)، مِنْ حديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه. والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٣/ ٧)].

رابعًا: خيام الجنَّة:

وهي بيوتٌ مِنَ اللؤلؤ المجوَّف طولُهَا في السماء ثلاثون ميلًا وعرضُها ستُّون ميلًا، وهي مُغايِرةٌ للمساكن والقصور والغُرَف، وقد جاء ذِكْرُ خيامِ الجنَّة مُطلَقةً عن وصفٍ في قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن]، وبيَّنَتِ السنَّةُ المُطهَّرةُ صِفتَها في حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ خَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ مُجَوَّفَةٍ، عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ، مَا يَرَوْنَ الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُونَ» [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٦٢٤) باب: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن]، واللفظُ له، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٥) بابٌ في صفةِ خيام الجنَّة وما للمؤمنين فيها مِنَ الأهلين، وبنحوه الترمذيُّ في «صفة الجنَّة» (٤/ ٦٧٤) بابُ ما جاء في صفةِ غُرَفِ الجنَّة]، وعنه رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «الخَيْمَةُ دُرَّةٌ مُجَوَّفَةٌ، طُولُهَا فِي السَّمَاءِ ثَلَاثُونَ مِيلًا، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا لِلْمُؤْمِنِ أَهْلٌ لَا يَرَاهُمُ الآخَرُونَ» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣١٨) بابُ ما جاء في صفة الجنَّة وأنها مخلوقةٌ، واللفظُ له، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٥ ـ ١٧٦) بابٌ في صفةِ خيامِ الجنَّة وما للمؤمنين فيها مِنَ الأهلين. وفيه: «طُولُهَا [فِي السَّمَاءِ] سِتُّونَ مِيلًا»].

خامسًا: روضات الجنَّات:

تُطْلَقُ الروضةُ على أرضٍ ذاتِ خضرةٍ، أو البستان الحسن إذا اجتمع فيه الماءُ وكَثُرَ نباتُه، وقد سُمِّيَتِ الروضةُ بذلك لاستراضةِ الماء فيه، وتُجْمَعُ على روضٍ=

= ورياضٍ وروضاتٍ، وروضاتُ الجنَّة في دار النعيم هي أطيبُ أماكنِ الجنَّةِ وأشرفُها وأنزهُها، وإضافةُ الروضات للجنَّات للدلالة على تمييز البقاع بالتشريف والطِّيب، وللمؤمنين المُتَّقين في روضات الجنَّات ما يشتهونه مِنْ مُستلَذَّاتٍ ما لا عينٌ رأَتْ ولا أذنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر على قلبِ بشرٍ، وهُمْ فيها مُطمئِنُّو البالِ ومُستريحو النفس، يتنعَّمون ويُكْرَمون ـ عند ربِّهم ـ بلا حدودٍ ولا قيودٍ.

وقد خُصَّتِ الروضةُ بالذِّكْر في الآيات الآتية لأنها كانَتْ أعجبَ الأشياءِ إلى العرب، وليس هناك شيءٌ ـ عندهم ـ أحسنُ مكانًا وأجملُ منظرًا مِنَ الرياض المُعْشِبة، ومِنَ الآيات القرآنية الدالَّةِ عليها: قولُه تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ١٥ ﴾ [الروم]، وقولُه تعالى: ﴿ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعُۢ بِهِمۡۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي رَوۡضَاتِ ٱلۡجَنَّاتِۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ٢٢ ﴾ [الشورى].

سادسًا: عيون الجنَّة:

وهي منابعُ شرابِ أهل الجنَّة دارِ النعيم التي يَستلِذُّون في الشرب منها، ويتصرَّفون فيها حيث شاءوا في قصورهم ومنازلهم في الجنَّة؛ ففي أيِّ مكانٍ منها يريدون تفجيرَ عيونها يفجِّرونها ويقودونها.

وقد جاءَتْ كلمةُ «عينٍ» في القرآن الكريم بصيغة الإفراد في مَواضِعَ منها: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾ [الإنسان]، وقولُه تعالى: ﴿وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ١٧﴾ =

= عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الإنسان]، وقولُه تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [المطففين]، وقولُه تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الغاشية].

و«عينٌ» في الآية الكريمة اسمُ جنسٍ، والمرادُ منها: عيونٌ لا عينٌ واحدةٌ كما في الآيات الآتية، وتنكيرُها للتعظيم، وقد وُصِفَتْ بالجريان للدلالة على المبالغة في النضاحة والغزارة وأنها لا تنقطع أبدًا.

وقد وردَتْ لفظةُ «عين» بصيغة التثنية في موضعين وهما: قولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الرحمن]، وقولُه تعالى: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ ﴾ [الرحمن].

ووردَتْ لفظةُ: «عين» بصيغة الجمع في المواضع التالية: قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾ [الحِجر: ٤٥؛ الذاريات: ١٥]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الدخان]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [المُرسلات].

سابعًا: أنهار الجنَّة:

وقد ذَكَر اللهُ تعالى ـ في آياتٍ كثيرةٍ ـ جريانَ الأنهار مِنْ غير توقُّفٍ ولا انقطاعٍ تحت الجنَّات وغروسِها وأشجارها وثمارها، وبين أيدي أهل الجنَّة وهُم ـ في عليائهم وغُرَفِهم وقصورهم ـ على سُرُرٍ مرفوعةٍ، يزدادون سرورًا وحبورًا لا يشوبه كدرٌ؛ قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [البقرة]،=

= وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾ [آل عمران]، وقال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران]، وغيرها مِنَ الآيات التي يَصِلُ عددُها إلى أزيدَ مِنْ ثلاثين آيةً.

وأعظمُ نهرٍ في الجنَّة: الكوثرُ، وصرَّحَتِ الأحاديثُ النبوية أنَّ «الكوثر» اسمٌ لنهرٍ أعطاه اللهُ تعالى نبيَّه محمَّدًا ﷺ، ويدلُّ عليه حديثُ أنس بنِ مالكٍ ؓ قال: «بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: «مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟» قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفًا سُورَةٌ»، فَقَرَأَ: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكوثر]، ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: «اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ العَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: «رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي»، فَيَقُولُ: «مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ»»» [أخرجه مسلمٌ في «الصلاة» (٤/ ١١٢) بابُ حُجَّةِ مَنْ قال: البسملةُ آيةٌ مِنْ أوَّلِ كُلِّ سورةٍ سوى براءة، وأبو داود في «السنَّة» (٥/ ١١٠) بابٌ في الحوض، والنسائيُّ في «الافتتاح» (٢/ ١٣٣ ـ ١٣٤) بابُ قراءةِ: «بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ»، وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٠٢)]، وعنه ؓ قال: «لَمَّا عُرِجَ بِالنَّبِيِّ ﷺ إِلَى السَّمَاءِ قَالَ: «أَتَيْتُ عَلَى نَهَرٍ حَافَتَاهُ قِبَابُ اللُّؤْلُؤِ مُجَوَّفًا فَقُلْتُ: «مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا الكَوْثَرُ»»» [أخرجه البخاريُّ في «التفسير» (٨/ ٧٣١) بابُ سورةِ: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾]. =

= ويجدر التنبيه إلى أنَّ الكوثر غيرُ الحوض على الصحيح؛ لأن الكوثر نهرٌ داخِلَ الجنَّة كما دلَّ عليه حديثُ أنسٍ رضي الله عنه السابق، وماؤه يصبُّ في الحوض الذي هو خارِجَ الجنَّة، ويُمَدُّ بالمياه مِنْ داخِلِ الجنَّة، ويُطْلَق على الحوض: كوثرٌ ـ أيضًا ـ لكونه يُمَدُّ منه، [انظر: «شرح مسلم» للنووي (٤/ ١١٣)، «فتح الباري» لابن حجر (١١/ ٤٦٦)].

وأنقل كلامَ ابنِ تيمية رحمه الله في [«مجموع الفتاوى» (١٦/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠)] مُقرِّرًا أنَّ الكوثر نهرٌ مِنْ أنهار الجنَّة وهو أعظمُها، وأنه مِنَ الخير الذي أعطاهُ اللهُ إيَّاه فقال رحمه الله في مَعْرِضِ شرحِه لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر] ما نصُّه: «تدلُّ هذه الآيةُ على عطيَّةٍ كثيرةٍ صادرةٍ عن مُعْطٍ كبيرٍ غنيٍّ واسعٍ، وأنه ـ تعالى ـ وملائكته وجنده معه: صدَّر الآيةَ بـ «إنَّ» الدالَّةِ على التأكيد وتحقيقِ الخبر، وجاء الفعلُ بلفظ الماضي الدالِّ على التحقيق وأنه أمرٌ ثابتٌ واقعٌ، ولا يدفعه ما فيه مِنَ الإيذان بأنَّ إعطاء الكوثر سابقٌ في القدَرِ الأوَّل حين قُدِّرَتْ مقاديرُ الخلائق قبل أَنْ يخلقهم بخمسين ألفَ سنةٍ، وحَذَف موصوفَ الكوثرِ ليكون أبلغَ في العموم لِمَا فيه مِنْ عدم التعيين، وأتى بالصفة أي: أنه سبحانه وتعالى قال: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر] فوصَفَه بالكوثر والكوثرُ المعروفُ إنما هو نهرٌ في الجنَّة كما قد ورَدَتْ به الأحاديثُ الصحيحة الصريحة، وقال ابنُ عبَّاسٍ: «الكوثر إنما هو مِنَ الخير الكثير الذي أعطاه اللهُ إيَّاه»، وإذا كان أقلُّ أهلِ الجنَّة مَنْ له فيها مثلُ الدنيا عشرَ مرَّاتٍ فما الظنُّ بها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ممَّا أعدَّه اللهُ له فيها؟ فالكوثرُ علامةٌ وأمارةٌ على تعدُّدِ ما أعدَّه اللهُ له مِنَ الخيرات واتِّصالها وزيادتِها وسُمُوِّ المنزلة وارتفاعها، وأنَّ ذلك النهرَ ـ وهو الكوثرُ ـ أعظمُ أنهار=

....

= الجنَّة وأطيبُها ماءً وأعذبُها وأحلاها وأعلاها».

وممَّا يدلُّ على وجودِ أنهارٍ غيرِ نهر الكوثر: حديثُ أنس بنِ مالكٍ عن مالك ابنِ صَعْصَعةَ ﷺ في حديثٍ طويلٍ جاء فيه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ المُنْتَهَى، فَإِذَا نَبِقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالُ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الفُيُولِ، فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: «أَمَّا البَاطِنَانِ: فَفِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: النِّيلُ وَالفُرَاتُ»» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣٠٢ـ ٣٠٣) بابُ ذِكْرِ الملائكة صلواتُ الله عليهم، ومسلمٌ في «الإيمان» (٢/ ٢٢٣ ـ ٢٢٥) باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرضِ الصلوات، والنسائيُّ في «الصلاة» (١/ ٢١٧ ـ ٢٢١) بابُ فرضِ الصلاة، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٢٠٧ ـ ٢١٠)]، وحديثُ أبي هريرة ﷺ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَيْحَانُ وَجَيْحَانُ وَالفُرَاتُ وَالنِّيلُ كُلٌّ مِنْ أَنْهَارِ الجَنَّةِ» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٦) بابُ ما في الدنيا مِنْ أنهار الجنَّة، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٦١، ٢٨٩، ٤٤٠)].

ونَلْفِتُ النظرَ إلى انتفاء التعارض بين معنى الحديث وما هو معلومٌ مِنْ منابع الأنهار المعروفة في الأرض إذا ما حُمِل المرادُ مِنْ كون الأنهار مِنَ الجنَّة أي: أصلُها منها، كما أنَّ أصل الإنسان مِنَ الجنَّة، وإلَّا فالحديث مِنْ أمور الغيب التي يجب الإيمانُ بها والتسليمُ للمُخْبِر عنها.

وقد بيَّنَتِ السنَّةُ المطهَّرةُ أنَّ أنهار الجنَّةِ تتفجَّر مِنَ الفردوس أعلى درجاتِ الجنَّة، ويدلُّ عليه حديثُ أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال: «إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ؛ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ ـ أُرَاهُ ـ فَوْقَهُ=

= عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ» [أخرجه البخاريُّ في «الجهاد والسِّيَر» (٦/ ١١) بابُ درجاتِ المجاهدين في سبيل الله، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٣٥، ٣٣٩)].

المحور الثاني: رزق الجنَّةِ وتنوُّعُ نعيمِها:

أتناول موضوعَ رزقِ الجنَّة في الفقرة الأولى، ثمَّ أعرِّج على تنوُّعِ نعيمِ الجنَّة في الفقرة الثانية:

الفقرة الأولى: رزق الجنَّة:

وهو شاملٌ لأنواع أنهار الجنَّة وثمارها وطعامِ أهل الجنَّة وشرابهم، وتظهر على الوجه التالي:

أوَّلًا: أنواع أنهار الجنَّة:

تقدَّم الحديث عن أنهار الجنَّة [انظر: (ص ٣٧٦)]، والآياتُ الواردة في ذِكْرِها تَناوَلَتْ أوصافَها ولم تتناول نوعيَّتَها باستثناءِ قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَـٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَـٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّـٰرِبِينَ وَأَنْهَـٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [محمَّد: ١٥]، فقَدْ خصَّ اللهُ تعالى ـ في هذه الآيةِ ـ بيانَ أنواعِ أنهار الجنَّة وتوضيحَها وهي:

ـ أنهارٌ مِنْ ماءٍ غيرِ آسنٍ، أي: ماءٍ غيرِ متغيِّرٍ لا لونًا ولا طعمًا ولا رائحةً، بل هو باقٍ على خِلْقتِه الأصلية لأهلِ الجنَّة لن يتغيَّر بطول المكث.

ـ أنهارٌ مِنْ لبنٍ لم يتغيَّرْ طَعْمُه مهما طال مكثُه يبقى على حالته الأصلية، لا حامضًا ولا قارصًا ولا طَعْمًا كريهًا؛ فلا تتغيَّر هيئتُه الأصلية كما تتغيَّر ألبانُ الحياةِ الدنيوية المُستخرَجة مِنَ الضروع، بل يبقى مُحافِظًا على هيئته في غاية البياض والحلاوة=

....

= ولذَّةِ الطَّعْم.

- أنهارٌ مِنْ خمرٍ: وهي حسنةُ المنظرِ لذيذةُ الطعمِ طيِّبةُ الرائحة، لم تدنِّسها الأرجلُ والأيدي، ليس فيها ذهابُ عقلٍ ولا نتانةُ ريحٍ ولا آفةٌ مِنَ الآفات، وإنما هي لذَّةٌ للشاربين خاليةٌ مِنَ الغوائل والصداع؛ قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝٤٥ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ۝٤٦ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ۝٤٧﴾ [الصافَّات]، وقال تعالى: ﴿...بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾ [الواقعة].

- أنهارٌ مِنْ عسلٍ مصفًّى مِنْ كُلِّ الشوائب والرواسب التي تعكِّره وتكدِّره، فليس كعسل الدنيا الذي يخرج مِنْ بطون النحل مخلوطًا بالشمع والفضلات فيحتاج إلى تصفيةٍ وتنقيةٍ، بل هو في غاية الصفاء مع تنوُّعه، وحَسَنُ اللونِ وطيِّبُ الريحِ والطَّعم.

وصَف اللهُ هذه الأطعمةَ بما يدلُّ على كثرتها وغزارتها وبقائها مُستمِرَّةً فهي أنهارٌ، وإذا كانَتْ أنهارُ الماء معلومةً ومشاهدةً إلَّا أنَّ أنهار اللبن والخمر والعسل معدودةٌ مِنْ أحوال الجنَّة دارِ النعيم التي يجب الإيمانُ بها إيمانًا قطعيًّا لا يشوبه شكٌّ ولا ريبٌ.

ثانيًا: ثمار الجنَّة:

وهي ثمارٌ كثيرةٌ وفاكهةٌ متشابهةٌ ومتنوِّعةٌ مِنْ جميع ثمرات الجنَّة وأصنافها التي تكون على الأشجار مِنْ نخيلٍ وعنبٍ وتفَّاحٍ وغيرها ممَّا يُشتهى ولا نظيرَ له في الدنيا، مع دُنُوِّها وسهولةِ قطفِها؛ قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا =

= ﴿قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا (٣١) حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا (٣٢)﴾ [النبأ]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ (٥١)﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢)﴾ [الطور]، وقال تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨)﴾ [الرحمن]، وقال تعالى: ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ (٤٢)﴾ [المرسلات]، وقال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠)﴾ [الواقعة]، ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣)﴾ [الحاقة]، ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا (١٤)﴾ [الإنسان]، وثمارُ الجنَّة لا تنقطع في أيِّ وقتٍ مِنَ الأوقات كما تنقطع فواكهُ الدنيا الصيفيةُ في الشتاءِ وفواكهُ الشتاء في الصيف؛ فلا حائلَ يمنع عن فاكهة الجنَّة ولا أذى ولا شوك ولا بُعد عنها؛ قال تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣)﴾ [الواقعة]، وكُلُّ ما يُتفكَّهُ به مِنَ الثمار على ضربين: رطبٍ ويابسٍ كما أخبر اللهُ تعالى به في قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢)﴾ [الرحمن]، وهم فيما هم فيه مِنَ الرزق والفواكه والنعيم العظيم مُكْرَمون بالثواب العظيم والأجر الجزيل، مُكْرَمون بالرفاهية والخدمة والرعاية والرزق الدائم الذي يَصِل إليهم مِنْ غير كسبٍ ولا كدٍّ ولا سؤالٍ، وهو باقٍ لا يزول ولا يبيد، وآمنون مِنْ نفادِ الخيرات والبركات وفَنائها، وآمنون مِنَ الضرر فلا غائلةَ أذًى ولا عاقبةَ مكروهٍ؛ فلا أسقامَ ولا آلامَ؛ قال تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ (٥٥)﴾ [الدخان]، وقال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ (٤١) فَوَاكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ (٤٢)﴾ [الصافات].

فما أعظمَ رِزْقَ اللهِ تعالى وما أَوْسَعَ عطاءَه! كما أخبر المولى عزَّ وجلَّ به قائلًا:=

= ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ۝٥٤﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩﴾ [ص].

ثالثًا: طعام الجنَّةِ وشرابُها:

أخبر اللهُ تعالى عِبادَه الصالحين المُتَّقين بدوام الطعام والشراب المُتنعَّم بهما مِنْ غير انقطاعٍ إلى غير نهايةٍ؛ قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩؛ المُرسَلات: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ۝٢٤﴾ [الحاقَّة]، وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ ۝٥٠ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ۝٥١﴾ [ص].

ومِنْ جهةِ نوعِ المآكل فقَدْ تَقدَّم ذِكْرُ الثمار والفواكه التي أمَدَّ اللهُ تعالى بها عِبادَه المؤمنين، وزادهم مِنْ أنواعِ اللحوم التي يشتهونها؛ فجَمَع اللهُ بين أرفعِ أنواعِ الأطعمة وهي أطعمةُ المُتنعِّمين: الفاكهة واللحم في قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢﴾ [الطور]، وقولِه تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢١﴾ [الواقعة]، وفي حديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه أنَّ عبد الله ابنَ سَلَامٍ رضي الله عنه سأل رسولَ اللهِ ﷺ حينما قَدِم المدينةَ عن أوَّلِ طعامٍ يأكله أهلُ الجنَّة، فأجابه النبيُّ ﷺ بقوله: «**وَأَمَّا أَوَّلُ طَعَامٍ يَأْكُلُهُ أَهْلُ الجَنَّةِ فَزِيَادَةُ كَبِدِ حُوتٍ**» [أخرجه البخاريُّ في «الأنبياء» (٦/ ٣٦٢) بابُ خَلْقِ آدمَ صلواتُ اللهِ عليه وذُرِّيَّتِه، وفي «مناقب الأنصار» (٧/ ٢٧٢)، وأحمد في «مسنده» (٣/ ١٠٨)]، قال ابنُ حجرٍ رحمه الله في =

....

= [«فتح الباري» (٧/ ٢٧٣)]: «الزيادة: هي القطعة المُنفرِدةُ المُعلَّقة في الكبد، وهي في المطعم في غاية اللذَّة، ويقال: إنها أهنأُ طعامٍ وأمرأُه».

هذا، والطعامُ في الجنَّة لا يتحلَّل فيصيرُ فضلاتٍ قَذِرةً وبولًا نجسًا كما هو شأنُ الطعامِ في الدنيا، وإنما ناتجُ الطعامِ والشراب في الجنَّة طيِّبٌ طاهرٌ يخرج جُشاءً ـ وهو الصوتُ الذي يخرج مِنَ الفم عند امتلاء المَعِدة ـ ويصير رشحًا مِنْ أبدانهم كرَشْحِ مسكٍ يخرج مِنْ جلودهم، ويدلُّ عليه قولُه ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ يَأْكُلُونَ فِيهَا وَيَشْرَبُونَ، وَلَا يَتْفُلُونَ وَلَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ**»، قَالُوا: «فَمَا بَالُ الطَّعَامِ؟» قَالَ: «**جُشَاءٌ وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ، يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ**» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٣) بابٌ في صفات الجنَّة وأهلِها وتسبيحِهم فيها بكرةً وعشيًّا، مِنْ حديثِ جابر بنِ عبد الله رضي الله عنهما].

وأمَّا شرابُ أهلِ الجنَّة فأنواعٌ مختلفةٌ تقدَّم ذِكْرُها [انظر: (ص ٣٨٠)]، وهي:

ـ الماء الموصوف بعدم تغيُّره لا لونًا ولا طعمًا ولا رائحةً، أي: أنَّ عامِلَ طولِ المكث لا يُغيِّر هيئتَه الأصلية في قوله تعالى: ﴿**مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ**﴾ [محمَّد: ١٥]، وموصوفٌ ماؤُه ـ أيضًا ـ بأنه مصبوبٌ ومسكوبٌ دون انقطاعٍ كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾**﴾ [الواقعة].

ـ اللبن الموصوف بأنه غايةُ البياضِ والحلاوةِ ولذَّةِ الطَّعم، لم يحدث له على خِلْقته الأصليةِ أدْنى تغييرٍ؛ قال تعالى: ﴿**وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ**﴾ [محمَّد: ١٥].

ـ العسل الموصوف بأنه غايةُ الصفاءِ وحُسْنِ اللون وطِيبِ الريح والطَّعم، مُصفًّى=

= مِنْ كُلِّ الشوائب والرواسب التي تكدِّره وتعكِّره؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

ـ الخمر الموصوفة بأنها حسنةُ المنظرِ لذيذةُ الطعمِ طيِّبةُ الرائحة، فهي على عكسِ خمرِ الدنيا الموصوفةِ بأقبح الأوصاف؛ فهي تغتال العقلَ، وتسلب المالَ، وتُهْلِك الأبدانَ، وتجلب الأسقامَ، وتُوقِع العداوةَ والبغضاءَ، وتُورِث الخزيَ والعار والفضيحة، وتُذْهِب الغيرةَ، وهذه الصفاتُ الذميمة مُنتفِيةٌ عن خمر الجنَّة، وأهلُها يتداولون كأسَ الشراب دون لغوٍ ولا تأثيمٍ، فلا باطلَ يحصل لهم ولا فُحْشَ ولا بذاءةَ ولا هذيانَ؛ قال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الصافات]، وقال تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الطور]، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان]، ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ [الإنسان]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الواقعة]، ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ [النبأ]، وقال تعالى: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [المطففين].

فالحاصل: أنَّ أنواع الطعام والشراب في الجنَّة كثيرٌ، ذَكَر بعضَها القرآنُ الكريم، وأشار إلى أنواعٍ أخرى دون التصريح بما تَمِيلُ إليه النفوسُ وتَلَذُّ الأعينُ كما في=

= قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف].

لكِنْ ما هي الحكمةُ مِنْ تنعُّمِ أهل الجنَّةِ مِنْ أنواع الطعام والشراب واللباس وغيرِها، مع إمكان الاستغناء عنها وانتفاءِ الحاجة إليها؟ فأيُّ حاجةٍ إلى البخور ـ مثلًا ـ وريحُهم أطيبُ مِنَ المسك؟ وقد أجاب القرطبيُّ رحمه الله عن هذه الحكمةِ في [«التذكرة» (٢/ ٥٦٩)] بما نصُّه: «إنَّ نعيم أهلِ الجنَّة وكسوتَهم ليس عن دفعِ ألمٍ اعتراهم: فليس أكلُهم عن جوعٍ، ولا شربُهم عن ظمإٍ، ولا تطيُّبُهم عن نتنٍ، وإنما هي لذَّاتٌ متواليةٌ ونِعَمٌ متتابعةٌ، ألا ترى قولَه تعالى لآدَمَ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه]؟ وحكمةُ ذلك: أنَّ الله تعالى نعَّمهم في الجنَّة بنوعِ ما كانوا يتنعَّمون به في الدنيا، وزادهم على ذلك ما لا يعلمه إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ».

الفقرة الثانية: تنوُّع نعيمِ الجنَّة:

بعد ذِكْرِ رِزْق الجنَّة وما يتعلَّق به مِنْ أنواعٍ وأصنافٍ، أتناوَل الأنواعَ الأخرى للجنَّة دارِ النعيم في النقاط التالية:

أوَّلًا: لباس أهل الجنَّة:

أخبر اللهُ تعالى أنَّ أهل الجنَّة يُنعَّمون بلباسٍ فاخرٍ مِنْ رقيقِ الديباج ورفيعِه وهو السُّنْدُس، ومِنْ غليظ الديباج الحسنِ وهو الإِسْتَبْرَقُ مِنْ ثياب الحرير، وغيرِهما ممَّا يشتهون، ويكرمهم اللهُ تعالى بثيابٍ منها الخُضْرُ لأنها أحسنُ الألوانِ، والنفس ترتاح للَّون الأخضرِ أكثرَ مِنْ غيره، فيُنعَّمون بهذه الألبسةِ والثيابِ في جنَّاتِ الخلد=

....

= والنعيم؛ قال تعالى: ﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾ [الدخان]، وقال تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣؛ فاطر: ٣٣]، وقد أخبر النبيُّ ﷺ أنَّ خمارًا واحدًا مِنْ خُمُرِ نساءِ الجنَّةِ خيرٌ مِنَ الدنيا وما فيها، بل المناديلُ التي شأنُها أنها تُبْتَذَلُ في أنواع المرافق ـ وهي سبيلُ ثيابِ الخدم كمسحِ الأيدي ونفضِ الغبار عن البدن والأواني وتغطيتِها وغيرِ ذلك ـ أحسنُ مِنْ حرير الدنيا، فإذا كان الخِمارُ والمنديل بهذه الدرجةِ مِنَ الرفعة والحُسْن فما بالُ بقيَّةِ اللباس الفخم الفاخر في الجنَّة؟! ويدلُّ عليه حديثُ أنس ابنِ مالكٍ رضي الله عنه في قصَّةِ أمِّ حارثةَ رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ قال لها: «لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ نِسَاءِ أَهْلِ الجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى الأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْ مَا بَيْنَهُمَا رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا ـ يَعْنِي: الخِمَارَ ـ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا» [انظر تخريجَ حديثِ قصَّةِ أمِّ حارثة رضي الله عنها (ص ٣٦١)]، وفي حديثِ البراء بنِ عازبٍ رضي الله عنهما قال: «أُهْدِيَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ سَرَقَةٌ مِنْ حَرِيرٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَتَدَاوَلُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَعْجَبُونَ مِنْ حُسْنِهَا وَلِينِهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَتَعْجَبُونَ مِنْهَا؟» قَالُوا: «نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ»، قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَمَنَادِيلُ سَعْدٍ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنْهَا»» [أخرجه البخاريُّ في «مناقب الأنصار» (٧/ ١٢٢) بابُ مناقبِ سعد بنِ معاذٍ رضي الله عنه، وفي «الأيمان والنذور» (١١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥)، باب: كيف كانَتْ يمينُ النبيِّ ﷺ، ومسلمٌ في «فضائل الصحابة» (١٦/ ٢٢) باب: مِنْ فضائل سعد بنِ معاذٍ رضي الله عنه].

وثياب الجنَّة لا تَبْلى، وتَشَقَّق عنها ثمرُ الجنَّة، ويدلُّ على ذلك: حديثُ أبي هريرة=

= رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يَنْعَمُ لَا يَبْأَسُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ وَلَا يَفْنَى شَبَابُهُ» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٤) بابٌ في دوامِ نعيم أهل الجنَّة، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٣٠٥)، والدارميُّ في «الرقائق» (٢/ ٣٣٣) باب: مَنْ يدخل الجنَّة ينعم ولا يبأس]، وعنه رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَهْلُ الجَنَّةِ جُرْدٌ مُرْدٌ كُحْلٌ، لَا يَفْنَى شَبَابُهُمْ وَلَا تَبْلَى ثِيَابُهُمْ» [أخرجه الترمذيُّ في «صفة الجنَّة» (٤/ ٦٧٩) بابُ ما جاء في صفة ثياب أهل الجنَّة. والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٣/ ١٢)]، وعن عبد الله ابنِ عمرٍو رضي الله عنه أنه قال: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «يَا رَسُولَ اللهِ، أَخْبِرْنَا عَنْ ثِيَابِ أَهْلِ الجَنَّةِ: خَلْقًا تُخْلَقُ أَمْ نَسْجًا تُنْسَجُ؟» فَضَحِكَ بَعْضُ القَوْمِ؛ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِمَّ تَضْحَكُونَ؟ مِنْ جَاهِلٍ يَسْأَلُ عَالِمًا؟» ثُمَّ أَكَبَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: «أَيْنَ السَّائِلُ؟» قَالَ: «هُوَ ذَا أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ»، قَالَ: «لَا، بَلْ تَشَقَّقُ عَنْهَا ثَمَرُ الجَنَّةِ»، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥). قال أحمد شاكر في «تحقيقه للمسند» (١٢/ ٤٥، ٤٦): «إسناده صحيح»].

هذا، وقد سُمِّيَتْ بعضُ الحُلَلِ بحُلَلِ الكرامة كما وَرَد ذلك في السنَّة الصحيحة مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «يَجِيءُ القُرْآنُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَقُولُ: «يَا رَبِّ حَلِّهِ»، فَيُلْبَسُ تَاجَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: «يَا رَبِّ زِدْهُ»، فَيُلْبَسُ حُلَّةَ الكَرَامَةِ، ثُمَّ يَقُولُ: «يَا رَبِّ ارْضَ عَنْهُ»، فَيَرْضَى عَنْهُ، فَيُقَالُ لَهُ: «اقْرَأْ وَارْقَ»، وَيُزَادُ بِكُلِّ آيَةٍ حَسَنَةً» [أخرجه الترمذيُّ في «فضائل القرآن» (٥/ ١٧٨) بابُ ما جاء في مَنْ قرأ حرفًا مِنَ القرآن ما له مِنْ أجرٍ، والدارميُّ بنحوه في «فضائل القرآن» (٢/ ٤٣٠) بابُ فضلِ مَنْ قرأ القرآنَ. قال الترمذيُّ: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٣/ ١٦٥)]، ومِنْ حديثِ عمرِو بنِ حزمٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يُعَزِّي أَخَاهُ=

....

= **بِمُصِيبَةٍ إِلَّا كَسَاهُ اللهُ سُبْحَانَهُ مِنْ حُلَلِ الكَرَامَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ»** [أخرجه ابنُ ماجه في «الجنائز» (١/ ٥١١) بابُ ما جاء في ثوابِ مَنْ عزَّى مُصابًا. والحديث حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح ابنِ ماجه» (٢/ ٤٥)].

ثانيًا: فُرُش أهل الجنَّة:

ذَكَر اللهُ تعالى المفروشَ مِنَ المتاع في الجنَّة في القرآن الكريم مُخبِرًا أنَّ بطائن هذه الفُرُشِ مِنْ غليظ الديباج وخَشِنه وهو الإستبرقُ فقال تعالى: ﴿**مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشِۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ٥٤**﴾ [الرحمن]، فإذا كانَتْ بطائنُها بهذا العُلُوِّ مِنْ شرفِ فُرُشِ الجنَّة فما بالُك بظواهرها التي هي أعظمُ وأخيرُ؟ ويدلُّ اتِّكاءُ أهلِها عليها على كمالِ الراحة وتمامِ النعيم وعدمِ الحاجة إلى النهوض لِتناوُلِ الثمر وغيره.

وهذا المعنى مِنَ العُلُوِّ والرفعة حسًّا ومعنًى وصَفَه اللهُ تعالى في قوله: ﴿**وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ٣٤**﴾ [الواقعة]، فهي مرفوعةُ القَدْرِ ومرفوعةٌ بعضُها فوق بعضٍ بارتفاعها على الأَسِرَّة حسًّا، وقد خصَّ اللهُ تعالى بالذِّكْر ـ مِنْ فُرُشِ الجنَّة ـ النَّمارِقَ والرَّفْرَف ـ وهي الوسائدُ المُعَدَّة للاتِّكاء ـ ووصَفَها بأنها مصفوفةٌ بعضُها بجانب بعضٍ، وأنها مِنَ العبقريِّ الحسان الذي ليس فوقه شيءٌ مِنَ الكمال فقال تعالى: ﴿**مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ٧٦**﴾ [الرحمن]، كما خصَّ بالذِّكر الزرابيَّ المبثوثةَ، وهي البُسُطُ الكثيرة المُنْتشِرةُ في كُلِّ مكانٍ في الجنَّة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ١٦**﴾ [الغاشية]. =

....

= ثالثًا: أرائك أهل الجنَّةِ وسُرُرُهم:

ـ والأرائك: جمعُ أريكةٍ، وهي: سريرٌ مُنجَّدٌ مزيَّنٌ بستورٍ وفُرُشٍ في قُبَّةٍ أو بيتٍ يُتَكَأُ عليه، ويجمع بين سريرٍ وفراشٍ ومِنَصَّةٍ، وقد ورَدَتْ لفظةُ «الأرائك» في مواضعَ مِنَ القرآن الكريم، بيَّن اللهُ تعالى فيها المظهر المُتْرَفَ المُنعَّم للأبرار المؤمنين في الجنَّة دارِ النعيم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَيَلۡبَسُونَ ثِيَابًا خُضۡرٗا مِّن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۚ نِعۡمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتۡ مُرۡتَفَقٗا ۝٣١﴾ [الكهف]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ۝٥٦﴾ [يس]، وقولِه تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ۝١٣﴾ [الإنسان]، وقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣﴾ [المطففين]، وقولِه تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥﴾ [المطفِّفين].

ـ والسُّرُرُ: جمعُ سريرٍ، وهو المُضطجَعُ الرفيعُ المهيَّأُ للسرور، وقد جاءَتْ لفظةُ «السُّرُر» في مواضعَ مِنَ القرآن الكريم، بيَّن اللهُ تعالى فيها المجالسَ المُرتفِعةَ المزيَّنة بأنواع الأكسية الفاخرة والمفروشة بأجمل الأنواع وأعلاها وأحلاها، وصَفها اللهُ تعالى بأنها مصفوفةٌ أي: جُعِلَتْ صفوفًا بعضُها إلى جانبِ بعضٍ، ووصَفها ـ أيضًا ـ بأنها موضونةٌ أي منسوجةٌ ومُشبَّكةٌ بالذهب ومزيَّنةٌ بالجوهر بعضُها في بعضٍ كما تُنسَجُ الستورُ وتُشبَكُ الدروعُ على أحسنِ نظامٍ وأبدعِه، كذلك كانَتْ سُرُرًا مرفوعةً قَدْرًا وحالًا ومكانًا، يُنعَّم فيها أهلُ الجنَّة، قلوبُهم صافيةٌ، متحابِّين مُتآخِين مُتآلِفين، وهُمْ عليها متقابلون لا يَستديرُ أحَدُهم للآخَرِ=

= ولا يجعله جانبًا، وهم غايةٌ في الراحة وعِظَمِ الطمأنينة وكمالِ السرور؛ قال الله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحِجر]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [الطور]، وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [الغاشية].

رابعًا: آنية أهل الجنَّة:

الآنية جمعُ إناءٍ، وهي شاملةٌ لجميع الأوعية، وقد أخبر اللهُ تعالى ورسولُه ﷺ بوجودِ آنيةٍ في الجنَّة، وأنَّ مادَّتها مِنَ الذهب والفضَّة في قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ١٥]، وفي قوله ﷺ: «جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ القَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الكِبْرِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ» [أخرجه البخاريُّ في «التوحيد» (١٣/ ٤٢٣) بابُ قولِ الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة]، ومسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ١٦) بابُ إثباتِ رؤيةِ المؤمنين في الآخرة لربِّهم سبحانه وتعالى، مِنْ حديثِ أبي موسى عبد الله بنِ قيسٍ الأشعريِّ رضي الله عنه]، وفي حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه في ذِكْرِ أوَّلِ زمرةٍ تدخل الجنَّةَ جاء قولُه ﷺ: «آنِيَتُهُمُ الذَّهَبُ وَالفِضَّةُ، وَأَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَوَقُودُ مَجَامِرِهِمُ الأَلُوَّةُ» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣١٨ ـ ٣١٩) بابُ ما جاء في صفةِ الجنَّة وأنها مخلوقةٌ، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٣) بابٌ في صفات الجنَّة وأهلها].

هذا، وقد نصَّ اللهُ على ثلاثةِ أنواعٍ مِنَ الآنية ـ تقديرًا وتكريمًا ـ وهي:

• **الأباريق**: جمعُ إبريقٍ، وهو عبارةٌ عن وعاءٍ له أذنٌ وخرطومٌ يَنْصبُّ السائلُ منه، وجاء مذكورًا في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ =

= وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ [الواقعة].

• الصِّحاف: جمعُ صَحْفةٍ، وهي القصعة في لغة العرب، وجاء ذِكْرُها في قوله تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ ﴾ [الزخرف: ٧١]، أي: تدور عليهم خُدَّامُهم مِنَ الولدان المُخلَّدين بأحسن طعامٍ في أحسن الأواني وأفخرِها، وهي صِحافُ الذهب، ولم يذكر الطعامَ لعلمِ السامعين به.

• الأكواب: جمعُ كوبٍ، وهو القَدَحُ المستديرُ الفوهِ لا أُذُنَ له ولا عُروةَ، قال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإنسان]، والآيةُ دلَّتْ على أنَّ الأكواب مِنْ قواريرَ، والقواريرُ: جمعُ قارورةٍ، وهي إناءُ الزُّجاج خاصَّةً، غيرَ أنَّ الآية صرَّحَتْ بأنَّ القوارير مِنْ فضَّةٍ؛ فكان المعنى: أنَّ الولدان المخلَّدين مِنْ خُدَّام أهل الجنَّة يدورون عليهم بشرابهم بألطفِ الأواني وهي الأكوابُ التي لا عُرَى لها، تُعَدُّ مِنْ أصفى أواني الفضَّة، وهي أعظمُ صفاءً مِنَ القوارير، قدَّروها على قَدْرِ رِيِّهم فلا زيادةَ ولا نُقصانَ بحسَبِ حاجةِ صاحِبِها وشهوتِه، وهذا أبلغُ في الاعتناء والتشريف والتكريم، وقال تعالى: ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [الغاشية]؛ فدلَّتْ هذه الآيةُ على أنَّ ـ في الجنَّة ـ أكوابًا ممتلئةً بأنواع الأشربة الطيِّبة وُضِعَتْ بين أيدي أهل الجنَّةِ وأُعِدَّتْ لهم في البيوت والقصور والغُرَفِ والخيام وعلى حافة العيون الجارية، وهي رهنُ طلبِهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الغلمانُ المخلَّدون، وهذا مِنْ كمال النعيم والتكريم والتشريف. =

= المحور الثالث: حال أهل الجنَّة فيها:

أتناول موضوعَ هذا الفرعِ في النقاط التالية:

● أوَّلًا: لا اختلافَ بين أهل الجنَّة في حالتهم التي يكونون عليها خِلْقةً وخُلُقًا، وإنْ وُجِد تفاوتٌ في الحُسْن والجمال؛ فأهلُ الجنَّة تتلاقى قلوبُهم وأخلاقُهم على خُلُقِ رجلٍ واحدٍ، وأشكالُهم وألوانهم وجمالهم وسِنُّهم وطولهم وشبابهم وألسنتهم على أجملِ شكلٍ وأكملِ صورةٍ مِثْلَ آدمَ عليه السلام طولًا وعرضًا، جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جِعادًا مُكحَّلين، في سِنِّ القوَّة والفتوَّة والشباب، أبناءَ ثلاثٍ وثلاثين، صِفاتُهم الذاتيةُ والخَلْقية مُطهَّرةٌ مِنْ كُلِّ أذًى ونجسٍ، وصفاتُهم الخُلُقية نقيَّةٌ مِنْ علائق القوى الشهوانية والغضبية، صافيةٌ مِنْ أمراض القلوب والغِلِّ والحقد والحسد والشحناء والضغينة والعداوة والكراهة، وغيرِها ممَّا تُعكِّرُ به النفوسُ ويلوِّثها، ينزع اللهُ الغِلَّ مِنْ صدورهم حتَّى يصبحوا إخوانًا مُتحابِّين، سَلِمَتْ نفوسُهم مِنَ الآفات الخُلُقية والأمراض الخَلْقية، يحييهم اللهُ تعالى ـ في الجنَّة ـ حياةً طيِّبةً كاملةً متميِّزةً عمَّا كانوا عليه في الجنَّة، ويرفعهم اللهُ تعالى إلى منتهى الكمال والجمال في الخِلْقة والخُلُق، وإنْ تَفاوَتوا مِنْ جهة الحُسْن والجمال، فالفوجُ الأوَّل الذي يدخل الجنَّةَ يكون على صورةِ القمر ثمَّ يليه فوجٌ على أشدِّ كوكبٍ دُرِّيٍّ في السماء إضاءةً وهكذا، ويدلُّ على ما تقدَّم: قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحِجر]، وقولُه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا =

....

= ﴿ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف]، ويدلُّ على هذه التنقيةِ والتهذيبِ مِنْ آفات الغِلِّ وأمراض القلوب ما جاء في حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه أنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «يَخْلُصُ المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» [أخرجه البخاريُّ في «الرِّقاق» (١١/ ٣٩٥) باب القصاص يومَ القيامة]، ويدلُّ على صفاتِ أهل الجنَّة الخَلْقية: قولُه صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتْفِلُونَ وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلُوَّةُ [الأَلَنْجُوجُ عُودُ الطِّيبِ]، وَأَزْوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ» [أخرجه البخاريُّ في «أحاديث الأنبياء» (٦/ ٣٦٢) بابُ خَلْقِ آدمَ صلواتُ الله عليه وذُرِّيَّتِه، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧١ ـ ١٧٢) بابُ أوَّلِ زمرةٍ تدخل الجنَّةَ على صورة القمر ليلةَ البدر، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، وقولُه صلى الله عليه وسلم: «فَكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ آدَمَ، فَلَمْ يَزَلِ الخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الآنَ» [أخرجه البخاريُّ في «أحاديث الأنبياء» (٦/ ٣٦٢) بابُ خَلْقِ آدمَ صلواتُ اللهِ عليه وذُرِّيَّتِه، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٨) باب: يدخل الجنَّةَ أقوامٌ أفئدتُهم مِثْل أفئدةِ الطير. مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، وقولُه صلى الله عليه وسلم: «يَدْخُلُ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ جُرْدًا مُرْدًا بِيضًا جِعَادًا مُكَحَّلِينَ، أَبْنَاءَ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ، عَلَى خَلْقِ آدَمَ، سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي عَرْضِ سَبْعِ أَذْرُعٍ» [أخرجه أحمد في «مسنده» (٢/ ٢٩٥)، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه.=

= وصحَّح إسنادَه أحمد شاكر في تعليقه على «المسند» (١٥/ ٧٤)].

• **ثانيًا: ليس في الجنَّة أعزبُ لا رجلٌ ولا امرأةٌ**، وأزواجُ أهلِ الجنَّة مِنَ الحُورِ العِينِ، وهو جمعٌ واحدتُه الحوراءُ العَيْناء، وهي الشابَّة الحسناءُ البيضاءُ الجميلةُ، واسعةُ العَيْن وشديدةُ سوادِها، ولكُلِّ امرئٍ مِنْ أهل الجنَّةِ زوجتان مِنَ الحُور العِين، يُرى مُخُّ سُوقِهما مِنْ وراءِ العظم واللحم، إلَّا الشهيد فإنه يتزوَّج باثنتين وسبعين زوجةً منهنَّ، وقد ذَكَر اللهُ تعالى الحُورَ العِين في القرآن الكريم في ثلاثِ آياتٍ، وهي: قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٥٤﴾ [الدخان]، وقولُه تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠﴾ [الطور]، وقولُه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢﴾ [الواقعة]، وقد شبَّه اللهُ الحُورَ العِينَ بثلاثةِ تشبيهاتٍ وهي: **البَيْض المكنون** في قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝٤٨ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝٤٩﴾ [الصافَّات]، **والياقوت والمرجان** كما في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ [الرحمن]، **واللؤلؤ المكنون** في قولِه تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ۝٢٣﴾ [الواقعة]، وقولِه ﷺ: «**أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، وَالَّذِينَ عَلَى آثَارِهِمْ كَأَحْسَنِ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لَا تَبَاغُضَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَحَاسُدَ، لِكُلِّ امْرِئٍ زَوْجَتَانِ مِنَ الحُورِ العِينِ، يُرَى مُخُّ سُوقِهِنَّ مِنْ وَرَاءِ العَظْمِ وَاللَّحْمِ**» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣٢٠) بابُ ما جاء في صفةِ الجنَّة وأنها مخلوقةٌ، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، وقولِه ﷺ ـ في روايةٍ أخرى ـ: «**لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ زَوْجَتَانِ [اثْنَتَانِ]، يُرَى مُخُّ سُوقِهِمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ [مِنَ الحُسْنِ]، [وَمَا فِي الجَنَّةِ أَعْزَبُ]**» [أخرجه البخاريُّ في «بدء الخَلْق» (٦/ ٣١٨) بابُ ما جاء في صفة =

....

= الجنَّة وأنها مخلوقةٌ، ومسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٠ ـ ١٧١) باب: أوَّل زمرةٍ تدخل الجنَّةَ على صورة القمر ليلةَ البدر، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، وقولِه ﷺ: «لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ: اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ» [أخرجه الترمذيُّ في «فضائل الجهاد» (٤/ ١٨٧ ـ ١٨٨) بابٌ في ثواب الشهيد، مِنْ حديث المِقْدامِ بنِ معدي كرب رضي الله عنه. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترمذي» (٢/ ٢٤٠) وفي «السلسلة الصحيحة» (٧/ ١/ ٦٤٧) رقم: (٣٢١٣)].

هذا، وقد وَصَف اللهُ تعالى الحُورَ العِينَ بصفاتٍ ذاتيةٍ وحاليةٍ مع أزواجهنَّ كريمةٍ ومتعدِّدةٍ في مَواضِعَ مِنَ القرآن الكريم أذكر منها:

١ ـ أنَّ الحور العين قاصراتُ الطَّرْف على أزواجهنَّ، لا يرفعن رؤوسهنَّ ولا جفونهنَّ لغيرهم، وهنَّ على غايةٍ مِنَ العفَّة والحُسْن وشدَّةِ حُبِّهنَّ لأزواجهنَّ مِنْ دون ميلٍ لغيرهم؛ قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الصافَّات]، وقال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن]، فليسَتِ الحُورُ العِينُ كنساء الدنيا يحرِّكْنَ جفونهنَّ ويرفعن رؤوسَهنَّ فينظُرْنَ مِنْ هنا وهناك في كُلِّ الجهات، ولَسْنَ ـ أيضًا ـ بولَّاجاتٍ ولا خرَّاجاتٍ ولا طوَّافاتٍ في الطُّرُقات والشوارع، بل هنَّ مقصوراتٌ على أزواجهنَّ ومحبوساتٌ في الخيام حَبْسَ تنعيمٍ وتكريمٍ وصيانةٍ، لا حَبْسَ إهانةٍ وشقاءٍ وتعذيبٍ؛ قال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ [الرحمن]،=

....

= وممَّا يدلُّ ـ أيضًا ـ على أنَّ مكان القصر هو الخيامُ: ما تَقدَّم مِنْ حديثِ أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا سِتُّونَ مِيلًا، لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُ فَلَا يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا**» [انظر: (ص ٣٧٤)].

٢ ـ أنَّ الحُورَ العِينَ أترابٌ أي: شابَّاتٌ جميلاتٌ متماثلاتٌ في السنِّ، وهنَّ مُستوِياتٌ في الحُسْن والجمال والكمال فلا فَرْقَ بينهنَّ، وهنَّ مُتآخِيَاتٌ مُتآلِفاتٌ مُتحابَّاتٌ؛ فلا حَسَدَ بينهنَّ ولا حِقْدَ ولا بُغْضَ ولا غيرةَ ولا ضغينةَ ولا عداوةَ؛ قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾﴾ [ص]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾﴾ [النبأ].

٣ ـ أنَّ الحُورَ العِينَ أبكارٌ لم يجامعهنَّ أحَدٌ قبل أزواجهم في الجنَّة لا إنسٌ ولا جانٌّ كما جاء في قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾ [الرحمن]، وقولِه تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ [الرحمن].

٤ ـ أنَّ الحُور العِينَ خيراتٌ في كُلِّ ما يتَّصِف بالخيرية في صفاتهنَّ وأخلاقهنَّ وشِيَمِهنَّ، وهنَّ حِسانٌ في كُلِّ ما يتَّصِف بالحُسْن في وجوههنَّ وأجسادهنَّ وأشكالهنَّ وألوانهنَّ؛ فهُنَّ المتحبِّباتُ المتودِّداتُ إلى أزواجهنَّ بالدلال وحُسْن الكلام والحلاوة والظرافة مع حُسْن التبعُّل الذي لا اعوجاجَ فيه ولا سُوءَ أخلاقٍ،=

....

= بل هنَّ في منتهى الكمال والجمال والدلال، وغاية في الحُسْن الخَلْقيِّ والخُلُقيِّ؛ قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الرحمن]، وقال تعالى: ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾﴾ [الواقعة]، فالمرأةُ العَرِبةُ هي المتحبِّبة لزوجها المتودِّدةُ له أي: حسنةُ التبعُّلِ لزوجها، ويدلُّ على صفاتِ تودُّدِ نساءِ الجنَّة لأزواجهنَّ: قولُه ﷺ: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ لَسُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: «وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»، فَيَقُولُونَ: «وَأَنْتُمْ ـ وَاللهِ ـ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»**» [أخرجه مسلمٌ في «الجنَّة وصِفَةِ نعيمها وأهلها» (١٧/ ١٧٠) بابٌ في سوق الجنَّة وما ينالون فيها مِنَ النعيم والجمال، مِنْ حديثِ أنس بنِ مالكٍ رضي الله عنه]، وقولُه ﷺ: «**ثُمَّ يَدْخُلُ بَيْتَهُ، فَتَدْخُلُ عَلَيْهِ زَوْجَتَاهُ مِنَ الحُورِ العِينِ فَتَقُولَانِ: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَحْيَاكَ لَنَا وَأَحْيَانَا لَكَ»**» [أخرجه مسلمٌ في «الإيمان» (٣/ ٤٣ ـ ٤٤) بابُ أدنى أهلِ الجنَّةِ منزلةً فيها، مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه].

• **ثالثًا: حال أهل الجنَّة مع غيرهم مِنَ الغلمان والولدان المخصوصين لخدمتهم**؛ فإنَّ لهم مُطْلَقَ التصرُّف في خَدَمِهم بالائتمار والاستخدام، وإنَّ طوافهم بأهل الجنَّة بأنواع كؤوس الشراب والفواكه والتُّحَف والطعام في تواصلٍ دائمٍ غير معطَّلِين، بل منثورين ومبثوثين في الخدمة، وقد تَقدَّم أنواعُ الشراب والطعام والفواكه التي يُطافُ بها في آنيةٍ مِنْ صِحافٍ وكؤوسٍ وأباريقَ ونحوِها، [انظر: (ص ٣٨١، ٣٨٣، ٣٩١)].

والغلمان: جمعُ غلامٍ، وهو مَنْ كان في سنٍّ يُقارِبُ البلوغَ، والغلمانُ هم الولدان،=

= وهُمْ خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ الله تعالى يُنْشِئُهم في جنَّاتِ النعيم كالحُورِ العِين ونحوِ ذلك ممَّا هو نعيمٌ لأهل الجنَّة، يقومون بخدمتهم فيها، وهم في سِنٍّ واحدةٍ لا يزيدون عليها؛ فلا يَكْبَرون مع الأيَّام، ولا يَهْرَمون مع السنين، ولا يتغيَّرون مع الأزمنة، بل هم ـ إلى أبد الآباد ـ مخلَّدون خُلِقوا للبقاء، ولا يتحوَّلون عن خدمةِ أهل الجنَّة، [انظر: «تفسير القرطبي» (١٧/ ٦٩)].

وقد وَصَفهم اللهُ تعالى باللؤلؤ في البياض والبهاء والصفاءِ الحَسَن وجمالِ المنظر، كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور]، وقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة]، وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإنسان].

وهؤلاء الولدان مِنْ خَدَمِ أهل الجنَّة لا يبتغون ـ مِنْ وراءِ خدمتهم لهم ـ حظوظَ النفس كما هو شأنُ غلمان الدنيا، وإنما طوافُهم لمنفعةِ أهل الجنَّة، وخدمتُهم خالصةٌ لهم بما يَكْفُلُ لهم كمالَ الراحةِ وتمامَ السعادة ودوامَ النعيمِ المُقيم.

• رابعًا: تخاطُبُ أهلِ الجنَّة فيما بينهم بالتحيَّة والإكرام؛ فلا يسمعون إلَّا قولًا سارًّا وكلامًا حسنًا مِنَ السلام وذِكْرِ الله والبشارة بكُلِّ خيرٍ مِنْ إخوانهم في الجنَّة وما يُدْخِل السرورَ على نفوسهم، فلا يسمعون فضولَ الكلام ولا عبثًا ولا إثمًا ولا نقيصةً؛ فكلامُهم سالمٌ مِنَ اللغو والباطل والكذب والزور والبهتان وجميعِ الآفات، إلَّا قولًا سارًّا طيِّبًا يزيد في التحابب والتآخي والتآلف؛ لأنَّ الدار دارُ سلامٍ؛ فليس فيها إلَّا السلامُ بجميع معانيه، وقد جاءَتِ الآياتُ البيِّناتُ تُبيِّنُ هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾=

= [يونس: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥﴾ [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ٦٢﴾ [مريم]، وقوله تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ [الواقعة].

أمَّا نوع الكلام ومواضيعُه فتختلف بحسب الأحوال:

• فتارةً الحديث بينهم يجري على أيَّام الدنيا، وتذكُّرِ نِعَمِ الله تعالى عليهم: كما قال تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ٢٨﴾ [الطور].

• وتارةً تذكُّر مقابلةِ بعضِ الكُفَّار بعد دخوله النارَ والاطِّلاع عليه؛ قال تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٥٠ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُصَدِّقِينَ ٥٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ٥٣ قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ٥٤ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ٥٦ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ٥٧ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ٥٨ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ٥٩ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ٦٠ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ٦١﴾ [الصافات].

• ويأتي الحديثُ ـ حينًا ـ على ثناءِ أهلِ الجنَّة على الله تعالى بما أنعم عليهم مِنْ فضله، وذلك في مثلِ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ٣٤ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ٣٥﴾ [فاطر]. =

= • وحينًا آخَرَ يدور الكلامُ بين أهل الجنَّة وأهلِ النار في محاورةٍ بين أهل الحقِّ بعد ما وَجَدُوا ما وُعِدوا مِنْ ثوابٍ واستقرُّوا فيه، وبين أهل الباطل بعد ما وَجَدُوا ما أُوعِدوا مِنَ العقاب واستقرُّوا فيه، ومِنْ هذه المحاورة بينهما قولُه تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف]، وما تَقدَّم مِنْ قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]، وقولِه تعالى: ﴿إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدَّثِّر].

• خامسًا: حال أهل الجنَّة مع الملائكة الكرام، فإنَّ خزنة الجنَّة يستقبلون وفودَ الرحمن عند دخولهم مِنْ أبواب الجنَّة الرئيسة بالسلام وما تحتويه الكلمةُ مِنْ معنى السلامة مِنْ كُلِّ آفةٍ أو مكروهٍ أو أذًى، ويبشِّرونهم بالطِّيب ودخولِ الجنَّة والخلود في دار النعيم كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الزُّمَر]، فالملائكةُ ـ مع جلالة قَدْرِهم وعُلُوِّ شرفِهم وعِظَمِ منزلتهم ـ تتلقَّاهم بالترحاب وتحيِّيهم بالسلام، وتُثْني على صبرِهم على طاعةِ ربِّهم في الدنيا، وتهنِّئهم بالإقامة والكرامة والنعيم المُقيم الدائم الذي لا يزول أبدًا؛ قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ =

= عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد].

● **سادسًا: حال أهل الجنَّة مع ربِّهم تعالى،** وتنعُّمُهم بأعلى نعيمِ الجنَّةِ وأعظمِه على الإطلاق وهو رؤيتُهم ربَّهم تَبارَكَ وتعالى، وذلك منتهَى أمانيِّهم وأعلى نعيمِهم وأسمَى غاياتِهم، وقد تَقدَّم إيرادُ إجماعِ أهل السنَّة مُرْفَقًا بمُستنَدِه مِنَ الكتاب والسنَّة على ثبوت رؤية المؤمنين لربِّهم تعالى في الجنَّة؛ فلا نعيمَ يُضاهيهِ، بل هو غايةُ مُرادِ أهل الجنَّة ومطلوبهم، [انظر: (ص ٣٦٤)].

وممَّا يتشرَّف به أهلُ الجنَّة أهلُ محبَّةِ الله تعالى ورضوانه ـ أيضًا ـ: سلامُ الله تعالى عليهم ومخاطَبَتُه لهم، ولا يخفى أنَّ في سلام الله تعالى على أهل الجنَّة ـ مع أنه ربُّهم وخالقُهم ومالكُهم وسيِّدُهم ـ مِنَ التشريف والتكريم والتعظيم والسلامة التامَّة مِنْ جميع الوجوه؛ فهي تحيَّةُ اللهِ تعالى الربِّ الرحيم الكريم ـ بلا واسطةٍ ـ لأصفيائه وأحِبَّائه؛ فهي مِنْ أكملِ المطالب في الجنَّةِ وأعظمِها، ليس فوقها تحيَّةٌ يُنعَّمون بها بعد رؤية الله تعالى والنظرِ إلى وجهه الكريم؛ قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس]، قال ابنُ أبي العزِّ رحمه الله في [«شرح الطحاوية» (١٨٣)]: «فأفضلُ نعيمِ أهل الجنَّة: رؤيةُ وجهِه تَبارَكَ وتعالى وتكليمُه لهم؛ فإنكارُ ذلك إنكارٌ لروح الجنَّة وأعلى نعيمِها وأفضلِه الذي ما طابَتْ لأهلها إلَّا به».

وممَّا يدلُّ ـ أيضًا ـ على تكليم الله تعالى لأهل الجنَّة ومخاطبتِه لعباده الصالحين في الجنَّة دارِ النعيم: قولُه ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟» فَيَقُولُونَ: «أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا**=

= الجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟» قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ» [تقدَّم تخريجه مِنْ حديثِ صُهَيْبِ بنِ سِنان رضي الله عنه، انظر: (ص ٣٦٤)]، وقولُه ﷺ: «إِنَّ اللهَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ـ يَقُولُ لِأَهْلِ الجَنَّةِ: «يَا أَهْلَ الجَنَّةِ»، فَيَقُولُونَ: «لَبَّيْكَ ـ رَبَّنَا ـ وَسَعْدَيْكَ»، فَيَقُولُ: «هَلْ رَضِيتُمْ؟» فَيَقُولُونَ: «وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟» فَيَقُولُ: «أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ»، قَالُوا: «يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟» فَيَقُولُ: «أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»» [تقدَّم تخريجه مِنْ حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه، انظر: (ص ٣٦٣)].

وقد بوَّب البخاريُّ في «صحيحه» (١٣/ ٤٨٧) بابًا عن كلام الربِّ عزَّ وجلَّ مع أهل الجنَّة وساق فيه حديثين.

• سابعًا: إذا تَحقَّق لأهل الجنَّةِ ما وَعَدهم اللهُ به مِنْ حُسن ثوابٍ وكريم جزاءٍ في دار النعيم، وما أكرمهم به مِنْ كرامته وفضلِه، وما أعدَّه اللهُ لهم في الجنَّة ممَّا لا عينٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر على قلبِ بشرٍ، وما صَرَفه عنهم مِنْ مُهينِ العذاب وأليمِ العقاب، وما أَذهبَ عنهم مِنَ الحزن والتعب والألم؛ حَمِدوا اللهَ تعالى على نعمائِه ورحمته، وما تَفضَّل عليهم به مِنْ جوده وكرمِه في جنَّات النعيم، وشَكَروه على توفيقه لهم للإيمان الصحيح والعمل الصالح؛ إذ لولا فضلُ الله ورحمتُه لَمَا كانَتْ لهم هدايةٌ ولا توفيقٌ؛ لذلك كان خاتمةُ كلامِهم ودعواهم ـ في كُلِّ موضعٍ وموطنٍ ـ الشكرَ لله تعالى وحَمْدَه على سابغِ نِعَمِه وإحسانه وإكرامه لهم وجودِه عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ =

....

= لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس]، فالآيةُ تدلُّ على أنَّ الله تعالى هو المُستحِقُّ للحمد في جميع الأحوال والأزمنة والأمكنة في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأنَّ أهل الجنَّة يكون منهم هذا الحمدُ والثناءُ، فيُلْهَمون التحميدَ والتسبيحَ تُنعَّمُ به الأنفسُ وتتلذَّذ به وتُضاعَفُ عليهم نِعَمُ اللهِ تعالى ويزيدهم اللهُ مِنْ فضله بلا انقضاءٍ، [انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤/ ٣٣٠)]، وقد تَقدَّم عن النبيِّ ﷺ أنَّ أهل الجنَّة يُلْهَمون التسبيحَ والتحميد كما يُلْهَمُ البشرُ النَّفَسَ، [انظر: (ص ٣٨٤)].

وممَّا يدلُّ ـ أيضًا ـ على أنَّ أهل الجنَّة يكون منهم الحمدُ والثناءُ على الله تعالى الذي غَفَر ذنوبَهم، وصَدَق معهم وَعْدَه على ألسنةِ رُسُله الكرام، وجَعَل لهم الجنَّةَ أرضَ ميراثٍ، ينزلون فيها أين شاءوا، ويُنعَّمون فيها حيث أحبُّوا وأرادوا، وهم في أمان الله التامِّ لهم، لا تُصيبُهم آفةٌ ولا ينالهم حزنٌ ولا مكروهٌ، ولا يلحقهم=

= أذى ولا ضررٌ: قولُه تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الزُّمَر].

تنبيهٌ مُهِمٌّ:

وجديرٌ بالتنبيه أنَّ ما ذُكِر مِنْ صفات الجنَّة وأحوالِ أهلها، إنما ذُكِرَتْ مِنْ باب تقريبِ معاني الأشياء لأذهان أهل الأرض، والغرضُ مِنْ ذلك هو أَنْ يَستحضِرَ الإنسانُ أقصى ما يُطيقُه مِنْ صُوَرِ اللَّذَّة والنعيم، الذي يملك الإنسانُ فيه تذوُّقَه في الحياة الدنيا.

أمَّا حقيقةُ الجنَّةِ دارِ النعيم وكُنْهُها فلا تُعْلَم إلَّا في الدار الآخرة لمَنْ يُكْرِمه اللهُ تعالى بفضلٍ منه ورحمةٍ؛ لقوله ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، ذُخْرًا مِنْ بَلْهِ مَا أُطْلِعْتُمْ عَلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [السجدة] [تقدَّم تخريجه، انظر: (ص ٣٥٧)].

نسأل اللهَ الرحيمَ، ربَّ العرش العظيم، بوجهه الكريم، أَنْ يجعلنا مِنْ أهل الجنَّة دارِ النعيم، ويُكْرِمَنا برضوانه وبرؤيته سبحانَه ومخاطبتِه، والشوقِ إلى لقائه في غيرِ ضرَّاءَ مُضِرَّةٍ ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ.

اللَّهُمَّ وفِّقْنا لطاعتك، واجْعَلْنا مِنْ أهل رحمتك، وارْزُقْنا ممَّا ترزق به عِبادَك الصالحين في دارِ كرامتك ورضوانك، إنك بالإجابة جديرٌ، وعلى كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟[(١)] فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود]، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى][(٢)]: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأعراف]، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى][(٢)]: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٩؛ المرسلات: ٤٣]، [وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى][(٣)]: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة] اهـ[(٤)].

[﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات]][(٥)]، ....

---

(١) «م.ر.ب»: «سَعِدُوا»، وهي قراءةُ نافعٍ.

(٢) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ».

(٣) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ»، و«تعالى» ساقطةٌ مِنْ «م.ف».

(٤) «م.ف»: «انتهى».

(٥) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ر.أ».

وخَتَم المصنِّف رحمه الله رسالتَه العَقَدية بما خَتَم اللهُ به سورةَ الصافَّات؛ لِمَا فيها مِنْ تنزيهِ الله نَفْسَه مِنَ النقص والعيب، وتقديسِها وتبرئتِها عن افتراء الظالمين المكذِّبين، وعمَّا يَصِفُه به الكافرون المُعْتَدون، تعالى اللهُ وتَنَزَّه وتَقدَّس عن قولهم عُلُوًّا كبيرًا. «ولَمَّا كان التسبيحُ يتضمَّن التنزيهَ والتبرئة مِنَ النقص بدلالة المطابقة، ويَستلزِمُ إثباتَ الكمال، كما أنَّ الحمد يدلُّ على إثباتِ صفات الكمال مطابَقةً، ويستلزم التنزيهَ مِنَ النقص؛ قَرَن بينهما في هذا الموضعِ وفي مواضعَ كثيرةٍ مِنَ القرآن» [«تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٥)]. =

= كما قَرَن اللهُ تعالى ـ في هذا الموضعِ مِنَ الآية ـ ثناءَه على نَفْسِه بالسلام على عِبادِه المُرسَلين المُصطفَيْن الأخيارِ لسلامةِ ما قالوه؛ فهُمُ الذين بيَّنوا دِينَ اللهِ الحقَّ وتوحيدَه الخالصَ حقَّ البيان، وقاموا بواجبِ التبليغِ خيرَ قيامٍ، وقد ذَكَر اللهُ تعالى هذا الاقترانَ في غيرِ هذا الموضعِ مِثْلَ قولِه تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩]، ويُشْبِه ذلك حَمْدَ أهلِ الجنَّة لله عزَّ وجلَّ على ما تَفضَّل به عليهم وشُكْرَهم له في قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ [يونس] [انظر: «أضواء البيان» للشنقيطي (٦/ ٦٩٨)]، هذا مِنْ جهةٍ.

ومِنْ جهةٍ أخرى، جَعَل المصنِّف رحمه الله هذه الآياتِ آخِرَ كلامِه وخاتمةَ رسالتِه؛ عملًا بحديثِ أبي إسحاق عن الشعبيِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سرَّه أَنْ يكتال بالمكيال الأَوْفى مِنَ الأجر يومَ القيامة فلْيَقُلْ آخِرَ مجلسِه حين يريد أَنْ يقوم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات]»، غير أنَّ سنده ضعيفٌ لانقطاعه، [انظر: «السلسلة الضعيفة» للألباني (٦٥٣٠)]، ورُوِي مِنْ فعلِه ﷺ بسندٍ واهٍ جدًّا عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه أنه ﷺ كان إذا أراد أَنْ يسلِّم قال: «فذكره» ثمَّ يسلِّم، قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله في [«تفسيره» (٤/ ٢٥)]: «إسناده ضعيفٌ»، وقال الألبانيُّ في [«السلسلة الضعيفة» رقم: (٤٢٠١)]: «ضعيفٌ جدًّا».

ورُوِي مِنْ وجهٍ آخَرَ متَّصِلٍ موقوفًا عن عليٍّ رضي الله عنه قال: «مَنْ أحبَّ أَنْ يكتال بالمكيال الأَوْفى مِنَ الأجر يومَ القيامة فلْيَكُنْ آخِرُ كلامه في مجلسه: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ =

[وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ](١).

= ﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾ [الصافات]»، وهذا الوجه الموقوف لا يقوِّي الحديثَ ـ كما قال الألبانيُّ ـ لأنَّ فيه: «أصبغَ بنَ نباتةَ»: متروكٌ، و«ثابتَ بنَ أبي صفيَّة»: ضعيفٌ.

والمحفوظ عن النبيِّ ﷺ في كفَّارة المجلس إنما هو قولُه: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ» [أخرجه أبو داود في «الأدب» (٥/ ١٨٢) بابٌ في كفَّارة المجلس، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٤٢٠، ٤٢٥)، مِنْ حديثِ أبي برزةَ الأسلميِّ رضي الله عنه، والترمذيُّ في «الدعوات» (٥/ ٤٩٤) بابُ ما يقول إذا قام مِنَ المجلس، مِنْ حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه]، فإنَّ في ذلك عِدَّةَ أحاديثَ صحيحةٍ خرَّجها الحافظ المنذريُّ في «الترغيب» (٢/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، [انظر: «السلسلة الصحيحة» (٧/ ١/ ٤٩٣) رقم: (٣١٦٤)].

(١) ما بين المعقوفين ساقطٌ مِنْ «م.ف».

هذا، وقد فرغتُ مِنْ شرحِ «العقائد الإسلامية» والتعليقِ عليها بالقبَّة ـ الجزائر، بعد الزوال مِنْ يوم الثلاثاء ٠٦ مِنْ ذي القعدة ١٤٣٧هـ الموافق لـ: ٠٩ أوت ٢٠١٦م.

فالحمد لله الذي ـ بنعمته ـ تتمُّ الصالحاتُ الباقيات، والشكرُ له على ما يسَّر لي مِنْ إتمامِ هذا العملِ المُبارَك، والثناءُ عليه وَحْدَه لا شريكَ له؛ فلا تُحصى نِعَمُه علينا ولا تُعَدُّ، ولا نحصي ثناءً عليه؛ فهو ـ سبحانه ـ كما أثنى على نفسه.

واللهَ أسأل أَنْ ينفعنا بعلم السابقين، ويحشرَنا مع الصالحين، ويغفرَ لنا أجمعين،=

....

= وأَنْ يُضاعِفَ أجرَ الثواب لمؤلِّفه ويغفرَ ذنوبَه، ويجعلَنا وإيَّاه مِنْ أهل رضوانه الفائزين برؤيته ـ سبحانه ـ في دارِ كرامته ونعيمِه.

وآخِرُ دعوانا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّدٍ، وعلى آل بيته وأزواجه وذُرِّيتِه الطاهرين، وصحابتِه الراشدين، وإخوانِه المهديِّين أجمعين.

أبو عبد المعزّ محمّد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر(١)

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
※ مقدِّمة	٥
※ جدول رموز النُّسَخ المُعتمَدة في المقابلة	١٥
※ ترجمة الشيخ عبد الحميد بنِ باديس رحمه الله	١٦
※ متن أبواب أركان الإيمان (الملائكة - الكُتُب - الرُّسُل - اليوم الآخِر)	٣١
※ باب الإيمان بالملائكة عليهم السلام	٤٩
[فصل: بيانُ حقيقةِ الملائكة وصِفَاتِهم وأعمالهم]	٥١
• الإيمان المُجمَلُ بالملائكة يتضمَّن:	٥٢
١ - الإقرار بوجودهم على وجه الحقيقة لا المجاز	٥٢
٢ - إنزالهم منازِلَهُم التي أنزلهم اللهُ	٥٢
٣ - الإقرار بما يثبت في حقِّهم في الكتاب والسنَّة	٥٣
فائدة: مَلَك الموت غيرُ مصرَّحٍ باسمه في الكتاب والسنَّة	٥٤
• الصفات الخَلقية للملائكة:	٥٨
فائدة: لا يُوصَفون بذكورةٍ ولا أنوثةٍ	٥٨
أوَّلًا: ضخامة خِلْقَتِهم وعِظَمُ أجسامهم	٥٩
ثانيًا: أجنحة الملائكة وعِظَمُ سرعتهم وحُسْنُ منظرهم	٦٠

ثالثًا: عدم حاجتهم للأكل والشرب وغيرهما ٦١
رابعًا: قدرتهم على التشكُّل والتمثُّل ٦٢
خامسًا: علمُهم وكلامُهم وانتفاء المَلَل عنهم ٦٣
• الصفات الخُلقية للملائكة: ٦٤
أوَّلًا: صفة الكرم والبرِّ ٦٤
ثانيًا: صفة الحياء ٦٥
ثالثا: صفة التواضع للحقِّ والخلق ٦٥
• الحكمة مِنْ خَلْق الملائكة ٦٦
• عبادات الملائكة: ٦٧
أوَّلًا: عبادات الملائكة المحضة: ٦٧
أ ـ عبادات قلبية ٦٧
ب ـ عبادات قولية ٦٨
جـ ـ عبادات فعلية ٧٣
ثانيًا: أعمال الملائكة الكرام: ٧٥
١ ـ أعمال الملائكة المتعلِّقة بالكون ٧٥
٢ ـ أعمال الملائكة المتعلِّقة بالإنسان ٧٩
• ثمرات الإيمان بالملائكة وفوائدُه ٩٠
❊ باب الإيمان بكتب الله تعالى ٩٣
[فصل: معنى الإيمان بالكُتُب المنزلة ومقتضَياتُه] ٩٥
• أصناف الناس حِيالَ الكُتُب السماوية: ٩٦
الصنف الأوَّل: أتباع الرُّسُل ٩٦

الصنف الثاني: أعداء الرُّسُل ٩٧
الصنف الثالث: المؤمنون ببعض الكتب الكافرون ببعضها ٩٧
• مِنْ مُقتضَيات الإيمان بالكُتُب: ٩٨
- التصديق الجازم بأنها كلامُ الله المنزل ٩٨
- التصديق بأنَّ الله أوجب العملَ بكُلِّ ما فيها مِنَ الشرائع على الأُمَم التي أُنْزِلَتْ عليهم ٩٩
- أنَّ الله جَعَل الكُتُبَ الأولى خاصَّةً وموقوتةً بزمنٍ مُعيَّنٍ ١٠٢
[فصل: حفظُ اللهِ القرآنَ دونَ غيرِه] ١٠٥
• القرآن كلام الله منزَّلٌ غيرُ مخلوق ١٠٥
• منزلة القرآن بين الكُتُب ١٠٦
• تعهُّد الله بحفظ القرآن دون غيره ١٠٦
[فصل: القرآن هو الهداية العامَّة للبشر] ١١١
• صُوَرٌ مِنْ إحكام آيات القرآن ١١٣
[فصل: الإيمان بالسُّنَّة إيمانٌ بالقرآن] ١١٨
• السنَّة المطهَّرة وحيٌ مُستقِلٌّ بالتشريع ١١٩
• إجماع العلماء على أنَّ السنَّة مُستقِلَّةٌ بتشريع الأحكام ١٢٢
تنبيه: حديثُ الأمر بعرض الأحاديث على القرآن موضوعٌ ١٢٥
• مراتب السنَّة باعتبارِ علاقتها بالقرآن: ١٢٧
المرتبة الأولى: السنَّة المقرِّرة لحكم القرآن ١٢٧
المرتبة الثانية: السنَّة المبيِّنة لحكم القرآن ١٢٧
المرتبة الثالثة: السنَّة المُستقِلَّة بشرعٍ ابتدائيٍّ ١٢٨
المرتبة الرابعة: السنَّة الناسخة لحكم القرآن ١٢٩

فائدة: لا يُوجَدُ مثالٌ لوقوع نسخِ القرآن بخبر الواحد ١٢٩

• علاقة السنَّة بالقرآن علاقةٌ تكاملية ١٣١

※ باب عقائدِ الإيمانِ بالرُّسُلِ عليهم الصلاةُ والسلام ١٣٥

[فصل: الحكمة مِنْ بعثِ الرُّسُل وصفةُ اختيارهم] ١٣٧

• الفرق بين الرسول والنبيِّ ١٣٧

• الرسالة أو النبوَّةُ منحةٌ إلهيةٌ ١٤١

• الحكمة مِنِ اختصاص النبوَّة بالرجال ١٤٤

• حاجة البشرية إلى الرسالة الإلهية ١٤٥

• تفاضُلُ الرُّسُل والأنبياء ١٤٩

فائدة: الكفر بواحدٍ مِنَ الأنبياء أو الرُّسُل يُعَدُّ كفرًا بجميعهم ١٥٠

[فصل: الرُّسُل حجَّةُ الله] ١٥٤

• مَهَمَّة الرُّسُل والأنبياء ١٥٧

• الرُّسُل والأنبياء هم النموذجُ المثاليُّ للكمال البشري ١٥٩

[فصل: تأييد الله لهم بالبيِّنات والآيات] ١٦٤

• محاور المعجزات ١٦٩

تنبيه: الفرق بين آيات الأنبياء وخوارق السحرة وغيرهم ١٧٢

تنبيه: الفرق بين المعجزة والكرامة ١٧٣

[فصل: تمام عبوديَّتهم مع عُلُوِّ مرتبتهم] ١٧٩

• تحريم الغُلُوِّ في الأنبياء ١٨١

• التحرُّز مِنَ الاشتباه الذي قد يحصل ما بين حقِّ الله وحقِّ الرسول ١٨٣

• مِنْ علاماتِ محبَّة الله تعالى ١٨٧

• وساطة الرُّسُل بين الله وعبادِه على قسمين: جائزٌ ومحرَّمٌ ١٩١

• تفاوت الأنبياء والرسل في فضلهم ١٩٢
[فصل: تأدُّبُنا معهم فيما عُوتِبوا عليه واستغفَروا منه] ١٩٨
• تفصيلُ مسألةِ عصمة الرُّسُل: ٢٠٠
أوَّلًا: العصمةُ ثابتةٌ في تحمُّل الرسالة والتبليغ ٢٠٠
ثانيًا: العصمة مِنْ كبائر الذنوب ٢٠١
ثالثا: عوارضُ بشريةٌ لا تقدح في العصمة: ٢٠٢
١ ـ عارض الخوف ٢٠٣
٢ ـ عارض الغضب ٢٠٣
٣ ـ عارض النسيان والسهو والجحود والخطإ ٢٠٤
٤ ـ عارض الخطإ في الاجتهاد في المصالح الدنيوية وأمور الحرب والقضاء ٢٠٦
٥ ـ عُرْضة الأنبياء والرُّسُل لارتكاب الصغائر مع العصمة مِنَ الإصرار عليها ٢٠٩
ذِكْرُ شُبَه المانعين لوقوع الصغائر مِنَ الأنبياء وتفنيدُها ٢١٤
[فصل: ختمُ الرسالة وعمومُها] ٢١٨
فائدة: لم يكن في الجنِّ نبيٌّ وإنما كان فيهم النُّذُرُ ٢٢٥
• خلافُ العلماء في شمولِ رسالتِه ﷺ الملائكةَ الكرام ٢٢٦
• اختصاص النبيِّ ﷺ بالمعجزة العُظْمى والآيةِ الخالدة: القرآن ٢٢٨
• واجبات الأمَّة تُجاهَ النبيِّين عامَّةً وخاتمِ المُرْسَلين خاصَّةً: ٢٣٨
١ ـ وجوب الإيمان بالأنبياء والمُرْسَلين ٢٣٨
٢ ـ وجوب الاعتقاد بأنَّ الرسالة أو النبوَّةَ مِنْحةٌ إلهية ٢٤٠

٣ ـ وجوب تصديقهم فيما أيَّدهم اللهُ به مِنَ البيِّنات والآيات ٢٤١

٤ ـ وجوب محبَّة النبيِّ ﷺ ـ وسائرِ الأنبياء والمُرْسَلين ـ وطاعتِه ٢٤١

٥ ـ وجوب التأدُّب مع النبيِّ ﷺ ٢٤٤

٦ ـ لزوم الابتعاد التامِّ عن أيِّ إيذاءٍ له ﷺ ٢٤٦

❊ باب عقائد الإيمان باليومِ الآخِر ٢٥١

[فصل: انتهاء الوجود الدنيويِّ وحدوثُ الوجود الأخروي] ٢٥٣

• أَوْجُهُ عنايةِ القرآن بذكر اليوم الآخِر ٢٥٥

• اختلاف العلماء في عدد النفخات في الصور وتحقيقُ الراجح ٢٥٨

[فصل: المَعَادُ والبعث] ٢٦٤

• أَوْجُهُ الاستدلال في القرآن على البعث: ٢٦٥

ـ الاستدلال بالنشأة الأولى ٢٦٥

ـ الاستدلال بتحويل الإنسان مِنْ حالٍ إلى حال ٢٦٦

ـ الاستدلال بالاستيقاظ مِنَ الوفاة الصغرى وهي النوم ٢٦٨

ـ الاستدلال بكمال علمه وقدرته على خَلْق العوالم ٢٦٨

• مِنْ أحداثِ عَرَصاتِ يوم القيامة: ٢٧٤

ـ حشر الخلائق ٢٧٤

ـ حشر الكافرين على وجوههم ٢٧٤

ـ دُنُوُّ الشمس مِنْ رؤوس الخلائق ٢٧٥

ـ حوض النبيِّ ﷺ ٢٧٦

ـ مجيء اللهِ تعالى لفصل القضاء بين خَلْقه ٢٧٨

ـ تطايُرُ الصحف ونشرُ الكُتُب ٢٨٠

ـ وضع الموازين بالقسط والعدل ٢٨١
• تقرير مذهب أهل السنَّة في مسألة الإيجاب على الله تعالى ٢٨٢
[فصل: وزنُ الأعمال والجزاءُ عليها] ٢٨٦
• تفنيد قول المعتزلة في إنكار الميزان ٢٩١
• اختلاف العلماء في كون الميزان واحدًا أو متعدِّدًا ٢٩١
• بحث مسألة الموزون ٢٩٣
• مسألة وزن عمل الكافر ٢٩٧
[فصل: الصراط] ٣٠٣
• الأدلَّة القرآنية المُثْبِتة للصراط ٣٠٦
• الاختلاف في وصف الصراط وكيفيةِ المرور عليه ٣١١
• الاختلاف في مرور جميع الخَلْق على الصراط ٣١٤
• أدلَّة إثبات القنطرة ٣١٨
[فصل: دار العذاب] ٣٢٣
• الجنَّة والنار مخلوقتان قبل خَلْق الخَلْق ٣٢٦
• أبدية الجنَّة والنار وعدمُ فَنائهما ٣٢٩
• المُخالِفون لأهل السنَّة في أبدية الجنَّة والنار ٣٣٥
تنبيه: لا يصحُّ إطلاقُ نسبة القول بفَناءِ النار إلى ابنِ تيمية رحمه الله ٣٣٧
• أهوال دار العذابِ وهيئاتُ أهلها ٣٣٨
ـ وصف النار ٣٣٨
ـ وصف حال المعذَّبين في النار ٣٤٤
• توجيه الاستثناء الوارد في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود: ١٠٧] ٣٥٢

• إجماع أهل السنَّة على عدم تخليدِ مَنْ كان في قلبه شيءٌ مِنَ الإيمان في النار..... ٣٥٥
[فصل: دارُ النعيم].. ٣٥٧
• ذِكْرُ أسماء دار النعيم.. ٣٥٨
• إثبات رؤية المؤمنين لربِّهم يومَ القيامة.. ٣٦٤
• سِرُّ خلودِ أهل الجنَّة في الجنَّة.. ٣٦٧
• صفة الجنَّة ورزقُها وحالُ أهلها.. ٣٦٨
ـ المحور الأوَّل: صفة الجنَّة ومكوِّناتُها.. ٣٦٩
أوَّلًا: سَعَةُ الجنَّةِ وطِيبُ رِيحِها وعِظَمُ أبوابها وشجرِها.. ٣٦٩
ثانيًا: مساكن الجنَّة.. ٣٧٢
ثالثًا: غُرَف الجنَّة.. ٣٧٣
رابعًا: خيام الجنَّة.. ٣٧٤
خامسًا: روضات الجنَّات.. ٣٧٤
سادسًا: عيون الجنَّة.. ٣٧٥
سابعا: أنهار الجنَّة.. ٣٧٦
تنبيه: الكوثر غير الحوض.. ٣٧٨
ـ المحور الثاني: رزقُ الجنَّةِ وتنوُّع نعيمِها.. ٣٨٠
الفقرة الأولى: رزقُ الجنَّة.. ٣٨٠
أوَّلًا: أنواع أنهار الجنَّة.. ٣٨٠
ثانيا: ثمار الجنَّة.. ٣٨١
ثالثًا: طعام الجنَّة وشرابُها.. ٣٨٣
الحكمة مِنْ تنوُّع أنواع طعام أهل الجنَّة وشرابِها مع إمكان
الاستغناء عنها.. ٣٨٦

الفقرة الثانية: تنوُّع نعيم الجنَّة ٣٨٦
أوَّلًا: لباس أهل الجنَّة ٣٨٦
ثانيًا: فُرُش أهل الجنَّة ٣٨٩
ثالثًا: أرائك أهل الجنَّةِ وسُرُرُهم ٣٩٠
رابعًا: آنيةُ أهلِ الجنَّة ٣٩١
ـ المحور الثالث: حال أهل الجنَّة فيها ٣٩٣
أوَّلًا: عدم اختلاف أهل الجنَّةِ خِلقةً وخُلُقًا ٣٩٣
ثانيًا: ليس في الجنَّة أَعْزَبُ ٣٩٥
صفات الحُور العِين ٣٩٥
ثالثًا: حال أهل الجنَّةِ مع غيرهم مِنَ الغلمان والولدان خَدَمِهم ٣٩٨
رابعًا: تَخاطُبُ أهلِ الجنَّة فيما بينهم بالتحيَّة والإكرام ٣٩٩
خامسًا: حال أهل الجنَّة مع الملائكة الكرام ٤٠١
سادسًا: حال أهل الجنَّة مع ربِّهم تعالى ٤٠٢
سابعًا: حمدُ أهل الجنَّةِ ربَّهم على نَعْمائه ٤٠٣
• تنبيهٌ مُهِمٌّ: ذِكْرُ صفاتِ الجنَّةِ وأحوالِ أهلها هو مِنْ بابِ تقريب مَعاني الأشياء لأذهان أهل الأرض ٤٠٥
❊ ختمُ الرسالة بتسبيح الله والسلامِ على عباده المُرْسَلين وحمدِه ٤٠٦
❊ فهرس الموضوعات ٤١١